الإنسان والخلافة في الأرض

السفير
محمد أمين جبر

دار الشروق

الإنسان
والخلافة فى الأرض

السفير
محمد أمين جبر

دار الشروق

الطبعــة الأولـى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى الذين آمنـو بالحـق ... ورضـوا بـه ... نورا فى الطريق ،

وإلى الذيـن عـرفوا الحق ... واستيقنـوه ... ثباتا على الطريـق ،

وإلى الذين جهلوا الحق ... ولم يقدروه ... دعوة إلى الطريق ،

* * *

مقدمــة

كنت قد كتبت أصول هذا الكتاب عن الإنسان والخلافة فى الأرض منذ أعوام مضت . ثم أعدت النظر فيها بالتعديل ـ بالحذف والإضافة والتنقيح ـ منذ فترة قريبة ، وبعد عام من وضع الأصول ، حتى انتهيت إلى الموضوع الذى هو فحوى هذا الكتاب . إن هذه الدراسة تتناول بالضرورة آدم فى القرآن باعتبار أن الدراسة فى آدم هى الدراسة فى الإنسان العاقل وخصائصه وطبائعه وتركيبه العضوى العقلى أو العضوى الروحى الذى كان بداية ارتباط الأرض بالسماء عن طريق هذا الكائن الفريد الذى أوتى الإمكانات والقدرات النابعة من النفخة الروحية الربانية . إن دراسة آدم تتصل بدراسة الإنسان لأن فيها جوانب كثيرة متصلة بوجود الإنسان ذاته على الأرض باعتباره الخليفة فيها ، وخصائص هذا الوجود وتصوراته وأهدافه . وفيها جوانب كثيرة تدخل ضمن دراسة الإنسان وعلاقته بالله وبالكون ، وبالخير والشر ، وبالإرادة والاختيار ، وبالكد والمعاناة ، وبالبناء والتعمير ، وبالابتلاء والمسئولية عن الاعتقادات والأفعال ، وبالمعرفة والبحث عن الحقيقة ، وبمدى الارتباط بصور الهدْى الآتى من الإله للإنسان بواسطة المصطفَيْن من الأنبياء والمرسلين ، وباختصار : بعلاقة الإنسان بالحقيقة الهادفة لوجوده ذاته .

إن فهم معانى آدم هو مفتاح الوصول لدقائق وحقائق هذا التركيب المعجز الفريد لأول كائن حى مخلوق يستطيع أن يسلك طريق «الدين» فى الأرض التى استقر فيها مؤقتا لحين قيامة ساعة حساب الناس . وبفك رمز آدم يمكننا أن نفهم الإنسان وأن نسير معه فى رحلته الطويلة فى الأرض ، وهو يكدح من أجل استعمارها واستغلال بيئتها والبيئة المحيطة بها . كما يمكننا أن نلقى أضواء على هذه الرحلة منذ الخلق الأول من الطين واستقبال النفخة الروحية الربانية مرورا بأولى خطوات المعرفة فى طريق تمدن وحضارة الإنسان ، وحتى آخر هذه الخطوات التى حققها آدم حتى يومنا هذا . وخلال هذه الرحلة الطويلة سنلتقى بالإنسان مع العصر . . ومع تركيبه العضوى الروحى . . ومع آدم وتجربته . . ومع الإله الخالق . .

ومع العقل . . ومع القرآن . . ثم مع مستقبله فى الحياة الدنيا . . وكلها موضوعات هذا الكتاب عن الإنسان والخلافة فى الأرض .

إن كل ما أرجوه هو أن يكون فى هذه الدراسة نفع لأخوتى المسلمين ، وتبصرة لغير المسلمين من أخوتى فى الإنسانية . كما أسأل الله تعالى القدير أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه الكريم وأن يكون شفيعا لى ونصيرا يوم الدين . وأنبه القارئ إلى أن ما أصبت وجه الحق فيه فهو من توفيق الله ، وأن ما أكون قد أخطأت فيه فمن قصورى فى فهم آيات القرآن العظيم التى تمثل دائما الحق فى معانيها الظاهرة والباطنة ، يحوطها الجمال والجلال والكمال ، ويحفظها الله تبارك وتعالى من أن يأتيها الباطل من أى جانب .

وفى الختام أتوجه بالشكر إلى أخى الدكتور محمود عثمان أستاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر ، لتفضله بمراجعة هذا الكتاب وإبداء بعض التوجيهات القيمة التى راعيتها وأخذت بها ليخرج موضوع هذا الكتاب على ما هو عليه بين يدى القارئ .

وحسبى الله، وما توفيقى إلا بالله.

السفير

محمد أمين جبر

الفصل الأول
الإنســـان والعصـــر

القرآن والإنسان :

إذا كان أدم فى القرآن حقيقة فى الآدمية لبدايات من البشرية ، فإن الإنسان فى القرآن حقيقة فى الآدمية امتدادا مترقيا لهذه البشرية ، وهو جوهر الآدمية فى تميز ، أو خلود الآدمية فى وجود . ولذلك فإن دراسة آدم فى القرآن تتسع لتشمل الإنسان فى القرآن ، الكائن الوسط تركيبا ، القادر على وزن الوجود الطبيعى فى مادته وطاقته ، بعقله ، الوزن القسط فى ظل توازن نفسى نابع من خصائص الجسد والروح . ومع ذلك فيكاد يكون من المتفق عليه بين العلماء أن دراسات علم الإنسان - باعتبارها جزءا من علم الكائنات الحية - لم تبلغ من التقدم ذلك القدر الذى بلغته العلوم الطبيعية ، وأن الإنسان كائن يبلغ من التعقيد فى تركيبه درجة كبيرة يصعب معها القول إننا قد صرنا إلى فهم الإنسان فى مجموعه فهما كاملا . وقد لاحظ ، بحق ، الأستاذ محمد قطب الخطأ الذى انزلقت إليه معظم مدارس علم النفس الغربية حين أصرت على أن تفسر الكل الإنسانى من خلال نظرات جزئية معينة فى النفس الإنسانية ، تصلح مع ذلك لتفسير جوانب من هذه النفس أو إلقاء أضواء على بعض أغوارها التى يكتنفها الظلام . وعنده أنه « من الخطأ رد العدد الكبير من العمليات الفكرية إلى عامل أساسى مشترك مزعوم كالغريزة أو الروح أو الطموح الاقتصادى ، كما أنه من الخطأ اعتبار طريقة معينة واحدة هى الوسيلة الوحيدة المشروعة فى البحث النفسانى ، كنقاوة التحليل اللغوى بالنسبة لفلاسفة المنطق الإيجابيين ، والدين عند رجاله ، والتجربة الجمالية عند الفنانين ، وملاحظة العلاقات الظاهرية بين الحافز والاستجابة عند علماء السلوك ، وتفسير الأحلام عند فرويد والأساطير الهادية إلى أعماق النفوس عند أتباع يونج ومنطق هيجل الجدلى عند الماركسيين ، إلى غير ذلك . . . . » . وأخيرا يرى ماكسون : « خطأ تقبل النظريات على أنها حقائق قد أقيم الدليل على صحتها ، وخطأ إخضاع معلومات ليست دقيقة

أو كافية إلى تحليل رياضى دقيق . ولعل محاولة علم النفس وضع قاعدة تفسر سلوك الجنس البشرى بأكمله قد حققت للإنسان أسمى مطامحه . إلا أن هناك احتمالا ضئيلا فى أن تقلل عجرفته هذه من أن يتحقق ذلك الطموح فى صورة وشيكة . إذ لا توجد حتى الآن نظرة موحدة أو شاملة كما أنه ليس هناك قاعدة رياضية هائلة تكفى للإحاطة بجميع ضروب الخبرة البشرية . وكل ما لدينا هو عبارة عن خطوط غامضة لبعض العوامل المؤثرة فى سلوك الإنسان : سلوكه باعتباره عضوا فى نوع بيولوجى محدد ، وباعتباره فردا يتمتع بشعور ذاتى له طابع شخصى فريد ، وباعتباره عضوا مساهما فى المنظمة الاجتماعية . و(الشخصية) كما نفهمها اليوم هى مزيج من الفعاليات البيولوجية والذاتية أو الفكرية والحوادث الاجتماعية . »[1]

كما يرى مايرماكسون : «أن علم الشخصية لا يمكن ولا يجب أن يقتصر على التوسع والاجتهاد فى آراء فرويد ومن جاء عقبه مباشرة من المدارس المهمة فى التحليل النفسى : يونج - آدلر - راتك - فروم - سليفان ، وإنما يجب بإزائه الاستعانة بمصادر المعرفة الإنسانية كلها والنظر إلى الفرد مخلوقا معقد التركيب تداخلت فيه جميع مظاهر الحياة الطبيعية والاجتماعية والكيميائية والثقافية تداخلا يتعذر فصل بعضه عن بعض ، ومن ثم فلا يثق ماكس فى أى نظرية واحدة - مهما سمت - تحاول تفسير الشخصية الإنسانية على أنها دافع أو خاصية مفردة . ومع ذلك فلعله من الإنصاف أن نقرر هنا أن فرويد لم يحاول كتابة موضوع علم النفس بأكمله أو تقديم نظرية كاملة لحياة الإنسان النفسية عن طريق التحليل النفسى . ولقد انتهت مدارس علم النفس الغربية إلى إقامة تنظيم من الدولة غير متجانس أو متكيف مع حقيقة توحد الكيان الإنسانى والترابط داخل النفس الإنسانية بين الروح والجسد والترابط فيما يصدر عنهما من إشعاعات »[2] .

وليس غريبا أن يكون القرآن قد تناول موضوع آدم - باعتباره نواة الوجود الإنسانى فى الأرض - بذلك القدر من البيان المكرر والمفصل ، فآدم يمثل فى تركيبه وحدة المادة والفكر ، وهو كائن يدرك ما حوله من خلال الشعور الذاتى بوجوده المستقل .

والقرآن فى تناوله للإنسان ، يتناول ذلك التركيب المعقد الذى تتوحد فيه المادة والروح ، أو تتوحد فيه العضوية والنشاط العقلى وخصائصه من الإدراك والوعى والشعور والبيان والتصور . . إلخ . يتناول ذاتا تتصف بصفات يظهر معها نشاطها العضوى الذى تحركه طاقة عقلية أو روحية . القرآن يتناول كل مجالات النشاط الإنسانى سواء مايتصل منها بفكر

---

(١) محمد قطب : دراسات فى النفس الإنسانية .

(٢) ماير ماكسون : علم الشخصية .

الإنسان الباطن وسره ، أو ما يظهر من أنماط التصرفات والسلوكيات فى المجتمع الواحد وفى الأسرة الإنسانية الدولية . كما يتناول أغوار النفس الإنسانية بالكشف والتحليل ويبنى على أساسها توجيهاته الأخلاقية .

والقرآن حينما تناول الإنسان بهذا القدر من الاهتمام والتركيز ، فإنه تناوله ضمن الإطارات العريضة للفكرة القرآنية ذاتها التى تقوم فى إحدى خصائصها على الشمول . ولعل المعنى المستفاد من تقرير القرآن : ﴿ما فرَّطنا فى الكتاب من شىء﴾ هو هذه الشمولية للقرآن ، وليس إجهاد الفكر فى البحث عن تفصيلات كل علم أو معرفة أو تجربة أو اكتشاف أو فرض أو نظرية ، فى نصوص القرآن . وعلى هذا الأساس من الشمول ، ينبغى أن نفهم تقريرات القرآن عن الإنسان والنظرة إليه فى تركيبه الثنائى الطبيعة ، وسلوكه فى الحياة ، وحالاته النفسية والعقلية والروحية ، فردا وفى جماعة ، وذلك كما فى التقرير التالى : ﴿ ... هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [النجم : ٣٢] .

وسنعلم ـ وكما سيتبين من هذه الدراسة ـ أن القرآن قد ركز على إبراز الخصائص الطبيعية الأساسية فى الإنسان ، التى تقوم على وحدة الكيان الإنسانى الثنائى التركيب ، طين وروح أو جسد وعقل أو مادة وطاقة . ولو أن الإنسان ارتبط فى فكره وسلوكه الفردى والاجتماعى بالهدى القرآنى ، لاستطاع أن يحقق وحدة الوجود الإنسانى وتوازنه ـ مستندة إلى المعرفة الإلهية بالنفس الإنسانية وطبيعتها ـ فى شكل مجتمعات تحقق التوازن بين الدنيا والآخرة ، والتوازن فى الشخصية الفردية بين الجسد والروح ، فى ظل الإيمان بالله ، واستغلال الموارد والطاقات فى البيئة الكونية فى إطار من توجيهات الدين وقيمه الأخلاقية .

آدم فى القرآن هو المحور الأساسى لهذه الدراسة التى تمتد كذلك لنظرات قرآنية فى الله والكون والإنسان تستند إلى المعارف الحديثة دون أن تتناول تفصيلات الآراء الفلسفية التى تزخر بها المكتبة الإسلامية والمتصلة بالفكر الفلسفى الإسلامى القديم .

الفلسفة الإسلامية والتفكير العلمى :

ارتبطت الدراسات الإسلامية فى عصورها السابقة بنتاج فلسفى وعلمى لثقافات وحضارات مختلفة ، يونانية وفارسية وهندية ، أخرجت لنا تراثا زاخرا من الفلسفة المشائية الإسلامية والفلسفة الكلامية والفلسفة الإشراقية . ولكن لحقت بهذه الفلسفات أحيانا اتجاهات تخالف الفكرة القرآنية للتصور الاعتقادى ، مما دفع دارسى الفلسفة الإسلامية من المفكرين المعاصرين أو المحدثين ، إلى محاولة تنقيتها من البدع والشوائب التى علقت بها فيما لا يتفق مع أصول التصور الاعتقادى القرآنى . والظاهرة الجديرة بالتنبه إليها هى اهتمام

المستشرقين بهذا الجانب من الدراسات الإسلامية . فلقد اجتهدوا كثيرا فى إخراج الفكر الفلسفى الإسلامى إلى الوجود من خلال فلسفة المشائية والإشراق والكلام ، ومن خلال ربط هذه الفلسفات بأمهاتها اليونانية وغيرها . ولا شك فى أن بحوثهم امتازت بالنزاهة والعمق أحيانا وبالموضوعية العلمية المجردة ، مما أفاد الباحثين من المسلمين أنفسهم ، لكنها اتسمت أحيانا أخرى بالتحيز الضار بالمادة العلمية ذاتها ، مما أبعدها كل البعد عن موضوع الدراسة المجردة كما تقررها الأفكار والقواعد القرآنية ذاتها ، ومن ثم كان أثرها هو تشويه جوهر الفكر القرآنى وأبرز خصائصه ، المتمثلة فى النزعة الإيجابية وما يتصل بها من منهج التجربة والنظر والاختبار ومعالجة الواقع ومشكلاته ، هذه الظاهرة تنبه لها بعض المستشرقين من أمثال كارليل ودى كاسترى وهيدلى ، وبيَّنها إقبال [1] بوضوح عندما نبه إلى أن المتقدمين من فلاسفة المسلمين قد فاتتهم حقيقة تقرير القرآن للإدراك الحسى والمعرفة الناتجة عنه ، فعكفوا على درس القرآن بعد أن بهرهم النظر الفلسفى القديم ، فقدموا الكتاب على ضوء الفكر اليونانى ، ومضى عليهم أكثر من قرنين من الزمان قبل أن يتبين لهم أن روح القرآن تتعارض فى جوهرها مع تعاليم الفلسفة القديمة . هذه الظاهرة - التى تحتاج إلى انتباه المفكرين المسلمين وخاصة من دارسى الفلسفة - لها جوانب غير بناءة تتمثل فى انغماس الفكر الإسلامى المعاصر فى بحوث تدور حول الفكر الإسلامى الفلسفى القديم المرتبط بالثقافات والحضارات القديمة باعتبار أنها تمثل الفلسفة القرآنية كما ينظر إليها الجيل المسلم المعاصر ، والرسالة التى يؤديها هذا الجيل فى خدمة الفكر الإسلامى . إن مثل هذا الاتجاه يضر بواقع المسلمين ويضر بغايات التفكير الإسلامى وأهدافه ، من حيث إنه ينغمس فى بحوث فلسفية لا تمتّ للحياة الواقعية المعاصرة بصلة مفيدة ، وحيث يتعين ربط الفلسفة الدينية بالناتج العلمى للحضارات المعاصرة ، وهو يتفوق كثيرا على المستوى العلمى للحضارات اليونانية والفارسية الغنوصية القديمة . ولذلك فلست من أنصار تشجيع التعمق فى الدراسات الفلسفية القديمة مجردة عن نظرة المسلم المعاصر إلى واقعه من خلال توجيهات القرآن الشاملة .

نحن نعلم - مثلا - أن الفلسفة المشائية تأثر فيها المسلمون بعوامل غريبة على روح القرآن ، من تراث اليونان وفلسفة أفلاطون والفكر الفارسى الغنوصى (الكندى - الفارابى - ابن سينا) . كما أن الفلسفة الإشراقية تأثرت بالفارسية الغنوصية وغيرها (ابن رشد - ابن الطفيل - البغدادى - السهروردى) . وكان هناك - مع ذلك - اتجاه وسط يحاول الحفاظ على روح الفكر الفلسفى أو الاعتقادى المنبثق من القرآن والسنة النبوية الصحيحة ، وأخذ شكل التيارات

(١) محمد إقبال الشاعر والفيلسوف الصوفى الباكستانى .

التجديدية التى حاولت التقدم بالمفاهيم القرآنية إلى مستوى الفكر المعاصر لها دون إخلال بالأصول الاعتقادية المعلومة من الدين بالضرورة. وهناك فرق بين التجديد، وهو لازم فى حياة الأطوار المتعاقبة للأجيال المسلمة، وبين التأثر بالثقافات المغايرة، خاصة فى أوضاع سياسية تفقد فيها الأمة حريتها. وفى مجال التجديد نذكر مثلا أبا حامد الغزالى وابن تيمية وابن القيم وأبا العزائم ومحمد عبده ومحمد إقبال وحسن البنا وأبا الأعلى المودودى وعلى شريعتى والأفغانى وسعيد النورسى ومالك بن نبى وغيرهم . .

هذه البحوث الفلسفية التى قصد علماء الاستشراق إلى التعمق فيها وإبرازها لشغل الفكر الإسلامى المعاصر عن قضاياه الأساسية الأشد إلحاحا، لا تفيد المفكر أو الفيلسوف أو الباحث المعاصر الذى يريد أن يكتشف خصائص التصور الاعتقادى القرآنى المستقلة.

والفسلفة الحديثة، المتصلة بالضرورة بأحدث مكتشفات العلوم البحتة، والتجريبية والتصورات الرياضية عن الطبيعة والطاقة، قد أدركت هذه الصلة بين بحوثها وبين دور الفرد المؤمن فى المجتمع الحديث صاحب الرسالة والتوجيه القيادى «المجتمع العظيم». كما أن الفلسفة المنغمسة فى إطارات التفسير المادى الصرف قد ذهبت شوطا أكثر بعدا فأقامت صرحها الهائل المعاصر على أساس من خدمة الآلة الفردية للمجتمع القائم والتضحية بالجوانب الإنسانية - على تفاوت فى القدر - بدافع أساسى شامل من المادة واقتصادها. فلماذا يتخلف المسلمون، وقد أقام لهم القرآن أسس التصور الاعتقادى المرتبط بواقع الحياة للإنسان فى ظل بنيان متوازن من المادة والفكر - الروح - للفرد المؤمن بالإله الواحد المعبود؟ إنها ظاهرة جديرة بالتأمل والتدبر، أن يظل الفكر الفلسفى الإسلامى أو التصور الاعتقادى الإسلامى، تائها فى بحوث فلسفية ميتافيزيقية مرتبطة بحصيلة علوم قدمتها ثقافات وحضارات بلغت مجتمعاتها مستويات هائلة من القوة الرهيبة، تكيد للقرآن ولإنسانه ولدولته حتى لا يُبعث أى منهم واقعا معيشا من جديد. كما أنها ظاهرة جديرة بالتأمل والتدبر، أن تبقى البحوث الفلسفية الإسلامية محبوسة فى إطار مغلق من متاهات القدم والحدوث والعلم الإلهى بالكليات والجزئيات والجبر والاختيار والجوهر الفرد ثم الصدور الفيضى وأفكاره المتصلة به من الواجب ومن الممكن، والوجود والماهية، والصورة واليهولى. . . . إلى آخر هذه البحوث دون ترابط وتناسق مع التصور القرآنى الشامل للإله والإنسان والكون، وبعيدا عن الاستمداد المباشر بالقدرات الفردية المتاحة، من المنبع الأصيل الواحد الهادى للكل، وهو القرآن.

إن كبار الفلاسفة المسلمين الأوائل كانوا فى أشخاصهم - من حيث التخصص المعرفى - أبرز مظهر لترابط الفلسفة والعلوم. وكان منهم من يعتبر العلوم العقلية جزءًا من الفلسفة. كما وضحت بنوعية بحوثهم الصلة بين العلوم الرياضية والطبيعية والدراسات الفلسفية، كان

الكندى ـ مثلا ـ يذكر على غرار أفلاطون أن الإنسان لا يكون فيلسوفا قبل أن يدرس الرياضة ، وقد كان يبحث فى الرياضيات والطبيعة واجتهد فى تطبيق الرياضيات فى الفلك والطبيعة والطب وعلوم ما وراء الطبيعة فى معرض الإثبات الرياضى لوجود الله .

وابن سينا (الشفاء) كان يبحث فى علوم النفس والحيوان والنبات والجيولوجيا والهندسة والحساب والفلك والموسيقى، إلى جانب الإلهيات . والفارابى كان يبحث فى الهندسة والميكانيكا والموسيقى . والرازى كان يبحث فى الطب (الحاوى) والكيمياء . وابن الهيثم كان يبحث فى الرياضة والطبيعة (البصريات) . ومن هنا ـ أى إدراكا لهذه الصلة بين العلوم والفلسفة ـ اعتبر محمد إقبال أن المهمة الملقاة على عاتق المسلم العصرى مهمة ضخمة ، إذ إن عليه أن يفكر تفكيرا جديدا فى نظام الإسلام كله دون أن يقطع ما بينه وبين الماضى قطعا تاما . ولابد له من أن يتناول المعرفة العصرية بنزعة من الإجلال وفى روح من الاستقلال ولو أدى ذلك إلى مخالفة المتقدمين . وحاول ـ فى محاضراته فى مدراس وحيد أباد وعليكرة والتى جمعها كتابه «تجديد التفكير الدينى فى الإسلام» ـ حاول : « . . . بناء الفلسفة الدينية بناء جديدا ، آخذا بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام إلى جانب ما طرأ على المعرفة الإنسانية من تطور فى نواحيها المختلفة . . لقد تعلمت الطبيعيات القديمة نقد أسسها التى قامت عليها أولا ، فأدى هذا النقد إلى سرعة اختفاء المادية التى قالت الطبيعيات بوجودها أول الأمر . وليس ببعيد اليوم الذى يكشف فيه كل من الدين والعلم عن وجود اتفاق متبادل بينهما لم يكن حتى اليوم منتظرا» .

كما ذهب الدكتور محسن عبد الحميد [1] إلى أن الفلسفة الإسلامية التى يجب أن تسود اليوم: «هى الفلسفة التى تعالج فكر العصر وأزماته وقضاياه بعمق ودقة وموضوعية ، وتكتشف من خلال المنطق الحديث حقائق نظرة الإنسان إلى الكون والحياة والمجتمع والإنسان وتركز على الواقع المنهار لتحدث فيه التغيير المطلوب بمنهج عقلى واضح المعالم، يقضى على معوقات القيام الحضارى الإسلامى، البعيد عن عقلية التواكل والخرافة والأسطورة والزهد الغنوصى المدمر ، والتعصب والجمود الذى يحول الأعراف المتغيرة والأفكار البشرية الماضية إلى وحى إلهى معصوم . .

إن الفلسفة التى يحتاج إليها عصرنا هى تلك التى تلحق الهزيمة الفكرية بالفلسفات المادية الحديثة ، وتنقذ الجيل المسلم من الاضطراب والقلق والحيرة، وتشعره بأصالته وذاته وتسحبه من أعماق ماضيه الفكرى البشرى إلى حاضره ومستقبله وتبنى قاعدة رصينة من النظر الإسلامى الرصين، ينطلق منها إلى بناء حياته الجديدة ويشترك فى

---

(١) أستاذ التفسير والعقائد الإسلامية بكلية التربية ببغداد، فى كتاب (الفكر الإسلامى تقويمه وتجديده) .

إنقاذ الحضارة الحاضرة من أزماتها الروحية والنفسية والأخلاقية . وإذا قامت الفلسفة الإسلامية بهذه المهمة الإسلامية العقلية والعملية والواقعية فى عصرنا، فعند ذلك لا تبقى حاجة لتلك الأساليب والموضوعات الكلامية والفلسفية القديمة التى لا يفهمها عصرنا، لأنها كتبت بغير مصطلحاته، ولا تعبر عن مواقفه الجديدة وأزماته الفكرية المعاصرة المطروحة فى ساحة صراعه مع نفسه ومع خصومه وأعدائه . . . » انتهى.

وجدير بالذكر أن المسلمين فى عصور النهضة السالفة أضافوا إلى مفهوم العلم النظرى - الذى كان اليونانيون يتمسكون به - نهجا جديدا هو استخدام العلم من أجل كشف أسرار العالم الطبيعية وتمكين الإنسان من السيطرة عليه واستغلاله لصالحه (المنهج التجريبى) + (الحقائق الرياضية)، وبذلك جمعوا بين النظرية والتطبيق فى إطار حضارتهم التى قامت على مفهوم الإسلام الجامع بين الدين والدنيا، ولم تكن فكرة التعارض بين العلم والإيمان أو العلم والدين واردة فى أذهانهم.

وللدكتور فؤاد زكريا رأى فى هذا الموضوع يجدر بنا أن نشير إليه. فهو يتحدث عن أسلوب التفكير العلمى، وعن العلم، وعن موقف علماء الدين - المسلمين اليوم والكنيسة فى الماضى - من العلم فيقول [(١)]:

« ليس التفكير العلمى هو تفكير العلماء بالضرورة، فالعالم يفكر فى مشكلة متخصصة، هى فى أغلب الأحيان منتمية إلى ميدان لا يستطيع غير المتخصص أن يخوضه، بل قد لا يعرف فى بعض الحالات أنه موجود أصلا. وهو يستخدم فى تفكيره وفى التعبير عنه لغة متخصصة يستطيع أن يتداولها مع غيره من العلماء، هى لغة اصطلاحات ورموز متعارف عليها بينهم، وإن تكن مختلفة كل الاختلاف عن تلك اللغة التى يستخدمها الناس فى حديثهم ومعاملاتهم المألوفة. وتفكير العالم يرتكز على حصيلة ضخمة من المعلومات، بل إنه يفترض مقدما كل ما توصلت إليه البشرية طوال تاريخها الماضى فى ذلك الميدان المعين من ميادين العلم.

«أما التفكير العلمى الذى نقصده فلا ينصب على مشكلة متخصصة بعينها، أو حتى على مجموعة المشكلات المحددة التى يعالجها العلماء، ولا يفترض معرفة بلغة علمية أو رموز رياضية خاصة، ولا يقتضى أن يكون ذهن المرء محتشدا بالمعلومات العلمية أو مدربا على البحث المؤدى إلى حل مشكلات العالم الطبيعى أو الإنسانى. بل إن ما نود أن نتحدث عنه إنما هو ذلك النوع من التفكير المنظم، الذى يمكن أن نستخدمه فى شئون حياتنا اليومية، أو فى

---

(١) فى كتابه (التفكير العلمى) طبعة سنة ١٩٨٨ من منشورات المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت.

النشاط الذى نبذله حين نمارس أعمالنا المهنية المعتادة، أو فى علاقاتنا مع الناس ومع العالم المحيط بنا. وكل ما يشترط فى هذا التفكير هو أن يكون منظما، وأن يبنى على مجموعة من المبادئ التى نطبقها فى كل لحظة دون أن نشعر بها شعورا واعيا، مثل مبدأ استحالة تأكيد الشيء ونقيضه فى آن واحد، والمبدأ القائل إن لكل حادث سببا، وإن من المحال أن يحدث شيء من لا شيء.

«هذا النوع من التفكير هو ذلك الذى يتبقى فى أذهاننا من حصيلة ذلك العمل الشاق الذى قام به العلماء، ومازالوا يقومون به، من أجل اكتساب المعرفة والتوصل إلى حقائق الأشياء. فبناء العلم يعلو طابقا فوق طابق، وكل عالم يضيف إليه لبنة صغيرة، وربما اكتفى بإصلاح وضع لبنة سابقة أضافها إليه غيره من قبل. ولكن الأغلبية الساحقة من البشر لا تعرف تفاصيل ذلك البناء، ولا تعلم الكثير عن تلك الجهود المضنية التى بذلت حتى وصل إلى ارتفاعه هذا. وهى تكتفى بأن تستخدمه وتنتفع منه، دون أن تعرف إلا أقل القليل عن الطرق المستخدمة فى تشييده. وهذا أمر طبيعى لأن العلم قد تحول، على مر العصور، إلى نشاط يزداد تخصصا بالتدريج، ولا تقدر على استيعابه إلا فئة من البشر أعدت نفسها له إعدادا شاقا ومعقدا.

«ولكن، هل يعنى ذلك أن جمهرة الناس لم تتأثر بشيء مما زودها به العلم، ما عدا تطبيقاته؟ وهل يعنى أن العلم لم يترك أثرا فى أى عقول ما عدا عقول العلماء المشتغلين به؟

الواقع أن العلم، وإن كانت تفاصيله وأساليبه الفنية مجهولة لدى أغلبية البشر، قد ترك فى عقول الناس آثارا لا تمحى، أعنى أساليب معينة فى التفكير لم تكن ميسورة للناس قبل ظهور عصر العلم، وكانت فى المراحل الأولى من ذلك العصر مختلطة بأساليب أخرى مضطربة مشوشة وقفت حائلا دون نمو العقل الإنسانى وبلوغه مرحلة النضج والوعى السليم.

«وهذه الأساليب التى تركها العلم فى العقول، حتى لو لم تكن قد اشتغلت به أو أسهمت بصورة مباشرة فى تقدمه، هى ذلك النوع من التفكير العلمى الذى نود هنا أن ندرسه. فبعد أن يقدم العلماء إنجازاتهم، قد لا يفهم هذه الإنجازات حق الفهم، ويشارك فى استيعابها وتقديرها، إلا قلة ضئيلة من المتخصصين، ولكن «شيئا ما» يظل باقيا من هذه الإنجازات لدى الآخرين أعنى طريقة معينة فى النظر إلى الأمور، وأسلوبا خاصا فى معالجة المشكلات. وهذا الأثر الباقى هو تلك «العقلية العلمية» التى يمكن أن يتصف بها الإنسان العادى، حتى لو لم يكن يعرف نظرية علمية واحدة معرفة كاملة، ولو لم يكن قد درس مقررا علميا واحدا طوال حياته. إنها تلك العقلية المنظمة التى تسعى إلى التحرر من مخلفات عصور الجهل والخرافة، والتى أصبحت سمة مميزة للمجتمعات التى صار للعلم فيها «تراث» يترك بصماته على عقول الناس.

«وفى اعتقادى أن موضوع التفكير العلمى هو موضوع الساعة فى العالم العربى . ففى الوقت الذى أفلح فيه العالم المتقدم ـ بغض النظر عن أنظمته الاجتماعية ـ فى تكوين تراث علمى راسخ امتد، فى العصر الحديث ، طوال أربعة قرون، وأصبح يمثل فى حياة هذه المجتمعات اتجاها ثابتا يستحيل العدول عنه أو الرجوع فيه، فى هذا الوقت ذاته يخوض المفكرون فى عالمنا العربى معركة ضارية فى سبيل إقرار أبسط مبادئ التفكير العلمى. ويبدو حتى اليوم، ونحن نمضى قدما إلى السنوات الأخيرة من القرن العشرين، أن نتيجة هذه المعركة مازالت على كفة الميزان، بل قد يخيل إلى المرء فى ساعات تشاؤم معينة أن احتمال الانتصار فيها أضعف من احتمال الهزيمة .

«وفى هذا المضمار، لا أملك إلا أن أشير إلى أمرين يدخلان فى باب العجائب حول موقفنا من العلم فى الماضى والحاضر :

«الأمر الأول هو أننا، بعد أن بدأ تراثنا العلمى، فى العصر الذهبى للحضارة الإسلامية، بداية قوية ناضجة سبقنا بها النهضة الأوروبية الحديثة بقرون عديدة، مازلنا إلى اليوم نتجادل حول أبسط مبادئ التفكير العلمى وبديهياته الأساسية . ولو كان خط التقدم ظل متصلا، منذ نهضتنا العلمية القديمة حتى اليوم، لكنا قد سبقنا العالم كله فى هذا المضمار إلى حد يستحيل معه أن يلحق بنا الآخرون. ومع ذلك، ففى الوقت الذى يصعدون فيه إلى القمر، نتجادل نحن عما إذا كانت للأشياء أسبابها المحددة، وللطبيعة قوانينها الثابتة، أم العكس .

«وأما الأمر الثانى فهو أننا لا نكف عن الزهو بماضينا العلمى المجيد ولكننا فى حاضرنا نقاوم العلم أشد مقاومة . بل إن الأشخاص الذين يحرصون على تأكيد الدور الرائد الذى قام به العلماء المسلمون فى العصر الزاهى للحضارة الإسلامية، هم أنفسهم الذين يحاربون التفكير العلمى فى أيامنا هذه. ففى أغلب الأحيان تأتى الدعوة إلى الدفاع عن العناصر اللاعقلية فى حياتنا، والهجوم على أى محاولة لإقرار أبسط أصول التفكير المنطقى والعلمى المنظم، وجعلها أساسا ثابتا من أسس حياتنا ـ تأتى هذه الدعوة من أولئك الأشخاص الذين يحرصون، فى شتى المناسبات، على التفاخر أمام الغربيين بأن علماء المسلمين سبقوهم إلى كثير من أساليب التفكير والنظريات العلمية التى لم تعرفها أوروبا إلا فى وقت متأخر، وما كان لها أن تتوصل إليها لولا الجهود الرائدة للعلم الإسلامى الذى تأثر به الأوروبيون تأثرا لا شك فيه .

«ومن الجلى أن هذا الموقف يعبر عن تناقض صارخ : إذ إن المفروض فيمن يزهو بإنجازاتنا العلمية الماضية أن يكون نصيرا للعلم، داعيا إلى الأخذ بأسبابه فى الحاضر، حتى تتاح لنا العودة إلى تلك القمة التى بلغناها فى عصر مضى. أما أن نتفاخر بعلم قديم، ونستخف بالعلم الحديث أو نحاربه، فهذا أمر يبدو مستعصيا على الفهم .

«وتفسير هذا التناقض يكمن ـ من وجهة نظري ـ في أحد أمرين : فمن الجائز أن أولئك الذين يفخرون بعلمنا القديم إنما يفعلون ذلك لأنه «من صنعنا نحن » ، أي أنهم يعربون بذلك عن نوع من الاعتزاز القومى ، ومن ثم فهم لا يأبهون بالعلم الحديث ما دام « من صنع الآخرين» . ومن الجائز أيضا أن تأكيدهم لأمجاد العرب في ميدان العلم إنما يرجع إلى اعتزازهم «بالتراث» أيا كان ميدانه ، ومن ثم فإن كل ما يخرج عن نطاق هذا التراث يستحق الإدانة أو الاستخفاف في نظرهم . وسواء أكان التعليل هو هذا أم ذاك ، فإن العلم الذى وصلنا إليه في الفترة الزاهية من الحضارة الإسلامية لا يمجد لأنه «علم» بل لأنه واحد من تلك العناصر التى تتيح للعرب أن يعتزوا بأنفسهم ، أو بتراثهم .

«ولكننا ، إذا شئنا أن نكون متسقين مع أنفسنا ، وإذا أردنا أن نتجاوز مرحلة اجترار الماضى والتغنى بأمجاد الأجداد ، وإذا شئنا ألا تبدو أمام العالم كما يبدو أولئك العاطلون الذين لا رصيد لهم في الدنيا سوى أن أجدادهم القدامى كانوا يحملون لقب «باشا» أو «لورد» أو «بارون» ـ فعلينا أن نحترم العلم في الحاضر مثلما احترمناه في الماضى ، وأن نعترف بأن هذا الأسلوب في التفكير الذى كان مصدرا لاعتزازنا بأجدادنا في الماضى ـ أعنى الأسلوب العلمى ـ ينبغى أن يكون هدفا من أهدافنا التى نحرص عليها في الحاضر بدوره . وإن المعركة التى يشنها الفكر المتخلف على كل من يدعو إلى المنهج العلمى في التفكير ، ستقف عائقا في وجه جهودنا من أجل اللحاق بركب العصر ، بل ستلقى ظلالا من الشك حول مدى إخلاصنا في التغنى بأمجاد «ابن حيان» و«الخوارزمى» و «ابن الهيثم» و«البيرونى» ، الذين كانوا يقفون في الصف الأول من العقول التى تفكر بالأسلوب العلمى في عصورهم .

«وأعظم خطأ يرتكبه المدافعون عن مبدأ معين ، أو عن ضرب من ضروب النشاط الروحى للإنسان ، هو أن يعتقدوا أن العلم مصدر خطر عليهم ، ويضعوا مبدأهم أو نشاطهم الروحى في خصومة مع العلم . فعلت هذا الكنيسة الأوروبية في مطلع عصر النهضة ، وقام رجالها يحاربون العلم الوليد ويضطهدون رواده ، ولم يكن ذلك منهم إلا عن جهل بطبيعة العلم أو بطبيعة الدين أو كليهما معا ، وربما كان في بعض الأحيان خوفا على نفوذ أو دفاعا عن مصالح يعتقدون أن أسلوب المعرفة الجديدة كفيل بتهديدها . فماذا كانت النتيجة آخر الأمر؟ ظل العلم يسير في طريقه بهدوء وثقة ، ويحرز الانتصار تلو الانتصار ، وتعاقب ظهور العلماء الأفذاذ ، الذين كان معظمهم أشخاصا مخلصين في عقيدتهم الدينية ، ولم يكن أحد منهم يتصور أن الجهد الذى يبذله من أجل بسط سيطرة العقل على الطبيعة وتحقيق النفع لأخوته في الإنسانية يمكن أن يغضب أحدا ، لا سيما إذا كان من رجال الدين . واضطرت الكنيسة الأوروبية آخر الأمر إلى التراجع أمام قوة الحقيقة التى لا يستطيع أن ينكرها عقل سليم ، ولكن تراجعها ربما كان قد أتى بعد فوات الأوان ، إذ إن الكثيرين يعزون موجات الإلحاد التى

اجتاحت أوروبا، منذ القرن الثامن عشر بوجه خاص، إلى تلك الخصومة التى لم يكن لها داع، والتى افتعلتها الكنيسة ضد العلم. . ».

وإنى أتفق مع الدكتور فؤاد زكريا فى اتجاهه العام، وأؤكد على أهمية وضرورة الأخذ بالتفكير العلمى واحترام العقل احتراما كاملا. ولكنى أحب أن أوضح فيما يتعلق بقضية العلم والدين بعض المبادئ الواجب الاسترشاد بها:

(١) يجب التفرقة بين الأصول الاعتقادية العامة الواردة فى القرآن والسنة الصحيحة، وهو ما يسميه الفقهاء « ما هو معلوم من الدين بالضرورة»، وبين مفاهيم شخصية فى تفسير آيات الدين يعبر عنها أصحابها فى عصورهم، بحيث نعترض على نتائج البحوث العلمية إن هى خالفت الأصول الاعتقادية ولا نعارضها لمجرد مخالفتها للمفاهيم الشخصية التى يجوز حيالها الاختلاف فى الرأى نتيجة الاختلاف فى الفهم. والتاريخ المعروف لموقف الكنيسة من العلم فى العصور الوسطى مؤسف لأنه يدخل فى إطار العنصر الثانى.

(٢) الدين يختلف فى حجيته ودلالاته اليقينية من صورة له لأخرى، ونحن لا نضفى الحجية العلمية الكاملة إلا على الدين فى صورته القرآنية، لأنه كلام الله المنزل باللفظ والمعنى لم يدخله أى تحريف أو تبديل أو تغيير، كما حصل بالنسبة للتوراة والإنجيل بالذات فى مسائل الاعتقاد بالله وخاتم الأنبياء وروايتهما بالمعنى لا باللفظ المعجز، أى أنهما روايات بشرية وإن كانت ترجع فى أصلها الأول إلى مصدر إلهى، ولذلك نقلنا عن سفر التكوين قصة آدم وحواء للاستئناس بها [١].

(٣) إن العلم - وهو نتاج العقل - يرتبط بالضرورة بقدرات العقل الذى يجب أن يضع له «الدين» أصول المبادئ الاعتقادية، دون أن يقيم الأشخاص نوعا من احتكار مفاهيم محدودة لآياته تضفى على معانى الآيات جمودا ضارا يعادى كل جديد أو تطوير فى المفاهيم من خلال المعارف الإنسانية الدائمة التوسع والتعمق والترقى عبر العصور المتتالية، بما لا يجمد الحركة الفكرية للإنسان واستمرار اكتشافه للجديد فى محيط العلوم، على أن يرتكز كل تجديد للمفاهيم الدينية على قاعدة العلم المقترن بالإيمان.

(٤) إن تيار التجديد فى الفكر الدينى، والذى بدأ بصفة خاصة بالأفغانى وامتد إلى محمد عبده ومن جاء بعده، كان تيارا مخالفا لأنصار الجمود والموروث القديم فى المفاهيم الدينية الذى يعارض كل تجديد فى الفكر العلمى بنفس القدر الذى كان فيه مخالفا لأنصار التغريب الكامل. ولم تخف هذه الحقيقة عن أى باحث معاصر، وعبر عنها الدكتور محمد عمارة

---

(١) فى موضوع تميز القران عن التوراة والإنجيل بالدقة العلمية والإعجاز العلمى (والسلامة من أى تحريف أو تبديل)، انظر كتاب الدكتور موريس بوكاى: « التوراة والإنجيل والقرآن والعلم».

أجمل تعبير فى كتابه (الاستقلال الحضارى) بما معناه : «إن هذا التيار التجديدى رفض الوقوف عند جمود الجامدين، وبشر بضرورة تجاوز فكرية العصور الوسطى والمظلمة والعودة للمنابع الجوهرية والنقية . . والنظر فيها بالعقل المستنير . . ثم المزاوجة بينها وبين (المستقبلية) فيما يتعلق (بالمتغيرات الدنيوية) باعتبار أن ذلك هو النهج الأمثل للتجدد الذى يستفيد بما فى الحضارة الغربية من عوامل القوة والتقدم التى أبدعها الأوروبيون دون التأثير على الاستقلال الحضارى للأمة الإسلامية بل وبما يدعم هذا الاستقلال». انتهى.

(٥) إن معتقدات الإنسان ودوافعه غالبا ما تتدخل فى توجيه النتائج والاستنتاجات العلمية واستخداماتها. ومن هنا، فإن الفجوة بين الدين والعلم إنما تنشأ من حيث مواقف ومفاهيم شخصية فى المجالين العلمى والدينى وليس من حيث المحتوى المجرد للمعلومات ذاتها، العلمية والدينية. وإن كان يجب أن نأخذ فى الاعتبار دائما أن النظريات العلمية تتعامل مع الفروض، بينما يقدم الدين الحقائق والوقائع، كما أن الدين يقرن العلم بالإيمان دائما. ومن ثم فلا يمكن أن نستغنى بالعلم عن الدين كما لا يمكننا أن نفرق بين الدين والعلم.

* * *

إن الإنسان هو العنصر الأساسى فى كل تقدم مدنى وحضارى. والقرآن هو الإطار العريض المنظم لحياة الإنسان الفردية والاجتماعية المتوازنة جسدا وروحا بما يتلاءم مع الإنسان فى أى مستوى مدنى وحضارى. ولما كانت الحضارة المعاصرة ذات التركيب المادى لا تلائم طبيعة التركيب الثنائى للإنسان ـ العضوى الروحى ـ فإنه يكون من الواجب علينا أن نجدد نظرتنا إلى واقع هذه الحضارة من خلال القرآن وتوجيهاته لنبنى واقعنا المدنى والحضارى على أساس هذه التوجيهات التى تبنى أولا فردا متوازنا مؤمنا حرا كريما يحترم العقل ويدرك قيمة العلم ودور الأخلاق فى أى نهضة.

إن مفهوم الدين فى القرآن يتسع ليشمل مجموع الشرائع التى توالت على الإنسان فى الأرض، يحملها ويبينها النبيون المصطفَوْن الذين يوجهون الناس لغاية من توحيد العقيدة فى الإله والنظرة إلى الكون والنفس. . ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ** ﴾ [الشورى: ١٣] . كما أنه حياة واقعية للإنسان فى سلوكه الحياتى اليومى بمشكلاته واحتياجاته واحتكاكاته وتجاربه . . ﴿ **وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ** ﴾ [**الذاريات**: ٦]. تهدف إلى «إقامة الدين» فى النفس الإنسانية الفردية، عقيدة، وفى العلاقة بسائر الناس، معاملة وأخلاقا، وفى وحدة شعورية جماعية تجاه الإله، عبادة، وفى الالتزام بأوامر الله ونواهيه، شريعة: ﴿ **أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ [**الشورى**: ١٣] .

إن الفكر الإسلامى المعاصر يحتاج إلى التعمق ـ المقارن ـ فى دراسة الإنسان، فى القرآن

وفى الموضوع من حيث هو كائن عاقل ذو قوة روحية ، كما يحتاج إلى فهم جديد ومعان جديدة يفسر بهما حقائق الخلافة البشرية ، وآدمها المتميز . ومن خلال هذا الفكر المجدد يمكن أن تتضح عقيدة الإنسان فى الإله ، وتجاه الكون ، ثم غاية وجوده . ولعلى ـ من جانبى فى هذا البحث ـ أكون قد وفقت إلى إبراز مفاهيم من الفكرة القرآنية فى هذا الشأن .

وإذا كانت الفلسفة الوجودية الحديثة (هيدجر ويسبرز وسارتر) قد اتخذت ـ كما نعلم ـ من كتابات كير كجارد وغيره قواعد أساسية ترتكز عليها فى النتاج الفكرى الفلسفى الحديث فى أوروبا ، فإن بعض المفكرين المسلمين قد ذهبوا إلى إمكان اتخاذ كتابات بعض المتصوفة المسلمين القدامى بمثابة قواعد لفلسفة وجودية عربية إسلامية حديثة ، أى على غرار كيركجارد أوروبا . . « ففضلا عن وجود أوجه اتفاق أو تلاق ـ مع الاعتراف بأوجه الاختلاف خاصة فى مفهوم الدين ـ بين التصوف الإسلامى والمذهب الوجودى ، فإن التصوف يصلح أن يكون نقطة من نقاط البدء فى المفهوم الوجودى كما كان كيركجارد [1]» .

قدم الأستاذ عبد الرحمن بدوى عددا من الدراسات عن هذه النزعة فى الفكر العربى (كما يحب أن يسميه للتفرقة بين حضارة العرب وحضارة المسلمين أو المدنية الإسلامية باعتبارها طورا ـ عنده ـ من أطوار الحضار العربية) وأوضح خصائص النزعة الإنسانية عامة فى :

١ ـ تأكيد أن معيار التقويم هو الإنسان عامة ، باعتباره مقابلا للآلهة ، من ناحية ، والوجود الطبيعى أو الفيزيائى من ناحية أخرى ، بحيث يرد التقويم إليه لا إلى أشياء أو كائنات خارجية بعيدة عن الواقعية الحقيقية . فكل ما هو خارج عن ذاتك ليس منك ولا إليك ، وكل ما هو لك حقا هو عندك ومعك ، وما فى وسع شىء آخر أن يعطيك شيئا ، ولا أن يسلبك شيئا[2] .

٢ ـ الإشادة بالعقل ورد المعرفة إليه على أساس «الشعور العالى بأن العالم الإنسانى الحقيقى يقوم فى الاستقلال المطلق للعقل » ، وهى نزعة الإنسانية الأوروبية .

٣ ـ تمجيد الطبيعة وأداء نوع من العبادة لها ، عبادة العاشق لمعشوقه الأليف الأثير لديه ، وذلك على أساس غزو الذات للموضوع وفرضها قيمها عليه واستخدامه لتحقيق إمكاناتها بعد الاستيلاء على الطبيعة ، لتقوم بمعاونته فى غزوه للمملكة الوحيدة الباقية ، مملكة الألوهية ، وباعتبار الطبيعة موضع الذات فى تحقيقها لإمكاناتها الذاتية خارج نفسها فى العالم ، «أى باعتبار الطبيعة لا أنها مقابل اللطف الإلهى ـ وأن الطبيعة الإنسانية فاسدة بحكم الخطيئة الأولى ولا سبيل إلى إصلاحها إلا بفعل خارجى خارق على الطبيعة هو

(١) عبد الرحمن بدوى : الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى .

(٢) ف . بيتراركا : رسائل خاصة (جزء ١٥ نشرة فراكستى فيرنتسه عام ١٨٦٣) .

فضل الله ـ إنما باعتبارها قد أصبحت جزءا من العالم الإنسانى نفسه لأنها ليست شيئا آخر غير الجوهر الروحى فى الإنسان نفسه، وهو يكشف عن نفسه كشعور بذاته »[1].

كما عرض الأستاذ عبد الرحمن بدوى لهذه النزعة الإنسانية فى الحضارة العربية[2] فاعتبرها قد وجدت فى تلك الحضارة ـ بمعناها الذى بيناه فيما سلف ـ لأول مرة فى عهد كسرى أنوشروان، عند برزويه، وبولس الفارسى. وكان يماثلها أيضا بشكل أكبر وأكمل وأدق تفصيلا فى التصور الغنوصى الهلينى (كُتُب هرمس ورجال الأفلاطونية المحدثة) وهو التصور القائم على فكرة « الإنسان الكامل » أو « الإنسان الإلهى » التى يردها بعض الباحثين المعاصرين إلى أصول إيرانية، ومن بعد إلى التصورات الشرقية الإيرانية، وبخاصة فكرة النور وفكرة أن الإنسان الأول نور ساطع، وهى الفكرة التى ينتهى الأستاذ بدوى إلى أنها ذات تأثير ضخم فى النزعة الإنسانية العربية التى تأثرت بدورها بالتراث الشرقى الإيرانى والإسرائيلى والأفلاطونى المحدث، وشيء من الهندى والبابلى والكلدانى. وهى مرئية بوضوح فى كتاب (أثولوجيا) المنسوب إلى أرسطاطاليس والمنتزع من (تساعات) أفلوطين. ثم فى مخطوط (الطباع العام) المنسوب إلى أرسطو خطأ، وإلى هرمس فى الأصح، وكتاب (الأسطماخس) المنسوب إلى أرسطاطاليس، وهما اللذان أثرا فى السهروردى (المطارحات والتقديسات) والصدر الشيرازى.

وقد بيَّن الدكتور بدوى خصائص النزعة الإنسانية عند محيى الدين بن عربى (عقلة المستوفز) و(فصوص الحكم) والسهروردى وأبى بكر محمد بن زكريا الرازى. واعتبر أن الأول متأثر فى فكرته عن الإنسان الكامل بالأفلاطونية الحديثة ثم باليهودية ثم بالديانات الإيرانية وربما الهندية. وجاء بنفس الفكرة من بعد محيى الدين بن عربى، عبد الكريم الجيلى، وهى الفكرة التى تمثل الخاصية الأولى من خصائص النزعة الإنسانية فى الفكر العربى والتى اكتملت بفهم معين للآيات المتصلة بخلق آدم، وآية: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤] والحديثين المنسوبين إلى النبى ﷺ «خلق الله آدم على صورته» و« من عرف نفسه فقد عرف ربه».

والخاصية الثانية هى تمجيد العقل، وهى تستند إلى حديث: « أول ما خلق الله العقل» وغيره من الأحاديث أوردها داود بن محبر البصرى المتوفى سنة ٢٠٦ هجرية ٨٢١ ميلادية وذلك فى كتابه «العقل»، وهى الخاصية التى يعتبر الأستاذ عبد الرحمن بدوى أن أبا بكر

---

(١) جوزيه سيتا : التربية فى النزعة الإنسانية بإيطاليا.

(٢) عبد الرحمن بدوى: الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى.

الرازى «قد شطح بها إلى حدود غير مقبولة فى كتاب (الطب الروحانى) لتقابل التوقيف والوحى لا مجرد ملكة التفكير المنطقى، بحيث يكون العقل هو مصدر الأحكام والتقويم لا أى قوة أو معرفة تأتى من الخارج. ثم هناك خاصية تقدم العلوم، وبالتالى التقدم المستمر للإنسانية وهو ما نلحظه فى كتابات جابر بن حيان.

ولا ينبغى أن نغفل مفاهيم النزعة الإنسانية فى العديد من الثقافات والحضارات ذات التصورات المستقلة عن حقيقة الوجود، وهى نزعة ـ برغم تفاوت النظرة من خلالها للإنسان ومركزه من الوجود ـ لم تخل من الإشارة إليها، البحوث الفكرية فى الثقافات والحضارات المتعاقبة، وبخاصة اليونانية السوفسطائية والغربية الوجودية». انتهى.

إنه مما لا شك فيه أن الفكر الصوفى الإسلامى تضمن من النزعات الإنسانية ما يمكن أن تستند إليه فكرة الوجود الإنسانى [1] والتربية الأخلاقية الكاملة إلا أنه من الواجب علينا فى إطار التصور القرآنى الشامل أن نبنى ونبلور هذه الفكرة من خلال روح القرآن وتقريراته فى الإلهيات والإنسانيات والكونيات. إذ إن القرآن يحلل الإنسان بتفصيل دقيق وعميق فى أغوار النفس والشعور بالوجود المتميز والذى تتفاعل من خلاله القدرات العقلية والروحية مع الكيان العضوى فى دائرة الذات أو الأنا. كما أن الشخصية المتوحدة تستشعر وجودها فى مجال أوسع من مجرد المجال العضوى، وذلك من خلال آفاق إدراكها العقلى النابع من النفخة الروحية الربانية: ﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ الحجر: ٢٩.

إننا سنحاول إبراز المفهوم الإنسانى كما يصوره القرآن من أجل إيجاد فكرة إنسانية قرآنية التصور، شاملة، مستمدة من المنبع الإسلامى الأصيل. والبحث فيها يتصل بمجالات عديدة للمعرفة الإنسانية، خاصة البيولوجية والنفس وما وراء النفس، كما يتصل بعلوم الطبيعة المتقدمة فى عصرنا الحالى، فى إطار التصور الاعتقادى القرآنى. وسيستفيد البحث من النتائج التى توصل إليها العلم الحديث لإلقاء الضوء على المفاهيم الإنسانية القرآنية المتصلة بالذات الإلهية.

وإذا حققت هذه المحاولة الهدف منها، فسأعتبر نفسى أننى قد أفدت التفكير الدينى كثيرا. وما أرجوه لهذه الدراسة هو أن تكون عاملا مساعدا وحافزا لدراسات متعمقة ومتخصصة فى الإنسان، فى النطاقين العلمى البحث والنظرى القرآنى على أساس مقارن، ولتوضيح المفاهيم القرآنية الخاصة بأسس تكوين الإنسان باعتباره مخلوقا من مادة ودواعيها، وعقل أو روح ودواعيه، لخدمة البنيان الأخلاقى أساسا، من خلال مناهج التربية والتعليم والتثقيف والخدمات الاجتماعية والصحية النفسية.. إلخ، ولاستغلال الطاقات الإنسانية الجسدية والروحية والعقلية الاستغلال الأمثل فى ظل التمسك بالمنهج القرآنى كاملا

---

(١) ونقصد التصوف الملتزم بالقرآن والسنة والملتزم بأصول الشريعة، ابتداء من الجنيد والقشيرى ومرورًا بالغزالى وأئمة الشاذلية، وانتهاء بأبى العزائم فى العصر الحديث.

والارتكاز عليه فى بناء الشخصية الإنسانية الفردية فى المجتمعات المسلمة التى هى فى أشد الحاجة اليوم لطاقات أبنائها الجسدية والعقلية والروحية، ومن أجل التقدم والبناء والازدهار للحاق بركب الحضارة المتقدم علينا تقدما كبيرا فى الغرب وفى الشرق على السواء، ولإعادة بناء حضارتنا على أسس من أخلاقيات وقيم الدين. وإنه ربما كان أخطر التطورات فى عصرنا الحالى هو ذلك التطور المطرد الذى يشهده علم الأحياء (Biology) بفروعه المختلفة، خاصة علم الوراثة البشرية وما يتصل به من محاولات دءوبة للكشف عن أسرار المخ فى الإنسان، وبما يمكن أن يؤدى إليه من التحكم وتغيير الصفات الوراثية أو بعبارة أخرى تغيير الكائنات البشرية.

ولعل القرآن منذ نزل منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام قد تنبأ بهذا الحدث الخطير الذى سيصل إليه الإنسان عن طريق العلم وإلى نتائجه الضارة التى ستترتب عليه فى ظل النظم السياسية والاجتماعية السائدة فى العصر الذى سيستطيع فيه الإنسان تغيير خصائص نوعه، حين ذكر ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾[1] [النساء: ١١٩]. ونحن نعلم أن علم السايبرنيتيكس (Cybernetics) [2] وهو متصل بالبيولوجيا، وخاصة وراثة الجهاز العصبى للإنسان والمخ، قد ساهم بدرجة كبيرة فى هذه الثورة الإلكترونية الهائلة التى يعيشها عصرنا الحالى، وخاصة فى مجال العقول الإلكترونية.

ولكن هناك إجماعا فى المحيط العلمى المعاصر حول عدم التوازن فى التقدم العلمى الهائل في عصرنا الحالى، حيث أحرز العلم تقدما هائلا فى المجال الطبيعى، ولكنه ما زال متأخرا فى المجالات المتصلة بالإنسان. ولعل ذلك يرجع إلى عدم فهم العلماء اليوم لطبيعة الإنسان المزدوجة أو لعدم دقة المداخل التى يطبقها العلماء بالنسبة للإنسان المزدوج الطبيعة بين الجسد والروح، تلك المداخل التى مازالت تعتمد على النظرة المادية للإنسان.

إن الدين - فى رأيى - هو وحده الذى يستطيع أن يغير بناء نسيج المجتمعات الحديثة وفق قيمه وفكره وأخلاقياته القائمة على هذه النظرة المزدوجة للإنسان، الجسد والروح، جسد طينى أرضى وروح ربانى نورى. ومن ثم، فمن الضرورى أن يقترن التقدم العلمى المستمر بالتوجيه الأخلاقى للاستخدامات العلمية ذاتها وتطبيقاتها التكنولوجية، وإلا فإن هذا العالم سوف يحدث بنفسه كارثة مروعة ربما أدت إلى انتهاء وجود النوع الإنسانى نفسه من فوق كوكب الأرض، أو ربما وقعت هذه الكارثة ذاتها بفضل الله ذاته وليس بفعل الإنسان. ولعل الصيحة التى أطلقها جون فوستر دالاس فى الخمسينيات عن نظرته لمستقبل الإنسان هل يواجه «حربًا»، أم «سلامًا» كانت نذيرا من النذر الأولى التى نشهد آثارها اليوم فى نزعة الوفاق العالمية.

---

(١) على لسان إبليس أى جانب الشر فى الإنسان.

(٢) علم الضبط وهو خاص بالدراسة النظرية لوسائل السيطرة والتحكم والاتصال بالآلات والأجهزة الفسيولوجية مثل الشبكات العصبية والذاكرة والكومبيوتر.

فى عام ١٩٥٠ ـ أى منذ أكثر من أربعين عاما ـ كتب وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية جون فوستر دالاس يقول : « حاجاتنا الروحية : إن هناك شيئا ما يسير بشكل خاطئ فى أمتنا ، وإلا لما أصبحنا فى هذا الحرج وفى هذه الحالة النفسية . لا يجدر بنا أن نأخذ موقفا دفاعيا وأن يتملكنا الذعر . إن ذلك أمر جديد فى تاريخنا .

إن الأمر لا يتعلق بالماديات ، فلدينا أعظم إنتاج عالمى فى الأشياء المادية . إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوى ، فبدونه يكون كل ما لدينا قليلا . وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت مقدرتهم ، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم ، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم أو القنابل مهما بلغ من قوتها .

فمتى شعر الناس بالحاجة إلى الاعتماد على الأشياء المادية فإن النتائج السيئة تصبح أمرا حتميا .

وفى بلادنا لا تجتذب نظمنا الإخلاص الروحى اللازم للدفاع عنها . وهناك حيرة فى عقول الناس وتأكل لأرواحهم ، وذلك يجعل أمتنا معرضا للتغلغل المعادى كما كشف عنه نشاط الجواسيس الذين تم كشفهم حتى الآن . ولن تستطيع أى إدارة لمكافحة التجسس أن تقوم بحمايتنا فى مثل هذه الظروف . فى الخارج ، لا يمكن تنفيذ سياستنا إلا بالمال والبضائع . وهذه الوسائل محدودة المجال ، ولكونها كذلك فإن سياستنا محدودة الأثر ، والسياسة المحدودة الأثر هى حتما سياسة دفاعية ، والسياسة الدفاعية خاسرة حتما » [1] .

إن «الدين» أمر ضرورى للإنسان . وتظهر هذه الضرورة من خلال وجود عملية «الصراع» أو «العداوة» الموجودة على محورين :

الأول : الصراع الداخلى فى نطاق الكائن الإنسانى ذاته ، أى فيما بين الإنسان ونفسه من واقع تكوينه العضوى الروحى .

الثانى : الصراع فى إطار الإنسانية جمعاء ، أى بين الأفراد وبعضهم أو بين الجماعات وبعضها أو بين الدول وبعضها أو بين الأمم وبعضها أو بين التكتلات المختلفة الأسس وبعضها : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة : ٣٦] .

وضرورة الدين إذن تنبع من ضرورة تأمين حياة الإنسان الفرد والإنسان فى المجتمع ، من خلال توجيهات تشريعية وأخلاقية تراعى طبيعة تركيبه الثنائية ليقيم بها التوزان والتصالح والانسجام والوئام بين قواه المتصارعة داخل الذات وخارجها . وتعاليم الدين ـ كل الدين ـ عبارة عن ترتيبات يتم عن طريقها القضاء على عملية الصراع هذه ليحل السلام النفسى والاجتماعى محل الصراع ، فى واقع حياة الإنسان عن طريق سيادة قيم الإخاء والمحبة والتعاون والإيثار . . إلخ . والفرد الأمثل والمجتمع الأمثل هما اللذان يسود لديهما التكافل فى إطار القيم الأخلاقية ، وهما غالبا فردا أو مجتمعا ينبنيان على الوسطية .

---

(١) جون فوستر دالاس فى كتابه (حرب أم سلام) .

مفاهيم دينية فى دراسة الإنسان :

إنه ليس بخاف على المشتغلين بالدراسات الإنسانية أن آراء دارون فى البيولوجيا قد استحدثت منها اتجاهات أكثر اتساعا فى ميادين السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم النفس بفروعه المختلفة. وقد وجد فى هذه الآراء البيولوجية البحتة كل من أنصار الحرية الفردية وأنصار التقييد لصالح الجماعة، سندهم من الطبيعة الإنسانية ـ كما فسرها دارون وفرويد ودوركهايم وغيرهم ـ لتؤيد وفق مفاهيمهم، نظرة التطوريين إلى الإنسان وصلته بالمملكة الحيوانية. ولكن التطور العلمى فى فروع العلم المختلفة المتصلة بالإنسان قد أثبت لنا الآن خطأ المحاولات التى أريد بها توسيع نطاق التطور البيولوجى ليشمل جوانب أخرى من حياة الإنسان. إن الاتجاه العلمى المعاصر ـ ومنذ فترة ـ يقرر الحقيقة الخالدة التى قررها القرآن منذ أوحى به إلى النبى الخاتم، من أن الإنسان كائن فريد متميز فى قدراته وخصائصه، وبصفة خاصة قدراته العقلية والروحية وما يتصل بها من سلوكيات وقدرات كالقدرة على البيان باستعمال اللغات ، والإرادة الحرة، والذاكرة، والتصور المجرد. . إلى آخر العناصر التى تكون الشخصية الإنسانية الفردية وما يتصل بها من وجدانيات وقيم وأخلاقيات.

وقد برزت فى الأوساط العلمية منذ فترة قريبة دراسات كثيرة وعميقة تركز على هذه الحقيقة وتوضح بجلاء خطأ مقارنة الإنسان بالحيوان، وخطأ توسيع نطاق أفكار التطور البيولوجية البحتة إلى آفاق أخرى من المعارف والعلوم المتصلة بالإنسان. ويؤكد العلم الحديث حقيقة التكوين الثنائى للإنسان باعتباره جسدا وروحا، ووضعت مؤلفات كثيرة فى بيان ذلك، من أبرزها كتاب :

(The Wonder of Being Human - Our Brain our Mind) لمؤلفيه (Daniel N. Robinson) و(Sir John Eccles) . الأول من أشهر علماء النفس المعاصرين وأستاذ علم النفس بجامعة جورج تاون الأمريكية، والثانى ـ السيرجون ـ من أشهر علماء وأطباء جراحة المخ والأعصاب وحاصل على جائزة نوبل. وكتاب (The Mystery of The Mind) لمؤلفه الأستاذ ويلدر بينفيلد (Wilder Penfield) الذى توفى فى السبعينيات فى الولايات المتحدة الأمريكية، وكان من أعظم جراحى المخ والأعصاب الذين ساهموا بخبرتهم خارج بلاده وخاصة فى الاتحاد السوفييتى.

ولا تزال العلوم الإنسانية فى حاجه إلى منهج ملائم لها مختلف عن المنهج الاستنباطى الخاص بالعلوم الرياضية، كما يختلف عن المنهج الاستقرائى الخاص بالعلوم الطبيعية. ذلك لأن الإنسان، الذى هو محور دراسة العلوم ليس عددا أو شكلا مما تدرسه علوم الرياضية، كما أنه ليس مادة من مواد علوم الطبيعة، وليس آلة من مواد العلوم الاقتصادية. فالإنسان مخلوق ثنائى التركيب روح وجسد. ويمكننا أن نقول إن الروح فى الإنسان هى العنصر الأساسى

الذى يتصل بمعانى الوجود، بالأفكار والمشاعر والمعانى والمقاصد التى تقف وراء الوقائع والتغيرات المختلفة. ومن ثم قلنا بأنه يحتاج إلى فهم كيفى وليس كميا أو ماديا، فالروح فى الإنسان لا تقبل الكم أو القياس ولا تخضع للملاحظة أو التجريب ومن ثم يخطىء من يحاول ردها إلى المادة.

يقول الأستاذ الدكتور على عبد المعطى: (١) «ظهرت عدة محاولات تستهدف تشييد منهج واحد للعوالم الإنسانية كلها. تتمثل أهم هذه المحاولات فى التفرقة الدقيقة التى حددتها المدرسة الألمانية التى اعتبرت الفهم (Understanding) محورا أصيلا فى منهج العلوم الإنسانية، وفى مقابل المعرفة التجريبية التى تميز العلوم الطبيعية. فبينما تكون المعرفة الأخيرة خارجية وتجريبية وكمية، يتجه الفهم نحو أعماق الوقائع لكى ينفذ إلى المعانى و الأفكار فيدركها إدراكا خالصا. ومن المحال إخضاع المعرفة الكيفية إلى المعرفة التجريبية الكمية. وحينما اتضح ذلك، قام هجوم كبير على الوضعية ورجالها فى محاولة واضحة لمناصرة قضية الفهم كعملية معرفية للمنهج الكيفى الخاص بالعلوم الإنسانية. ولمعت أثناء هذا الهجوم أسماء كثيرة منها: جورج زيمل وألفريد ميركاندت وسورين كيركجارد، وتشارلز نومى، وفلوريان زنانيكى وربرت ماكيفر وبيتر سوكين، ورايت ميلز وفيرند شتارك ودلتاى وريكرت وماكس وريكمان.

وفى إطار تلك الإسهامات والمحاولات ميز ريكرت بين النفس والجسم تمييزا حاسما وقرر أن ميدان الروح يختلف تماما عن ميدان المادة، إلا أنه لم يتحدث صراحة عن منهج خاص بعلوم الروح رغم أنه تحدث بوضوح عن منهج العلوم الرياضية والطبيعية. أما الفيلسوف الإنجليزى جون ستيوارت ميل فقد تحدث عن العلوم الأخلاقية ليدل بها على العلوم الإنسانية التى نمت نموا كبيرا فى القرن التاسع عشر وتمايزت عن مجموعة العلوم الطبيعية. ويعد الفيلسوف الدنماركى سورين كيركجارت هو الرائد الأول للمنهج الجديد فى العلوم الإنسانية حيث نادى بضرورة دراسة الإنسان وفق مصطلحات علوم الروح لا علوم الطبيعة، وقال بضرورة وجود منهج يفيد فى دراسة الروح والباطن دراسة كيفية خالصة. وذهب إلى نفس المعنى المفكر المثالى المحدث دلتاى. وآخر محاولة فى وضع منهج للعلوم الإنسانية هى تلك التى قام بها ريكمان أستاذ الفلسفة وعلم النفس بجامعة لندن، حيث قدم فى عام ١٩٦٧ صورة نفسية متكاملة لمنهج العلوم الإنسانية معتمدا على مصطلحات المعنى والفهم والتعبير والسياق». «انتهى».

وقد صدرت فى موضوع آدم عدة دراسات جديدة فى مفاهيمها (٢) تناسق النهج معها فى

---

(١) أستاذ ورئيس الفلسفة بجامعة الإسكندرية «فى مقال له نشر بجريدة الأهرام بتاريخ ٢٥/ ١١ / ١٩٩٤م، تحت عنوان (البحث عن منهج للعلوم الإنسانية).

(٢) على سبيل المثال: «آدم أبو البشر» لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى.

هذه الدراسة التى قصدت أن تركز على آدم القرآن وإنسان القرآن من ناحية التميز الإعجازى فى الذات وتشخصها فى وحدتيها الجسدية والروحية. ولقد ساق القرآن نصوصه فى الحقيقة الآدمية فى صورة قصة. والمحور الذى يدور عليه القصص القرآنى هو الدعوة إلى الله، كما أن المحور الذى تدور عليه القصة الآدمية هو كشف أغوار النفس الإنسانية والطبيعة البشرية والقدرات العقلية والروحية فى الإنسان فى علاقته بالبيئة الكونية المحيطة وبالإله الخالق.

والقرآن فى آدم، شأنه فى سائر القصص، يهدف إلى الغوص فى أعماق النفس الإنسانية واستيعاب الحقائق الموضوعية من خلال العرض القصصى أو التمثيلى أو الإشارى. وقد فطن الأستاذ عبد الكريم الخطيب إلى هذا المعنى فى القصص القرآنى ولاحظ: «أن القصة لم تكن طريقا من طرق الدعوة إلى الله فى القرآن إلا بعد أن قطعت الدعوة أشواطا من سيرها مع العقل الإنسانى، والتعريف بالله عن طريق النظر المباشر إلى آيات الله وما صورت قدرته من عجائب الخلق والإبداع. وذلك أن القصة لا تلقى الناس مواجهة بما تحمل من آراء ومذاهب، وإنما يجيء ذلك مهموسا به بين ثنايا الأحداث التى تجرى فى مواقف القصة ووقائعها، ولهذا قد خفى على كثير من الناس ما فيها من آراء واتجاهات، كما يتعذر على كثير منهم مجاوزة المدلول اللفظى لعبارات القصة إلى ما تحمله فى طياتها من إشارات ودلالات [1]».

إننى أعلم أن التصدى لمثل هذه الموضوعات يحمل فى طياته خطرا كبيرا قد يتسلل عن غير قصد إلى بحوث الدارس، وهو يتمثل بالقول بالرأى المحض أو الفكر الذاتى غير المستند إلى أسس من العلم، وينتج هذا من مجرد الإيمان بالنظر العقلى إذا لم يلتزم بقواعد من أصول البحث الدينى، ولذلك فإنى شديد الحرص على أن تكون نظراتى كلها فى هذه الدراسة مستندة إلى أسس من العلوم وملتزمة بالأصول من مقررات الدين ومنهجه فى كشف الحقائق فيها بالتفسير [2] المتمشى مع نصوص القرآن والتأويل المتمشى مع روح القرآن وبما يضيف إلى خصائص التصور الاعتقادى الإسلامى الشامل أعماقا جديدة دون أى مساس بالقواعد الأساسية لخصائص هذا التصور الربانى الشامل ومعتقداته.

ومن المفيد فى هذا المجال أن تتضح أمام الباحث عدة أمور:

١ - إنه وردت فى مواضع كثيرة من التفسير القرآنى - كما فى قصة آدم - إسرائيليات كثيرة دسها على الفهم القرآنى أحبار يهود من الذين دخلوا فى الإسلام ليكيدوا له. وهذه ينبغى تركها تماما، بل القضاء على آثارها من مفاهيم الدين لدى المسلمين - أو غيرهم - قضاء تاما يخلص الفكر الدينى الإسلامى من شوائبه الضارة به أشد الضرر.

---

(١) فى كتابه: «قضية الألوهية بين الفلسفة والدين».

(٢) قارن منهج التفسير الإشارى لدى الصوفية على وجه خاص.

٢ ـ إن الأحاديث النبوية كانت هى دائما المنفذ الذى تجد فيه النزاعات الفكرية موئلها مهما كانت غرابتها عن صريح القرآن أو روحه العامة ، ولذلك فإن هذه الدراسة تعتمد أساسا على النصوص القرآنية ومعها الأحاديث التى رواها ونقلها الثقاة وقصدت بها أن تكون مرآة صادقة للنظرات القرآنية لآدم والإنسان . من هذه التقريرات وحدها ـ فى الأساس ـ تقام خصائص التصور وأبعاده .

٣ ـ الاستفادة من الدراسات العملية المتخصصة ومقرراتها فى شتى فروع المعرفة المتصلة بالموضوع وإعطاؤها القدر الذى تمثله من حجية فى الأوساط العلمية بلا زيادة أو نقصان ، على أساس تجريدها بصرف النظر عن البيئة التى توجد فيها ، وذلك وفقا لعالمية المعرفة وعلى أساس توجيه السيد الرسول فى طلب الحكمة والعلم ، ومع ذلك بالتنبه والحرص من الإيحاءات الفلسفية التى قد تبنى على هذه المقررات العلمية من خلال الواقع الأيديولوجى المنحاز فى العالم المعاصر .

٤ ـ مراعاة حقيقة أو طبيعة الكتاب القرآنى من كون القرآن كلام الله الجامع للحقيقة فى شكلها النظرى المعبر عن وضعها الفعلى فى الكون وفى طبيعة الإنسان . ومراعاة ذلك عند البحث المقارن فى موضوعات الدراسات القرآنية والدراسات العلمية المجردة فى محيطها الأكاديمى .

٥ ـ عدم الأخذ بالتالى ، بالقول بأن نظريات علمية بعينها وبتفصيلاتها هى التى قصد إليها النص القرآنى المعين فى موضوع من الموضوعات المتصلة بالآيات العلمية أو الكونية فى القرآن ، حيث إن القرآن فى الغالب يقرر القواعد العامة أو القوانين العامة تاركا تفصيلاتها لنشاط العقل المتخصص .

٦ ـ التزام الموضوعية التامة فى البحث ومراعاة درجات القين فى مقررات العلوم ومدى الاتفاق أو الاختلاف بالنسبة للفروض أو النظريات العلمية حتى يأمن الباحث الإسلامى مغبة الحكم غير المستقر على مفاهيم النصوص القرآنية التى قد تتغير نتيجة التغير المستمر لمستويات البحث المتعمق فى فروع المعرفة المختلفة .

٧ ـ الالتزام بالقرآن باعتباره الموجه والمرشد الأكبر للإنسانية جمعاء ، منارها فى السلوك المتوازن ، وسبيلها إلى التقدم والازدهارين المادى والروحى القائمين على نتاج النشاط العقلى المدعوم بقواعد من الإيمان بعقيدة التوحيد الشاملة إفرادا لله بالقصد ولمصطفاه من الإنسانية بالاقتداء . على أن يترجم ذلك الجد والاجتهاد والنشاط العقلى البناء فى ظل واقع سلوكى أخلاقى يوجهه القرآن بمنهجه الشامل .

٨ ـ الالتزام بأسس ثقافة إسلامية تنفتح على الثقافات المعاصرة ، تستفيد وتفيد ، وترتقى بالمستوى الثقافى القرآنى لدى عامة المسلمين على أساس من الروح القرآنية التى تحترم العلوم والروابط الإنسانية العامة فى ظل من التعارف بين الشعوب فى صلاتها وبخاصة

الشعوب المسلمة، وانفتاحا على الجوانب البناءة في الحضارتين المعاصرتين الغربية والشرقية.

* * *

لقد توصل الإنسان بفعل نشاطه العقلي إلى اكتشاف العديد من القوانين التي تحكم المادة والطاقة وتصرفاتهما في الكون، سواء عن طريق التجريب أو الرياضيات أو البحث أو النظر الافتراضي. ونحن نعلم أن القرآن قد تناول أيضا الكثير من الموضوعات المتصلة بماديات وطاقات الكون والإعجاز في الخلق الإنساني العضوي والنفسي. ومن ثم يجب أن نأخذ في اعتبارنا دائما أن آيات القرآن أشمل وأدق في بيان «الحقائق» من مستوى معرفي محدد لجيل بعينه يفهم الظواهر الطبيعية فهما معينا بحسب إمكاناته المتاحة، ويعطي لها صورة «الحقيقة» كما يراها بعقله في مستواه المعرفي المحدد بإمكانات زمانه ومكانه. وهذا يعني أن الكون وحده هو الذي يقف في المستوى القرآني حاملا أسرار الحقيقة في آياته الجمالية والجلالية، أفقا للنشاطين العقلي والروحي للإنسان المكابد في سبيل الترقي المعرفي المستمر.

إن الضرورة تقتضي أن يعيد المفسرون المسلمون النظر في حقائق آدم والإنسان عامة في القرآن، بعد أن ارتقت علوم الإنسان وتقدمت تقدما ملموسًا في المجال العضوي وكذلك العقلي والروحي إلى حد ما. لا لتكون هذه غاية في حد ذاتها، لا، فإننا لسنا محتاجين لأن نثبت لأحد أن القرآن هو الحق من عند الله، وأن الصورة الإسلامية القرآنية للإسلام التي جاءت بها الأديان كلها بما فيها اليهودية والمسيحية هي الصورة المثلى.. ولكن هدفنا من المعرفة العلمية في الطبيعيات والإنسانيات وما يتصل بهما أو ينبني عليهما، هو إثراء صرح بنياننا المعرفي المتكامل ورفع مستوانا العلمي للاستفادة منه في واقعنا المرتبط بتوجيهات مبادئ القرآن العامة في إطار من هذه المعلومات المواكبة لأحدث النتاج العلمي المتخصص في المجالات المعرفية المختلفة من أجل صالح مجتمعاتنا وإيجاد الحلول لمشكلاتنا، ومن المفيد وضع قواعد للتربية والسلوك الإنسانيين من خلال معالجة القرآن للنفس الإنسانية وخبرته بها.

ومن المعلوم أن العلوم الروحية تحظى الآن باهتمام كبير في الغرب وفي الشرق على السواء، وإن اختلفت « الغاية» من الدراسات بين الاثنين. والدراسات والبحوث والتجارب المتصلة بالقدرات العقلية والروحية الإنسانية ـ ضمن علم الباراسيكولوجي ـ تلقي، مع كل يوم ،أضواء جديدة على هذا السر الروحاني في الإنسان وقدراته التي تكسر أحيانا كثيرة القوانين المعروفة لعلم الفيزياء وغيره من العلوم المتصلة بالإنسان والكون. وقد فطن عدد من المفكرين المسلمين إلى هذه الضرورة ـ وهي إعادة النظر في كثير من حقائق القرآن في ضوء

التقدم العلمى الكبير فى الدراسات الإنسانية والكونية، ونهجوا فى تفسير الآيات نهجا يربط بين هذه العلوم وبين نصوص القرآن باعتبار الأخيرة الأصل الذى تقاس إليه وترد الحقائق العلمية.

وفى الغرب المسيحى، فطن ألفريد هوايتهيد إلى هذه الضرورة وهو يعالج موقف الدين المسيحى من التصورات العرضية التى زحفت إلى الدين بسبب تعبيره عن أفكاره بمصطلحات الصورة الخيالية التى كانت سائدة من العلم فى العصور الماضية، واعتبر تخليص الدين المسيحى من قيود علم غير مكتمل خطوة نحو الخير، وتأكيدا لرسالة الدين الحقيقية، وأن أى تقدم فى العلم، يبين أن صيغ المعتقدات الدينية تحتاج إلى شىء من التعديل سواء بالتوسيع أو الشرح أو إعادة الصياغة.

القرآن والعصر:

فى كتاب «القرأن العظيم»، تساءل فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الصادق عرجون: هل فسر القرأن؟ قال: « . . إن هذا الجهد البالغ ـ يقصد الذى بذله أئمة السلف والخلف ـ فى بلوغ الغاية فى تفسير القرآن ـ على ضخامة آثاره فى المكتبة الإسلامية وكثرة ما تحوى مما ألف من التفاسير المتفاوتة بين الإيجاز الموحى والإطناب المسهب، كان مبعث تساؤل يتردد اليوم فى أنفس كثير من المسلمين عامتهم وخاصتهم ويتحدث به بعضهم إلى بعض، يقولون: هل فسر القرآن؟ كان هذا التساؤل نتيجة لما يشعرون به من الفراغ العريض العميق فى أرض الحياة الفكرية عند المسلمين فى هذا العصر المتوثب بطفرات العقل الإنسانى، والمفعم بحصائل تجارب العلم والمعرفة التى كانت أثرا من آثار «التطور» الفكرى فى العالم، ونشوء مذاهب جديدة فى الفلسفة والعقائد وظهور آراء حديثة فى ميادين العلوم والمعارف، وقيام أوضاع مبتدعة فى عالم السياسة ونظم الحكم فى الأمم والشعوب، وتأسيس قواعد جديدة فى مجالات الاقتصاد الدولى والمعاملات القومية، وغير ذلك مما شهده ويشهده عصرنا الحاضر، وعالمنا الحديث، والذى يوشك أن تشهد أضعافه العصور المقبلة. وقد كان لهذا كله آثاره الخطيرة على سلوك الإنسان أفرادا وجماعات، وأمما وشعوبا، فضعضع القيم الروحية والفضائل الخلقية ومال بموازين الحياة إلى جوانب تستمد سلطانها من الغرائز الحيوانية والقوى المادية التى تكفر بالروح وتجحد وجودها. هذا الفراغ فى حياة المسلمين الفكرية يحسه كل مسلم يهتم بأمر المسلمين، ويشغله حالهم.

والمتسائلون عن تفسير القرآن إنما يقصدون بتساؤلهم القول بأن الكتب الكثيرة والمختلفة التى ألفت فى تفسير القرآن، وأفعمت بها خزائن المكتبات الإسلامية وغيرها، هل هى نهاية

ما يمكن أن يفهم من معانى آيات القرآن ولم يبق وراء ذلك معنى تستطيع العقول العالمة أن تصل إليه؟ وليس فى الإمكان أبدع مما كان، وقد استوعب الأوائل المعانى القرآنية ولم يتركوا للأواخر شيئا؟ وهل فى هذه التفاسير غنية كاملة لمن يتطلب هداية القرآن الكريم باعتباره خاتم الكتب السماوية وليس لله بعده شريعة يوحى بها إلى أحد من البشر؟

لقد جاء التطور الفكرى والتقدم العلمى بكثير من الأفكار والآراء، والمذاهب الجديدة التى لم يكن للسابقين عهد بها، وهى بآثارها الخطيرة على أفكار المثقفين من الناشئة وعقائدهم وسلوكهم فى الحياة تتطلب بإلحاح مخرجا من دارسى القرآن، والقيمين على بيان هدايته، وإقامة منار حجته، أن يبينوا موقف القرآن فى تفسيره من هذه الأفكار والآراء والمذاهب وأن يبينوا منهجه فى الهداية بما يكشف عن وفائه بحاجة البشرية وفاء لا يعوزها إلى غيره من طرائق الهدايات. وقضية موقف القرآن الكريم من العلم قديمه وحديثه ونظرياته وفنونه وأصوله وفروعه وقضاياه ومسائله، يجب أن ينظر إليها هذه النظرة التى ذهب إليها المتحمسون الذين جعلوا القرآن كتابا يحتوى على مسائل العلوم الطبيعية والنظريات التجريبية والحرف والصناعات مما ذكروه [1]، كما يجب ألا ينظر إليها النظرة التى تقف بالقرآن فى هدايته ومعانيه عند عهود العرب الأميين، وإنما يجب أن يجرى فيها النظر على أساس أن القرآن كتاب هداية ودعوة إلى الله الواحد الخالق المبدع القادر الحكيم الذى أحاط بكل شىء علما، وأنه أنزل من عند الله بشريعة خاتمة للشرائع الإلهية قائمة على نظام شامل للحياة يعتمد على العدل والرحمة. ولقد اقتضت دعوة القرآن وهدايته أن تكون حجته عقلية تقوم على النظرة فى الكون وآياته فى الأنفس والآفاق وبيان ما فيها من آثار اقتدار الله تعالى وحكمته وجلال كبريائه. ولا يمكن الوصول إلى إقامة هذه الحجة لتكون برهانا يقنع غير الأميين من أبناء الإنسانية فى أرجاء الأرض فى حاضرها ومستقبلها إلا إذا اعتمدت على دعائم العلم والبحث». انتهى.

ثم يتحدث فضيلة الشيخ عرجون عن الجانب الكونى فى القرآن باعتباره لم يفسر، فيقول: «إن الجانب الكونى فى آيات القرآن الحكيم - وهو جانب مهم جدا لأنه عماد الدلائل الإلهية على وجود الله تعالى وتوحيده وباهر قدرته وواسع علمه ولطيف حكمته وسائر ما يجب له تعالى من الكمال - فى حاجة ماسة إلى إعادة النظر فيه للتفسير والبيان بأسلوب علمى يبرز عن طريق ملاحظة الظواهر الكونية حجة الله على خلقه ويكشف عما فى الآيات من أسرار ناط الله بها كثيرا من منافعنا ومصالحنا فى الدين والدنيا، وقد أشار إليها القرآن فى

---

(١) يقصد على سبيل المثال الإمام فخر الدين الرازى والشيخ المراغى والشيخ طنطاوى جوهرى والشيخ محمد عبده وغيرهم. وقد انتقد عليهم فضيلة الأستاذ عرجون إسرافهم فى الأخذ بالمنهج العلمى ونسبته إلى النصوص القرآنية. وقد انتقدت أيضا الدكتورة بنت الشاطئ على الشيخ طنطاوى جوهرى نفس المنهج.

آياته ودلائله وبدأ العلم يكشف عنها الحجب ولكن على شرط أن نحذر، فلا نخضع القرآن لنظريات لا تزال فى مهب التجارب، وقد تعصف بها فتصبح من قبيل الأساطير فنقول إنها تفسير لآيات القرآن كما صنع ذلك بعض المتحمسين وبعض المخدوعين ببريق العلم التجريبى. والقرآن إنما تفسره الحقائق والبراهين التى يحققها البحث العلمى المستند إلى الأصول الإسلامية وقضايا العقل المستقيم.

والنظر في تفسير الآيات الكونية يجب أن يقتصر أولا على تبيين هداية القرآن تبيينا علميا لا على أساس أن نجعل النظريات العلمية هى تفسير الآيات القرآنية ومعانيها التى قصدها القرآن الكريم، ولكن على أساس أن القرآن الكريم لا يصادم علما ثبت بالبرهان القطعى ثبوتا لا يحتمل الارتياب. وهذا يتطلب بإلحاح من العلماء المسلمين أن يتسلحوا بالعلم والمعرفة بأوسع معانيهما بقدر ما تتسع له الطاقة البشرية». انتهى.

يجب أن نضع فى اعتبارنا دائما أنه لا يمكن اعتبار مستوى معرفى معين فى عصر من العصور أنه مستوى الكمال والنهاية، لأن المعرفة تتسع وتزداد عبر الأجيال المتعاقبة، وكل جيل يستفيد ممن سبقوه - حتى ولو بالتغيير فى المعلومات - ويضيف جديدا فى صرح المعرفة الذى يبنيه الإنسان. ولذلك لا يمكن أن نعتبر المستوى الحالى - مثلا - للمعرفة بأنه مستقل تماما عن المستويات التى سبقته، لأن المعرفة الإنسانية سلسلة متصلة الحلقات، ولا يمكن أن نفخر بمستوى معرفى معين إلا بالقياس إلى مستوى معرفى سابق عليه، وهكذا. والمحاولات العلمية فى المجالين التجريبى والنظرى المستمرة فى إطار الفروض والاحتمالات، تحتمل دائما الصحة والخطأ، بأقدار متفاوتة، وتحتمل الدقة وعدم الدقة بأقدار متفاوتة أيضا.

وإنه من المفيد أن يتم إيجاد نوع من التناسق بين المفاهيم المستمدة من العلوم والمفاهيم المستمدة من الآيات القرآنية المتصلة بالطبيعيات والإنسانيات وما ينبنى عليهما. كما أنه من المفيد بنفس القدر إيجاد نوع من البحث المقارن بين الأسس والمبادئ القرآنية فى مختلف العلوم التى تشترك فى تكوين النظام الإسلامى الخاص، والتى تتصل بحياة الإنسان الاجتماعية فى الدولة العصرية، وبين الإنتاج العلمى المتخصص فى نفس المجالات من أجل إضافة أبعاد جديدة للتصورات التطبيقية لهذه المبادئ. وهذه الحصيلة العلمية ضرورية لإثراء وتطوير وتوسيع وتعميق الدراسات القرآنية العلمية، مع العلم بأن القرآن يحيط بعلم الإنسان علما كاملا شاملا، عضويا وعقليا وروحيا، لأن مصدره هو خالق الإنسان، ومن ثم فهو أقدر الخبرات على إقامة البيئة التى تناسب حياة الإنسان وتراعى متطلباته العضوية والنفسية فى كل العصور.

ويمكن أن يتم هذا التناسق أو البحث المقارن فى إطار الاتجاه القائم على برنامج شامل أو خطة شاملة لأسلمة المعرفة، بصفة عامة، ويتبنى هذا البرنامج أو هذه الخطة المعهد العالمى للفكر الإسلامى بالولايات المتحدة، وهو المعهد الذى نشأ على أساس أفكار سيد محمد النقيب العطاس، وإسماعيل راجى الفاروقى بصفة خاصة، وهو الذى وضع برنامجا من اثنتى عشرة نقطة لأسلمة المعرفة تبناها بالفعل المعهد المذكور، كما تبنتها الجامعة الإسلامية فى إسلام آباد بالباكستان. ويمكن دراسة موضوع أسلمة المعارف من خلال كتاب إسماعيل الفاروقى الذى وضعه عام ١٩٨٢ بعنوان: (Islamisation of Knowledge : General Princi-ples and work plan) أو كتاب زين الدين ساردار الذى وضعه عام ١٩٨٨ بعنوان : (Islamic Futures). وجدير بالذكر أن المعهد المذكور قد نظم أخيرا فى القاهرة[1] ـ بالتعاون مع الجمعية العربية للتربية الإسلامية ـ لقاء علميا شارك فيه نحو خمسة وعشرين عالما مسلما من مختلف التخصصات مثل الشريعة والاقتصاد والفيزياء والاجتماع وعلم النفس والقانون والهندسة السياسية. . إلخ وكان محور البحث هو كيفية التعامل مع «سنن» الله فى الكون وفى النفس (العلوم الإنسانية) وفى المجتمع (العلوم الاجتماعية).

نظرات فى التفسير الحديث:

تباينت نظرات المفسرين المسلمين لقصة آدم فى القرآن واتخذت اتجاهين رئيسيين:

الأول : يأخذ بظاهر النصوص ويقف عند مدلولاته.

والثانى: يغوص فى أعماق المعانى والإشارات والعبر والدلالات التى وردت فى القصة لاستخلاص الحقائق الأساسية المتصلة بالإنسان وطبيعته وعلاقته بالبيئة المحيطة به بما يتفق ومسئولية خلافة الإنسان فى الأرض. وأبرز المفكرين المسلمين الذى نحوا هذا المنحى، الأستاذ الإمام محمد عبده والأستاذ عبد الوهاب النجار والفيلسوف الصوفى محمد إقبال. وكان هذا الاتجاه فى التفسير يمثل فى الحقيقة نهجا جديدا فى التفكير الدينى. يقول المرحوم الأستاذ عبد الوهاب النجار فى كتابه «قصص الأنبياء»:

«إننى حين شرعت فى كتابى (قصص الأنبياء) كانت أمامى قواعد سرت على ضوئها. . وهأنذا أنصها لتكون نبراسا للمطلع. . وهى:

١ ـ إن العقل ركن المعتقدات الأول. فما أوجبه كان واجبا وما أحاله كان محالا وما أجازه كان جائزا.

---

(١) فى رمضان من عام ١٤١٠هـ الموافق شهر مارس ١٩٩٠م. وقد نشر المعهد العالمى للفكر الإسلامى أول كتاب له فى سلسلة إسلامية المعرفة بعنوان (إسلامية المعرفة ـ المبادئ العامة، خطة العمل، الإنجازات) عام ١٩٨٦.

٢ ـ إن الخبر الوارد عن المعصوم إذا كان قطعى الثبوت والدلالة فهو حجة قاطعة على ما تضمنه، وذلك يشتمل شيئين: الكتاب الكريم: والخبر المتواتر.

٣ ـ إذا عارض الخبر العقل، وجب تأويل الخبر بما يزيل هذا التعارض.

٤ ـ الخبر إذا كان رواته آحادا فلا يصلح أن يكون دليلا على ثبوت الأمور الاعتقادية، لأن الأمور الاعتقادية الغرض منها القطع، والخبر الظنى الثبوت أو الدلالة لا يفيد القطع.

٥ ـ ما نقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية، فما كان منقولا بطريق الآحاد سواء بلغ حد الشهره أو لا، فمردود، لأن نسبة الخطإ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصى إلى الأنبياء.

٦ ـ ما نقل مما يشعر بكذب أحد الأنبياء أو المعصية وكان النقل متواترا، فما يمكن صرفه عن ظاهره صرف إن أمكن، وإلا فيحمل على أنه ترك الأولى أو قبل البعثة.

٧ ـ المعجزات لا تثبت بخبر الآحاد لأن المطلوب فيها اليقين، وخبر الآحاد لا يقين فيه.

٨ ـ إنكار المعجزة الثابتة بنص قطعى الثبوت والدلالة كفر.

٩ ـ الإسرائيليات لا حرج فى مخالفتها ولا فى إنكارها جملة وتفصيلا.

١٠ ـ كتب العهد القديم والجديد، ما كان منها موافقا للقرآن فهو حق، وما كان منها مخالفا فهو باطل. وما كان القرآن ساكتا عنه فلا نقطع بصدقه ولا بكذبه، ويجوز نقله (ساكتا) والاستئناس به.

١١ ـ أقوال المفسرين ليست حجة قاطعة على ما نصت عليه، بل هى أوجه: كما يجوز حمل عبارة القرآن عليها، يجوز مخالفتها، وحمل عبارته على غيرها ولا مؤاخذة على من خالفها.

١٢ ـ القرآن الكريم لاتنقضى عجائبه ولا تنفد غرائبه، فلكل امرئ أن يتدبره على الوجه الذى يستقر فى اعتقاده بشرط أن يكون ذلك جاريا على مقتضى العربية غير مخل بشىء من مقاصد الدين». انتهى.

وقد سرت من ناحيتى، خلال نظراتى فى آدم بالذات وفق هذا المنهج فيما يتعلق بنصوص قصة أدم فى القرآن، معتمدا على «العلم» وعلى «الإيمان»، وفاهما من الأسلوب القصصى فى أدم أنه أسلوب إشارى جاء للدلالة على حقيقة موضوعية متصلة بالإنسان العاقل الروحى، والكون الموجود فى داخل نفسه وخارج هذه النفس فى البيئة الطبيعية الممتدة من كوكب الأرض إلى إطار الكون العظيم، ما هو منظور منه وما هو غير منظور.

ولذلك، اتجهت إلى البحث عن الأبعاد الحقيقية التى قصدت إليها نصوص القرآن فى آدم فى ضوء ما تتناوله هذه النصوص وغيرها فى الإنسان بصفة عامة وخصائصه وصفاته وتركيبه وسلوكه، واتجهت مع ذلك إلى التعمق فى باطن الأسلوب القصصى الذى يتخذ شكل التمثيل أو الحوار أحيانا، وعدم أخذ كل النصوص القرآنية فى آدم على ظواهر معانيها التى قد تستشف من خلال النظرة الأولى، وإنما باعتبارها إشارات لحقائق متصلة بالإنسان وبالكون وبعلاقة الإنسان بالقوى الطبيعية المحيطة به وبمركز الإنسان فى هذا الوجود ومرتبته بالقياس إلى سائر الكائنات فى هذا العالم الممتد الذى تبتدئ آفاقه من داخل نفس الإنسان وتتسع لتشمل الكون الخارجى كله.

ونحن اليوم نعيش فى عصر تقدمت فيه المعرفة الإنسانية تقدما هائلا. وأخذت العلوم التجريبية والرياضية مكانها فى الصدارة بين سائر العلوم، وبخاصة الفلسفية النظرية. واستطاعت العلوم أن تكشف الكثير من أسرار الكون وخفايا الطبيعة وعجائب الخلق مما لم يكن معروفا فى العصور السالفة، وذلك كله بفضل النشاط العقلى الإنسانى، النابع من نفخة الروح. وتقوم اليوم أيضا علاقة متينة ـ بعد أن كانت قد انفصمت فى الماضى ـ بين العلوم والفلسفة بحيث تستند الأخيرة على الأقل إلى فهم كامل وشامل للأولى.

إن طبيعة عصرنا تحتم علينا أن نهتم بكل أنواع ومجالات المعرفة، النظرى منها والتجريبى. فالتحدى الذى يواجهه المسلمون اليوم هو تحد علمى، ينبع من احترام العقل وقدراته، ومن ثم يتعين علينا تشجيع كل البحوث العلمية، وبخاصة تلك التى يمكن أن تسهم فى تطوير واقعنا ـ فى كل المجالات ـ نحو الأفضل.

ومن نافلة القول أن نقول ونكرر إن القرآن معجزة معرفية تتصل بالإنسان العاقل، أى بالعقل وقدراته وبالروح وقدراتها. . وأول آيات القرآن التى تنزلت على النبى محمد كانت توضح المنهاج الجديد الذى اختاره الله للإنسان منذ ذلك التاريخ، وهو منهاج الالتزام بالنشاط العقلى وبالمعرفة الناتجة عن هذا النشاط كنموذج للمعرفة يتسم بالاستمرارية والدوام، ليس فقط للجيل الذى نزل فيه القرآن، وإنما لكل جيل يأتى من بعده وحتى نهاية الوجود الإنسانى على الأرض بقيام الساعة.

إن عصرنا يحترم العقل، وقد احترمه القرآن منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام . . ويحترم الفكر الحر، وقد احترمه القرآن منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام . . وعلمنا المعاصر وإن كان يفتقد توجيه العنصر الأخلاقى والقيم الروحية، وخاصة فى استخداماته وتوجيهاته، فإن القرآن قد فرض التوجيه الأخلاقى والقيم الروحية على العلم واستخداماته وتطبيقاته، وذلك منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام تقريبا. وقد كانت الحضارة الإسلامية السالفة نموذجا لهذا التوجيه الأخلاقى للعلم واستخداماته لدى المسلمين.

إن تفكيرنا الدينى المعاصر ينبغى أن ينقى من كثير من الشوائب التى تعلق به وتعوق حركته الحرة البناءة، شوائب مثل الإسرائيليات والأساطير والخرافات والتطرف والشعوذة والدجل والمفاهيم الخاطئة السائدة وإنكار قدرات العقل والتمسك بالشكليات دون الجوهر من الأمور . . إلخ . وحين ينقى تفكيرنا الدينى من هذه الشوائب فإن النتيجة ستكون تنقية بنفس القدر للشوائب التى تعلق بواقعنا وسلوكياتنا الفردية والاجتماعية فى إطار هذا الواقع . إننا عندما نغير ما بأنفسنا فسيتغير نتيجة لذلك واقعنا المتخلف ذاته . . سننظر إلى مشكلاتنا الأساسية المهمة لنوجد لها الحلول من خلال عملنا العقلى بالأسلوب العلمى الذى يرعاه الدين بقيمه وأخلاقياته وتشريعاته .

إن أولى خطوات نهضتنا تكمن فى تجديد تفكيرنا الدينى ومجالاته واهتماماته آخذين التراث كأساس نبنى عليه بالتطوير والتجديد دون خوف من مخالفة الأولين أحيانا . وعلينا أن نهتم بجوهر الأمور والمهم من المشكلات كما يمليها علينا واقعنا كدولة وكأمة تواجه عالما يسير بخطى سريعة نحو التكتلات السياسية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية والعسكرية ، وفى منطقة من العالم ـ منطقتنا فى الشرق الأوسط ـ نواجه فيها تحديا صهيونيا خطيرا . ولابد لنا ونحن نسلك طريق احترام العقل ونشاطه ، من أن نهتم اهتماما بالغا بالتخطيط العلمى الدقيق والشامل . ولعل أهمية التاريخ فى القرآن تنبع من ضرورة الاستفادة من دروسه وتجاربه من أجل التخطيط الناجح والسليم لمستقبلنا ، وأيضا من أجل تغيير واقعنا المتخلف إلى واقع أكثر تقدما وازدهارا . ولعل الدرس المهم المستفاد من قصة موسى والعبد الصالح التى وردت فى سورة الكهف هو ما تنبهنا إليه من أهمية الرؤية المستقبلية لخير الأفراد والمجتمع ، والتصرف إزاء مشكلات الحاضر بما يحقق الخير فى المستقبل .

* * *

نحن نعلم أن القرآن قد أتى ـ ضمن ما أتى به ـ بوصف دقيق للعديد من الظواهر المادية والطاقية فى الكون وفى المجموعة الشمسية . ومن هنا كان لابد للدارس لآيات القرآن فى هذه الموضوعات أن يكون على دراية كافية بآخر ما توصلت إليه العلوم الحديثة فى الطبيعة والعلوم الكونية الأخرى ، حتى يمكن له أن يفهم جيدا معانى ومقاصد الآيات فى إطار ذلك الكم الهائل المتاح من المعلومات وآخذا فى الاعتبار بالطبع الدرجات المختلفة لحجية هذه العلوم والمكتشفات . وسيستخدم الإنسان عقله فى ذلك كله فى المجال المفتوح له من خالقه ، وهو يعلم أنه بالعقل وحده تتم المعرفة ويتم قبولها وفهمها حتى فى مستواها الروحى وأعظم ما فى القرآن هو تمجيده للمعرفة سواء ما اتصل منها بالعقل المرتبط بالحواس أو بالعقل المجرد غير المرتبط بالحواس . وفى هذا يقرر القرآن على سبيل المثال لا الحصر :

﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت : ٤٩].

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ [سبأ : ٦].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء : ١٠٧].

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٧، ٢٨].

والقرآن يسوق لنا تاريخ الإنسان الاجتماعى والحضارى، لا ليحكى لنا قصص أسلافنا للتسلية، وإنما ليربط تاريخ الإنسان فى الأرض بتوجيهات الخالق. وما يسوقه لنا القرآن هو أمثال للتذكير ولاكتساب الخبرات من أحوال المجتمعات المتقدمة تجنبا لتكرار تجارب ثبت خطؤها، يسوقها لنتعمق فيها بالنظر والفحص والدراسة والتحليل والاتعاظ، للإفادة منها فى الحياة الواقعية للإنسان المعاصر الذى يريد القرآن أن يبنيه بناء جديدا قائما على تصوره الخاص عن الحياة والكون والإله والإنسان ودوره فى الحياة. ومن هنا كان للتاريخ دلالته المهمة فى القرآن باعتباره:

١ ـ سجلا يحتوى على معرفة مخزونة أو حقائق ماضية. وهو يقول لنا بالنسبة للخلق مثلا: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت : ٢٠].

٢ ـ سجلا للحضارات الإنسانية المختلفة فى نشأتها وازدهارها وانهيارها. إن تاريخ الأمم والحضارات تاريخ مترابط متشابه فى الخصائص. ودراسة هذا التاريخ كما قلنا مهمة للاستفادة من العبر والعظات والتجارب: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الروم : ٩، ١٠].

ومن أوائل الذين فطنوا إلى هذه الدلالات التاريخية وأهميتها العلمية الأستاذ الإمام محمد عبده رحمة الله عليه ـ الذى أشار فى تفسيره للآية: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧]، أشار إلى أن سياق هذه الآية يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم وأنه يجب أن يقوم نخبة من العلماء بتوضيح سنن الله فى خلقه للأمة، كما فعل علماؤها السابقون فى علم التوحيد.

نظرتنا إلى العلم :

نحن نعلم أن القرآن يقيم البنيان الثقافى والحضارى المتميز للأمة التى تؤمن به، وأن علاقات هذه الأمة بغيرها من الأمم ينبغى أن تكون على أساس هذا التميز القائم على التصورات الاعتقادية المستقلة. ويبين القرآن للأمة التى تؤمن به وتقيم منهاجه الشامل، أنها ستتعرض دائما لمحاولات الضغوط المستمرة التى لا تهدأ حتى يصيب هذه الأمة نوع من الانحراف عن هدى قرآنها، أو حتى تتأثر فى جانب أو جوانب من حضارتها، بآثار من الحضارة أو الثقافة المختلفة عن البنيان الذى يقيمه القرآن وفقا لتصوراته المستقلة : ﴿ ولن ترضىٰ عنك اليهود ولا النصارىٰ حتىٰ تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدىٰ ﴾ [البقرة : ١٢٠].

إن الحضارة الإسلامية ولو أنها لا تعيش فى عزلة عن الحضارات المعاصرة لها، إلا أنها ذات طابع متميز تماما سمته الأصيلة أنها حضارة تقوم على أساس الإيمان بالله وبكلام الله. وهى تستمد عظمتها وقوتها واستقلالها من هذه السمة والتى تستمد منها أيضا هويتها وعنصر الدفع الروحى يعتبر قوام وجودها المستمر وقوام تجددها. ولذلك كان التمسك بالخصائص القرآنية الأصيلة للحضارة الإسلامية ضروريا لاستمرارها ونموها وازدهارها وحفظها بحيث يكون أى تفريط فى هذه الخصائص نذيرا بالخطر يتهددها، وهو ما حذرنا القرآن منه : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير ﴾ [البقرة : ١٢٠].

وهذا التقرير القرآنى وإن كان قد أتى فى معرض العلاقة بين الرسول ودعوته وبين اليهود والنصارى، إلا أنه يقرر مبدأ عاما فى علاقة الأمة الإسلامية بالأمتين اليهودية والنصرانية، كما أنه يمكن أن يمتد إلى مفاهيم أى عصر من العصور. يجب أن ندرك ـ مثلا ـ أننا كدول تدخل فيما يصنف بالعالم الثالث، سنظل لفترات قادمة مسرحا للتنافس والسيطرة من جانب الدول العظمى والتكتلات الكبرى فى العالم، كما سنكون موضوعا للصراعات الإقليمية بين هذه الدول والتكتلات. فإذا أضفنا إلى ذلك المفهوم، البعد الدينى الذى يتصل بنا والذى يدخل دائما فى حسابات وتقديرات الدول العظمى والتكتلات الكبرى، لأدركنا أنه من الواجب على الأمة المسلمة أن تكون دائما على حذر من المكائد والدسائس والمؤامرات التى تستهدفها أمة مستقلة ذات حضارة وثقافة متميزة وذات مسئولية إنسانية شاملة، خاصة من الغرب المسيحى واليهودى (الصهيونى) ومن الشرق اللادينى، وأن كل دولة إسلامية على حدة ستكون مستهدفة هى الأخرى، وخاصة بالتخريب من الداخل.

إن علينا ـ دولاً وأمةً رائدة وذات دور حضارى ـ أن نعى ونحلل التاريخ جيدا لنستفيد من دروسه ونحن نبنى حاضرنا ونخطط لمستقبلنا لنعرف من عدونا وماذا يستهدفه، ولنعرف

هويتنا ونتمسك بذاتنا الحقيقية وندرك هدفنا، وندرك كيف نحققه بكياسة وفطنة، دولةً وأمةً في عصر سمته الاتحادات والتكتلات والمصالح المشتركة. [1] علينا دائما أن نتمسك بإيماننا القوى بالله سبحانه وتعالى وبتوجيهات كتابنا القرآنى باعتبارهما يضمنان عناصر «الوجود» ومقومات «الاستمرارية» لهذه الحضارة التى تجمع وتوحد قومياتنا وألواننا ومذاهبنا. ومن أبرز خصائص الحضارة الإسلامية مبادئها التى تقوم عليها، وبخاصة الإخاء والتسامح ومراعاة حريات وحقوق الإنسان وتقديس العمل وتمجيد العلم والعلماء. وتمجيد العلم والعلماء هو موضع حديثنا هنا.

لقد كان النبى ﷺ يدعو المسلمين إلى إعمال الفكر، وإلى تنشيط العقل، وإلى طلب العلم والمعرفة دون اعتبار لأى حدود جغرافية أو لغوية باعتبار أن ذلك فريضة على كل مسلم ومسلمة. وقد فضل النبى العالم على العابد مشبها هذه الأفضلية بفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، أى فى نوره. وكان التوجيه الربانى بالنسبة له - وهو المعلم - هو السعى للمزيد من المعرفة والمزيد من العلم: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]. وكان ﷺ يحبب العلم إلى أصحابه ويفضل مجلسه على مجالس الذكر، ويصور لهم طريق العلم مؤديا إلى الجنة، ويرفع أهله إلى مرتبة ورثة الأنبياء، أى فى علومهم.

إن العلم هو الذى يهدى إلى المعرفة بالإله الحق وتقديره حق قدره، ومن ثم تقواه وخشيته: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩]. والعلم ليس مقصورا على علم الفرائض الدينية والعبادات، وإنما هو يشمل العقيدة وكل ما يتصل بها من علوم، وبالشريعة وكل ما يتصل بها من علوم. كما أنه يشمل المعرفة بمعناها وإطارها العام الواسع، وما يتصل بها من تطبيقات تكنولوجية عالية. ولكن هذه المعارف يجب أن تكون موصولة بقاعدتها الصلبة من الإيمان لأن اتصال العلم بالإيمان هو الموصِّل إلى «الحقيقة». وهكذا يخبرنا القرآن حين يقرر: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٦].

إننى أعلم أن مفهوم العلم قد خصص فى عصرنا ليعنى ذلك القدر من المعارف المتصل بالتجربة المعملية والخاضع للحواس، أى العلم التجريبى. واليوم لا تقف العلوم التجريبية وحدها تعالج حقائق الطبيعة، بل امتزجت بها العلوم الرياضية وأصبح الاثنان يكونان معا ذلك الصرح الهائل من النظريات والقوانين العامة والخاصة التى تفسر لنا العديد من الظواهر الطبيعية. ولا شك في أن العلوم الرياضية هى أكثر العلوم إفادة لليقين فى نتائجها، وهى من

(١) لقد فقدت أمتنا دورها الحضارى الرائد وتغيرت موازين القوى فى العالم المعاصر وتخلفنا عن الركب الحضارى - العلمى والتكنولوجى والعملى - المعاصر، ولكننا أمةً تملك كل مقومات اللحاق بركب الحضارة المتقدم. ومستقبلنا المزدهر يكمن فى علمنا المشترك المتكامل كأمة.

العلوم التى تعتمد على العقل اعتمادًا كليا. وفى البحوث العلمية لا يقبل العلماء سوى المنهج التجريبى والمنهج الرياضى، والنتائج الدراسية التى لا تخضع لهذين المنهجين لا تعد مقبولة من الوجهة العلمية الخالصة، ولكن من ناحية أخرى كلنا نعلم أن للعلوم التجريبية مقدرات محدودة فيما يتعلق بتفسير كنه أو ذاتية العديد من الظواهر الطبيعية، مما أدى بهذا المنهج فى العلوم إلى التخلى عن محاولة معرفة هذه الذوات. وهذا ـ على سبيل المثال ـ ما قرره إيدينجتون عام ١٩٢٩ فى حديثه عن الذرة، ومايرسون عام ١٩٣١ فى حديثه عن جوهر الكائن الواقعى، وهو ما تقرر أيضا بالنسبة للكهرباء من الطاقات الكونية. ومن هنا كان للعلوم الفلسفية وعلوم ما وراء الطبيعة دورها فى تفسير الأشياء والظواهر الطبيعية والنتائج المستخلصة بواسطة العلوم التجريبية والرياضية. وكان لابد للفيلسوف ولعالم ما وراء الطبيعة أن يكون كل منهما على دراية كاملة بآخر النتائج التى توصل إليها العلم التجريبى والرياضى فى عصرهما، لأن كل فلسفة لاتراعى هذه النتائج تكون قليلة القيمة، وهذا هو الطابع الذى راعته الفلسفة المعاصرة.

والفلسفة الإسلامية المعاصرة يجب أن تستفيد من أحدث الحقائق والمكتشفات التى توصل إليها العلم التجريبى والرياضى المعاصر بهدف إيجاد نوع من التناسق بين المفاهيم المستمدة من القرآن والمفاهيم التى يقررها العلم التجريبى أو الرياضى ويكون فيها قد بلغ مستوى الحقيقة، ولو فى صورة نسبية. [1] إن القرآن قد احتوى على كثير من النصوص التى تتناول الظواهر الكونية الطبيعية بما فيها ظواهر الإنسان والحيوان والطير والنبات والجماد والطاقة والعوالم غير المنظورة والعوالم الروحية، ومعلوم أن المعارف الإنسانية المتصلة بهذه الموضوعات قد تقدمت تقدما كبيرا فى عالمنا المعاصر.

إن طابع هذا العصر الذى يعيشه الإنسان هو التقدم المطرد والتوسع الهائل فى المعارف والعلوم وتطبيقاتها التكنولوجية العالية، ومن ثم يتعين على مؤسساتنا الدينية أن تمارس نشاطها على أساس اتباع الأسلوب العلمى فى التفكير والإدارة والتخطيط والتنفيذ والدعوة فى إطار نظرة شاملة متكاملة تستفيد من إمكانات الأمة بميزاتها النسبية من أجل تكامل العمل الهادف إلى التطوير نحو الأفضل والأحسن فى كل المجالات التى تنبنى عليها الدولة والأمة.

والأخلاق والثقافة عنصران ضروريان يجب أن ينبنى عليهما سعينا للنهوض بواقع حياتنا المتخلف. ومن مصلحتنا أن ينفتح المسلم المعاصر على العالم الذى يعاصره وأن يدرس

---

(١) وهذا يعنى أننا سنستفيد من المستوى العلمى لدى الغرب بالذات، وهو أمر تفرضه علينا ظروفنا كدول نامية. إننا سنظل لفترة قادمة نحتاج إلى العلوم والتكنولوجيا الغربية إلى أن يأتى الوقت الذى نقف فيه على أقدامنا، وقد أقمنا صرحا من المعارف والتخصصات العلمية يستطيع أن يواجه تحديات العصر ويعمل من خلال علمائنا أنفسهم على تطوير نفسه وترقى مستواه باستمرار بالإضافة والتطوير والتجديد فى إطار «عالمية العلم».

ويشاهد أوجه التقدم المختلفة التى بلغتها الحضارة الغربية بالذات، فيستفيد من هذه الأوجه فى نهضته. كما أنه على المسلم المعاصر أن يدرس أوجه القصور والتخلف المختلفة فى نفس هذه الحضارة الغربية ليتجنب أضرارها ويستمد من تعاليم قرآنه العظيم التوجيهات والتعليمات التى تعالج وتسد أوجه النقص هذه بعد أن يكون قد طبق الجوانب الإيجابية فى هذه الحضارة التى هى عبارة عن تطبيق واقعى لكثير من المبادئ والتوجيهات التى يأمر بها القرآن ونبى القرآن من أجل سعادة الإنسان، مثل تقدير العلم والعلماء وإتقان العمل وتقدير العمال واحترام آدمية الإنسان وحقوقه وحرياته ومساواة الناس أمام القانون . . وغير ذلك.

ومع ذلك كله، فإنى لا أريد أن أعطى العلوم التجريبية أكثر من قيمتها الفعلية، وقد سبق أن ذكرت باحتمالات خطئها وبقصورها عن التوصل لماهية العديد من الظواهر الطبيعية الطاقية مثل الكهرباء والمغناطيسية وغيرهما. كما أنى لا أجعل من هذه العلوم مهيمنة على القرآن، لأن القرآن أسمى، من حيث احتواؤه للحقيقة الكلية، من مستوى أى فكر بشرى فى أى عصر من العصور. وينطبق هذا الحكم على المستقبل العلمى الممتد فى زمان الإنسان بالضبط، كما ينطبق على حاضر الإنسان، وكما انطبق على ماضيه فى السلسلة الموصولة الحلقات للمعرفة التى يتوصل إليها الإنسان.

هذا وإن القرآن لا يتناول تفصيلات كل علم بما يتناوله من دقائق ونظريات وفروض إذ ليس من طبيعته ذلك، وإنما القرآن يوجهنا نحو الحق بمنهاجه الإلهى الشامل الذى يدعونا ــ ضمن ما يدعونا إليه ــ إلى الأخذ بالعلم واحترام العلم والاستزادة من العلم واستخدامه فى إطار أخلاقيات الدين وقيمه الروحية، ويضع فى نفس الوقت التشريعات الكفيلة بتقدم الأمة التى تتمسك بهديه وروحه ونهجه الذى يحترم عقل الإنسان وفكره.

ويقول الرائد الروحى الأستاذ رافع محمد فى حديث له عن تسخير العلم الحديث لخدمة العقيدة: « لقد استقر بنا فى هذا العصر المادى، أن المشاهدة والتجربة هما المصدر الأول للعلم، ومنهما كشفنا الكثير من القوانين الطبيعية، وحقائق المعرفة الصحيحة، وذلك بالمشاهدة الواقعة منا على منظور، أو ملموس أو مدرك. والتجربة التى نجريها، بعقلنا، فيما نجريها عليه من اختيارنا بسلطاننا، هى وسيلتنا، وعليها يقوم منطقنا، ومنها يكون استنتاجنا. وقد أصبح الإيمان بحقائق العلم عقيدة سائغة، صالحة للقبول والفرض عند الكافة أو عليهم، وهذا ليس جديدا على آداب ومعارف الأديان فى حقيقتها، وهو من أصولها . . والمعرفة التى يحصل عليها الإنسان عن الكون، أو عن كونه، ذات وجهين، وجه موجه منه لما يحيط به من الوجود، ووجه موجه منه ككائن عاقل متجرد عن مادة كونه إلى داخله من الإدراك والشهود وكلاهما متجه لكسب معرفة كونية، ينتج عنها ازدواج العلوم بين الكون الكبير والكون

الصغير، وإن اختلفت أسماؤها، وتباينت مجالاتها، الأمر الذى يمكن معه أن نقول بالتزاوج والتلاقى بين العلوم الفلكية والتشريحية من جانب، والعلوم الذرية والوظائف العضوية من جانب. وكذلك ما يمكن أن يشهد ويدرك من توافق بين علوم الطبيعة وعلوم التطبيب، وبذلك أيضا نجد ارتباطا ظاهرا بين دراسة الفرد النفسية ودراسة المجتمع التاريخية». انتهى.

إن الذى أريد توضيحه هو حاجتنا لأن يكون المفسرون للآيات القرآنية فى الكونيات، وفى كل ما يتصل بالإنسان ونظام حياته الشامل، على معرفة وإلمام تام بأحدث النتاج العلمى المعاصر فى المجالات المماثلة. على أننا يجب أن نعى جيدا حقيقة قصور معارفنا الحالية عن الإنسان فى طاقتيه العقلية والروحية، وهى وإن كانت تقدمت كثيرا فى القرن العشرين إلا أنها ما زالت متواضعة إذا قارناها بمعرفتنا عن الطبيعة. وقد فطن إلى هذه الحقيقة أحد كبار المهتمين بالبحوث والتجارب الروحية الحديثة فى مصر وهو المرحوم رافع محمد رافع الذى يقول فى هذا الأمر بعد استعراض عدم دقة معلوماتنا عن الكون: فكيف بنا مع العوالم اللطيفة من عوالم النور والظلام، على اختلاف درجاتها وكثافاتها، مما يلتحق أو يستقل عن العوالم الكثيفة ومما قد نعتبره من عوالمها تجاوزا، على اختلاف فى درجاته من الكثافة واللطافة من العوالم الأثيرية التى ترتبط معنا ونرتبط معها فى حياتها وحياتنا؟!

فكيف بعوالم الطاقة والإرادة، المتحررة من كل كثافة والتى لا يليق وصفها باللطافة، وهى الفياضة بعوالم النور.. فإن الحديث عنها يعجز عنه العقل ولا يرتقى الفكر إلى الإدراك عنها. وهى مصدر الأديان والعقائد، بها قام الإنسان، مظهرا لغيبه من الرحمن، وبها يبعث الروح فى القيام استكمالا لحقائق الأديان. فهل يليق بالإنسان العاقل أن يقول بأن الحياة الدينية استوفت كمالاتها، ونحن كلما تهيأت لنا أسباب التقدم لخطوة، جعلنا منها سببا للتخلف خطوات. انتهى.

لقد بهرت الطبيعة عددا كبيرا من علماء عصرنا ـ ومن سبقوهم ـ فوقفوا عند حدودها المحسوسة لا يتعدونها إلى الحقائق الغيبية التى يحتويها الكون والتى تحدثت عنها الأديان السماوية كلها. وقد حذرنا القرآن من موقف يقف فيه العقل عند هذا المستوى القاصر عندما يزن الأمور بميزانه ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ [الرحمن: ٧، ٨] وأوجب علينا أن نقيم نوعا من التوازن بين معارفنا الحسية ومعارفنا الروحية، فلا نطغى فى الميزان العقلى الذى يزن الكون بحيث نغلب الحس والمادة ونهمل الروحانيات، والعكس، أى لا نطغى فى الميزان بالإنكار التام للماديات والارتماء فى عالم الروحانيات. فالوسط هو الطريق السليم أمام الإنسان ذى التركيب الثنائى العضوى الروحى المكون للذات الإنسانية الواحدة: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٩].

الفصل الثانى

الإنســـان جسد وروح

قصة الخلق قبل القرآن :

تناول القرآن موضوع الخلق بأسلوب يتفق ونهجه العام الملتزم بالموضوعية العلمية . ووجه الإنسان إلى البحث والنظر فى الأرض ذاتها بما فيها من مخلوقات وآثار يمكن أن يكتشف الإنسان من خلالها الكيفية التى بدأ بها الخلق ثم تفرعه وتكاثره وتنوعه . وقد وجه القرآن الإنسان بنفس التوجيهات فيما تناوله من خلق السموات والأرض ـ أى الكون ـ والقوانين التى تحكم ذلك . أما العقائد غير القرآنية ـ خصوصا تلك التى سبقت التوراة والإنجيل ـ فقد نظرت إلى بداية الخلق نظرة أسطورية خيالية تبعد كثيرا عن أسلوب التفكير العلمى المرتبط بمقررات العلوم الطبيعية وغيرها . ولابد من أن نقرر أن هناك فارقا بين هذه العقائد غير القرآنية وما جاء فى التوراة ، نلمس فيه صعود التوراة عن العقائد السالفة فى كيفية الخلق ، بعض الدرجات ، ولكنها لا ترقى إلى حيث يقف المستوى القرآنى المستند إلى المعرفة والعلوم الطبيعية المتصلة بالأرض وتاريخها وتاريخ نشوء وتكاثر الأحياء فيها .

قصة الخلق فى العقائد غير القرآنية طويلة مليئة بالأساطير والخرافات . فمثلا تجد الهندوس ، أصحاب عقيدة الثالثوت الإلهى ، ينسبون الخلق إلى الإله «براهما» الذى بأطراف أنامله صنع شيئا هائلا كبير الحجم لا يكاد يعدل جسمه ، عملاقا وعملاقة تعانقا ، ونفخ الخلاق فى الجسد العملاق فإذا به ينشق نصفين ، نصفا لرجل ونصفا لامرأة . وعلى سطح الأرض نشأ فى العالم أول زوج وأول زوجة فاجتمع الزوجان فكان أول نسلهما البشر [1] . وأطلت المرأة إلى رجلها ، كان فيه شىء لم تفهمه وسر لم تدركه ، وفى الأعماق منها تساءلت : «كيف استطاع ذلك العملاق أن يخرجنى من نفسه ، ثم يخرج منى كل هذه

---

(١) سليمان مظهر : بين السماء والأرض .

الكائنات؟ إنه لشيء رهيب خارق يجعلني أبتعد عنه وأختفي عن ناظريه ». وعندما غدا نهار بعد ليل، كانت الزوجة قد اختفت في صورة بقرة. ولكن الزوج كان في إمكانه أن يصنع نفس الشيء، فانقلب ثورا، وزاوجها. ولذلك تولدت الماشية. وامتلأت الزوجة رعشة جديدة. ومن أجل أن تختفي عملت على أن تتخذ لنفسها هيئة الفرس، ولكنه لم يمهلها بل انقلب هو الآخر في هيئة جواد. وحولت المرأة نفسها لتكون حمارة فحول هو الآخر نفسه ليكون حمارا من أجل أن تولد لهما ذوات الحوافر، وانقلبت الزوجة عنزة فانقلب لها تيسا وتحولت إلى النعجة فتحول كبشا لتكون لهما الماعز والخراف. وعلى وجه الأرض راحت كائنات جديدة تنطلق في كل مكان تتوالد بينها الذكور والإناث حتى بلغ وجودها في التدرج إلى حيث النمل. خلق الإله براهما «مانو» أول البشر وخلق منه أربعة أنواع من البشر غير متساوين : فمن رأسه جاء أفضل الناس وأعظمهم قدسية، وهؤلاء هم الكهنة البراهمة. ومن ذراعه جاء من يليهم في الأفضلية، وهم الملوك والمحاربون وهؤلاء هم الأكثرية. ومن فخذيه جاء أرباب المهن في العالم بين زراع وتجار ممن يوفرون وسائل العيش للكهان والملوك والمحاربين. ومن قدميه جاء بقية الناس الذين ينتمون للطبقة السفلى وليس لهم من مهمة سوى خدمة الطوائف الثلاث السابقة في حاجاتها، وهؤلاء هم الشدرة أو المنبوذون.

والصينيون القدماء من عباد الطبيعة يعتقدون أنه قبل خلق العالم لم يكن هناك شيء على الإطلاق. ثم ظهر شيء، ومن هذا الشيء خلق «بانكو» الذى كان له رأس تنين وجسد أفعى، فاستطاع أن يشكل العالم حوالى عام ٢٢٢٩٠٠٠ قبل الميلاد بعد أن ظل يكدح في عمله هذا ثمانية عشر ألف عام. وعندما مات تجمعت أنفاسه وصارت ريحا وسحابا، وأصبحت أناته الأخيرة الرعد، وأصبح الدم في عروقه الأنهار، وعرقه الأمطار، وعظامه الصخور، وأسنانه المعادن، وشعره الغابات والأشجار، ولحمه الأرض، ورأسه الجبال، وعينه اليسرى الشمس، واليمنى القمر. أما الحشرات التى كانت تتعلق بجسمه فأصبحت آدميين . . وهكذا تمت قصة الخلق.

ومنذ أكثر من ألفى عام كان اليابانيون يرون أن العالم مكان صغير جدا، وأن سهما طويلا سبق أن أطلق من الأرض منذ زمن ممعن في القدم فنفذ من السماء وصنع فيها ثقبا، ومن ذلك الثقب هبطت على الأرض آلاف الأشجار والنباتات والأعشاب وجميع الكائنات الحية . . حتى إن كل ما فوق الأرض لم يأت إليها إلا عن هذا الطريق، السقوط من ثقب في السماء.

أما قصة الخلق فتحكيها لنا عقيدة «الشفتو» في كتابيها المقدسين (الكوجيكى والنيهونجى). وتقول هذه العقيدة إنه في البداية كانت الآلهة . . وكانت الآلهة تولد ذكرا وأنثى ثم تموت، حتى حدث في النهاية ـ في زمن كان يعش فيه الجيل السابع من الآلهة ـ أن أصدر شيوخ الآلهة أمرهم إلى إلهين شابين بأن يخلقا الأرض ويقيما عليها الحياة. ونزل الإلهان إلى الأرض.

وبينما كان كل منهما يأخذ طريقه على طول شاطئ الجزيرة، أخذا يشاهدان ما تصنعه الضفادع فى الماء وفوق الرمال، وأخذ بهما العجب وهما يكشفان سر اتصال الذكر بالأنثى، وبدأت تملأ رأسيهما فكرة جديدة.. لماذا لا يفعلان كما تفعل الضفادع؟ وقد كان.. وتزوج الإلهان وأنجبت (إيراناحى) ٤٢٢٤ ابنا هم مجموع جزر اليابان ثم استمرا ينجبان.

و فى التوراة، تم خلق آدم وحواء بأن أخذ الله ترابا من جميع بقاع الأرض، وكون كتلة وخلقها جسما ذا وجهين، ثم شطره نصفين فصار أحدهما آدم والثانى حواء. وكان آدم طويلا جدا فكانت رجلاه فى الأرض ورأسه فى السماء، وإذا نام كانت رأسه فى المشرق وقدماه فى المغرب. فلما عصى آدم ربه نقص طوله حتى صار كباقى الناس. وخلق الله الأرواح فى الأيام الستة الأولى للخليقة، ثم وضعها كلها فى مخزن فى السماء يخرج منها كلما حملت امرأة. وتتميز أرواح اليهود على باقى أرواح الناس بأنها جزء من الله، كما أن الابن جزء من أبيه. وفى الوقت الذى بدأ فيه بولس الرسول يبشر برسالة السيد المسيح، كان الإغريق يعتقدون - وعقيدتهم بدون مؤسس وبدون كتاب - أن بلادهم هى مركز العالم وأن فى قلبها جبلا عاليا جدا هو جبل أولمب الذى على قمته تقيم الآلهة التى يؤمنون بها، جوبيتر وجونو وفينوس ونيبتيون وبلوتو.. والرومان كانوا على نفس الاعتقاد وكذلك اليونانيون.

إسرائيليات فى قصة الخلق :

كانت قصة آدم فى القرآن موضع شروح وتعليقات كثيرة من جانب المفكرين المسلمين. واختلفت الآراء حول عدد من المسائل التى وردت فى القصة مثل المكان الذى خلق فيه آدم، وأسلوب خلقه، وخلق زوجه، والجنة، والشجرة إلى غير ذلك. وقد اقترنت بالنصوص القرانية فى أدم تفسيرات بعيدة كل البعد عن روح القرآن ونهجه العام، وكثير من هذه التفسيرات منسوب إلى الإمام ابن عباس رضى الله عنه. غير أنه من المعروف لنا الآن أن الروايات نسبت صدقا وكذبا إلى هذا الصحابى الجليل. نظرا لأنه كان يفوق نظراءه فى العلم، وبذلك كان يمكن لهذه الروايات الغريبة على الفكر القرآنى أن تكتسب شيئا من الحجية العلمية نظرا لصدورها من هذا الصحابى العالم الجليل، هذا فى تقديرى هو سبب إسنادها إلى ابن عباس. وعلى كل فما نسب إليه من تفسيرات لقصة آدم أو حولها، فيه روايات وطرق مختلفة، منها القوى ومنها الضعيف ومنها المنكر أصلا.

ومن أمثلة هذه التفسيرات ما رواه السدى(وهو متهم بالكذب فى النقل عن ابن عباس) فى تفسيره عن ابن مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس، وعن ابن مسعود عن أناس من الصحابة : « لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش، فجعل إبليس على ملك

السمـاء والدنيا، وكـان من قـبـيلة من الملائكة يقـال لهم الجن، وإنما سـمـوا الجن لأنـهم خزان الجنة. وكـان إبليس مع ملكه، خـازنا، فوقـع فى صدره وقـال ما أعطانى الله هذا إلا لمزية لى على الملائكة. فلما وقع ذلك الكبر فى نفسـه، اطلـع الله على ذلك منه فقـال الله للـمـلائكة ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]. فقـالوا ربنا ومن يكون ذلك الخليـفة؟ قال يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا. (قالوا) ربنا ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾؟ [البقرة: ٣٠]. ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]. يعنى من شأن إبليس.

فبعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقـالت الأرض إنى أعوذ بـالله منك أن تنقص منى أو تشقينى. فرجع ولم يأخذ، وقال ياربى إنها عاذت بك فأعذتها. فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها فرجع فقال كما قال جبريل. فبعث ملك الموت، فعاذت منه فقال وأنا أعـوذ بالله أن أرجع ولم أنفـذ أمـره. فأخـذ من وجـه الأرض وخلط، ولم يأخـذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسمراء، ولذلك خرج بنو آدم مختلفين. فصعد به قبل التراب حتى عاد طينا لازجا، أى يلتصق بعضه ببعض، ثم قـال للمـلائكة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩]. فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه ليقول له تتكبر عما عملت بيدى ولم أتكبر عنه بخلقه بشرا. فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجـمـعـة، تمر به الملائكة، فـفـزعـوا منه لما رأوه فكان أشـدهـم منه فـزعـا إبليس. فكـان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة، فذلك حين يقـول: ﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن: ١٤]. ويقـول ـ أى إبليس ـ لأمر مـا خلقت، ودخل من فيه فخرج من دبره. وقـال للملائكة لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صـمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه. فلمـا بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح قـال للمـلائكة إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له. فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس، فقالت الملائكة قل الحمد لله، فقال الحمد لله فقال له الله (يرحمك ربك). فلما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل الروح إلى جوفه اشتهى الطعام، فوثب قـبل أن تبلغ الروح رجليه عـجلان إلى ثـمار الجنة فـذلك حين يقـول تعـالى ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع السـاجدين. أبى واستكبر وكان من الكافرين. قال الله له ما يمنعك أن تسجد إذ أمرتك، لما خلقت بيدى؟ قال أنا خير منه لم أكن لأسجد لبشر خلقته من طين، قال الله له ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣]. أى المذلولين. قال: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]. ثم عرض الخلق على الملائكة ﴿ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ

إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١] فى قولكم إن بنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء. فقالوا: ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]. قال الله ﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٣].

وقد روى الحاكم فى المستدرك ما هو قريب من ذلك وبنفس الإسناد، وهو بعيد كل البعد عن مستوى الحقائق التى يقررها القرآن بالنسبة للخلق وبالنسبة لخلق آدم بالذات. ومن هنا يصعب علينا أن نصدق نسبة هذه الروايات إلى عالم جليل كابن عباس لا يعقل أن يصدر عنه مثل هذا الكلام. والأسلوب الذى سيقت به مثل هذه الأقوال يشبه إلى حد كبير أسلوب التوراة فى وصف القصة الآدمية، ولذلك فإنى أوافق الإمام ابن كثير فى قوله عن هذا الكلام إن فيه إسرائيليات كثيرة وإنه ليس من كلام الصحابة .

وكما سبق أن ذكرت فإن الروايات عن ابن عباس فيها القوى وفيها الضعيف وفيها المنكر أصلا: فمن الروايات القوية ما يروى عن طريق على بن أبى طلحة الهاشمى ، عنه وهى التى يقول فيها الإمام أحمد بن حنبل (بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة، لو رحل رَجُل فيها إلى مصر قاصدا، لما كان كثيرا). وقد اعتمد البخارى على هذه الصحيفة فى صحيحه فيما نقله عن ابن عباس. وقد نقل عن جلال الدين السيوطى عن الخليلى صاحب الإرشاد أنه قال: «وهذه التفاسير الطوال التى أسندوها إلى ابن عباس غير مرضية ورواتها مجاهيل. . ». ثم يقول السيوطى : وأوهى طرق التفسير عن ابن عباس طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس، فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدى (وهو الذى نقلنا عنه التفسير السابق المنسوب إلى ابن عباس) الصغير، فهى سلسلة الكذب.

والأستاذ أحمد أمين يعلق على هذا الموضوع فى فجر الإسلام قائلا : « ومن أدلة الوضع أنك ترى روايتين نقلتا عن ابن عباس أحيانا، وهما متناقضتان لا يصح أن تنسبا إليه جميعا. فترى فى ابن جرير مثلا عند قوله تعالى: ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. عن معاوية عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : إنما هو مثل قول قطعهن ثم اجعلهن فى أرباع الدنيا، ربعا ها هنا وربعا ها هنا، ثم ادعهن يأتينك سعيا. وقال ابن جرير بعد قليل، حدثنا محمد بن سعد قال حدثنى أبى قال حدثنى عمى قال حدثنى أبى عن أبيه عن ابن عباس قال : فصرهن إليك، صرهن أى أوثقهن. فهو يفسر صرهن تارة بقطعهن وتارة بأوثقهن. ومن العسير أن نتكلف قولا بأنه فسر هذا زمنا وفسر ذلك زمنا آخر». انتهى.

وقد اطلعت على رواية أخرى منسوبة إلى الإمام ابن عباس أيضا، رواها ابن جرير، وهى

ليست فى مستواها أحسن من الروايات الأخرى التى سقت لها مثالا ، وها هى ذى : « إن الله خلق آدم بيده بعد التراب من طين لازب من حمأ مسنون فمكث أربعين ليلة جسدا ملقى ، وكان إبليس يأتيه فيضربه برجله فيصلصل فيصوت ، فهو قول الله تعالى ﴿ من صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن : ١٤] ثم يدخل فى فيه ويخرج من دبره - أى إبليس - ويدخل من دبره ويخرج من فيه ثم يقول ، لست شيئا للصلصلة ولشىء ما خلقت ولئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت على أعصينك . فلما نفخ فيه الله من روحه أتت النفخة من قبل رأسه فجعل لا يجرى شىء منها فى جسده إلا صار لحما ودما . فلما انتهت النفخة إلى سرته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من جسده فذهب لينهض فلم يقدر ، فهو قول الله تعالى ﴿ وكان الإنسان عجولا ﴾ [الإسراء : ١١] أى ضجرا لا صبر له على سراء ولا ضراء . فلما تمت النفخة فى جسده عطس فقال ، الحمد لل،ه رب العالمين ، بإلهام الله فقال الله له : يرحمك الله يا آدم ، ثم قال تعالى للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين فى السموات ، اسجدوا لآدم فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر لما كان حدث نفسه من الكبر والاغترار . فقال : لا أسجد له وأنا خير منه وأكبر سنا وأقوى خلقا خلقتنى من نار وخلقته من طين . فلما أبى إبليس أن يسجد أبلسه الله أى آيسه من الخير كله وجعله شيطانا رجيما عقوبة لمعصيته . ثم علم آدم الأسماء كلها وهى هذه الأسماء التى يتعارف عليها الناس ، إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . ثم عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة الذين كانوا مع إبليس الذين خلقوا من نار السموم وقال ﴿أنبئونى بأسماء هؤلاء﴾ أى أخبرونى ، ﴿إن كنتم صادقين﴾ أى إن كنتم تعلمون لم أجعل فى الأرض خليفة . فلما علمت الملائكة موجدة الله عليهم ﴿قالوا سبحانك﴾ تنزيها لله أن يكون أحد يعلم الغيب غيره ، تبنا إليك ﴿ لا علم لنا إلا ماعلمتنا﴾ تبريا منهم من علم الغيب إلا ما علمتنا كما علمت آدم . فقال : ﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ أى أخبرهم . ﴿ فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم ﴾ أيتها الملائكة خاصة ﴿إنى أعلم غيب السموات والأرض﴾ ولا يعلم غيرى ﴿وأعلم ما تبدون﴾ أى ما تظهرون ﴿ وماكنتم تكتمون ﴾ أى أعلم السر كما أعلم العلانية يعنى ما كتم إبليس فى نفسه من الكبر والاغترار» . انتهى

* * *

القرآن وخلق الإنسان :

تناول القرآن موضوع خلق الإنسان بأسلوب يتفق ونهجه العام الملتزم بالموضوعية العلمية الدقيقة . فذكر أن الأصل الأول للإنسان هو الماء والتراب أى الطين ، أو الصلصال من الحمإ

المسنون أى الطين المختمر. ويعنى ذلك أن العناصر التى يتكون منها جسم الإنسان هى العناصر الموجودة فى طين الأرض أو مائها وترابها.

جاء فى كتاب القرآن والطب للدكتور محمد وصفى مايلى:

« إذا نظرنا إلى الإنسان لوجدنا جسما يتركب من أعضاء مختلفة، وهذه الأعضاء تتركب بدورها من أنسجة خاصة تتركب بدورها من خلايا دقيقة مرتبة ترتيبا محكما منسقا بديعا. ثم إننا إذا تتبعنا الوحدة البشرية، وهى الخلية، نجد أن أهم محتوياتها البروتوبلازم. والبروتوبلازم هو مادة نصف سائلة، عديمة اللون، تتركب من البروتين ومن كمية قليلة من الدهن وأخرى معلومة من الكربوهيدرات. ويحتوى البروتوبلازم أثناء الحياة على بعض عناصر أخرى عالقة به، بحيث يصبح البروتوبلازم كتلة غير حية من البروتين عند فقدها، وهذه العناصر هى:

الأكسجين - أملاح أهمها الجير - دهن - بروتين - مركب آخر يحتوى آثارا من الحديد، وهذا الأخير هو الذى يعطى البروتوبلازم القدرة على تخزين الأكسجين الذى لو عمل على إخراجه، مات البروتوبلازم وأصبح كتلة غير حية من العناصر المذكورة.

فترى من ذلك أن الوحدة البشرية هى كذلك من مادة الطين، فإذا وضعت فى التربة الصالحة لها، وهى الرحم، وزودت بعناصر الطين، كبرت ونمت وأصبحت المادة الطينية جسما، وأعضاء، وأنسجة، وخلايا مختلفة.

إن العناصر الأساسية التى تتكون منها القشرة الأرضية الطينية، تسعة، تكون ٩٨٪ من هذه القشرة هى:

الأكسجين - السليكون - الألومنيوم - الحديد - الجير - الصوديوم - البوتاسيوم - المغنسيوم - الهيدروجين. أما باقى العناصر فتكون ٢٪ فقط من القشرة الطينية الأرضية (سواء كانت هذه العناصر خالصة أو فى شكل مركبات كيميائية).

وهذه العناصر تنقسم إلى قسمين كبيرين هما العناصر المعدنية والعناصر غير المعدنية. وإذا نظرنا إلى جسم الإنسان نجده مكونا من هذين القسمين من العناصر وهى موجودة فى الجسم على شكل مركبات عديدة، عضوية وغير عضوية. ونسبة المركبات العضوية تختلف عن نسبة المركبات غير العضوية.. والمركبات العضوية المكونة للجسم هى:

(١) البروتينات (المواد الزلالية).

(٢) الدهنيات.

(٣) الكربوهيدرات (المواد النشوية أو السكرية).

هذه المركبات الثلاثة هى المركبات الأساسية التى يتكون منها البروتوبلازم الذى يكون

بدوره المركب الأساسى للخلية الحية التى يتكون منها جسم الإنسان [1] وهذه المركبات الثلاثة عضوية، فمم تتكون البروتينات والدهنيات والكربوهيدرات؟

أولا : تتكون مكونات البروتينات (المواد الزلالية) من الكربون والهيدروجين والأكسجين والنيتروجين وغالبا الكبريت وأحيانا الفوسفور. وهذه كلها عناصر غير معدنية تدخل فى تكوين القشرة الأرضية الطينية ، بل إن عنصرين منها، هما الأكسجين والهيدروجين يعتبران من ضمن العناصر التسعة الأساسية التى تدخل فى تكوين القشرة الأرضية الطينية.

ثانيا : الدهنيات تتركب من الكربون والهيدروجين والأكسجين. وهذه الثلاثة من العناصر غير المعدنية التى تدخل فى تكوين القشرة الأرضية الطينية، بل إن اثنين منها هما الأكسجين والهيدروجين يعتبران من ضمن العناصر التسعة الأساسية التى تدخل فى تكوين القشرة الأرضية.

ثالثا : الكربوهيدرات (المواد النشوية أو السكرية) تتكون من نفس عناصر الدهنيات الثلاثة ولكنها تخالفها فى وجود عنصرى الهيدروجين والأكسجين فيها بنسبة ٢ : ١ (نفس نسبة وجودهما فى الماء).

إلى جانب ذلك نلاحظ أن الماء يعد من أهم المركبات غير العضوية الداخلة فى تركيب الجسم الإنسانى إذ تبلغ نسبة الماء فى الجسم ٦٥٪ من وزنه (مع اختلاف مقدار الماء باختلاف أنسجة الجسم).

إذا قارنا هذه العناصر بالعناصر التى تتكون منها القشرة الأرضية الطينية، نجد:

(١) أربعة منها هى الأكسجين والهيدروجين والجير والحديد، تدخل ضمن العناصر التسعة الأساسية التى تتكون منها القشرة الأرضية.

(٢) الباقى يدخل ضمن بقية العناصر التى تتكون منها القشرة الأرضية الطينية.

ومعنى ذلك أن العناصر التى يتكون منها الجسم الإنسانى تعتبر من ضمن العناصر التى تتكون منها القشرة الأرضية الطينية، وتتطابق بذلك الحقيقة فى مادة الكون مع الحقيقة فى مادة القرآن: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧]. انتهى

أما النشأة الإنسانية التوالدية فهى تخضع لقانون التطور، الأمر الذى يمكن استشفافه من كثير من النصوص القرآنية التى تناولت الخلق الجنينى، ومنها النصوص التالية:

---

(١) يتكون جسم إنسان يزن ٧٠ كجم من النسب التالية:

٦٥٪ ماء - ١٥٪ بروتين - ١٢٪ مواد دهنية - ٦ر٠٪ كربوهيدرات (مواد نشوية أو سكرية) - ٥٪ معادن ومواد أخرى غير عضوية.

ومن العناصر : ٦٣٪ أكسجين - ٢٠٪ كربون - ١٠٪ هيدروجين - ٣٪ نيتروجين - ٨ر١٪ كالسيوم - ١٪ فوسفور. وبذلك يتكون جسم الإنسان فى ٥ر٩٨٪ منه ٦ عناصر فقط والنسبة المتبقية تكون من عناصر أخرى تسمى العناصر الآثارية لأن نسبتها ضئيلة فى الجسم.

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ [الزمر: ٦].

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر: ٦٧].

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

والآيات السالفة صريحة فى دلالاتها على المعانى التالية:

١ - النفس الواحدة هى المصدر الأول للإنسان، وهى هنا النطفة، التى هى فى حقيقة الأمر خلية واحدة حية.

٢ - انقسام النفس الواحدة كأسلوب لتكاثرها الجنسى عن طريق الإخصاب أو التزاوج المؤدى إلى تكوين الذكور والإناث.

٣ - التطور فى أسلوب الخلق الإنسانى من النطفة إلى الميلاد ثم فى الدنيا حتى الوفاة.

نشـأة الحيـاة:

والحياة، التى خلقت خلقا فى الكائنات الحية، ذات صلة وثيقة بالعمليات الطبيعية التى تخضع لعمليات تغيير، والطبيعة ذات صلة وثيقة بفكرة الألوهية لأن الطبيعة من صنع الإله ومظهر لظهور أسمائه وصفاته، وبالتالى هى الوسيلة المؤدية إلى معرفته.

يقول الأستاذ عبد الرازق نوفل: «أثبت العلم أن الإنسان يتكون فى أصله من خلية واحدة، هذه الخلية تكون الصلب من العظام ونصف الصلب من الغضاريف والرخو من اللحم، وهى نفسها تكون اللزج من الأنسجة، والسائل من الدماء وتكون نفسها طبقات الجلد الرقيقة وأهداب العين الدقيقة. وهذه الخلية يتكون منها زيادة على ذلك، السمع والبصر والفؤاد. وينشأ منها الطويل والقصير، والأبيض والأسود على السواء. وهذه الخلية عبارة عن حياة معقدة أمكن للعلم أن يكتشف مكوناتها وتراكيبها وأن يقيس حركتها وتحليل مادتها وطريقة انقسامها. أما سر الحياة فيها فهو ما وقف العلم والعلماء عنده يعترفون بأن هنا الله».

ويقول أيضا تحت عنوان «الخلية الحية»:

ما الحياة؟ هل هى شىء له حجم؟ أم خليط بين حجم ووزن؟ أم هى بين الحجم والوزن؟

أم هى أثير؟ تلك الكلمة التى أطلقت على ما فى الفضاء مما لابد من وجوده إذ لا يمكن أن يكون فراغا. وإن العلماء بما توصلوا إليه من اكتشافات وما استحدثوه من آلات وما كشفوه من علوم ليحنون الرءوس إجلالا ويظهرون عجزهم احتراما لذلك المجهول الذى يطلق عليه الحياة. فالحياة هى الأثر الذى يظهر فى الخلية الحية التى لا تكاد ترى إلا بالمجاهر المكبرة [1] فهذه النقطة التى تناهت فى الصغر، تحتوى على مادة لزجة تسمى (بروتوبلازم) وأثر الحياة فيها أنها تتحرك، فتأخذ من الجو ثانى أكسيد الكربون فى وجود الشمس، وتفصل الأيدروجين من الماء، فتكون بذلك مركبات كيمياوية هى غذاؤها الذى تنمو به وتنقسم.

وقد حاول العلماء ملايين المرات، خلق البروتوبلازم الحى، باتحاد مختلف تراكيب الكربون والماء والضوء، وتحت مختلف الظروف الطبيعية والكيمياوية ، والصناعية ولكنهم أخفقوا وازدادوا إيمانا بوجود خالق لهذه الخلية، التى تعتبر وحدة الكائن الحى، وأن الخلق لا يمكنهم خلق أنفسهم.

وهذه الخلية الحية التى هى وحدة الحياة، تتكاثر فتسبب الكائنات، فهل خلقت أول خلية أم وجدت مصادفة؟ أثبت العلم فى مختلف مراحله أن الأرض كانت قطعة من الشمس انفصلت عنها، وعند انفصال الأرض عنها لابد أن تكون على درجة حرارتها. ولنفترض أنها كانت تماثل درجة حرارة الشمس حاليا، برغم مرور ملايين السنين التى تعمل على خفض حراراتها. فتكون درجة حرارتها ستة آلاف درجة مئوية، أما باطنها فدرجة حراراته أربعون مليون درجة، ولما أخذت الغازات، التى انفصلت عن الشمس لتكون الأرض، تبرد تدريجيا، كونت سطح الأرض وتكون الماء حولها، الذى كلما لامس القشرة الأرضية المرتفعة الحرارة يطير ثانيا إلى الجو فى شكل بخار لدرجة لا تتصور، فيقابل جوا باردا بين الأرض والشمس فيعود إلى الأرض فى شكل طوفان مدمر. وبتوالى انخفاض الحرارة، استقر الماء وتكونت البحار ثم الجبال. وعندئذ نفكر فى الخلية الحية التى يقولون إنها نزلت مع الأرض من الشمس. كيف تعيش خلية حية على درجة حرارة ستة آلاف درجة مئوية مهما كانت مغلفة ومهما اتخذ حيالها من ضروب الوقاية والمحافظة عليها؟

إن الإنسان، باعتباره أرقى الكائنات الحية، درجة حرارته لا تزيد على سبع وثلاثين درجة إلا فى حالات المرض والتى لا يمكن أن تتجاوز فيه عن أربعين. وإذا كان الماء يصبح بخارا فى درجة مائة، فإن درجة ألف كافية لأن تجعل كل شىء مهما كان صلبا على درجة غازية يفقد معها صلابته، فما بالنا بدرجة ستة آلاف وما بالنا بدرجة ٤٠ مليون؟

---

(١) يرى العلماء أنه من المحتمل أن تحتوى أصغر الخلايا التى يمكن رؤيتها على حوالى ربع مليون جزىء بروتينى وهو الذى يحتوى بدوره - فى المتوسط - على حوالى ٢٠٠٠٠ ذرة، وبذلك تكون أصغر الخلايا محتوية على ما يقرب من خمسة آلاف مليون ذرة متحدة فى جزيئات معقدة، ولا يزيد قطر الخلية على $\frac{١}{١٠٠}$ من المللتيمتر على أرجح الفروض النظرية.

هل يمكن أن نتصور وجود شيء صلب على هذه الدرجة؟

وعلى هذا فإن العلم والعقل يقولان باستحالة بدء الحياة بخلية حية جاءت من الشمس، ولابد للكائن أن يكون خلق على الأرض بعد استقرارها . . بطريقة ما ولغرض ما . . أما خلق الحياة فقد أثبت أنها خلقت أصلا . . فقد انقضى عهد نظرية التوالد الذاتى التى كانت تقول بنشأة الحياة من الأشياء غير الحية، فيقول سير وليام هارفى : «كل بيضة تنشأ عن بيضة وكل خلية عن خلية وكل حياة من شيء حى». ويقول ج. س. هالدين «ليس ثمة أى احتمال لاستخلاص العضوى من غير العضوى» ويقول جوستاف بوشيه «هل نخلق المادة الحية؟ كيف يمكن ذلك، حين نفكر كم من الخصائص المتجمعة والوراثة والمستقبل المعقد، يوجد فى قطعة من البروتوبلازم الحية؟». وبذلك نقضت أدلة علم الحياة أية نظرية تقول بأن الحياة تنشأ عن الجماد، وقررت بأن الحياة إنما خلقت خلقا فى الكائنات الحية [1] والذى خلق الكائنات بأية طريقة ولأى غرض هو الخالق، هو الله، سبحانه وتعالى: ﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ غافر : ٦٢ انتهى.

(١) يقرر القرآن بطلان فكرة النشأة الذاتية للحياة من الجماد، وهى الفكرة التى تستند إليها الفلسفة المادية والعلم المادى فى الوقت الراهن، والتى طورها العالم السوفييتى أبارين . وتعتبر نظرية «النشوء الذاتى» من بين النظريات المتعددة عن أصل الحياة، ويحتمل أن تكون أقدمها. وطبقا لهذه النظرية قد تنشأ حتى أعقد أشكال الحياة، ذاتيا من المادة غير الحية. وقد هاجم العالم الإيطالى «ريدى» - طبيب عاش فى القرن السابع عشر - نظرية النشوء الذاتى تجريبيا وشهر بها بشدة. فقد عرض اللحم فى أوان كانت مغطاة بقطعة من النسيج ذات الثقوب الصغيرة. ولم تظهر اليرقات على اللحم، المتعفن، ولكن الذباب وضع بيضه على أغطية النسيج حيث ظهرت اليرقات، فكان من الواضح أن اليرقات التى تظهر عادة فى اللحم الفاسد لم تنتج ذاتيا، ولكنها نشأت من بيض وضعه الذباب الناضج على اللحم. وبعد مضى قرن أجرى الكاهن الإيطالى «سبالنزانى» تجارب مماثلة. ولم تعد نظرية «النشوء الذاتى» تحظى باحترام علماء الأحياء بعد أعمال «ريدى» و«سبالنزانى». ولما اكتشفت البكتريا رأى كثير من مؤيدى نظرية النشوء الذاتى أن احتمال حدوثها ذاتيا - أى البكتريا - داخل أى وسط عضوى هو احتمال صحيح. ولكن تجارب «باستور» الشهيرة نقضت ذلك الاحتمال تماما وكانت هذه هى الضربة القاضية لنظرية النشوء الذاتى للكائنات المعقدة.

ويلاحظ أن دراسات العالم السوفييتى أبارين هى عن التوالد الذاتى لبعض أشكال الكائنات الحية، خاصة الفيروسات، وأشكال الحياة الراقية لا يمكن أن تنحدر من الفيروسات حيث إن الأخيرة معروفة الآن وهى أجسام متطفلة تتوسط الحد الفاصل بين الحى وغير الحى. وحتى لو صحت احتمالات النشوء الذاتى للفيروسات عن طريق التطور الكيمياوى، فإن هذه تعتبر حالة خاصة من النشوء الذاتى وهى لا تتضمن أصلا مباشرا للكائنات المعقدة من المادة غير الحية. ومع ذلك فدراسات وتجارب أبارين استمرت - وهو من العلماء الماديين - فى ميدان إثبات التوالد الذاتى لحياة الكائنات المعقدة عن طريق التطور الكيماوى المتفاعل مع ظروف البيئة المحيطة (راجع فى تفصيل ذلك The origin of Life 1957 تأليف A. I. Oparin ترجمة Ann Singe للإنجليزية). ولكن العلم الحديث فى الحقبة التى نعاصرها من القرن العشرين قد أثبت بطلان القول بالتوالد الذاتى للحياة التى لا تزال سرا مغلقا، وكذلك بطلان القول بفكرة مادة النفس الإنسانية بأدلة كثيرة وفى هذا يقول أليكسيس كاريل : «إن معلوماتنا عن هذا الموضوع المعقد مازالت =

إن تعليقنا الوحيد على كلام الأستاذ عبد الرازق نوفل هو فى صورة تساؤل نترك الإجابة عنه للعلماء المتخصصين، ولكنه على كل حال طرق لباب جديد. والأمر يتعلق بظروف نشأة الحياة فى درجات الحرارة العليا وإمكان أو استحالة هذا الفرض. ماذا يخبرنا العلم عن الشروط الطبيعية اللازمة للحياة؟

تتراوح درجة الحرارة فى أرجاء الكون من درجة الصفر المطلق (وتساوى٢٧٣ درجة مئوية تحت الصفر) التى تقف عندها الحركات الجزئية تماما، إلى عدة ملايين من الدرجات، كما هى الحال فى النجوم، ومنها شمسنا التى تبلغ الحرارة على سطحها ٥٤٨٠ درجة مئوية.

والحياة التى نعرفها يمكن أن تقوم بوظائفها وتتكاثر فى حدود مجال ضيق فقط من الحرارة أى بين ٦٠ درجة فهرنهايتية تحت الصفر و١٨٠ درجة مئوية. وبقاء الحياة حتى فى هذا المجال هى لأننا نستطيع أن نسيطر على درجة الحرارة الداخلية لأجسامنا وحصرها فى حدود مجال أضيق من الحرارة لا يتعدى ثلاث درجات أو أربعا متراوحة حول درجة ٩٨ درجة فهرنهايت. وهذه السيطرة نتيجة عمليات عضلية عصبية متقنة تعمل بمثابة الضابط لدرجة الحرارة.

وللاحتفاظ بغلاف جوى ومجال حرارى ملائمين للحياة لابد أن تكون بالكواكب الحاملة لهما كتلة وجاذبية معينتان تكفيان لمنع الغلاف الجوى المحيط من التبدد فى الفضاء الخارجى. وإذا أخذنا القمر مثلا لنا، نجد أن الغلاف الجوى الذى كان يحيط به تبدد فى الفضاء الخارجى بسبب ضعف الجاذبية فيه وأدى ذلك إلى أن تصبح حرارة سطحه ٢١٤ درجة فهرنهايتية تقريبا خلال نهاره البالغ طوله أسبوعين، بينما تنخفض الحرارة انخفاضا سريعا حتى تصل ٢٤٣درجة فهرنهايتية تحت الصفر. هذه الظروف ـ بجانب ظروف أخرى كانعدام وجود الماء. . ـ جعلت الحياة ـ كما نعرفها ـ غير موجودة على القمر.

إن شدة الحرارة تجعل الحياة مستحيلة فى بيئة ما على أى كوكب. ولكن يظل مع ذلك السؤال بغير إجابة فيما يتعلق بغير ما نعرفه من صور الحياة: هل صورة الحياة الجنية إحدى صور الكائنات الكهربية أم هى صورة من صور الكائنات الإشعاعية؟ أم هى كائنات متجسدة فى اهتزازات موجية ضوئية غير التى ترى من خلال أبصارنا؟ أم هى بخلاف ذلك كله لها تجسد طاقى من نوع لا نعرفه؟. إن القرآن يخبرنا أن هناك نوعا من الكائنات الحية يرجع فى

=أولية، فنحن لا نعلم ما العلاقات التى بين الشعور والعمليات العصبية، والتى بين العمليات الذهنية والمخية. كذلك فإننا لا نعرف كيف تتأثر الوقائع التى تحدث فى الخلايا الهرمية بالحوادث السابقة أو حتى بحوادث المستقبل. أو كيف تتحول الانفعالات إلى مكبوتات والعكس بالعكس. . وكذلك لا نفهم كيف تنبع الظاهرة التى لا يمكن التنبؤ بها من العقل، وكيف يولد التفكير».

أصل نشأته الأولى إلى «النار» وهى كائنات مستترة عن مجال رؤيانا سماها الجن ـ الواحد منها عفريت ـ حيث يقرر ﴿ والجانَّ خلقناه مِن قبلُ من نار السمُوم ﴾ [الحجر : ٢٧]مبينا أن النار تعتبر ظرفا طبيعيا يمكن أن تنشأ (منه) أو (عنه) أو (فيه) كائنات حية ذات طبيعة طاقية معينة قابلة للتجسيد. ويلاحظ كذلك أن خلق الجان قد سبق الخلق الإنسانى، ﴿ والجان خلقناه من قبل.. ﴾[الحجر : ٢٧]، بمعنى أن نشوء الكائنات الحية من النار، أو النور كالملائكة، قد سبق نشوء الكائنات الحية من الماء والتراب. فهل يمكن أن تكون هناك صلة بين الحياة التى بدأت أولا من النار ـ أى فى درجات مرتفعة من الحرارة ـ وبين الحياة التى بدأت بعد ذلك من الماء والتراب؟

الواقع أن هناك عدة نظريات مادية تفسر كيفية نشأة الحياة من الجماد، كتلك التى تقول بأن الحياة نشأت من البروتوجين أو من الفيروس أو من تجمع الجزئيات البروتينية الكبيرة. . ولكن هذه النظريات جميعا لم تسد الفجوة التى ما زالت تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات . والواقع الذى يجب أن نسلم به ـ كما يقول البروفسور رسل تشارلز أرنست: « هو أن جميع الجهود التى بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بالفشل التام وبخذلان ذريع. ومع ذلك، فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المطلع، على أن مجرد تجمع بعض الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدى إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التى شاهدناها فى الخلايا الحية. وللشخص مطلق الحرية فى أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة، فهذا شأنه وحده، ولكنه إذ يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجازا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذى خلق هذه الأشياء ودبرها » .

كما أن العلوم، كما يقول البروفوسور أدوين فاست ـ عالم الطبيعة والمشتغل حاليا بالطاقة الذرية: «عندما تحاول أن تفسر لنا منشأ الكون، نجدها تبين لنا على ضوء ما لدينا من المعلومات عن الطبيعة النووية، كيف تتفاعل الجزيئات الأساسية لكى تكون لنا جميع العناصر المعروفة. فجميع العناصر التى يتألف منها الكون تبدأ ببروتونات لها خواص معينة وقوة جاذبة تجعلها ينضم بعضها إلى بعض. أما كيف نشأت هذه البروتونات ذاتها، ولماذا كان لها هذه الصفات بالذات، فإن ذلك ما لم تستطع أن تقدم له العلوم شرحا أو بيانا. ومهما بالغنا فى تحليل الأشياء أو ردها إلى أصولها الأولى فلابد أن نصل فى نهاية المطاف إلى ضرورة وجود قوانين طبيعية تخضع لها ذرات هذا الكون. ويعد ذلك فى حد ذاته دليلا على وجود إله قادر ومدبر هو الذى قدر لكل ظاهرة من ظواهر هذا الكون أن تسير فى طريقها المرسوم.

وقد خلق الله الإلكترونات والبروتونات والنيوترونات وجعل لها خواصها المعينة فرسم لها بذلك سلوكها وأقدارها. وعندما تحاول عقولنا المحدودة أن ترتد إلى الوراء وتبحث عن ساعة الصفر فى تاريخ هذا الكون، نجدها تسلم ضمنا بأن لهذا الكون بداية ولحظة معينة

نشأت فيها الذرات الدقيقة التى تتألف منها مادة هذا الكون. ولابد أن تكون خواص هذه الجزيئات التى تحدد سلوكها، قد ظهرت معها فى نفس الوقت. ومن المنطق السليم أن يكون السبب الأول الذى أوجد هذه الجزيئات هو الذى أودع فيها صفاتها التى تحدد سلوكها. ولابد أن نسلم بأن قدرة الخالق وتدبيره وإحكامه تفوق قدرة وتدبير الإنسان بل البشر جميعا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وإن أذكى العلماء لا يستطيعون إلا أن يعترفوا بأن الإنسان لا يزال حتى اليوم فى مهد معرفته بأسرار هذا الكون وظواهره». انتهى.

حياة البشر الأوائل:

إن حياة البشر الأوائل كانت حياة بدائية. والعلم الحديث يخبرنا بأن ما يعلمه المتخصصون من العلماء عن الإنسان الأول، مازال قليلا. ويصور هؤلاء العلماء حياة البشر الأوائل فى الغابات على شكل لا يختلف إلا قليلا عن حياة الحيوانات التى شاطرته الحياة على الأرض فى تلك الحقبة من الزمن. وقد كان كفاح الإنسان فى سبيل الحياة أشق من كفاح الحيوانات، لأن هذه كانت تتمتع بوسائل عديدة تمنحها قوة هائلة إلى جانب ضخامة أحجامها وشراستها التى تضاءلت أمامها قدرات الإنسان الأول.

وقد كان الإنسان يعيش بلا مسكن وبغير أدوات، وكان عليه أن يبحث عن الطعام وأن يتجول فى الغابات يأكل النباتات البرية وما يستطيع أن يمسكه من الحيوانات الصغيرة، وكانت حياته مزيجا من الحاجة والحيرة تتسم بالبدائية غير المسئولة وغير الهادفة، كما كان البحث عن الطعام وإشباع الغريزة هما أساس هذه الحياة. وكانت اهتمامات الإنسان الأول تنحصر - كما يخبرنا القرآن - فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن. ولابد أن الإنسان الأول تعرض للموت أحيانا من أثر الجوع أو فى صراعاته مع الحيوانات المتوحشة الهائلة الحجم من أكلة اللحوم. كما أن البشر كانوا فيما بينهم بعيدين عن مظاهر التقدم والتحضر والثقافة، تحكمهم شريعة الغاب الذى يسكنونه.

وبدأ الإنسان يتجول فى الأرض، يهبط أماكنها ويستكشف كوامنها بحثا عن الطعام. وقد علمنا أهمية الطعام بالنسبة للإنسان الأول من تقرير القرآن بإباحة الأكل مطلقا لآدم وزوجه فى الجنة. وكان هذا السير فى الأرض يتم بالتدرج حتى يتعود الحياة الجديدة حيث يسكن الكهوف ويستخدم يديه وعقله. ومن وقتها بدأت حياته فى التطور والترقى، أى منذ هبط الأرض من الغابات التى سكنها أول الأمر - والتى وصفها القرآن بالجنة - فبدأت حياته قدرا من التعقيد والمجهود والمسئولية المحدودة.

وبالخبرة والتجربة، تعلم الإنسان - بواسطة التفكير العقلى التصورى والقادر على التخيل

والتحليل - من السلوك الغريزى للكائنات المحيطة فى البيئة بما فيها الطيور. ويصور لنا القرآن فى قصة ولدى آدم واقعة تظهر فيها العلاقة بين التصرف لدى الطيور والتصرف لدى الإنسان البدائى. والعلماء يخبروننا أن الطيور تتصرف فى سلوكها على أساس الغريزة، وأنها مع ذلك لديها شىء من الذكاء وشىء من القدرة على الاستفادة من التجارب، إلا أنهما ليسا مبنيين على العقل أو القدرة على الإدراك والتمييز. إن حياة الطائر عبارة عن سلسلة من اللحظات كل منها مستقلة عن الأخرى ومنفصلة عنها، بينما قدرة الإنسان على التفكير والخيال تربط الحاضر بالمستقبل والماضى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

ونحن لا نعلم من القرآن الفترة الزمنية التى سكنها الإنسان الأول فى الغابات فى الأرض قبل أن يهبط منها إلى أنحاء الكوكب الفسيح الممدود، ومن الأرجح أن هذه الفترة كانت قصيرة نسبيا، وهى الفترة التى سبقت إنجاب الذرية وحمل المسئولية وبداية الاجتهاد الفكرى فى أولى حلقات التطور الثقافى للإنسان المدرك لقدرته على التصرف الإرادى الحر بما يعنيه من تحمل تبعات التكليف.

ويعلمنا القرآن أن البشر الأوائل كان لهم نوع من الاتجاه الدينى البدائى يتمثل فى الشعور بوجود قوة غيبية هائلة تكمن وراء مظاهر الطبيعة المخيفة حولهم وبما يتمشى مع البدائية الواضحة لحياة الإنسان فى الفترة التى أعقبت أو واكبت الظهور الأول له. فآدم كان لديه نوع من الاتجاه الدينى وإن كان فى صورة بدائية تعكس حياته البدائية ذاتها فى ذلك الوقت. ويظهر هذا الاتجاه الدينى من خلال مشاهد القصة الآدمية، وخاصة فى الحالة النفسية التى اعترت آدم وزوجه بعد أن ذاقا الشجرة وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة لستر عوراتهما، وهى حالة نفسية انتابت آدم وزوجه وكانت غالبا مزيجا من الخجل والندم وتأنيب الضمير نتيجة المعصية.

هذه كلها، بالإضافة إلى تلقى الكلمات والاجتباء والمغفرة، ترسم لنا بوضوح طبيعة اتجاه آدم الدينى أنذاك. والإشارة إلى الشيطان بالنسبة لمعصية آدم غالبًا ما تشير إلى بدائية هذا الاتجاه الدينى عند آدم، أو بدائية صورة الاعتقاد فى الإله المحيط بمظاهر الطبيعة والبيئة القريبة. وقد تبلور هذا الاتجاه الدينى فى صورة أكثر رقيا عند ولدى آدم اللذين كانا يقدمان القرابين للإله، واللذين كان لديهما معرفة واضحة بالخير وبالشر وتصور واضح بحب الله للخير وكرهه للشر وبوجود عقاب فى النار. ولا نجد للشيطان هنا ذكرا حتى عند قتل الأخ لأخيه ثم ما اعترى القاتل من ندم فيما بعد بعد تجربة الغراب الذى جاء يبحث أمامه فى

الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧ – ٣٠].

* * *

النشأة الإنسانية الأولى:

القرآن لا يعتبر النشأة الإنسانية الأولى معضلة ، وإنما هى نشأة يمكن إدراكها بواسطة العقل وفق الأساليب العلمية المتاحة . ولذلك نجد القرآن يشير دائما إلى هذه النشأة الأولية للإنسان ، وهو بصدد الكلام عن النشأة الآخرة : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٢]. وهناك دعوة صريحة للتنقيب فى الأرض والبحث عن الآثار فيها والنظر من خلال ما يكتشف إلى الكيفية التى بدأ بها الخلق : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : ٢٠]. إن على الإنسان أن يبحث فى الأرض ليعرف كيف بدأ الخلق الأول من الأرض ذاتها ، كما أنه على الإنسان أن يبحث فى الأرض لمعرفة الأسلاف من الأقوام السابقين والأمم السابقة وطريقة معايشها ومستوياتها المدنية والثقافية والحضارية : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فاطر : ٤٤] ـ ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ [غافر : ٢١] ـ ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الروم : ٤٢].

أما الأسلوب الذى تم به الخلق الإنسانى الأول من الأرض ، فمتروك بيانه لاجتهاد الإنسان فى إطار علومه والتى هى دائمة التوسع والترقى مع الاسترشاد دائما بمفاهيم الآيات القرآنية . وفى القرآن آيات يمكن أن تفهم وفقا لأى من مبدأى التغيير التدريجى أو التصوير المباشر فى إطار الإيمان بالله الخالق وقوانينه أو سننه فى الوجود الكونى كله بما يحكمها من غاية وقصد إلهيين [١]. أما النظريات التى تحدد بالتفصيل كيفية حدوث الخلق الإنسان وفقا لهذا المبدأ أو ذاك ، التغيير التدريجى أو التصوير المباشر ، فإن القرآن ليس من مهمته أن يتناولها تفصيلا لأنه كما قلنا ونكرر ، ليس كتابا للنظريات العلمية ولكنه ـ وفى هذا الأمر بالذات ـ وضع لنا مبادئ

---

(١) خلال عملية التكوين من الطين .

عامة وقواعد عامة نهتدى بها وفقا لأصوله الاعتقادية الإيمانية، وأبرزها أن الله خلق الخلق وفق قوانين وسنن بهدف وقصد وغاية معينة هى تسبيحه وعبادته ومعرفته وتوحيده. وقد ترك القرآن التفصيلات لاجتهادات الإنسان حسب ترقيه المعرفى يكشف الجديد ويلقى به أضواء على مقصود الآيات التى تتسع فى مجموعها لتحيط بما يكتشفه الإنسان من حقائق.

إن الأخذ بفكرة أو مبدأ التطور شيء يختلف تماما عن الأخذ بنظرية معينة أو محددة تفسر العوامل والقوى التى تحكم أسلوب التطور العام ذاته. والقرآن صريح وواضح فى إثبات فكرة أو مبدأ التطور فى التكوين الجنينى للإنسان حتى الميلاد. وكذلك بالنسبة لحياة الإنسان منذ الميلاد وحتى الموت، وهو الأمر الذى يقرب إلينا مبدأ التطور فى حد ذاته. أما نظرية معينة ومحددة تفسر برؤيتها الخاصة كيفية حدوث التطور، فإنها يمكن أن تكون محل خطأ أو قصور، كما أنها قد تعتمد على فروض لا يمكن إثباتها أو يثبت فى المستقبل خطؤها، ولا يلزم للمؤمنين بمبدأ التطور العام أو فكرة التطور أن يؤمنوا بنظرية محددة هذا شأنها ويفسر بها عالم من العلماء أو مجموعة منهم أحداث وسلوكيات التطور ذاته وفق مستواه أو مستواهم العلمى المحدود والمحكوم بإمكانات عصره أو عصرهم العلمية والتى لابد أن يليها عبر الزمان المتتالى إمكانات أكبر تكشف علوما ومعارف أكثر وأكبر وأدق، قد تقلب النظرية رأسا على عقب وقد تفند الأسانيد التى قامت عليها أو تثبت قصورها أو خطأها فى كثير من نواحيها. وطبعا قد يثبت ذلك كله صحتها، والمهم أن تكون فى حد ذاتها غير قاطعة الدلالة أو غير يقينية النتيجة أو غير نهائية الإثبات. ويجدر بنا أن نضيف هنا أن إرجاع الخلق البشرى الأول إلى طين هذه الأرض (الماء + التراب) ـ وهى الحقيقة التى تدل عليها كثير من الآيات القرآنية ـ لايعنى بالضرورة نموذج الخلق الذى قام به عيسى عليه السلام مع الطير ـ وإن كان لاينفيه بالضرورة أيضا ـ بل إنه يحتمل خضوع عملية الخلق البشرى من الطين فى ذاته إلى عمليات تطورية متتالية أسفرت عن ظهور البشر الأول وزوجه من جنسه، آدم المصطفى.

وهناك من المسلمين من يذهب إلى القول باحتمال أن يكون جسد الإنسان قد خلقه الله فى البداية البشرية من سلالة من طين هذه الأرض فى صورة بشر بدائيين عاشوا فى الأرض، ظهرت وانقرضت منهم أصناف حتى كان المستوى الذى ظهر بآدم عليه السلام، على النحو الذى ساقه لنا القرآن فى كل ملابسات قصة آدم. وقد أورد ذلك المرحوم الأستاذ / عبد الوهاب النجار فى كتابه (قصص الأنبياء). والذين يقولون بهذا الاحتمال يستأنسون بما ورد فى سورة البقرة من قول الملائكة ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك.. ﴾ [البقرة: ٣٠]بعد قول الله تبارك وتعالى لهم ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ فالملائكة لا تعلم الغيب ولا تعلم إلا ما علمه الله لها وهو وحده الذى يعلم غيب أحداث السموات والأرض ﴿ قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ أى عن خصائص، وبالتالى سلوكيات،

هذا الخليفة فى المستقبل فى الأرض. ولما كان الأمر كذلك فإن هناك احتمالا أن تكون الملائكة قد شاهدت من قبل سلوكا بشريا قوامه الإفساد فى الأرض وسفك الدماء والتنازع، وهى مقومات السلوك البدائى للبشر الأوائل فى الأرض قبل التكليف الإلهى للإنسان الذى اقترن بوجود آدم - الخليفة - فى الجنة.

وسواء صح هذا القول أم لم يصح فإنه يؤكد الأصل الطينى الأرضى البشرى لآدم عليه السلام. وقد ذهب محمد إقبال - رحمة الله عليه [1] - إلى أن قصة آدم فى القرآن لم ترد فى معرض بيانه بداية الخلق التى استعمل القرآن فيها لفظى «إنسان» و«بشر» وبذلك يكون المقصود باستعمال لفظ آدم فى الآيتين اللتين ربما تشيران إلى الخلق الأول مقصودا بهما وصف آدمية الإنسان وليس تحديد اسم ذات معينة: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وكذلك: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ [الأعراف: ١١].

لكن الواضح من ظاهر أكثر آيات القرآن أن آدم قد خلق خلقا مباشرا من طين الأرض ثم طوره الله طورا بعد طور من الطين إلى الصلصال كالفخار إلى الصلصال من الحمإ المسنون ثم سواه ثم عدله ثم صوره ثم نفخ فيه من روحه. ويكون الإنسان بذلك قد نشأ مستقلا بذاته. آدم بداية نوعه على الإطلاق، مخلوق فى أحسن تقويم لاصلة له بتاتا بأى من الكائنات السابقة عليه فى الوجود. وربما يوضح لنا مفهوم الخلق المباشر هذا - ولكن فى غير تطور - ما ورد بشأن عيسى عليه السلام فى الآية ٤٩ من سورة آل عمران: ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٤٩] فالأمر هنا واضح وصريح فى أنه أسلوب خلق مباشر، إذ إن عيسى خلق من الطين كهيئة الطير أى كون جسدا طينيا فى هيئة الطير ثم نفخ فيه فصار طيرا بإذن الله، طيرا حيا عاديا كسائر الطير. وإنه وإن كان القرآن لم يستعمل تعبير «هيئة» بالنسبة للبشر حيث نص على: ﴿ إنى خالق بشرا من طين ﴾ [ص: ٧١]ولم ينص على أن الله خالق من الطين كهيئة البشر، فإن ذلك ربما يرجع إلى أن الله خلق البشر الأول وزوجه على غير مثال سبق، بينما عيسى خلق الطير من الطين على مثال سبق هو شكل الطير المعروف والمشهود له ولقومه آنذاك. ويكون توقع الملائكة لإفساد الخليفة فى الأرض وسفكه للدماء هو من واقع خبرتهم بأنماط سلوك قبائل الجن التى كانت تسكن الأرض، وليس من أنماط أى سلوك بشرى سابق على آدم.

ويستلفت النظر تقرير القرآن عن اليهود الذين خالفوا أمر الله باعتدائهم فى السبت ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [البقرة: ٦٥]. وهذا يعنى - والله أعلم - أن مخالفتهم لأوامر الله

---

(١) فى كتابه «تجديد التفكير الدينى فى الإسلام» المترجم إلى العربية.

ونواهيه استوجبت مسخهم إلى نوع من مستوى الكائنات الحية «خاسئ» أو «وضيع» مختلف تماما عن الخلقة الإنسانية المتميزة بنفخة الروح الربانية . ومن هنا يمكن أن نفهم أن الإنسان العاقل نوع مستقل تماما عن نوع القردة ، كل القردة ، التى لم ينفخ الله فيها من روحه ، بالتالى لا تتمتع بخصائص النفخة كما تظهر فى الإنسان . وأهم خصائص تلك النفخة المخ المتقدم والعقل المجرد أو الروح وكل المميزات المتصلة بهذه الحقائق من النطق اللغوى والتصورات الأدبية والمعرفة العلمية والفلسفية . . إلخ .

فالإنسان كائن متميز ومستقل وفريد فى خصائص الخلق والإمكانات ، وهو لذلك كائن مكلف ، محاسب على أعماله ومعتقداته ، ويرجع أصله إلى البشر الأوائل الذين لا تربطهم بأى من أنواع القردة العليا أو الدنيا أى روابط وإنما خلقهم الله من سلالة من طين الأرض أصلهم الأول آدم .

وربما كانت الحكمة فى الإشارة الصريحة والمتكررة فى القرآن إلى الأصل الطينى للإنسان ، هى رد الإنسان إلى عناصر هذه الأرض وإلى رفعه وإخراجه من كل الصلات الأخرى التى كانت مرحلة من مراحل الوجود فى الزمان فى الأرض وحتى لا يصير هناك أى لبس أو خلط بالنسبة لاستقلال الإنسان النوعى وتميزه الخلقى الذى هو الأساس فى تكريم الإنسان وخلقه فى أحسن تقويم ، والذى هو أيضا السر فى الوجود الإنسانى ذاته والحكمة من ظهوره والغاية من وجوده ، ذلكم الذى صوره القرآن وحدده فى «عبادة الله الواحد» . وحين يخبرنا القرآن بالأصل الطينى الذى بدأ منه الخلق الإنسانى ، فإن ذلك يوضح أن العناصر التى يتكون منها جسم الإنسان هى العناصر نفسها التى يتكون منها طين الأرض . فالإنسان ليس غريبا عن هذه الأرض أو عليها ، فهى «كفاته» ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾ [المرسلات : ٢٥ ، ٢٦] . وهى «مهاده» ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ [النبأ : ٦] ، من الأرض خلقه الله . . وفى الأرض يعيده بعد الموت . . ومن الأرض يخرجه بالبعث تارة أخرى . . ولكنه فى الأرض له صلات بالسماء وبرب السماء . فقد نفخ الله فيه من روحه وأوصله بخصائص هذه النفخة إلى العالم الروحانى وأنواره ، وإلى الكون وأنواره ، وإلى خالق الكون وأنواره ، الله ، نور السموات والأرض . فالإنسان تشده الأرض إلى الهبوط ، ولكنه له فيها معارج رفعة . . وفى الوقت نفسه تشده روحه إلى سموات الحق المطلق يعرج فيها إلى ربه حسب طاقاته وقدراته التى تختلف من إنسان لإنسان والتى يقف المصطفى منها على القمة الإنسانية كلها ، الإنسان الكامل ، محمد ، عبد الله ورسوله الخاتم السراج النورى الدائم .

إن آدم يمثل مرحلة جديدة وفريدة ، ومتميزة للإنسان . مرحلة يعتبر فيها هذا الإنسان ـ آدم ـ مستقلا تماما عن كل الكائنات التى سبقته .

والحقيقة التى كانت ستظهر بآدم كانت حقيقة أخرى مختلفة تماما عمن سبقها من الخلق

كله : ﴿ قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ ولهذا كان آدم مصطفى من الله فى إنسانيته الجسدية الروحية، أصوله الجسدية بشرية طينية، وأصوله العقلية أو الروحية نورانية ربانية [1]. وتكون النتيجة النهائية فى أصل النشأة الإنسانية التى تناولها القرآن، هى بيان ارتباط الإنسان الجسدى بمادة الأرض وارتباط روح الإنسان أو عقله بنور الإله الخالق. وقصة آدم هى الطريق من الأرض إلى السماء، من المخلوق إلى الخالق. وبدهى أنه سيترتب على إنسانية الإنسان، وعلى الأصول البشرية لذريته المستقلة فى نوعها، وعلى تميزه بالعقل أو الروح النابع من النفخة الروحية الربانية، نتائج كثيرة تتصل بجميع العلوم الحديثة التى تتصل بدورها بهذا الكائن المتميز الذى خلقه الله سبحانه وتعالى فى أحسن تقويم. فسينبنى على هذه العلوم جميعا أن ننظر إلى الإنسان بهذا المفهوم المثنوى وأن نطور ونغير فى مفاهيمنا لنتعامل مع الإنسان فى إطار هذا المفهوم المثنوى الطبيعى، وخاصة فى علوم النفس والاجتماع والأخلاق والسلوك والعلوم الطبية والبيولوجية. . إلخ، وما يتصل بها من فلسفات وقيم تنبنى عليها الإطارات أو الصروح الكلية للمعارف والعلوم وتطبيقاتها (Epistemology).

وفى هذه المناسبة أحب أن أورد رأى الدكتور محمود عثمان [2] أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد بجامعة الأزهر ـ بشأن النظرية الخاصة بالنشوء والارتقاء، يقول : « . . فقد ورد بشأن خلق الإنسان من النصوص المتواترة أن الله تعالى بدأ خلقه من طين وأنه خلق من تراب ومن طين لازب ومن سلالة من طين ومن حمأ مسنون ومن صلصال كالفخار وورد أنه خلق من ماء وأن الله خلق البشر من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء. هذه النصوص تدل فى ظاهرها على أن الله خلق الإنسان نوعا مستقلا لا بطريق النشوء، والمسلمون يعتقدون ذلك. ولو فرضنا وصول النشوئيين إلى دليل يقينى على النشوء جاز تأويل هذه النصوص، وتأويلها ممكن، ويجوز للمسلم حينذاك أن يعتقد بالنشوء بشرط أن يعتقد بأنه يسير حسب قوانين خلقها الله تعالى، وهى أسباب عادية على رأى أهل السنة أو حقيقية على رأى المعتزلة. ولكن هذا الدليل لم يقم بعد فكل أدلة النشوئيين على أن الإنسان ليس خلقا مستقلا فروض ظنية لا أكثر. والمسلمون على صواب عندما يتمسكون بظواهر النصوص ولا يتركون هذه الظواهر إذا عارضتها أدلة ظنية وليس لهم أن يتركوها إلا لداع قوى يتمثل فى دليل عقلى قطعى».

---

(١) يؤكد علماء عصرنا على الفارق الجوهرى والأساسى الذى يفصل تماما بين الإنسان وبين غيره من الكائنات، وهو فارق الملكات العقلية الذى يقابله فارق واضح ودقيق فى تكوين الدماغ يبين استحالة النطق بغير هذا التركيب الإنسانى الخاص بدماغ الإنسان دون سواه، والذى يحوى هو وحده فقط دون غيره ما يعرف بـ«المناطق الثانوية». وأبرزها المنطقة الخاصة بمراكز الألفاظ الكلامية والمراكز الخلفية التى يعتقد أنها تعد لأدق الوظائف السيكولوجية.

(٢) فى كتابه (الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه) فى فصل «الإسلام ونظرية التطور».

كما أورد ما قاله مفكرنا العظيم الراحل الأستاذ عباس محمود العقاد [١] يقول :

« نقول إن مذهب التطور أيا كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع ، ليس فيه ما يصح أن يستند إليه الملحدون لإبطال الدين أو إنكار الخالق أو القول بخلو الكون من دلائل القصد والتدبير . وقد نسب القول بنشأة الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعي والانتخاب الجنسي إلى عالمين كبيرين من علماء القرن التاسع عشر هما تشارلز داروِن وألفريد والاس ، ولم يكن أحدهما منكرا لوجود الله . . ومن عقيدتي صاحبي المذهب في مسائل الغيب ، نفهم أن العلماء والمفكرين في الغرب ينقسمون هذا الانقسام ، وأن القول بأن عالما من العلماء أو فيلسوفا من الفلاسفة يقبل مذهب التطور على تعدد معانيه لايدلنا على رأى محدود يراه في الدين المسيحي أو في الدين عامة ؛ لأنه يجوز أن يكون من المؤمنين كما يجوز أن يكون من المنكرين أو المترددين ، حسب النهج الذى ينهجه في تفكيره وأساليب استدلاله .

ومن المفكرين والعلماء من كان يجعل التطور أساسا لعقيدته الروحية أو الفكرية . وأشهر هؤلاء بين فلاسفة القرن العشرين : برجسون (فرنسى) وهوايتهيد (إنجليزى) الذى هو رجل من رجال الدين وعالم من علماء اللاهوت اشتغل بعمق في البحوث الرياضية والفلسفية . ويكثر بين العلماء الطبيعيين من يعتبرون التطور دليلا على النظام ، ويعتبرون النظام دليلا على وجود الخالق . ومنهم أعضاء في مجمع العلوم الملكى كالأستاذ جلادستون الذى يقول : «كثير منا نحن المسيحيين من رجال العلم من يدركون أن هناك وحدة في النظام ووحدة في الغاية ، تبدوان من خلال النظر إلى خلائق الله ونحن ندين بأن مذهب داروِن عن بقاء الأنسب لا يبطل فكرة التدبير الإلهى أو فكرة النظام المقصود ، بل يؤكد هذه الفكرة ويمهد لنا سبيل النظر إلى الوسائل التى اختارتها العناية الإلهية لتدبير مقاصدها منذ القدم ، فنرى أنها نتيجة قانون منتظم وليست مجرد سلسلة من المفاجآت المتفرقة» .

أما المنكرون من علماء الطبيعة فحجتهم في الإنكار أن العقيدة الدينية تقوم على الخوارق والمعجزات وأنه لا سبيل إلى التوفيق بين عقيدة تقوم على خرق قوانين الطبيعة وبين علم يقوم على تفسير الكائنات بما تقتضيه هذه القوانين . وعلى مثل هذا المحور يدور الخلاف بين الفريقين اللذين يتفقان في قبول مذهب التطور ، ولكنهما لايتفقان في الحكم على دلالته من الوجهة الدينية . ولكن هذا الاختلاف لا يرجع إلى المذهب في ذاته ، وإنما يرجع إلى طريقة النظر إليه وطريقة التفكير التى تعودها ذهنا العالم أو الفيلسوف ، فربما خرج الذهنان بنتيجتين متناقضتين من فكرة واحدة يراها أحدهما برهانا على وجود الله ويراها الآخر مغنية عن البحث في إثبات وجود الله . . وقد سأل نابليون بونابرت أكبر علماء الفلك في زمانه -

---

(١) في كتابه (الإنسان في القرآن) في فصل «الدين ومذهب داروِن» .

لابلاس ـ عن مكان العناية الإلهية فى حركات الأفلاك، فكان جوابه أنه لا يرى لها مكانا فيما يعلمه من تلك الحركات. كأنه يقول: إن قوانين الحركة وحدها تفسر دورة الفلك تفسيرا يغنى عن النظر إلى علة أخرى وراءها، وهو أسلوب من التفكير يناقض أساليب الذهن الذى يراقب دورة الفلك ويعلم أن العقل لا يستلزم حصولها على هذا الوجه دون غيره، وإنه لابد ـ إذن ـ من البحث عن الإرادة التى اختارت لها هذا الوجه من الحركة فانتظمت عليه.

ولعل الفارق بين هذين النمطين من التفكير يتعلق بالنظرة إلى النظام والمعجزة. فمن كان من القائلين بالتطور مؤمنا بالعناية الإلهية فطريقته فى التفكير أن يستدل بانتظام الخلق على وجود الخالق، وأن يرى بعد ذلك أن المعجزة لا تستغرب مع الإيمان بالقدرة الإلهية والحكمة التى تستدعيها، إذا كان هناك ما يستدعى صنع المعجزات فى رأيه. ومن كان من القائلين بالتطور معطلا للعقيدة الدينية، فطريقته فى التفكير أن التوفيق متعذر بين تفسير الكائنات بالقوانين الطبيعية وبين خرق هذه القوانين لإثبات عقائد الدين.

لكن الرأى الأخير الغالب على علماء اللاهوت المسيحيين أن معارضة الرؤساء من رجال الدين لمذهب التطور عند إعلانه قبل نحو مائة سنة لم يكن من سداد الرأى فى شيء، وإن هذه المعارضة يجب أن تحسب على أصحابها ولا تحسب على الديانة المسيحية التى لا تأبى التفسير على وجه يوافق مذهب التطور على أقواله المتعددة، ويعبر عن هذا الرأى فى كتاب مؤلف لهذا الغرض عالم من أكبر علماء الرياضة وعلماء اللاهوت المعاصرين هو الأستاذ «كولسون» عضو مجمع العلوم الملكى وصاحب كتاب «العلم والعقيدة المسيحية»، ومدار الرأى فيه كله فى هذه الفكرة سواء فيما يرجع إلى مذهب التطور أو إلى غيره من مذاهب العلم الحديث». انتهى.

أما عن موقف الدين من نظريات النشوء والارتقاء، فيقول المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد فى الفصل الأخير من كتابه نفسه :

« . . إن آيات القرآن تفسح للعقل الإنسانى كل طريق من طرق البحث والتأويل، فلا تصده عن طريق قد يترقب منه معرفة نافعة توافق المعارف الشائعة أو تناقضها، فما من طريق يسلكه الباحث الصادق هو طريق مغلق أمامه بحكم من أحكام القرآن، إلا أن يكون الطريق الذى لا يفتحه يوما دين يدعو إلى الله، وهو طريق الإلحاد. . هل من الواجب على المؤمن بالقرآن أن يلتمس فيه تأييدا لأصحاب (النظريات) و(الفروض) فى كل عصر يظهرون فيه؟

نقول (كلا ولاريب) لأنها قد تثبت كلها أو بعضها، وقد يطرأ عليها النقض أو التعديل بين جيل وجيل. ولكن القرآن يعمل على الدين الصالح إذا سمح للعقل أن يلتمس الحقيقة مع كل فرض من الفروض وترك له أن ينتهى بها إلى نهاية شوطه مسئولا عن نتيجة عمله وعما يفيد أو لا يفيد من جهوده ومحاولاته، فليس من عمل الدين أن يتعقب هذه الفروض والنظريات فى معرض الجدل لتأييد تفسير أو خذلان تأويل، وحسبه أنه يملى للعقل عمله ولا يصده عن

سبيله، فهذا هو الوفاق المطلوب بين العقيدة والبحث وبين الإيمان والتفكير. فإذا أخطأ من يقحم القرآن فى تأييد النظرية العلمية قبل ثبوتها، فمثله فى الخطأ من يقحم القرآن فى تحريمها وهى بين الظن والرجحان، وبين الأخذ والرد، فى انتظار البرهان الحاسم بين بينات العقل أو مشاهدات العيان. وقد أخطأ هذا الخطأ جهلاء الدين والعلم الذين حرموا القول بدوران الأرض، وهو أثبت من وجودهم على ظهرها، وأخطأ مثلهم من حرموا القول بجراثيم الوباء وهى ـ فيما تبين بعد ذلك ـ إحدى حقائق العيان.

ومذهب التطور ـ خاصة فيما يتعلق بتحول الأنواع ـ لم يثبت بالدليل القاطع، لأن أنصاره لم يذكروا حتى الآن حيوانا واحدا تحول من نوع إلى نوع بفعل الانتخاب الطبيعى، أو بفعل تنازع البقاء وبقاء الأصلح، ولكن بطلان القول بهذا لم يثبت كذلك بالدليل القاطع على وجه من الوجوه. وليس فى القرآن ما يوجب علينا أن نقول ببطلان الانتخاب الطبيعى، لأن خلق الإنسان من الطين لا ينفى التحول إلى غير الطين، ولا يوجب علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة من صور التركيب، وإنما نعلم من القرآن أن الله بدأ خلق الإنسان من طين. . » انتهى.

وأحب أن أنبه القارئ إلى أنه ليس من مهمة هذا الكتاب عن الإنسان والخلافة فى الأرض، التعرض لتفاصيل النظريات التى وضعت فى كل من التطور والخلق المباشر، فإن مثل هذه المهمة تحتاج إلى مؤلف وحده، ضخم، يستقل بإبراز جوانب هذا الموضوع الذى تزخر به مكتبات الغرب المسيحى ـ على تفاوت فى المواقف بين الأخذ بنظرية تثبت التطور أو تثبت الخلق المباشر ـ إلى جانب مكتبات الشرق المادى الملحد، ومكتبات الغرب الملحد [1] الذى فتح باب نظرية التطور الداروينية لمجالات بعيدة كل البعد عن الحقيقة العلمية المتصلة بالإنسان، الحقيقة التى تميز هذا الإنسان عن سائر ممالك الكائنات بما حباه الله من عقل نابع ـ فى مفهوم الإيمان ـ من النفخة الروحية الربانية.

وكما تقول الدكتور عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، رحمة الله عليها، فإن علماء الغرب قد انتهوا من الداروينية ونقضوها بجديد من البحوث التجريبية والدراسات العلمية، انطلاقا من اكتشاف هياكل آدمية وحيوانية جاوز عمرها حساب دارون بملايين السنين، مع وجود أنواع من البكتريا والقشريات والزواحف والقردة لم يمسسها حتى عصرنا هذا أى تطور، ولا ارتقت درجة عن حالها فى نشوء الأنواع وتطورها بالانتخاب الطبيعى [2].

أما الإمام محمد متولى الشعراوى ـ رحمة الله عليه ـ فإنه ـ على حد علمنا ـ يرفض الأخذ بنظريات التطور المعروفة، ويرجع أصل النشأة الإنسانية إلى الطين، مع جواز أن يكون

(١) فضلا عن مكتبات الشرق الأوسط الإسلامية والمسيحية.

(٢) فى مقال لها نشرته جريدة الأهرام بتاريخ ٢/ ٤/ ١٩٩٠م.

الإنسان قد خلقه الله من الطين، فى عمليات تطورية متتابعة أو تحويلية لمادة الطين، وحتى التسوية النهائية لصورة الإنسان العاقل، آدم، صاحب النفخة . وهو - أى فضيلة الإمام الشعراوى - يستدل على بطلان نظريات التطور بالآية التي تقرر : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف : ٥١].

كذلك يقول العالم الأمريكى : « أ. كريسى موريسون» فى كتابه : "Man does not stand alone" الذى ترجمه إلى العربية الأستاذ محمود صالح الفلكى بعنوان: «العلم يدعو إلى الإيمان»:

« إن القائلين بنظرية التطور (النشوء والارتقاء) لم يكونوا يعلمون شيئًا عن وحدات الوراثة (الجينات) . . (ص ١٤٥).

« لقد رأينا أن «الجينات» متفق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية للذرات فى خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية. وهى تحفظ التصميم، وسجل السلف، والخواص التى لكل شيء حى. وهى تتحكم تفصيلاً فى الجذر والجذع والورق والزهر والثمر لكل نبات، تماما كما تقرر الشكل والقشر والشعر والأجنحة لكل حيوان بما فيه الإنسان» (ص ١٤٧).

. . . « ويلاحظ أن جميع الكائنات الحية، منفصل بعضها عن بعض بهويات كثيفة لا يمكن عبورها. حتى إن الحيوانات المتقاربة ينفصل بعضها عن بعض كذلك».

« والإنسان حيوان من رتبة الطليعة، وتكوينه يشبه فصائل «السيميا» (الأورانجتان والغوريلا والشمبانزى) ولكن هذا الشبه الهيكلى ليس بالضرورة برهانًا على أننا من نسل أسلاف سيمائية (من القرود) أو أن تلك القرود هى ذرية منحطة للإنسان. ولا يمكن لأحد أن يزعم أن سمك القد (Cod) قد تطور من سمك الحساس (Hoddock) وإن يكن كلاهما يسكن المياه نفسها، ويأكل الطعام نفسه، ولهما عظام تكاد تكون متشابهة». (ص ١٤٢).

« إن ارتقاء الإنسان الحيوانى إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادى، ودون قصد ابتداعى.

« وإذا قبلت واقعية القصد، فإن الإنسان بوصفه هذا قد يكون جهازًا. ولكن ما الذى يدير هذا الجهاز؟ لأنه بدون أن يدار، لا فائدة منه. والعلم لا يعلل من يتولى إدارته. وكذلك لا يزعم أنه مادى.

« لقد بلغنا من التقدم درجة تكفى لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبسًا من نور، ولا يزال الإنسان فى طور طفولته من وجهة الخلق، وقد بدأ يشعر بوجود ما يسميه بـ «الروح» وهو يرقى فى بطء ليدرك هذه الهبة، ويشعر بغريزته أنها خالدة.

« وإذا صح هذا التعليل ـ ويبدو أن المنطق الذى يسنده لا يمكن دحضه ـ فإن هذه الكرة الأرضية الصغيرة التى لنا ، وربما غيرها كذلك ، تكسب أهمية لم يحلم بها أحد من قبل . فعلى قدر ما نعلم قد تولد عن عالمنا الصغير هذا ، أول جهاز مادى أضيف إليه قبس من نور الله . وهذا يرفع الإنسان من مرتبة الغريزة الحيوانية إلى درجة القدرة على التفكير ، التى يمكن بها الآن أن يدرك عظمة الكون فى اشتباكاته ، ويشعر شعوراً غامضًا بعظمة الله ماثلة فى خلق» (ص ١٨٧ ـ ١٨٨) .

« إن أى ذرة أو جزىء (Atom, Molecule) لم يكن لها فكر قط ، وأى اتحاد للعناصر لم يتولد عنه رأى أبدًا وأى قانون طبيعى لم يستطع بناء كاتدرائية . ولكن كائنات حية معينة قد خلقت تبعًا لحوافز معينة للحياة ، وهذه الكائنات تنتظم شيئًا تطيعه جزئيات المادة بدورها . ونتيجة هذا وذاك كل ما نراه من عجائب العالم . فما هذا الكائن الحى؟ هل هو عبارة عن ذرات وجزيئات؟ أجل . وماذا أيضًا؟ شىء غير ملموس ، أعلى كثيرًا من المادة لدرجة أنه يسيطر على كل شىء . ومختلف جدا عن كل ما هو مادى مما صنع منه العالم ، لدرجة أنه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه . وهو ـ فيما نعلم ـ ليست له قوانين تحكمه . إن «روح الإنسان هى سيدة مصيره» ولكنها تشعر بصلتها بالمصدر الأعلى لوجودها . وقد أوجدت للإنسان قانونًا للأخلاق لا يملكه أى حيوان آخر ، ولا يحتاج إليه . فإذا سمى أحدٌ ذلك الكيان بأنه فضلة لتكوينات المادة ، لا لشىء سوى أنه لا يعرف كنهه بأنبوبة الاختبار ، فهو إنما يزعم زعمًا لا يقوم عليه برهان . . إنه شىء موجود ، يظهر نفسه بأعماله ، وبتضحياته ، وبسيطرته على المادة ، وبالأخص بقدرته على رفع الإنسان ، المادى من ضعف البشر وخطئهم إلى الانسجام مع إرادة الله . . هذه هى خلاصة القصد الربانى . وفيها تفسير للاشتياق الكامن فى نفس الإنسان ، للاتصال بأشياء أعلى من نفسه . وفيها كشف عن أساس حافزه الدينى . . هذا هو الدين » . . (ص ٢٠١ ـ ٢٠٢) .

وأيا كان الأمر فإن نصوص القرآن ـ وكل الكتب السماوية ـ تقرر حقيقة استعلاء النوع الإنسانى وتفرده ، وتميزه وحده دون سواه من الكائنات فى العالم الحيوانى ، بمقدرات وخصائص وطباع لا يشاركه فيها غيره ، وردت فى القصة الآدمية فى القرآن وفى نصوصه التى تناولت الإنسان بصفة عامة . وهى ترجع جميعها إلى القدرات العقلية والروحية ـ وما يتصل بها من خصائص مميزة فريدة ـ النابعة من النفخة الربانية الروحية التى خص الله بها الإنسان بعد أن خلقه وسواه وعدله [1] .

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن ألفريد والاس الذى اكتشف مع تشارلز داروين مبدأ الانتخاب الطبيعى كان مصرًا على أن التفسير المادى البحت للتطور البيولوچى ، لا يمكنه أن يفسر الطبيعة الروحية للإنسان . . وأن هذه الطبيعة إنما تجد أصولها فى عالم الروح غير المرئى .

ومن هنا فقد باءت بالفشل كل المحاولات التى استهدفت توسيع نظرية التطور البيولوچية الداروينية - حتى بالتعديلات التى أدخلت عليها بعد دارون - وتطويعها بالنزعة المادية أو الحيوانية لتقيم على أساس من النزعتين دراسة التركيب النفسى للإنسان. وتكاثرت الأدلة العلمية التى تبين تميز وتفرد الإنسان عن غيره من الحيوانات أو الماديات بما يحويه من قدرات نابعة من العقل لا يستقيم تفسيرها إلا من خلال التركيب الثنائى للإنسان، جسد وروح. فهناك الوعى الذاتى والذاكرة واللغة والتصرف الإرادى الحر واعتناق العقائد والتمسك بالقيم والمثل، والشعور بالمسئولية، وبالتالى الحقوق والواجبات، والتصور والتخيل فى إطار كونى شامل، وهناك الثقافة والإدراك الزائد عن الحواس (Extra Sensory Perception) كلها من خصائص العقل الذى يبرز طاقاته من خلال المخ بتركيبه المتميز الفريد الموصول بالجهاز العصبى المتقدم جدا لدى الإنسان.

والعقل من خصائص «الذات» الإنسانية الفردية المستقلة التى تعتبر أيضا «القلب» أو «المركز» للنشاط الفكرى كله ذى الأساس الروحى الموهوب من الإله للإنسان، لكى يعرف الإنسان نفسه ويشهد فيها آيات الله، ويعرف الكون من حوله ويشهد فيه أيات الله، حتى يتبين الحق من خلالها ويتم الإيمان بالله عن طريق الشهود للآيات والعلم بمحتواها. بذلك يقوم الإنسان بدور الخليفة فى الأرض وهو يملك مقومات أداء هذا الدور بما لديه من إمكانات بلورة تصور «إيمانى» فى العلاقة بينه وبين الإله والكون يتم به إسلامه للإله، وهو الدين، كل الدين، كما يتم به الارتباط بأشكال هذا الدين الإلهية المصدر عندما تتنزل على مر العصور. القرآن خاتم هذه الأشكال، وهو يمثل قيما أخلاقية وعقائد يعتبران هما الأساس المتين لمنهاجه التشريعى الكامل الذى ينظم حياة الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والأمة والعلاقات الدولية للأمة.

إن مقومات الخليفة إنسانٌ:

١ - يملك العقل.

٢ - يملك الحرية.

٣- يملك الإرادة.

٤ - يملك القدرة.

وهو من خلال هذه المقومات إنسان مكرم له حقوقه وعليه واجباته، وكرامته هى الصفة اللصيقة بذاتيته الفردية المستقلة: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

الخلافة الإنسانية فى الأرض تعتبر بداية لدور وليست نهاية دور. إنها بداية لاتصال المخلوق بالخالق عن طريق «الوعى» و«المعرفة» لهذا المخلوق الذى أتاه الله سبحانه وتعالى إمكانات تحقيق هذا الاتصال. وإمكانات الاتصال تتفاوت من بشر لآخر، كما أن أساليب هذا الاتصال تتفاوت من بشر لآخر. ويأتى فى قمة هذه الإمكانات والأساليب البشرية لتحقيق الاتصال بين المخلوق والخالق، محمد النبى الخاتم ﷺ. وتعتبر الصلاة هى قمة الوسائل لتحقيق هذا الاتصال، كما يعتبر القرآن فى قمة الكتب التى تبين وتحتوى الحق وتفسيره من خلال النفس الإنسانية والكون الخارجى بما يقيم مبدأ «وحدة الحق». ولذلك فالقرآن واحد لا يتكرر ولا يمكن أن توجد منه صورة مماثلة: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

* * *

أود أن أشير فى نهاية هذا الفصل إلى رأى أستاذنا الإمام محمد ماضى «أبو» العزائم بالنسبة للتركيب الروحى الجسدى للإنسان فى معرض فهمه للآية: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين: ٤ - ٦]. فعنده أن الله سبحانه وتعالى خلق أولا الحقيقة الروحية النورية للإنسان، واستمرت هذه الحقيقة فى الوجود فى عالم الأمر الروحى لفترة تسبح ربها فى وجودها المطلق عن القيود الأرضية الطينية والأبعاد الفيزيقية، حتى أتى طور الوجود الجسدى للإنسان الذى سواه خالقه بالكيفية التى تمكنه من استقبال الحقيقة الروحية النورية، نفخة من الله فى الإنسان المسوى، وعودة إلى أسفل سافلين مادة الأرض بعد الوجود فى أحسن تقويم الروح. وتميز الإنسان بخصائص هذه النفخة الروحية الربانية وخاصة فى تعلم الأسماء والتميز بها على الملائكة.. تشده روحه إلى عوالم الملأ الأعلى ويشده جسده إلى مقتضى غرائزه وشهواته. إنسان ثنائى الطبيعة يمكنه العروج إلى سموات الأرواح السامية، بل يتعداها إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر ملتمسا أنوار رب العالمين، أنوار السموات والأرض. وملبيا لدواعى عضويته وجسديته من خلال إقامته لفرد ولمجتمع من أطهر وأكمل بنى الإنسان فى الأرض، يسلكون مسالك الأخلاق العالية، ويرسون دعائم قيم الدين ومثله العليا وتشريعاته القانونية العادلة.. يرتفعون بذلك إلى مرتبة «أحسن تقويم» لا يخرجون منها إلى مرتبة «أسفل سافلين»: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين: ٦].

وربما يسأل أو يتساءل البعض، هل سبق الأصل النورانى لآدم - أى روحه - أصله الطينى، فى الخلق والوجود؟ وهل يرجع الكون كله فى بداياته الأولية إلى الطاقة أم إلى الصور المادية

الكثيرة؟ إن العلوم الحديثة تخبرنا أن الكون بدأ فى البداية بالطاقة نتيجة انفجار هائل تتناول تفصيلاته نظرية «الدوى الكبير» أو «الانفجار الكبير»، ثم أخذ يتطور فى التشكل والتصور والتحديد والتخصص والتكوين وهو يمتد ويتسع باستمرار[1]. والقرآن يخبرنا أن الطاقة النارية سبقت العناصر المادية فى الوجود بتقريره فى سورة الحجر: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]. ونحن نعلم أن هناك علاقة وثيقة بين النار وبين النور، وربما كان الوجود الإبليسى مع الملائكة هو إشارة إلى هذه العلاقة الوثيقة بين الاثنين لأن الملائكة نور وإبليس نار، إذا اعتبرناه من قبائل الجن المخلوقة من نار السموم فى قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]. والنور الكونى مصدره نار. والنار الكونية مشعة بالنور، والقرآن يبين لنا ـ في قصة موسى عليه السلام في سورة طه ـ علاقة النار بالنور الربانى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ٩ - ١٤]. وكما أن النار درجات فكذلك النور درجات (نور على نور) يعلو الكل نور اسم الله الذى هو نور السموات والأرض.

وقد جاء القرآن فى حقيقته روحا ونورا. يخاطب الإنسان المتحلى بقدرات الروح والعقل، ليرتفع بهذا الإنسان فى حياته العقلية والروحية والجسدية إلى آفاق الدين بقيمه ومثله وأخلاقياته وعقائده وتشريعاته وتوجيهاته ليعيش الإنسان فى الحياة الدنيا فى مجتمع الخير والإيمان يسوس علاقاته بشعوب الأرض فى إطار من عالمية التعارف والتآزر الإنسانى من أجل سيادة الخير والنفع والتعاون والتكافل والإيمان. . وليسوس علاقته بالله الواحد المعبود فى إطار معرفته بصفاته وصنائعه، مقيما بالدين، علاقة متوازنة تلبى احتياجات طبيعته الثنائية الجسدية الروحية، يستعمر الأرض فى ظل ارتباطه الفكرى والسلوكى بصور الهدى الآتية إليه من خالقه والتى أظهرها القرآن العظيم.

---

(١) راجع تفاصيل النظرية باختصار غير مخل فى كتابنا «الإسراء والمعراج والعلم الحديث».

الفصل الثالث

آدم

قصة آدم فى سفر التكوين :

(الإصحاح الثانى تكوين) : (٧) وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية (٨) وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقا ووضع هناك آدم الذى جبله(٩) وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل وشجرة الحياة فى وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر (١٠) وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رءوس (١١) اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب (١٢) وذهب تلك الأرض جيد، هناك المقل وحجر الجزع (١٣) واسم النهر الثانى جيحون . هو المحيط بجميع أرض كوش (١٤) واسم النهر الثالث حداقل وهو الجارى شرقى آشور ، والنهر الرابع الفرات (١٥) وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها (١٦) وأوصى الرب الإله آدم قائلا من جميع شجر الجنةتأكل أكلا (١٧) وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتا تموت (١٨) وقال الرب الإله ليس جيدا أن يكون آدم وحده فأصنع له معينا نظيره (١٩) وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها (٢٠) فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية وأما لنفسه فلم يجد معينا نظيره (٢١) فأوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما (٢٢) وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم (٢٣) فقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى هذه تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت (٢٤) لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا (٢٥) وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان .

(الإصحاح الثالث تكوين) : (١) وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله

فقالت للمرأة أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة (٢) فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل (٣) وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولاتمساه لئلا تموتا (٤) فقالت الحية للمرأة لن تموتا (٥) بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر (٦) فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل (٧) فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر(٨) وسمعا صوت الرب الإله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة (٩) فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت ؟(١٠) فقال سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت (١١) فقال من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها (١٢) فقال آدم: المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت (١٣) فقال الرب الإله للمرأة ما هذا الذى فعلت، فقالت المرأة: الحية غَرَّتنى فأكلت (١٢) فقال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين، وترابا تأكلين كل أيام حياتك (١٥) وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه (١٦) وقال للمرأة: تكثيرا أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولادا وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك (١٧) وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك (١٨) وشوكا وحسكا تنبت لك وتأكل عشب الحقل (١٩) بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود (٢٠) ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حى (٢١) وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما.

ومن هذا السياق نلحظ الأمور التالية:

١ ـ جنة آدم كانت فى الأرض عند منابع نهرى دجلة والفرات.

٢ ـ أوصاف الشجرة المنهى عنها، هى شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر.

٣ ـ آدم وحواء كانا عريانين وهما لا يخجلان من عريهما.

٤ ـ حواء هى التى أغرت آدم على الأكل من الشجرة والحية هى التى أغرت حواء بدورها، وكانت وسوسة الحية تتمثل فى أن الأكل من الشجرة سيفتح أعينهما بحيث يعرفان الخير والشر.

٥ ـ بمجرد الأكل من الشجرة انفتحت أعين آدم وحواء وعلما أنهما عريانان فأخذا يصنعان لنفسيهما مآزر من ورق التين.

٦ ـ آدم وحواء، بعد الأكل من الشجرة، كانا فى حياء من الله، فقد اختبأ من وجه الرب الإله فى وسط الشجر لأنهما كان عريانين ويعرفان ذلك فخشيا من الله.

٧ ـ الله سبحانه وتعالى خاطب آدم قائلا: من أعلمك أنك عريان؟! هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت. وقالت المرأة: الحية غرتنى فأكلت.

وبمقارنة هذه القصة بتلك التى أوردها القرآن نجد أن الأولى لم تذكر مسألة السجود لآدم ولا مخالفة إبليس وتكبره وطرده ولا حوار الملائكة، وجعلت الحية هى المغرى لآدم وحواء على الأكل من الشجرة ونصت على خلق حواء من ضلع آدم.

قصة آدم فى القرآن:

وردت قصة آدم فى القرآن فى سور البقرة والأعراف والحجر وطه وص على النحو التالى:

١ ـ سورة البقرة.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠ – ٣٩].

٢ ـ سورة الأعراف.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ

السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ١١ – ٢٥].

٣ ـ سورة الحجر.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٢٦ – ٤٣].

٤ ـ سورة ص.

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي

فقعوا له ساجدين (٧٢) فسجد الملائكة كلهم أجمعون (٧٣) إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين (٧٤) قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فإنك من المنظرين (٨٠) إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحق والحق أقول (٨٤) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ [ص: ٧١-٨٥].

٥ - سورة طه .

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما (١١٥) وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى (١١٦) فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى (١١٧) إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى (١١٨) وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى (١١٩) فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى (١٢٠) فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى (١٢١) ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى (١٢٢) قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ [طه: ١١٥ - ١٢٣].

وتناول القرآن خلق آدم واصطفاءه فى سورة آل عمران، وابنى آدم فى سورة المائدة والسجود لآدم فى سورتى الإسراء والكهف، وبنى آدم وذريته فى الأعراف والإسراء ويس.

وبرغم الفارق الظاهر بوضوح بين رواية التوراة ورواية القرآن للقصة الآدمية، إلا أننا نرى أن رواية سفر التكوين توافق الرواية القرآنية فى الأمور التالية :

١ - جنة آدم كانت فى الأرض (على أحد الفهوم لجنة آدم).
٢ - الشجرة المنهى عنها هى رمز التوالد أو الخلود.
٣ - المعصية هى أول تحرك إرادى أدرك فارق الخير من الشر.
٤ - عدم انتباه آدم وحواء لحالة العرى التى كانا فيها إلا بعد المعصية.
٥ - الإشارة إلى الاختلاط والمعاشرة بين آدم وزوجه بوصف حالة الخجل الشديد التى انتابتهما بعد الأكل من الشجرة.
٦ - أنهما نتيجة هذا الخجل وملاحظة العورات، راحا يستران جسديهما من ورق شجرة الجنة.

وربما يرجع الفارق بين الروايتين إلى طبيعة الكتابين - التوراة والقرآن - حيث تعتمد رواية

التوراة على النقل والسرد البشرى القديم، بينما القرآن كلام الله خالق الإنسان. وهى الحقيقة التى لاحظها الدكتور موريس بوكاى وقال فيها [1] : «إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات فى القرآن تبرز الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علميا وبين مقولات القرآن التى تتوافق تماما مع المعطيات الحديثة . . إن احتواء القرآن على المعطيات العلمية المدروسة فى عصرنا تبدو كأنها تتحدى أى تفسير وضعى».

من إيحاءات آيات القرآن فى آدم:

١ ـ الشر ـ كالخير ـ مستمر طالما وجد الإنسان فى الدنيا، وهو ينتهى بانتهاء حياة الإنسان فى مستقره الأرضى المؤقت بقيام الساعة، وهذا يفسر لنا إنظار إبليس إلى يوم البعث أى استمرار وقوع الشر فى حياة الإنسان من خلال وجود الإنسان ذاته وصلة الشيطان به، وطبيعى أن يكون مكان الشر وفاعلوه فى الآخرة هو نار جهنم بالضبط كما يكون مكان الخير وفاعليه هو جنات عدن: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥] والدرس الأساسى فى علاقة إبليس أو الشيطان بآدم وزوجه فى الجنة ـ قبل الهبوط منها ـ ثم فى الأرض ـ بعد الهبوط إليها ـ هو الدرس المستفاد من كون الشيطان عدوا للإنسان يضله ويغويه ويدفعه إلى المعصية والإضرار بالنفس وبالغير ويقعد له صراط الله المستقيم وبمعنى أخر القيام بدور الشر مطلقا النابع من العداوة. ومن هنا فإن على الإنسان ـ كل إنسان ـ أن يتخذ الشيطان عدوا يحذر منه ويكون يقظا دائما أمام وسوسته بالشر حتى لا يجعل له عليه سلطانا.

على الإنسان أن يستفيد بقيم ومبادئ وأخلاقيات الدين فى تربية وتهذيب نفسه وجهادها جهادا أكبر حتى تنقاد لمرضاة الله فتكون مطمئنة بالله وليست أمارة بالسوء ليعيش الإنسان أولا وآخرا فى سلام مع نفسه ومع غيره. لقد خالف إبليس أمر ربه وأبى السجود لآدم، وكانت نظرته لهذا المخلوق المكرم مبنية على الكبر وقصر النظر. لقد رأى إبليس فى الإنسان جسدا ماديا طينيا مليئا بالغرائز ولم يستطع أن يرى الخاصية النورية فى هذا الإنسان المكرم والموصول بالله بسر النفخة الروحية الربانية، وما يظهر فيه من أنوار تجليات الأسماء الحسنى كلها وما خص الله به الإنسان من طاقتين عقلية وروحية نورانية المصدر.

وإبليس سيتبرأ من الإنسان يوم القيامة وسيلقى بتبعية اتباعه من أوليائه البشر فى الدنيا على البشر أنفسهم. . ولن يستطيع أن ينجى أولياءه من عذاب الله كما أن أولياءه أنفسهم لن يستطيعوا أن ينجوه من عذاب الله. أى أن إبليس وجنوده لن يكونوا فى الآخرة مسئولين عن أعمال

---

(١) Maurice Bucaille فى كتابه المترجم للعربية (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم).

الإنسان فى الشر والمعصية والإضرار بالناس وإيذائهم . . إلخ، وهى الأعمال التى يتبع فيها الإنسان خطوات الشيطان فى الحياة الدنيا .

والمفسرون يقولون فى أمر إبليس إنه ليس من جنس الملائكة الذين لا يعصون الذات الإلهية، ولكنه من جنس الجن المخلوقين من النار، ولديه قدر من التصرف الإرادى الحر يمكنه معه أن يطيع أو يعصى الذات الإلهية . هذا وفى مسألة الأمر الصادر إلى الملائكة بالسجود وتضمين إبليس فيه بحيث ظهر مخالفا للأمر الصادر إلى الملائكة بالسجود، بينما هو ليس من جنس الملائكة المأمورين، فى هذه المسألة قولان :

الأول : إبليس كان حاضرا مع الملائكة، والتعبير القرآنى جاء بلفظ الملائكة باعتبارهم الجمهور الأعظم فى الحاضرين وقد شمل الأمر على سبيل الحقيقة جميع الحاضرين .

الثانى : الجن صنف من الملائكة أو نوع من الملائكة .

وقد نقل الإمام ابن كثير اختلاف المفسرين فى الملائكة المأمورين بالسجود لآدم : أهم جميع الملائكة - كما هو قول الجمهور - أم ملائكة الأرض كما رواه ابن جرير ورجحه بعض المتأخرين؟ وانتهى إلى أن الأظهر من السياقات، القول الأول الذى يدل عليه الحديث الذى رواه الشيخان (وأسجد لك ملائكته . .) وقال ابن كثير : « وهذا عموم أيضا والله أعلم » . انتهى .

٢ - الجنة فى المعنى اللغوى هى البستان، أو هى كل مكان يجمل بالأشجار اليانعة حتى ستر الخارج منه عن الداخل فيه، وستر الداخل عن الخارج . ولم يرد فى النصوص القرآنية ما يدل على أن الجنة التى سكنها آدم هى الجنة الأخروية . وإنما وردت بشأنها أوصاف محددة تشير إلى البساطة والبدائية وعدم التعقيد فى السلوك المعيشى، وهو ما سيجىء بيانه فى موضعه .

٣ - الشجرة التى وردت فى القصة الآدمية لم يرد ما يدل على كنهها أو ماهيتها، وما ذكر فى وصفها هو أنها «شجرة الخلد»، والنهى عن الاقتراب منها لا الأكل من ثمارها، فليست هناك علاقة بين إباحة الأكل المطلقة من ثمار الجنة وبين النهى عن الاقتراب من «الشجرة» إلا ما قد يوحيه توالى السياقين فى الآية ومن مجرد النظرة السطحية لأن الله لم يخلق حتى الآن ثمرة نباتية إذا أكلها الإنسان يصير خالدا بذاته [١] .

٤ - آدم هو تخصيص محدد بالصفات والخصائص والقدرات، لبداية النوع الذى خلقه الله من الطين ثم تمت تسويته فى الخلق واستقبل الوجود النورى العقلى الروحى فى صورة علاقة عبر عنها القرآن بلفظ «النفخ» . ويقول الأستاذ محمد عزة دروزة [٢] : « أسلوب القصة -

(١) ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ﴾ [الأنبياء : ٣٤] .

(٢) فى : «التفسير الحديث) للقرآن الكريم، تفسير سورة (ص) .

يقصد قصة آدم وإبليس ـ وعظى وليس سردا قصصيا، وهذا هو شأن الأنبياء وأقوالهم . وهذا يسوغ القول إن هذه القصة لم ترد فى القرآن لذاتها وفى معرض تقرير بدء خلق البشر، وإنما وردت بقصد العظة والاعتبار وضرب المثل، والإشارة إلى ما فى عصيان الله والتمرد على أوامره من جريمة منكرة. وإلى أن الذين يتمردون على الله ودعوته إنما هم تبع لإبليس ».

٥ ـ هناك علاقة أصيلة وقوية بين البشر وبين الأرض فيما يتعلق بالنشأة الخلقية الأولى. فالإنسان يرجع فى الأصل الأول المتصل بعملية الخلق المرتبطة به، إلى ماء هذه الأرض وترابها. وإذا كان الإنسان قد نشأ أصلا من الأرض فى ارتباط بعناصرها، فيما يتعلق بتكوينه العضوى، فإنه يكون من المنطقى أن يطالب بالبحث فى الأرض نفسها والنظر فى آثارها ليتعلم كيف بدأ الخلق الأول، وهو ما يقرره القرآن فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، ليؤمن الإنسان بالمحسوس والمشهور والمجرب، بأن الذى خلق الخلق الأول قادر على خلق الخلق الآخر، وهو ما يفهم من بقية السياق القرآني السابق ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]. ثم يقرب هذا التصور إلى العقل الإنساني بالمثال الأرضى الطبيعى المحسوس فيقول ﴿ يا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥].

٦ ـ آدم هو الإنسان العاقل الأول الذى يرجع أصله الخلقى الجسدى إلى الطين. وهو الجامع ـ فى تكوين بالغ الإعجاز ـ لعناصر المادة العضوية والطاقة الروحية هو الذى نعتقد أن القرآن يشير إليه فى حديثه عن الملك والملكوت واتصالهما بخلق الإنسان على النحو التالى:

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾؟ [ص: ٧٥].

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [الملك: ١].

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [يس: ٨٣].

فالنصوص تشير إلى الملك بيد وإلى الملكوت بيد وتكون الإشارة إلى اليدين فى الآية الأولى المقصود منها هو بيان عنصرى الملك والملكوت فى التكوين الإنسانى. ولا يتعارض ذلك مع ما يقرره القرآن فى الآية: ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ فإن لفظ « أيد» هنا معناه «القوة» وهو مشتق من « آد» ، «يأيد»، « أيدا»..

٧ ـ آدم هو الإنسان العاقل المكتمل العقل الذى أوتى القدرة على التعبير بالرمز المنطوق للدلالة على الأشياء، أو تسمية الأشياء بمسمياتها ـ الإيماء ـ فى تفاعل مع البيئة الخارجية المحيطة،

أو فى الإدراك والوعى الذاتى بالوجود المستقل والمغاير. وهو يمتاز بذلك على الملائكة فى قدراته حيث أصبح صاحب تصرف إرادى حر عاقل يتعامل بمقتضاه مع البيئة الخارجية فى صورة استغلال الإمكانات المادية والطاقية التى تتيحها هذه البيئة، وهى الأرض وأجواؤها المحيطة، مكان مستقره المؤقت وكل ما يحيط بهذا المكان مما يمكن الاستفادة منه بطريق العقل.

وقد أصبح آدم «الخليفة» من حيث رفعة مستواه الخلقى وقدرته على إدراك الفرق بين الخالق والمخلوق بما يمكنه معه أن يدرك القصد والغاية نحو إبراز «الذاتية» التى يدل عليها الوجود كله وفق مراحل تطوره فى التكوين، بما يحقق فى النهاية توحيد ذات الإنسان لذات الإله. والإنسان، وهو صاحب العقل المكتمل والإرادة الحرة، هو الذى تقرر به التكليف وتقرر به الدين وتقررت به النبوات.. وتقررت به العلاقات الاجتماعية بين البشر.. والمعرفتان النظرية المجردة والتجريبية وتطبيقات كل منهما.. وتقررت به العلاقة بين الخالق والمخلوق فى مسرحها الطبيعى الإنسانى والكونى، وتمثل هذه العلاقة «العبادة».

٨ـ بآدم تقررت مهمة الإنسان العاقل فى وجوده، وهى السعى الدائب الحثيث نحو الترقى بمستوى معرفته وعلمه بالحقائق المحيطة به، أو التى يتعامل معها بصفة عامة فى كل يوم جديد لاكتشاف ثم استغلال المخلوقات الكونية وطاقاتها ومعرفة خواصها ووظائفها ونظمها وقوانينها.. إلخ لاستغلالها الاستغلال الأمثل من ناحية، ولتزداد معرفته بعظمة الإله الخالق المدبر. ويظل دور الإنسان العاقل دائما هو السعى وراء الحقيقة ويظل دور الهدى الآتى للإنسان من الإله هو تنظيم وصول الإنسان إلى الحقيقة بحيث لا يضل الطريق إليها أبدا.

شجرة الخلد:

اختلف المفسرون فى تحديد نوع الشجرة التى نهى الله آدم وزوجه عن الاقتراب منها.
ونقل الإمام ابن كثير فى تفسيره هذه الاختلافات:

١ـ فقال السدى عمن حدثه عن ابن عباس أنها شجرة القرم.

٢ـ وتزعم اليهود أنها الحنطة.

٣ـ وروى عن ابن عباس أنها السنبلة وأنها البر.

٤ـ وقوم فرقوا بين الشجرة التى حرمت على آدم وهى السنبلة وتلك التى تاب عندها وهى الزيتونة.

٥ـ وروى أنها النخلة وأنها التينة.

٦ـ وقيل الوقوف فى شأنها حيث لم يعينها الله سبحانه وتعالى ولم تعين فى السنّة الصحيحة.

(وهذا ما اختاره أكثر المفسرين ومنهم الإمام أبو جعفر بن جرير الطبرى) .

وقد أوضح لنا القرآن النهى الموجه إلى كل من آدم وحواء فى عدم الاقتراب من الشجرة المعينة لهما بتعبير يدل على قربها منهما، إذ استعمل لفظ (هذه) للدلالة على الشجرة، وما أورده القرآن من صفات لها تنحصر فى أنها شجرة الخلد، وأن فى الاقتراب منها ملكا لا يبلى، وفى الأكل منها خلود كل من آدم وحواء، كما ذكر الشيطان .

والفهم عندى أنه ليس هناك أى علاقة بين الأكل من ثمار أشجار الجنة المباح لآدم وزوجه رغدا حيث شاءا، وبين الاقتراب من الشجرة المعينة باللفظ دون المعنى . والذى يثير فكرة وجود هذه العلاقة بين الأكل من الجنة وبين الشجرة، أمران :

الأول : ورود النهى عن الاقتراب من الشجرة بعد إباحة الأكل من ثمار الجنة بلا قيد .

الثانى : اختيار القرآن للفظ الشجرة والأكل منها كرمز على المعنى الحقيقى المقصود .

فإذا علمنا أن الذات الإلهية قد ضمنت لآدم وزوجه إشباع الحاجات الأساسية لهما فى الجنة، وهى المأكل والملبس والمشرب والمسكن، وأن الذات الإلهية ـ فى السياق القرآنى ـ قد خصت المأكل بالذات بالإباحة المطلقة بلا قيد أو شرط ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة : ٣٥] . لعلمنا أن النهى الوارد فى السياق القرآنى لا يتصل بإحدى هذه الحاجات الأربع، وإنما يتعلق بأمر آخر اختار له القرآن لفظا معينا هو «الشجرة» والاقتراب أو الأكل أو الذوق منها . فإذا أردنا أن نعرف ماهية هذه الشجرة وجب علينا أن نجمع الأوصاف الخاصة بها والتى جاءت بها النصوص القرآنية، وهى :

١ ـ ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه : ١٢٠] .

٢ ـ ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [طه : ١٢١] .

٣ ـ ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠] .

٤ ـ ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : ٢٢] .

ونلاحظ أولا على التعبيرات القرآنية فيما يتعلق بالشجرة، أنها كانت مجهولة المعنى لكل من آدم وحواء ابتداء، وأن هذا المعنى لم يتضح لهما إلا نتيجة إخبار الشيطان لهما بمعانيها الحقيقية والآثار المترتبة على الذوق منها، ولذلك يستعمل القرآن لفظ «هذه» لتعريف الشجرة

عند الكلام عن النهى الموجه إليهما، ويستعمل الألفاظ المبينة لمعانى الشجرة عند الكلام عن الوسوسة الشيطانية : وهذا يعنى حالتين لآدم : حالة ما قبل التحرك بدافع الغريزة وحالة ما بعد التحرك. فالإخبار الشيطانى أدى إلى إدراك آدم لضرورات داعى الغريزة الفطرية (الجنس) المتمثلة فى الأكل من الشجرة التى سينتج عنها إيجاد الملك الذى لا يبلى والخلود فى شكل ذرية، كذلك إدراكه بأنه باعتباره بشرا من طين لابد له أن يتزاوج مع أنثاه، لأن هذا التزاوج من ضرورات تكوينه العضوى واستمرار وجوده فى النوع.

ولاشك فى أن التكاثر الذى ينتج من التناسل، كان هو السبب المؤدى إلى الملك الذى لا يبلى أو البقاء المستمر الدائم (شجرة الخلد)، باعتباره حاجة للإنسان - الذكر والأنثى - ملحة كإلحاح المأكل والملبس والمشرب والمسكن، بل ربما أشد إلحاحا.

ويخبرنا القرآن بأن الشيطان أخبر آدم وزوجه بأن الله نهاهما عن هذه الشجرة لئلا يكونا ملكين أو خالدين. وهذا يعنى علم الشيطان بطبيعة الشجرة فيما يؤدى إليه الذوق منها من الخلود، وإن كان خلودا للنوع عن طريق إنجاب الذرية والتكاثر، لا الخلود الذاتى. ونتيجة الوسوسة، تحركت نفس آدم ربما بدافع حب البقاء أو تحت تأثير الغريزة فى لحظة نسيان للعهد الربانى أو الضعف البشرى أمام الإغراء، فذاق الشجرة هو وزوجه معا. فإذا علمنا، كما أخبرنا النبى صلى الله عليه وسلم، أن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، أمكننا أن ندرك الحقيقة التى يريد القرآن بيانها.

إن علماء وظائف الأعضاء يخبروننا أن الدم يغذى كل خلايا الجسم، فهو يحمل المواد الغذائية والهرمونات والفيتامينات والأجسام المضادة والأكسجين إلى كل أجزاء الجسم، كما أنه يحفظ حرارة الجسم بدرجة ثابتة برغم التغيرات الطارئة أو الحادثة، كما أن خلايا المخ تعتبر من ضمن مجموع الخلايا التى تعتمد على الدم فى تغذيتها. ومعروف أن المخ هو الذى يتحكم فى سلوك الإنسان فيوجهه نحو الخير أو نحو الشر، ويتم هذا التحرك بدافع من الحيوية فى الإنسان فتساعده على التحرك نحو الشر أو نحو الخير. والحيوية هى ناتج التغذية الدموية لمجموع خلايا جسم الإنسان، بل إن حياة كل أنسجة الجسم من عظام وأعصاب وعضلات وأحشاء، تتوقف على ما يصلها من الدم لتغذيتها. ويتم ذلك بأمرين :

الأول : يحمل الدم النقى لهذه الأنسجة ما تحتاج إليه من أكسجين وفيتامينات والمواد الغذائية وإفراز الغدد الصماء والأجسام المضادة.

الثانى : يخلص الدم الأنسجة من الفضلات التى تضر بها لو بقيت.

ومن هنا يمكننا أن نفهم أن الوسوسة الشيطانية لآدم وبنيه تتصل فى حقيقة الأمر بالتركيب العضوى للإنسان، وتنتج عن تحرك الغريزة بفعل الحيوية الناتجة عن تغلغل الدم فى كل ثنايا

الجسم يغذى خلاياه وينميه ويعوضه عن الخلايا التى تموت. والغريزة الجنسية بالذات تتصل اتصالا وثيقا بالدم، لأنه هو الناقل لإفرازات الغدد الصم، ولذلك خصها القرآن بالذكر وقرنها بالشيطان، وأوضح لنا الحقيقة بما أشار إليه النبى ﷺ من علاقة الدم بالشيطان: ﴿ شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وحتى ندرك المعنى الحقيقى لحديث النبى ﷺ ينبغى أن نعلم جيدا ما يقوله لنا علماء الفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) عن وظيفة الدم فى جسم الإنسان.

إن الدم يؤدى عدة وظائف حيوية إذ هو يمثل البيئة الداخلية التى تستمد منها أنسجة الجسم المختلفة حاجاتها من الأوكسجين والغذاء. وعن طريقه، ومع الجهاز العصبى، يتم التنسيق بين وظائف الأعضاء المختلفة فى الجسم. ويحمل الدم إفرازات الغدد الصم أى الهرمونات، وهى مواد ذات فعالية فسيولوجية شديدة وتقوم بتنظيم النمو والتمثيل الغذائى والتناسل وغير ذلك من الوظائف الحيوية. والجهاز العصبى هو الآخر يتغذى من الدم، فإذا امتنع عنه بضع ثوان يصير الإنسان فى غيبوبة، وإذا استمر ذلك بضعة دقائق فإن الإنسان لا يفيق من هذه الغيبوبة أبدا. وبذلك يمكننا أن نقول إن جميع مظاهر النشاط الحيوى فى الإنسان والنشاط العقلى بالذات، تعتمد على الدم فى تغذيتها.

وبالنسبة لغريزة الجنس رأينا أن إفرازات الغدد الصم أو الهرمونات (الغدة النخامية التى تفرز هرمونا خاصا بأعضاء التناسل) يحملها الدم. فإذا كان النص القرآنى ينسب التحرك الغريزى الآدمى نحو الاختلاط الجنسى (الأكل من الشجرة) المؤدى إلى التناسل، ينسبه للوسوسة الشيطانية وإذا كان النبى ﷺ يخبرنا بصراحة بالتلازم بين الشيطان والدم، لعلمنا الحقيقة المقصودة من العمل الشيطانى، ولأدركنا أن غريزة الجنس بالذات ـ وهى فى ذاتها ليست شرا ـ التى لها الأهمية القصوى بالنسبة لحياة الإنسان العضوية والفكرية والروحية، واستمرار بقائه وسلوكه الفردى وسلوكه الاجتماعى، إنما تنبع كلها من النشاط الحيوى فى التركيب العضوى فى الإنسان، وإن هذا النشاط الحيوى هو بداية الحركة الإرادية الشعورية التى يوجهها المخ والجهاز العصبى فى اتصالهما بالنشاط العقلى نحو هذا الاتجاه فى السلوك أو ذاك (١) ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٨]. وبذلك تكون منافذ الشيطان نابعة من التغذية التى ينقلها الدم إلى سائر أعضاء الجسم الإنسانى فيبعث فيه النشاط والحيوية فيتحرك بدافع بيولوجى صرف لإشباع الحاجات الضرورية التى (يحس ألمها) كالجوع والعطش والتزاوج.. إلخ.

ولهذا السبب بالذات كان الصوم، الذى هو تقليل الغذاء مع ما يؤدى إليه من كسر حدة

(١) المظاهر الأساسية الثلاثة للحياة العقلية ـ كما يخبرنا علماء النفس المسلمون هى المؤثر الذى يقع على الحواس فيدعو للتفكير الذى يثير بدوره الانفعالات التى تدفع إلى النزوع أو الرغبة فى التحرك.

النشاط الحيوى، هو علاج عدم إمكان إشباع حاجة الجنس عند الإنسان الذى تحول قدرته المالية دون زواجه. وهذا هو ما قاله النبى ﷺ للشباب المسلم وما يدل عليه قوله فى هذا الشأن (. . فضيقوا عليه مجاريه) وقد قرن القرآن بين غريزة الجنس وبين الشيطان، بينما لم يقرن الشيطان ببقية الغرائز والاحتياجات الإنسانية التى وردت فى قصة آدم، المأكل والمشرب والملبس والمأوى. فصلة الشيطان بأدم تظهر جلية فى غريزة الجنس بالذات التى يخبرنا علماء النفس أنها متصلة بغريزة الحياة وحب البقاء باعتبارهما نقيضين لغريزة الموت، وهو ما يظهر فى وصف الشجرة بأنها «شجرة الخلد» [1] والغريزة الجنسية بالذات يحركها الغذاء ويقويها، والإنسان الذى يضيق على الشيطان مجاريه هو الإنسان الذى يقلل من التغذية، ليضعف من حيويته وتضعف بالتالى رغبته فى الجنس. وربما يفسر ذلك منهج السادة الصوفية فى تهذيب النفس وتربيتها بالصوم أو الجوع. كما أنه ربما فسر لنا دعوة الإسلام إلى التوسط فى المأكل حتى لا تطغى دواعى الجسم على دواعى النشاط الروحى. وعلى كل فهو يفسر لنا سر قول النبى ﷺ للشباب غير القادر على تحمل أعباء الزواج المالية «ومن لم يستطع - أى الزواج - فعليه بالصوم فإنه له وجاء»، أى قاطع للشهوات لأنه ينقص الحيوية فى الجسم بإنقاص الغذاء إلى حد مقبول.

أما عن السبب الذى تعرض القرآن من أجله لعملية التناسل بالنسبة لآدم بالذات، فيمكن إرجاعه - إلى جانب أسباب أخرى تتصل بتأثير الجنس بيولوجيا وفكريا وروحيا فى الإنسان - إلى الميزة التى ينفرد بها الإنسان - ضمن ميزات أخرى من التفكير التصويرى وغيره . . . - عن سائر الثدييات العليا والتى تتصل بحياته الجنسية. فالإنسان لديه الاستعداد لمزاولة العملية الجنسية فى أى وقت، بخلاف سائر الحيوانات التى لا يمكنها ذلك لتقيدها بفصل للإخصاب أو دورة له أو كليهما معا. فمعظم الحيوانات لها فصل معين لأداء هذه العملية، وفى هذا الفصل فقط تنمو أعضاؤها التناسلية تماما لتؤدى وظائفها. وحتى الحيوانات الراقية فلها دورة جنسية واحدة أو أكثر خلال فصل الإخصاب، وهى ليس لديها الاستعداد لأداء العملية الجنسية إلا مرة واحدة فى الدورة الواحدة - وبذلك أصبح الجنس متميزا فى الإنسان ومتصلا بكيانه النفسى - بتأثير الفكر - اتصالا دائما ومستمرا له أثره الفعال فى نشاط الإنسان الفكرى ذاته متجاوزا العلاقة بالأنثى لمجرد الشهوة، إلى التوافق النفسى والشعورى والعاطفة بصفة عامة.

والدواعى الغريزية ليست شرا فى حد ذاتها لأنها تنبع من الكيان البيولوجى للإنسان، ولكن اختير لها لفظ الشر لما ينتج عنها من آثار ضارة فى مظاهر السلوك الإنسانى الخارجى،

---

(١) أو شجرة الحياة، كما فى التوراة.

حينما يقاس بالغريزة أو يضاف إلى الغريزة بحيث يمكن أن نعتبر أن وصف الخير قد اختير للتعبير عن مظاهر السلوك الإنسانى الخارجى حينما يكون العقل المؤمن هو موجهه. والقرآن يخبرنا، كما يخبرنا النبى ﷺ، أن إجابة الغريزة وحاجتها على النحو الذى أحله وأباحه الله هو خير وطاعة لله، بينما إجابتها على نحو ما حرم أو منع الله هو شر ومعصية لله.

وأول ما يشد انتباه المتأمل فى الآيات القرآنية هو الارتباط المباشر بين الأكل من الشجرة وبين سوءة كل من آدم وحواء من ناحية، وخلود آدم وحواء من ناحية أخرى:

أولا : فيما يتعلق بالخلود، فإن آدم وهو بشر لا يتسنى له الخلود إلا من خلال التناسل، إذ ليس للإنسان - كائنا من كان - أن يخلد بذاته ولا يذوق الموت: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ** ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. فالمقصود من خلود آدم - كما أخبر الشيطان - هو خلود فى النوع من خلال ذريته وسلالته وليس خلوده بذاته. وآدم لا يتسنى له الخلود بهذا المعنى إلا بالتناسل الذى يتم عن طريق الاختلاط الجنسى بين الإنسان الذكر والإنسان الأنثى. هذا الاختلاط الجنسى هو السبب الوحيد لخلود الإنسان. وغالبا ما يكون آدم قد علم من البيئة المحيطة به - الحيوانات والطيور والحشرات - أن حياته ستنتهى بالموت. وبدافع من حب البقاء وحب الحياة كان عليه أن ينجب الذرية، وبالتالى يأكل من الشجرة. وتكون الحقيقة التى يريد القرآن إبرازها من خلال الوسوسة الشيطانية، هى علم آدم وزوجه بأنهما باعتبارهما من البشر الفانين، يحتاجان إلى التزواج من أجل استمرار وبقاء النوع بما يحتم على آدم أن يأكل من الشجرة أو يخالط زوجه. وقد حصل ذلك فعلا فى فترة من فترات النسيان لعهد الله التى يتعرض لها الإنسان كثيرا فى حياته، غافلا عن ذكر الله، أو فى فترة من فترات ضعف الإنسان أمام شهواته، وهما حالتان ينسبهما القرآن دائما إلى الشيطان عدو الإنسان: ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** ﴾ [طه: ١١٥].

ويصور القرآن لنا صورة التحرك الإنسانى نحو هذا الفعل - مخالطة أنثاه - فى شكل المؤثر الخارجى الذى ينبه الغرائز فتثير الانفعالات بعد تأثيرها فى الفكر، وهذه الانفعالات تظل تقوى، وهى هنا انفعالات هابطة إلى مستوى المادة ودواعيها الغريزية وذكرها القرآن بلفظ ﴿ **فدلاهما بغرور** ﴾ [الأعراف: ٢٢]، حتى يبين تحكم الحاجة الغريزية (الشهوة) فى الإنسان تحكما كاملا يتجه معه إلى التحرك نحو إشباع الحاجة إلى الجنس. وما جاء به التعبير القرآنى «زوجك» فى آية: ﴿ **وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾ [البقرة: ٣٥]، ينصرف إلى الزوجية المقابلة للفردية ولا ينصرف إلى الزوجية بمعنى الزواج كصورة مباحة للاختلاط

الجنسى كما نظمتها الأديان من بعد آدم . وذلك كما فى النص التالى : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ﴾ والنص التالى : ﴿ وكنتم أزواجا ثلاثة . . ﴾ وفى النص التالى : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ ذلك بأن الزوجية بمعنى الزواج أو النكاح الذى يكون فيه الاختلاط الجنسى عملا من أعمال الطاعة ، لم يكن قد تقرر بعد فى عهد آدم ، وإنما تقرر بعد ذلك فى صور الهدى المختلفة التى تنزلت إلى الإنسان العاقل من ذرية آدم .

وقد ربط الشيطان وهو يوسوس لآدم ، بين الخلود وبين الملك الذى لا يبلى ، وهما فى حقيقة الأمر متلازمان ، لأن الملك الذى لا يبلى يقتضى الوجود الدائم المستمر وهو ما لا يكون إلا باستمرار النوع وتكاثره . وعلى ذلك فعملية التناسل هى التى تضمن للإنسان ملكا دائما فى مكان استقراره لا يبلى ما بقيت حياة النوع . ولذلك كانت وسوسة الشيطان لآدم تغريه أولا بالخلود وهو ما يتحقق بالتناسل الناتج عن الاختلاط الجنسى ، وثانيا بالملك الذى لا يبلى وهو ما يتحقق بالتكاثر والتوالد فى النوع الإنسانى المستعمر للأرض . وهذه الإشارات وردت للدلالة على استغلال الشيطان للحقيقة الفعلية التى يدركها آدم الإنسان من أنه محتاج إلى التزواج والتناسل من أجل البقاء المستمر فى الأرض حتى يعمرها من بعده بنوه ويتكون الملك الذى لا يبلى الذى كان ينزع إليه بفُطرته التى جبلت على حب الحياة وكراهية الموت . وهو نفسه معنى الخلود الذى كان يرجوه آدم من خلال التناسل وإنجاب الذرية حيث إنه يعلم أن هذا هو السبيل الوحيد لبقاء النوع ، لأنه هو وزوجه يموتان فى النهاية .

ثانيا : فيما يتعلق بالارتباط المباشر بين الشجرة والأكل أو الذوق منها ، وبين سوءة كل من آدم وحواء ، فإننا نفهم أن القرآن قد استعمل أسلوبه الراقى الدال على قدسية مصدره فى التعبير عن الاختلاط الجنسى بين الذكر والأنثى بلفظ الشجرة التى جاءت فى غير هذه المواضع من القرآن ، كتعبير رمزى عن الحقيقة المراد بيانها ، كما فى حقيقة الكلمة الطيبة والخبيثة ، وكما فى حقيقة الطاقة الكهربية فى سورة النور [1] . والتعبير القرآنى بالاقتراب والأكل أو الذوق من الشجرة هو الأسلوب المختار للإشارة إلى الحاجة البشرية الأساسية - بالإضافة إلى الحاجات الأربع الرئيسية التى هيأها الله له فى الجنة - المتمثلة فى التزواج بين الذكر والأنثى . والقرآن حينما يخبرنا أن الشيطان وسوس إليهما ليبدى لهما ما ورى عنهما

---

(١) ﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار . نور على نور ﴾ النور : ٣٥ .

من سوءاتهما، يريد منا أن ندرك الحالة التى كان عليها كل من آدم وزوجه قبل تحرك الغريزة المخرجة إياهما عن الحالة الأولى فى سكون النفس قبل تحرك الشهوة، وهى الحالة التى يصورها القرآن فى : ﴿ .. ما وورى عنهما من سوءاتهما .. ﴾ والإخبار الشيطانى بذلك يرتبط بتحرك غريزة الشهوة إلى الجنس وتحرك النفسى الساكنة مما أدى إلى الذوق من الشجرة. وبالذوق تكون قد تمت أول عملية تزواج للنوع الإنسانى العاقل حيث أدرك الطرفان عندها خاصية سوءاتهما، وقد كانت خافية عنهما وعندها راحا يستران جسديهما نتيجة ما اعتراهما من خجل، بما هو متاح لهما من إمكانات وبالقدر الذى سمح به تفكير الإنسان العاقل الأول فى هذه الفترة البدائية من حياته. . وهذه هى الوقائع التى يقول فيها القرآن: ﴿ فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة .. ﴾ [طه : ١٢١]. و﴿ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ [الأعراف : ٢٢].

ويلاحظ الفرق بين تعبير (الخروج) وتعبير (الهبوط)، فالأول قد تم بمجرد الذوق من الشجرة قبل الهبوط، وهو الذى تم بعد ذلك من (الجنة) وبعد أن خرج آدم وخرجت حواء مما كانا فيه من حالة أو وضع سبق الأكل من الشجرة ومعهما بالتبعية إبليس وقد م كل ذلك فى الأرض ـ على الأرجح ـ فى أحد الأماكن المليئة بالأشجار، وربما فى إحدى الغابات فى مكان ما من القارات المعروفة. بعد الأكل من الشجرة تم الخروج مما كان آدم وحواء فيه قبل الأكل. ﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ... ﴾[البقرة : ٣٦]. وبعد ذلك تمت عملية أخرى هى الهبوط، المقترن بإدراك آدم لحقيقة العلاقة بينه وبين نوازع الشر فى نفسه وعوامل تحريكها وهى علاقة العداوة التى قررها القرآن فى : ﴿ .. بعضكم لبعض عدو.. ﴾ [البقرة : ٣٦]. بالنسبة للإنسان الفرد فى نفسه وبالنسبة للإنسان فى المجتمع مع غيره من الناس وبالنسبة للإنسان الذكر والأنثى فى العلاقة بالشيطان عدو الإنسان الدود.

وهذا المستوى من النشاط الغريزى البحت البعيد عن دواعى العقل ونشاطه، يمثل مستوى هابطا للإنسان الذى لا يعيش إلا من أجل إشباع غرائزه المادية، وقد انقطعت صلة أدم بالجنة بهذا المستوى من الحياة الغريزية الصرفة الذى هو الهبوط.

والحقيقة أن الجنة، باعتبارها حالة ما قبل الاختلاط الجنسى بدافع الغريزة ذات المنبع الطينى، ليست إلا حالة وجود مؤقت لأنه ما كان يتسنى لآدم أو زوجه أن يعيشا دون تزاوج، ولم تكن المسألة بالنسبة لجنتهما إلا مسألة وقت فقط. ولذلك قلنا إن النص القرآنى هنا يصور حالات فى الأرض نابعة من التكوين أو التركيب الطبيعى للإنسان الذى يستغله الشيطان فى الشر باعتباره عدو الإنسان الأول الذى رفض السجود له.

وفى نظرى لا توجد هناك مبررات لاختلاف المفسرين المسلمين فى أمر الجنة إذا توصلنا إلى فهم معانى آدم فى القرآن. فالجنة كانت منذ البداية وضعا غير دائم بالنسبة لآدم وزوجه - ما كان يمكن لهما الخلود فيها - والنهى عن الشجرة كان يصاحبه تحرك غريزى لازم للأكل منها. وحتمية الأكل من الشجرة كانت تعنى الخروج من حالة ما قبل الأكل ثم الهبوط من الجنة. ووسوسة الشيطان كانت أمرا لابد من حصوله لأن هذه هى وظيفة الشر التى تشير إلى حقيقة الصراع النفسى فى الإنسان ذاته بين مؤثرات العقل والقيم والدوافع المستمدة منه، وبين دواعى الغريزة الفطرية المرتبطة بالتكوين البيولوجى للإنسان والمتمثل فى إلحاح الشهوات المختلفة، وآدم باعتبارة إنسانا يمكن أن ينسى أو يضعف أمام شهواته، لم يخضع له إبليس وكان لابد له أن يأكل من الشجرة فى وقت من الأوقات، وقد حصل ذلك فعلا.

ومن هنا نميل إلى اعتبار القصة الآدمية فى القرآن قصة عميقة ذات دلالات وإشارات تبرز (حقيقة الإنسان) الإعجازية وعلاقة هذا المخلوق المعجز بالطبيعة المحيطة وببنى نوعه وبنفسه وبربه وبالخير والشر وأنه لابد من فهم هذه المعانى اللفظية التمثيلية والإشارية إذا أردنا أن نصل إلى لب الدلالات الحقيقية التى وردت فى الإنسان. إن النتيجة التى تهمنا تتمثل فى :

أن يكون الإنسان حذرا من كل أنواع الشرور والغواية والضلالة التى يمكن أن يتعرض لها فى حياته والتى يوحى بها إليه شياطين الإنس والجن، وأن يظل متنبها إلى كل أنواع الغواية التى تستهدف إخراجه عن صراط الله المستقيم وإفساد أخلاقه وسلوكياته بعيدا عن قيم وأخلاقيات جميع صور الهدى الإلهى الآتية إليه أى جميع الأديان من أولها إلى آخرها فى رحلة الكد فى أرض الخلافة والصراع بين الخير والشر والإيمان والكفر والاستقامة والانحراف والطاعة والمعصية.

وبذلك فإنه من المهم فى تقديرنا دراسة وتحليل العبرة والعظة والغاية من القصة الآدمية بكل عناصرها وملابساتها، واستغلال هذه الدراسة وهذا التحليل فى خدمة مناهجنا للتربية والتعليم والثقافة والإعلام والتوجيه الأخلاقى والصحة النفسية وتنقية مفاهيمنا الدينية من كثير من الشوائب حتى نبنى نهضتنا وتقدمنا على دعائم إنسان يتخلق بأخلاق القرآن ومستعد ومهيأ لتطبيق تعاليم القرآن التشريعية والمؤسسة على علم الخالق بطبيعتى الإنسان العضوية والنفسية وخير الإنسان فى الدنيا والآخرة.

معنى الأكل من الشجرة:

وفيما يتعلق بما نسبه القرآن إلى آدم وحواء من أنهما ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ فإن المقصود منها - على حد فهمنا - هو التعبير عن

استشعار الإنسان الأول للنتائج المترتبة على الأكل من الشجرة أو التزاوج، ومن هذه النتائج التناسل وما كان سيسببه من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ولنفسه. وهو الظلم الذى يتبعه خسران مبين إن لم يتدارك الإنسان نفسه بالتوبة إلى الله تعالى واتباع صور هديه المنزلة إليه. وهذا الذى تشير إليه الآية قد حصل فى عهد غير بعيد عن آدم وزوجه، عندما نشب أول اقتتال بين الإنسان وأخيه الإنسان بسبب الإناث - على ما ذهب إليه البعض - وأريق أول دم إنسانى على الأرض، على النحو الذى نعرفه من نصوص القرآن فى ولدى آدم. ولعل معنى الظلم هنا يقترن بالظلم والجهل الناتجين عن حمل الإنسان للأمانة التى لم تحملها الطبيعة الكونية بحسب تكوينها الفطرى ذاته، إذ يقرر القرآن: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إن النص هنا - فى فهمنا - ليس المقصود منه ما قد يوحيه ظاهره من أنه كان هناك فعلا عرض من جانب الذات الإلهية للأمانة مقدم إلى السموات والأرض والجبال، وأن هؤلاء رفضوا أن يتحملوا الأمانة، فعرضتها الذات الإلهية على الإنسان الذى قبل أن يحملها.. لا نعتقد أن المقصود أبدا مثل هذا الذى يوحيه ظاهر النص، وإنما المقصود هنا - غالبا - وكما فى آدم - إشارة إلى حقائق الأشياء كما هى عليه فى تكوينها الطبيعى الذى خلقت عليه مادتها.

إن الأمانة هى التكليف الناتج عن العقل الذى حمله صاحبه وأصبح يمتلك بمقتضاه المقدرة على التصرف الحر المختار. والإنسان يملك هذه القدرة بواسطة ميزته العقلية أو الروحية الفريدة، بينما الكون، بما فيه من مواد غير حية، لا يملك هذه القدرة لأنه مكون من مادة غير عاقلة أو من طاقة صماء. ولذلك كان الإنسان مكلفا ولم تكن الطبيعة (المادة أو الطاقة) مكلفة. ولكن الإنسان المكلف يظلم نفسه فى حقيقة الأمر حين يمتلك القدرة على التصرف الإرادى الحر المختار، لأنه كما يتحرك نحو الخير، يتحرك نحو الشر، وهذا هو المقصود بالظلم سواء فى هذه الآية أو فى آية آدم وزوجه السالفة التى وردت فى سورة الأعراف.

ولما كان الإنسان بالطبيعة لا يعلم الغيب، فإن حمله للأمانة (أى التكليف المقترن بالعقل والمصاحب بحرية التصرف) كان يعنى فى الوقت نفسه (جهله) بعواقب ونتائج هذا الحمل من حيث السلوك المستقبل فى الأرض وطبيعة العلاقات الاجتماعية بين شعوب وقبائل النوع كله. فالإنسان حين حمل الأمانة نتيجة تميزه بالعقل، أو بمعنى آخر أصبح محلا للتكليف، كان جاهلا بالنتائج الخافية عليه والتى كانت ستترتب على حمل هذه الأمانة. ولكن هذه

النتائج كان لا يمكن أن تترتب إلا باستمرار النوع الإنسانى. واستمرار النوع كان لابد له من التناسل الناتج عن التزواج، أى كان لابد من الأكل من الشجرة، وهو ما كان فعلا وما تحقق معه الظلم المصحوب بالجهل فى الوقت نفسه.

ولكن القرآن يحدثنا بأن آدم عصى ربه فغوى.. وأن الله تاب عليه وهدى بعد أن اجتباه.. فكيف نفسر ذلك؟ هو عصيان بالنسبة للوجود فى الجنة فى ظل إشباع حاجات أربع أساسية لآدم كانت مباحة له لأن فيها ضمان استمرار حياته هو وزوجه، وهى المأكل والمشرب والملبس والمأوى، أى المسكن. ولكن التوالد ليس من ضرورات استمرار حياة آدم الذاتية أو زوجه.. وهنا يأتى دور حب البقاء. لقد وصف الشيطان الشجرة لآدم بأنها شجرة الخلد وأن فى الأكل منها ملكا لا يبلى. ويبدو أن آدم تعلم بعد فترة أن التناسل هو السبب الوحيد لاستمرار بقائه فى صورة بقاء ذريته من بعده.. والذرية لا تأتى إلا من التزاوج.. والتزاوج هو حقيقة شجرة الخلد والملك الذى لا يبلى.. ومن هنا فقد واجه آدم أول تحد لوجوده ذاته.. تحد يتمثل فى نهيه عن التزاوج يقابله لديه حب البقاء.. وضعف آدم أمام هذا الاختبار وتغلب عليه حب البقاء ودواعى الغريزة فأكل من الشجرة هو وزوجه - أى تزاوجا لأول مرة - فخرج هو وزوجه من الحالة الأولى التى كانا فيها فى «الجنة»، وهو ما يمثل العصيان.

ولما كان بقاؤه هدفا مقصودا من وجوده فى حد ذاته لاستمرار بقاء النوع الإنسانى فى الأرض - حيث كان سينزل من الجنة ليسعى فى الأرض وخاصة بعد إنجاب الذرية - فقد اجتباه ربه ثم تاب عليه وهدى. وأصبح من الأمور الطبيعية فى الأرض، بعد الخروج من حالة الجنة والهبوط من مكان الجنة، أن يعاشر آدم زوجه وأن ينجبا الذرية التى تتزاوج هى الأخرى ليتسع الوجود الإنسانى فى الأرض ويتشعب، ويستمر اتساعه وتشعبه فيتحقق الخلد والملك الذى لا يبلى.

حينما تحدث القرآن عن عصيان آدم، ذكر: ﴿**وعصى آدم ربه فغوى**﴾ طه: ١٢١ والربوبية تشمل المخلوقات كلها وعلى قمتها الإنسان. والرب هو السيد أو المربى أو المتحكم فى الشيء أو الموجه له أو الراعى له أو المتصرف فيه بالإصلاح.. وفى الإنسان بالذات تكون العلاقة بين الربوبية وبين العبودية عن طريق «العقل» الذى هو سر النفخة الروحية الربانية. فالإنسان بعقله يطيع ربه، وبغريزته يعصى ربه. وبالنسبة لآدم فقد تغلبت دواعى الغريزة - الجنس وحب البقاء - على العقل، فذاق هو وزوجه الشجرة، وعصى آدم بذلك ربه نتيجة تغلب الغريزة على العقل فى لحظة من لحظات الضعف أو النسيان، أى عدم وجود العزم على تغليب العقل على الغريزة دائما. ولكن مجرد وجود هذا العقل، ومجرد كونه سرا من أسرار

النفخة الربانية الروحية فى آدم الأول، وكل آدم من بعده، كان خليقا بأن يكون هذا الإنسان مكرما، ومؤهلا بالعقل وطاقاته للوصول إلى الغاية من الوجود الإنسانى ذاته والتى تتمثل فى معرفة الإله وتوحيده وذكره وعبادته واتباع صور هديه التى كانت ستأتى إلى الإنسان من بعد آدم فى الأرض . . . وقد أتت فعلا على ما نعرف نحن الآن، وكان خاتم هذه الصور، الصورة القرآنية.

الجنة التى سكنها آدم :

يقول المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار[1] :

اختلف العلماء فى الجنة التى أسكن الله بها آدم وحواء وأخرجهما الله منها، أهى جنة المأوى التى وعد الله المتقين أن يدخلوها فى الآخرة، أم هى جنة من جنات الأرض. والجمهور على أنها جنة المأوى أخذا بظواهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة : ٣٥] وحديث مسلم عن أبى هريرة (يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزدلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم) قال ابن كثير فى البداية والنهاية « وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة فى الدلالة على أنها جنة المأوى، وليست تخلو من نظر ».

وقال فريق من العلماء إن الجنة التى سكنها آدم وحواء كانت من جنات الدنيا لأنه كلف فيها ألا يأكل من الشجرة، ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها ووسوس إليه ولغا آدم وعصى ربه فيها وهذا ينافى أنها جنة المأوى. وقد حكى هذا القول عن أبى بن كعب وعبد الله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان بن عيينة، واختاره القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الجماعة فى تفسيره وأفرد له مؤلفا على حدة، وحكاه عن أبى حنيفة الإمام وأصحابه رضى الله عنهم ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازى ابن خطيب الرى فى تفسيره عن أبى القاسم البلخى وأبى مسلم الأصبهانى، ونقله القرطبى فى تفسيره عن المعتزلة والقدرية. وقد حكى الخلاف فى هذه المسألة أبو محمد بن حزم فى الملل والنحل وغيره. وحاصل الخلاف فيها على أقوال :

١ ـ إنها جنة المأوى.

٢ ـ إنها جنة سوى جنة المأوى اخترعها لآدم وحواء.

٣ ـ إنها جنة من جنات الأرض.

---

(١) نقلا عن كتاب «قصص الأنبياء» للأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار.

٤ ـ التوقف فى أمرها .

ومن أراد فصل بيان فى هذا الموضع فليرجع إلى صفحة ٧٥ وما بعدها الجزء الأول من كتاب البداية والنهاية لابن كثير .

ومن رأيى تفويض أمر تلك الجنة إلى علم الله تعالى فهو الذى يعلم إن كانت فى السماء أو الأرض ، وهذا لا يمنعنى أن أقول إنى أميل إلى أنها من جنات الأرض . انتهى .

تناول القرآن جنة آدم فى تقريره : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة : ٣٥] ولم يرد فى القرآن ما يشير من قريب أو بعيد إلى أنها الجنة الأخروية التى يدخلها المتقون خالدين فيها بعد يوم الحساب . بل إن العديد من الأحداث والحقائق المتصلة بجنة آدم تشير إلى أنها ليست الجنة الأخروية ، من ذلك تكليف الإنسان بنهيه عن الاقتراب من الشجرة وحدوث المعصية ووجود الشيطان بداخلها وغوايته ووسوسته والحرمان للإنسان فيها بعدم الأكل من الشجرة وتأقيت الوجود فيها فضلا عن خلوها من الأوصاف التى وصف الله بها الجنة الأخروية . ولو أن آدم كان فى جنة الخلد لما بحث عن شجرة الخلد ليأكل منها لأن خلود الإنسان فى جنة الخلد هو خلود ذاتى شخصى ، ومن هنا نفهم لماذا بحث آدم عن شجرة الخلد فى جنته الدنيوية التى لا خلود فيها ، فإن ذلك يرجع إلى أنها شجرة خلد النوع وليس خلد الذات ، لأن النوع هو الذى كان سيعمر الأرض ويقيم فيها الملك الذى لا يبلى .

حدد القرآن عددا من الأوصاف للجنة التى سكنها آدم ، وهى كلها أوصاف تتصل بضمان إشباع الحاجات الأساسية للإنسان الحى ـ آدم وزوجه ـ بحسب فسيولوجية تكوينه العضوى . فقد ذكر القرآن بالنسبة لهذه الجنة ما يلى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىٰ ﴾ [طه : ١١٨ ، ١١٩] وبالتالى فإن هذه الجنة كان فيها ما يضمن إشباع حاجات الإنسان الأول التى تمكنه من الحياة فى بيئة الجنة ، وهى المأكل والمشرب والملبس والمسكن . وهى نفس حاجات الإنسان منذ آدم وحتى قيام الساعة مع الاختلاف فى أساليب إشباع هذه الحاجات نتيجة تقدم الإنسان الحضارى المستمر . كما كان يوجد فى هذه الجنة ما وصفه القران ـ على لسان إبليس ـ بأنه «شجرة الخلد» التى كان الاقتراب منها سيؤدى إلى وجود نوع من الملك الذى لا يبلى . هذه الشجرة فى فهمنا هى رمز للاتصال الجنسى الذى بواسطته يكون خلود الإنسان ، لا خلودا ذاتيا وإنما خلود فى نوعه عن طريق إنجاب الذرية بحيث يتم التوصل إلى الملك الذى لا يبلى بواسطة هذا الأسلوب فى التكاثر .

إن النصوص القرآنية فى آدم إنما تعبّر ـ فى فهمنا ـ عن الخصائص والطبائع والملكات

والقدرات المتصلة بالمخلوق الجديد الفريد المتميز بالعقل النابع من نفخة الروح الربانية، والمتميز أيضا بالقدرة على إدراك العلاقات والتعلم والحفظ والتفكير المجرد والملاحظة والتخاطب والإرادة الحرة والذات التى تفرق بين الخير والشر والقادرة على النظر إلى البيئة المحيطة والاستفادة منها بالتجارب واكتساب الخبرات وتكوين التصورات والأفكار المجردة والقدرة على إدراك العلاقة بين الطبيعة وبين خالق الطبيعة والقدرة على الرقى الروحى والاقتراب من معانى الألوهية الحقة . . إلخ .

والقصة الآدمية وردت بأسلوب الرمز الدال على الحقائق، ولن يصل أحد إلى الحق فى آدم إلا من خلال فك الرموز ومفاتيح البيان . ويشير الفيلسوف والمتصوف والعلامة الراحل محمد إقبال ـ رحمة الله عليه ـ إلى هذا الأسلوب الرمزى فى القصة الآدمية فيقول: [1] «إن القرآن يحتفظ فى سرد قصة هبوط الإنسان بشىء من الرموز القديمة، ولكنه يحوّر القصة تحويراً ملموساً ليجعل لها معنى جديداً مختلفًا عن معناها السابق . وطريقة القرآن فى تحوير القصص تحويرا جزئيا أو كليا ليبعث فيها معانى جديدة يلائم بينها وبين روح التقدم فى الزمن، أمر له خطره، ولكن دارسى الإسلام من المسلمين على سواء كادوا يهملونه على الدوام . وهدف القرآن من إيراد هذه القصص قلما يكون العرض التاريخى بل يكاد دائما يهدف إلى أن يجعل لها مغزى عاما أو مضمونا فلسفيا . ويحقق قصده هذا بحذف أسماء الأشخاص والأماكن التى من شأنها أن تحدد معنى القصة بصبغها بصبغة حادثة تاريخية معينة، وكذلك بحذف التفصيلات التى تبدو خاصة بنوع آخر من الشعور . وهذه الطريقة مألوفة فى عرض القصص، فهى شائعة فى الأدب الذى لا يعالج الموضوعات الدينية . فمن ذلك مثلا قصة «فاوست»، فقد أضفت عليها عبقرية «جوته» معنى جديدا تمام الجدة» .

ولننتقل إلى قصة هبوط آدم من الجنة . إننا نجدها فى آداب العالم القديم على صور مختلفة . ومن المستحيل حقا أن نحدد مراحل نموها، وأن نرسم فى وضوح البواعث الإنسانية المختلفة التى لابد أن تكون قد أثرت فى تحديدها البطىء، ولكننا إذا قصرنا بحثنا على صورة القصة كما جاءت عند الساميين فإن من المرجح جدا أنها نشأت عن رغبة الإنسان البدائى فى أن يفسر لنفسه تعاسته البالغة وسوء حاله فى بيئة غير مواتية له، تفيض بالمرض والموت، وتعوقه من كل ناحية فى سعيه لاستبقاء حياته . ولما لم يكن للإنسان أى سلطان على قوى الطبيعة، فإن نظرته إلى الحياة نظرة متشائمة كانت أمرا طبيعيا . وعلى ذلك نجد فى نقش بابلى قديم ثعبانا ـ رمز عضو التذكير ـ وشجرة، وامرأة تقدم إلى رجل تفاحة ـ رمز البكارة ـ ومعنى هذه الأسطورة واضح، هو أن سقوط الرجل من حال مفترضة من حالات السعادة كان سببه الاختلاط الجنسى بين الرجل والمرأة لأول مرة .

---

(١) فى كتابه «تجديد التفكير الدينى فى الإسلام» فى فصل الألوهية ومعنى الصلاة .

ويتضح لنا أسلوب القرآن فى عرض هذه القصة عندما نقارنه بما ورد فى سفر التكوين. ونقط الخلاف الظاهرة بين رواية القرآن ورواية التوراة تشير إلى غرض القرآن إشارة لا تقبل الخطأ:

١ ـ فالقرآن يسقط من روايته إسقاطا تاما ذكر الحية، وحكاية خلق حواء من ضلع آدم. وحذف حكاية الحية تجريد للقصة من طابعها الجنسى وما توحى به أصلا من النظر إلى الحياة نظرة متشائمة. وحذف حكاية الضلع يقصد به الإشارة إلى أن غرض القرآن من رواية القصة ليس السرد التاريخى، كما هى الحال فى كتاب العهد القديم الذى يعطينا وصفا لأصل الرجل والمرأة تمهيدا لبيان تاريخ إسرائيل. نعم ورد فى آيات القرآن التى تتحدث عن أصل الإنسان بوصفه كائنا حيا لفظ «بشر» أو «إنسان» لا لفظ «آدم» الذى احتفظ به للإنسان الذى هو خليفة الله فى الأرض. ويزداد غرض القرآن تحققا بحذفه أسماء الأعلام مثل أدم وحواء اللذين ورد ذكرهما فى رواية التوراة، واستبقاء القرآن للفظ «أدم» واستعماله له إنما هما للدلالة على معنى أكثر مما هو للدلالة على اسم فرد معين من البشر. واستعمال اللفظ على هذا الوجه لا يعوزه الدليل من القرآن نفسه، فالآية التالية واضحة تماما فى هذا المعنى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ [الأعراف: ١١].

٢ ـ يقسم القرآن القصة إلى حادثتين متمايزتين، إحداهما تتعلق بما يصفه بالشجرة فقط، والأخرى خاصة بشجرة الخلد وملك لا يبلى. وردت الأولى فى سورة الأعراف والثانية فى صورة طه. ورواية القرآن تقوم على أن آدم وزوجه أذلهما الشيطان الذى يوسوس فى صدور الناس فذاقا من ثمار الشجرتين كلتيهما. على حين رواية العهد القديم تقوم على أن الإنسان طرد من جنة عدن فور عصيانه الأول وأن الله أقام فى الجانب الشرقى ملائكة وسيفا من لهب يتحرك فى جميع الجهات لحراسة طريق شجرة الحياة.

٣ ـ يلعن العهد القديم الأرض لعصيان آدم. أما القرآن فيجعل الأرض مستقرا ومتاعا للإنسان ينبغى أن يشكر الإنسان عليه: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠] كما أنه ليس هناك من سبب لافتراض أن كلمة «جنة» ـ أى الحديقة ـ استعملت فى هذا السياق للدلالة على جنة وراء الحس يفترض أن الإنسان هبط منها إلى هذه الأرض. وطبقا للقرآن ليس الإنسان غريبا فى هذه الأرض إذ يقول: ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا ﴾ فالجنة التى ورد ذكرها فى القصة لا يمكن أن يقصد بها الجنة التى جعلها الله متاعا خالصا للمتقين. فالجنة التى وعد المتقون وصفها القرآن بقوله: ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور: ٢٣]. وفى مقام آخر يصفها بقوله:

﴿لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر : ٤٨] . على أن الجنة التى ورد ذكرها فى القصة كان أول ما وقع فيها معصية الإنسان لربه ثم خروجه من الجنة . والواقع أن القرآن نفسه يفسر معنى الجنة كما استعملها فى روايته ، ففي بيان الحادثة الثانية التى وقعت في هذه القصة يصف القرآن الجنة فيقول : ﴿إنّ لك ألاّ تجوع فيها ولا تعْرىٰ (١١٨) وأَنَّكَ لا تَظْمأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ﴾ [طه : ١١٨، ١١٩] ، وعلى هذا فإننى أميل إلى اعتبار الجنة التى جاء ذكرها فى القرآن تصويرا لحالة بدائية يكاد يكون الإنسان فيها مقطوع الصلة بالبيئة التى يعيش فيها ومن ثم فإنه لا يحس بلدغة المطالب البشرية التى تحدد نشأتها ، دون سواها من العوامل ، بداية الثقافة الإنسانية .

وهكذا ترى أن قصة هبوط آدم كما جاءت فى القرآن لا صلة لها بظهور الإنسان الأول على هذا الكواكب ، وإنما أريد بها بالأحرى بيان ارتقاء الإنسان من بدائية الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفسا حرة قادرة على الشك والعصيان . ولا يعنى الهبوط أى فساد أخلاقى ، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس . هو نوع من اليقظة من حلم الطبيعة أحدثتها خفقة من الشعور بأن للإنسان صلة علية شخصية بوجوده .

هذا إلى أن القرآن لا يعتبر الأرض ساحة للعذاب سجنت فيه إنسانية شريرة العنصر بسبب ارتكابها خطيئة أصلية . فالمعصية الأولى للإنسان كانت أول فعل له تتمثل فيه حرية الاختيار ، ولهذا تاب الله على آدم كما جاء فى القرآن وغفر له . وعمل الخير لا يمكن أن يكون قسرا بل هو خضوع عن طواعية للمثل الأخلاقى الأعلى خضوعا ينشأ عن تعاون الذوات الحرة المختارة عن رغبة ورضا . والكائن الذى قدرت عليه حركاته كلها كما قدرت حركات الآلة لا يقدر على فعل الخير . وعلى هذا فإن الحرية شرط لعمل الخير ، ولكن السماح بظهور ذات متناهية لها القدرة على أن تختار ما تفعل بعد تقرير القيم النسبية للأفعال الممكنة لها ، هو فى الحق مغامرة كبرى ، لأن حرية اختيار الخير تعنى كذلك حرية اختيار عكسه . وكون المشيئة الإلهية اقتضت ذلك دليل على ما لله من ثقة فى الإنسان . ولقد بقى على الإنسان أن يبرهن أنه أهل للثقة . وربما كانت مغامرة كهذه هى وحدها التى تيسر الابتلاء والتنمية للقوى الممكنة لوجود خلق على أحسن تقويم ثم رد إلى أسفل سافلين ، وكما يقول القرآن : ﴿ ونبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

فالخير والشر إذن ، وإن كانا متضادين ، يجب أن يكون كلاهما جزءا من الكل نفسه . وليست هناك حقيقة منعزلة عن غيرها لأن الحقائق أمور كلية يجب أن تفهم عناصرها بما بينها من نسب وإضافات . والحكم المنطقى إنما يفرق بين عناصر الحقيقة الواحدة لكى يكشف عن توقف كل منها على الآخر .

وفضلا عن هذا فإن طبيعة النفس هى أن تبقى على ذاتها من حيث هى نفس، وبسبب هذا تنشد المعرفة والتكاثر والقوة، أو كما جاء القرآن تسعى وراء (ملك لا يبلى) والحادثة الأولى فى رواية القرآن للقصة تتعلق برغبة الإنسان فى المعرفة، والثانية تتعلق برغبته فى التكاثر والقوة. وفيما يتعلق بالحادثة الأولى لابد من إيضاح أمرين:

الأول هو أنها ذكرت مباشرة بعد الآيات التى وصفت تفوق آدم على الملائكة فى معرفة أسماء الأشياء وإعادة ذكرها. والمقصود من هذه الآيات كما بينت آنفا، بيان أن المقصود طبيعة المعرفة الإنسانية.

وفيما يتعلق بالأمر الثانى تحدثنا مدام بالفاتيسكى (Balvateski) التى كانت على حظ كبير من العلم بالرمزية القديمة فتقول فى كتابها «المذهب السرى» (Secret Doctrine): إن الشجرة كانت عند القدماء رمزا خفيا على علم الغيب. وواضح أن آدم حرم عليه أن يذوق ثمر هذه الشجرة لأن تناهيه من حيث هو نفس ولأن عتاده الحسى وقواه العاقلة، كل ذلك كان بصفة عامة، مهيئا لنوع آخر من أنواع المعرفة، هو النوع الذى يقتضى الكد فى معاناة الملاحظة ولا يقوى إلا على التجمع البطىء. ولكن الشيطان أغوى آدم على أن يأكل الثمرة المحرمة من شجرة المعرفة، وانقاد له آدم، لا لأن الشر كان متأصلا فى نفسه ولكن لأنه كان عجولا بطبعه أراد أن يحصل المعرفة من أقصر طريق. وكان السبيل الوحيد لتقويم هذا الميل فيه أن يوضع فى بيئة، مهما تكن مؤلمة له، فإنها كانت أكثر ملاءمة لإظهار قواه العاقلة. وعلى ذلك فإدخال آدم فى بيئة مادية مؤلمة له لم يكن القصد منه عقابه، بل كان المراد به بالأحرى القضاء على صد الشيطان الذى احتال ـ بسبب عداوته للإنسان ـ بلين القول على أن يبقيه جاهلا بالنعيم الذى ينشأ عن النمو والامتداد الخالدين. ولكن بقاء ذات متناهية فى بيئة كئود يتوقف على التزايد المستمر للمعرفة القائمة على التجربة الواقعة. وتجارب هذه الذات المتناهية التى تنفسح أمامها إمكانات عدة إنما تزداد وتتسع بطريقة المحاولة والخطأ. وعلى هذا فإن الخطأ الذى قد يوصف بأنه نوع من الشر العقلى يعتبر عاملا لا محيص عنه فى بناء التجربة.

ويروى القرآن الحادثة الثانية فى قصة الهبوط من الجنة على النحو التالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٠ ـ ١٢٢]: فالفكرة الأساسية هنا تشير إلى رغبة الحياة رغبة لا تقاوم فى الحصول على ملك لا يبلى، فى حصول الإنسان على ملك لا نهائى من حيث هو فرد ذو وجود متحقق. ولكن لما كان الإنسان كائنا فانيا يخشى انقضاء سيرته بموته، لم يكن أمامه من سبيل إلا أن يحقق نوعا من الخلود الجماعى بالتكاثر والتوالد. وأكل الثمرة المحرمة من شجرة الخلد كان الوسيلة التى لجأ إليها للتمييز بين الذكر والأنثى وهو التمييز الذى به يتكاثر لكى ينجو من الفناء الكلى، كما لو كانت الحياة تقول للموت كلما اكتسحت جيلا من الأحياء

أخرجت جيلا آخر . والقرآن يستبعد الرمز لعضو التذكير الذى جاء فى الفن القديم ولكنه يشير إلى أول اختلاط جنسى بما اعترى آدم من الخجل الذى يبدو فى حرصه على ستر عورته .

وبعد ، فإن الحياة معناها أن يكون للإنسان شكل معين ، وفردية متحققة الوجود فى الخارج ، وهذه الفردية المتحققة مشاهدة فيما لا يحصى من مختلف الصور الحية ، هى التى يكشف فيها ما لله من وجود غير متناه . على أن ظهور الفرديات وتكاثرها ، وكل منها جاعل نصب عينيه الكشف عن إمكاناته هو ، باحث عن أسباب ملكه - أى دائرة اختصاصه - لابد من أن يتبعه الكفاح المرير بين الناس . يقول القرآن : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [الأعراف : ٢٤] . وهذا الصراع المتبادل بين الأفراد المتعارضين هو مصدر ألم الدنيا الذى يبعث فى الحياة الفانية النور والظلمة كليهما ، وفى الإنسان الذى تتعمق فرديته فتصبح شخصيته تهيىء له إمكان ارتكاب الشر ، يصبح الشعور بمأساة الحياة عنده ، أكثر حدة وشدة .

على أن رضا الإنسان بوحدة الشخصية بوصفها صورة من صور الحياة ، يتضمن الرضا بجميع العيوب التى تنشأ عن تناهيها . ويصف القرآن الإنسان بأنه أخذ على عاتقه عبء الأمانة التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها فيقول : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢] . أفنستجيب إذن لأمانة الشخصية مع كل ما يصاحبها من شرور ، أم لا نستجيب لها؟

إن الرجولة الحقة ، كما جاء فى القرآن ، هى الصبر فى البأساء والضراء . على أننا فى المرحلة الحاضرة من مراحل تطور الشخصية لا نستطيع فهم كل ما تنطوى عليه التجارب التى تنشأ من قوة الألم الجارفة ، فلربما اكتسبت النفس منها قوة تقاوم بها ما قد يواجهها من انحلال . ولكننا عندما نورد هذا السؤال نتجاوز حدود التفكير المجرد ، وهذه مسألة يظهر فيها الإيمان بفوز الخير فى النهاية كعقيدة من عقائد الدين : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] . انتهى .

وقد استعمل القرآن لفظ «الجنة» فى عدد من آياته ، وهو يقصد صراحة وجود هذه الجنة فى الأرض كما فى الآيات التالية :

١ - ٢٦١ : ٢٦٦ من سورة البقرة : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ

النّاس ولا يُؤْمنُ بالله واليَوْم الآخر فمثلُهُ كمثَلِ صفْوَان عليْه تُرابٌ فأصابهُ وابلٌ فتركهُ صلْدًا لاَّ يقْدرُونَ علىٰ شيْءٍ مّمَّا كسبُوا واللهُ لا يهْدي القوْمَ الْكافرين (٢٦٤) ومثلُ الّذين ينفقُون أمْوالهُمُ ابْتغاء مرْضات الله وتثْبيتًا مّنْ أنفُسهمْ كمثلِ جنّةٍ بربْوةٍ أصابها وابلٌ فآتتْ أُكُلها ضعْفيْن فإن لّمْ يُصبْها وابلٌ فطلٌّ واللهُ بما تعْملُون بصيرٌ (٢٦٥) أيوَدُّ أحدُكُمْ أن تكُون لهُ جنّةٌ مّن نّخيلٍ وأعْنابٍ تجْري من تحْتها الأنْهارُ لهُ فيها من كُلّ الثّمرات وأصابهُ الْكبرُ ولهُ ذُرّيّةٌ ضُعفاءُ فأصابها إعْصارٌ فيه نارٌ فاحْترقتْ كذلك يُبيّنُ اللهُ لكُمُ الآيات لعلّكُمْ تتفكّرُون ﴾ [البقرة: ٢٦١ - ٢٦٦].

٢ ـ ٩٠ و ٩١ من سورة الإسراء: ﴿ وقالُوا لن نُّؤْمن لك حتّىٰ تفْجُر لنا من الأرْض ينبُوعًا (٩٠) أوْ تكُون لك جنّةٌ مّن نّخيلٍ وعنبٍ فتُفجّر الأنْهار خلالها تفْجيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٠، ٩١].

٣ ـ الآية ٣٢ وما بعدها من سورة الكهف: ﴿ واضْربْ لهُم مّثلاً رّجُليْن جعلْنا لأحدهما جنّتيْن منْ أعْنابٍ وحففْناهُما بنخْلٍ وجعلْنا بيْنهُما زرْعًا (٣٢) كلْتا الْجنّتيْن آتتْ أُكُلها ولمْ تظْلم مّنْهُ شيْئًا وفجّرْنا خلالهُما نهرًا (٣٣) وكان لهُ ثمرٌ فقال لصاحبه وهُو يُحاورُهُ أنا أكْثرُ منك مالاً وأعزُّ نفرًا (٣٤) ودخل جنّتهُ وهُو ظالمٌ لّنفْسه قال ما أظُنُّ أن تبيد هذه أبدًا (٣٥) وما أظُنُّ السّاعة قائمةً ولئن رُّددتُّ إلىٰ ربّي لأجدنّ خيْرًا مّنْها مُنقلبًا (٣٦) قال لهُ صاحبُهُ وهُو يُحاورُهُ أكفرْت بالّذي خلقك من تُرابٍ ثُمّ من نُّطْفةٍ ثُمّ سوّاك رجُلاً (٣٧) لّكنّا هُو اللهُ ربّي ولا أُشْركُ بربّي أحدًا (٣٨) ولوْلا إذْ دخلْت جنّتك قُلْت ما شاء اللهُ لا قُوّة إلاّ بالله إن ترن أنا أقلّ منك مالاً وولدًا (٣٩) فعسىٰ ربّي أن يُؤْتين خيْرًا مّن جنّتك ويُرْسل عليْها حُسْبانًا مّن السّماء فتُصْبح صعيدًا زلقًا (٤٠) أوْ يُصْبح ماؤُها غوْرًا فلن تسْتطيع لهُ طلبًا (٤١) وأُحيط بثمره فأصْبح يُقلّبُ كفّيْه علىٰ ما أنفق فيها وهي خاويةٌ علىٰ عُرُوشها ويقُولُ يا ليْتني لمْ أُشْركْ بربّي أحدًا (٤٢) ولمْ تكُن لّهُ فئةٌ ينصُرُونهُ من دُون الله وما كان مُنتصرًا ﴾ [الكهف: ٣٢ – ٤٣].

٤ ـ سبأ ١٥ و ١٦: ﴿ لقدْ كان لسبإٍ في مسْكنهمْ آيةٌ جنّتان عن يمينٍ وشمالٍ كُلُوا من رّزْق ربّكُمْ واشْكُرُوا لهُ بلْدةٌ طيّبةٌ وربٌّ غفُورٌ (١٥) فأعْرضُوا فأرْسلْنا عليْهمْ سيْل الْعرم وبدّلْناهُم بجنّتيْهمْ جنّتيْن ذواتيْ أُكُلٍ خمْطٍ وأثْلٍ وشيْءٍ مّن سدْرٍ قليلٍ ﴾ [سبأ: ١٥، ١٦].

٥ ـ ٩٩ و ١٤١ من سورة الأنعام: ﴿ وهُو الّذي أنزل من السّماء ماءً فأخْرجْنا به نبات كُلّ شيْءٍ فأخْرجْنا منْهُ خضرًا نُّخْرجُ منْهُ حبًّا مُّتراكبًا ومن النّخْل من طلْعها قنْوانٌ دانيةٌ وجنّاتٍ مّنْ أعْنابٍ والزّيْتُون والرُّمّان مُشْتبهًا وغيْر مُتشابهٍ انظُرُوا إلىٰ ثمره إذا أثْمر وينْعه إنّ في ذلكُمْ لآياتٍ لّقوْمٍ يُؤْمنُون ﴾ [الأنعام: ٩٩] ـ ﴿ وهُو الّذي أنشأ جنّاتٍ مّعْرُوشاتٍ وغيْر معْرُوشاتٍ والنّخْل والزّرْع مُخْتلفًا أُكُلُهُ والزّيْتُون والرُّمّان مُتشابهًا وغيْر مُتشابهٍ كُلُوا من ثمره إذا أثْمر وآتُوا حقّهُ يوْم حصاده ولا تُسْرفُوا إنّهُ لا يُحبُّ الْمُسْرفين ﴾ [الأنعام: ١٤١].

٦ ـ الرعد ٤ : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤].

٧ ـ المؤمنون ١٨ و ١٩ : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٨، ١٩].

٨ ـ الشعراء ٥٧ و ١٣٤ و ١٤٧ : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٥٢ – ٥٨].

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء : ١٣٢ – ١٣٤].

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ [الشعراء : ١٤٦ – ١٤٨].

٩ ـ يس ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس : ٣٣ – ٣٥].

١٠ ـ ق ٩ : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ [ق : ٩].

١١ ـ نوح ١٠ ، ١٢ : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح : ١٠ – ١٢].

١٢ ـ النبأ ١٦ : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ : ١٤ – ١٦].

كل هذه الاستعمالات للفظ الجنة تفيد وجودها فى الأرض.

أما الجنة الأخروية وما وصفها القرآن به من أوصاف النعيم واللذة والخلود الذاتى للإنسان فيها بعد [1] الحساب فقد جاء فى أوصافها هذه ـ سواء فى حقيقتها أو فيما هو مثل لها ـ فى الصور القرآنية التالية : البقرة، آل عمران ، النساء، المائدة ، الأعراف ، التوبة، يونس،

(١) ﴿ لا يمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين ﴾ الحجر : ٤٨.

هود، الرعد، النحل، مريم ، الفرقان ، الشعراء، العنكبوت، يس، الزمر، غافر ، فصلت، الشورى، الزخرف، الأحقاف، محمد، ق ، النجم، الواقعة، الحديد، الحشر ، التحريم، الحاقة ، المعارج، الإنسان ، النازعات ، التكوير، الغاشية، الفجر ، الدخان، إبراهيم، الحجر، الكهف، طه، الحج ، المؤمنون، لقمان، السجدة، فاطر، الصافات، ص ، الفتح ، الذاريات ، النور، القمر، الحديد ، المجادلة ، التغابن ، الطلاق ، القلم ، المدثر ، البروج، والبينة. وفيها من الأوصاف الخاصة بالجنة الأخروية ما لا يوجد فى أوصاف الجنة التى سكنها آدم .

والذى يرجح أن الجنة التى سكنها آدم كانت فى الأرض هو ما يلى :

١ ـ إن بداية النشأة الإنسانية على الإطلاق، وبالتالى بداية الوجود لآدم كانت من الأرض وفى الأرض، وإلى ذلك تشير العديد من الآيات القرآنية في صراحة تامة مثل الآيات التالية : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٥٥] . ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص : ٧١ ، ٧٢]. والطين هو ماء وتراب الأرض ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ [النجم : ٣٢]. ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ . [المؤمنون : ١٢]. ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ [نوح : ١٧] . بمعنى خلقكم وأنشأكم وأسكنكم، وليس بمعنى أنبت لكم كما يحاول أن يفهم البعض بغير حق .

٢ ـ دخول آدم الجنة كان بعد خلقه وتسويته ونفخ الروح فيه فى الأرض، هذا فضلا عن أن الجنة فى اللغة هى البستان أو هى المكان ذو الشجر الكثيف الذى يستتر من بداخله عمن بخارجه . أما الهبوط فله معنيان، مادى ومعنوى، المادى يعنى النزول من أعلى إلى أسفل بمعنى أن الجنة كانت فى مكان عال عن مستوى سطح الأرض العادى، والأماكن العالية فى الأرض من الغابات ذات الشجر الكثيف والثمار الكثيرة متوافرة بكثرة فى الأرض . أما المعنى المعنوى فهو الخروج من حال أعلى والهبوط إلى حالة أدنى، الأولى فى الاستعمال القرآنى فى حالة الطهارة فيما قبل عصيان آدم والحالة الثانية هى حالة آدم النفسية بعد العصيان التى خرج بسببها من حالته الأولى ـ حالة الجنة ـ إلى حالته الثانية حالة الأرض . ونكتفى بهذا القدر فى بيان الجنة التى سكنها آدم .

هذا وقد جاء وصف الجنة فى الإصحاح الثانى من سفر التكوين بما يفيد أنها عند منابع دجلة والفرات : « ٨ ـ وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقا ووضع هناك آدم الذى جبله ٩ ـ وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل وشجرة الحياة فى وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر ١٠ ـ وكان هناك نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رءوس ١١ ـ اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث

الذهب ١٢ـ وذهب تلك الأرض جيد ، هناك المقل وحجر الجزع ١٣ـ واسم النهر الثانى جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش(١٤) واسم النهر الثالث حداقل وهو الجارى شرق آشور ـ (دجلة) ـ والنهر الرابع الفرات» .

* * *

فآدم هو بداية اتصال الوجود الطبيعى (الممكن الوجود) بالوجود الذاتى الإلهى (الواجب الوجود) . يقول الأستاذ أبو الفيض المنوفى فى فصل «الإنسان» من كتابه «كتاب الوجود» : «وبذا يكون الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى تتسامى فى ذاته جميع وحدات الكائنات لمواجهة خالقها ومبدعها ، وبعبارة أخرى : هو النقطة الوحيدة فى محيط دائرة الوجود التى تواجه المركز الوجودى العلى الأعظم مباشرة ، فتقع عليها أضواء الحقيقة فتنعكس كانعكاس النور الطبيعى العدسة البلورية الجامعة له ، ومنها تشع على بقية الكائنات ، فيدرك الإنسان وجودها ، ومن ثم يدرك وجود الإدراك نفسه ، ثم يدرك وجود خالقها جميعا وبارئها ، ثم تنعكس تلك الأضواء ثانية على كفايات الذات حاملة صور وكيفيات الوحدات أو النقط الوجودية وأوضاعها ، فيصير الكم والكيف والحد والحيز والصورة واللون علما عقليا وحسيا ثم معرفة إلهية ، وبعبارة أوضح : يتنزل على ذات الإنسان المعنى الإلهى الروحى أو قل : النور الإلهى فيغير ظلام الكائنات الطبيعية ويحيل سدوف ظلمتها إلى نور إداركى مشرق ، به تدرك الحقائق والأشياء المحسة وتتداعى على الإدراك الإنسانى ، ثم ينزع الإدراك ومعه معانى الأشياء متساميا لإدراك وجود مبدعها ومبدعه وللتلقى من أسرار علمه وحكمته» . «انتهى» .

ومقتضى ظهور الأسماء كلها ـ أى الأسماء الحسنى ـ هو ظهور الأضداد النسبية كلها ، والتى ظهرت مع آدم فى الطاعة والمعصية ، أو فى الخير والشر . فالمعصية تعتبر من مقتضيات ظهور الأسماء كلها كالطاعة تماما بتمام ، وهما نسبيتان بالإضافة إلى مدرك لهما هو آدم العاقل . . بينما هما بالإضافة إلى الذات الإلهية لا يختلفان مطلقا حيث الطاعة الإنسانية لا تنفع الإله والمعصية لا تضره ، وهو الذى فى الأرض إله وفى السماء إله . والذات الإنسانية القادرة على التصرف الإرادى الحر تعتبر أيضا من مقتضيات ظهور الأسماء كلها لأنها تمثل الانفصال والغيرية وعدم المثلية بين الله وكل ما سواه ، وهو ما يثبت بالذات الحرة العاقلة التى تدرك ذاتها المستقلة . والأسماء الإلهية كلها حسنى ، والقبح المتصل بظاهر الأسماء فى الكون إنما هو نسبى بالإضافة إلى العقل الإنسانى فقط ، الذى يفرق بين الخير والشر وبين الطاعة والمعصية ، بينما الأسماء الحسنى تقتضى المعصية ـ التواب والغفور والعفو ـ وتقتضى الطاعة ـ الشكور الهادى المؤمن ـ والعقل هو الذى يقيم الفروق بين الحسن والقبيح بينما الحقيقة أو الكون كله جمال وحسن ، والجلال فيه هو عين الكمال الأسمائى .

والملائكة لا تعلم الأسماء الحسنى كلها وإنما تدرك فقط أسماء بعينها ربما كانت هى موكولة بها من حيث التصريف الأسمائى أو ربما لأن طبيعتها النورية المطيعة لا يمكنها معها إلا إدراك بعض فقط من الأسماء كلها. أما آدم فقد ظهرت به الأسماء كلها بما جمع فى تكوينه من عناصر المادة الطينية والدوافع الغريزية وخصائص النفخة الروحية ولذلك كان خليفة فى الملك نائبا عن مالك الملك.

فهم معانى آدم :

إنه بفهم معانى ودلالات وإشارات الآيات القرآنية التى تناولت آدم تكون قد وضحت لنا حقيقتان :

الحقيقة الأولى : نكون قد توصلنا إلى المدخل إلى الإنسان. إن فهم معانى آدم ليس هو النهاية إنما هو البداية. إن على الإنسان العاقل أن يكتشف الآيات فى نفسه وفى البيئة من حوله وفى الآيات الكونية. ويجب علينا ـ نحن البشر فى هذا العصر الذى تقدمت فيه العلوم ـ أن نجول فى الإنسان وتركيبه العضوى وفى سريه العقلى والروحى الخارجين على القوانين الطبيعية المادية. إن العلم ربما يكون خطا شوطا كبيرا فى المعرفة بالإنسان وتركيبه الخلوى والعضوى، ولكن يظل علينا أن نقطع شوطا مماثلا فى تركيبى الإنسان العقلى والروحى اللذين مازالا فوق المقدرة العلمية المادية. ورغم تقدم العلوم الروحية فى عصرنا هذا إلا أنها مازالت تسير فى بداية الطريق بالنسبة لمعرفة طاقات العقل والروح فى الإنسان الذى خلقه الله ونفخ فيه من روحه. لقد احتوى القرآن، منذ تنزل على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، على الحقائق الكامنة فى الإنسان ورمزه آدم البداية. وإنى، بالمعنى الذى فهمته من آدم. لا أدعى بأننى قد عالجت الأمر كله وجلوت الحقيقة الإنسانية وعلاقاتها المتبادلة مع الطبيعة البيئية المحيطة وبالصلات الاجتماعية للنوع الإنسانى. إن الذى فهمته ما هو إلا مدخل إلى فهم المعنى الآدمى وأرجو ألا أكون قد جاوزت الحقيقة القرآنية التى هى المرجع الفصل فى هذا الأمر كله.

عندما يظن الإنسان أنه قد أشرف على نهايات العالم الطبيعى بما اكتشفه من نظريات وقوانين تحكم الظواهر المادية وتفسرها، ويظن أنه قد أحاط بالحقيقة الكونية المادية وأدرك الأسرار النهائية المحيطة بالمادة والطاقة الكونية. . عندها يكون الإنسان قد وصل إلى بداية المعرفة الحقيقية المتصلة بالكون. إن الكون يحتاج اليوم إلى تأويل روحى. وقد أدرك الفيلسوف المسلم محمد إقبال ـ رحمة الله عليه ـ هذه الحقيقة وذكرها صراحة فى أفكاره لتجديد التفكير الدينى فى الإسلام. إن الظاهرة الروحية تكون بداياتها عند نهاية الظاهرة المادية الطبيعية، أو نهاية هذه تكون بعدها بداية تلك.

ولذلك فعندما يظن الإنسان أنه قد علم فإنه يكون فى الحقيقة قد جهل لأن ما يظنه النهاية ليس إلا من قبيل نشاطه العقلى المتصل بالمادة والطاقة وإدراكه الحسى، ويظل عليه أن يجول فى الحقيقة منظورا إليها بواسطة النشاط الروحى الخارج عن الحواس حتى يؤمن بالحقيقة الإلهية فيسجد لها سجود العالم الذى يخشى ربه. وقد تبدو الحقيقة الكونية والقوى الإنسانية مغايرة إذا نظرنا إليها بقوة الروح بالتجريد عن قيود المادة المحكومة بالزمان والمكان.

الحقيقة الثانية : إن البعد الآدمى إنما هو مثال لطريقة التعمق التى يتبعها القرآن فى العديد من قصصه وأمثلته التى يضربها للناس للاعتبار بجوهرها ومغزاها ودلالاتها وحقائقها. . إلخ. ولعل هذا الذى نقول، هو إحدى دلالات الحروف الأولى فى أوائل العديد من السور القرآنية، وهى حروف رمزية دالة على كلمات تامات أو حقائق مكتملة. فكثير من الحقائق العلمية القرآنية تقررت بطريق المغزى أو الإشارة، وأوضح دليل على هذا هو الدلالات الظاهرية التى وقف عندها النبى موسى وهى ليست إلا الدلالات الظاهرة.

إن الحروف الرمزية فى أوائل السور القرآنية قد تعنى أن حقائق وردت فى سياقات هذه السور، لكنها حقائق باطنة فى محتويات الألفاظ التى تعتبر فى حقيقة الأمر رموزا لها. ولابد من فك شفرة الرموز حتى نتوصل إلى الحقائق الكامنة فى النصوص القرآنية من خلال القراءة فى الكتاب الذى يحوى الحقيقة المطلقة، وهو القرآن أو الكون.

إن الصلة بين الكلمات وبين المخلوقات صلة وثيقة، والقراءة كما تكون فى كتاب الكلمات العربية تكون فى الكون. فالقرآن يكون لكلمات الله تعالى فى الكتاب الموحى به إلى المصطفى من النوع الإنسانى فى ظل من شهود حقائق هذه الكلمات فى الوجود المادى والوجود اللامادى، ولذلك توجه الأمر الربانى إلى محمد رسول الله، أول ما توجه، بالقراءة لكلمات القرآن مشهودة حقائقها فى الكلمات المخلوقة فى الكون كله وسرها الأعظم هو الإنسان، ذلك الكائن المعجز فى مزيجه المادى والروحى أو العضوى والعقلى أو الفسيولوجى والسيكولوجى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ – ٥]. هذا فى البداية، وفى النهاية لابد أن تتضح الصورة المتطابقة تماما للحقيقة فى القرآن والحقيقة فى الكون – وهما أقرب إلى التجريد والرمز – من خلال إداراك الظاهرتين العضوية والعقلية، الفسيولوجية والسيكولوجية، المادية والروحية فى الإنسان فى عالمه الباطن الممتد ومظاهر الوجود الخارجى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [**فصلت**: ٥٣].

إن الصلة بين الرمز المادى والحقيقة اللامادية هى السمة البارزة التى تتصف بها الحروف الرمزية فى أوائل السور القرآنية. ففى كل سورة استعمل فيها القرآن الحروف الرمزية جاء بعدها مباشرة الإشارة إلى «الكتاب» المنزل على الإنسان المصطفى من النوع باعتباره الحق الذى لا ريب فيه. هكذا مثلا فى سورة البقرة وسورة آل عمران، وسورة الأعراف . . . إلى آخر السور التى بدأت بالحروف الرمزية المشيرة إلى المعانى التامة ولم تشذ عن هذه القاعدة إلا سورتان هما سورة العنكبوت وسورة الروم، والطابع الذى يميز الحروف فيهما هو طابع الظاهرة الغيبية أو الإنباء بالغيب أو التنبؤ: ﴿الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]. ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ ..﴾ [الروم: ١ - ٤].

وقصة آدم بالذات وردت بتفاصيلها المعروفة فى السور التالية:

البقرة وتبدأ بالحروف ا ل م

الأعراف وتبدأ بالحروف ا ل م ص

الحجر وتبدأ بالحروف ا ل ر

ص وتبدأ بالحرف ص

وهذه الظاهرة، ظاهرة التنبؤ ليست ظاهرة خيالية أو تصورية، إنما هى ظاهرة علمية، وهى بذلك لاتشذ عن القاعدة العامة فى الاتجاه العلمى للقرآن كما يتصور البعض. فظاهرة التنبؤ - كما يخبرنا علماء النفس - هى إحدى الظواهر المعتبرة من أهداف «التفكير العلمى» ويأتى ترتيبها بعد «الفهم»، بل هى مبنية على الفهم إذ مؤداها هو تصور انطباق القانون أو القاعدة العامة فى مواقف أخرى غير تلك التى نشأ عنها أساسا. وإذا صح التنبؤ الإنسانى كان معنى ذلك أن المعلومات التى أقيم التنبؤ على أساسها صحيحة وبذلك يكون التنبؤ أسلوبا علميا فى التفكير قائما على أساس علمى محدد (١). ويلاحظ أن الفهم بالإضافة إلى التنبؤ يمكنان الإنسان من الوصول إلى التحكم أى الوصول إلى هدف معين أو نتيجة محددة باستخدام معين للظروف التى تحقق الظاهرة. وهذه القواعد العلمية تعتبر أساسا لدراسة الظاهرتين اللتين وردتا فى السياقين القرآنيين الرمزيين المقررين أسس التنبؤ ذاته وهما الظاهرتان التاليتان:

---

(١) مثال ذلك فيما يتعلق بقانون الحركة الذى يقول إن كل جسم يتحرك يستمر فى حركته ما لم يعقه عائق، ويمكن أن نستنتج منه أو نتنبأ على أساسه أن الأجسام المستديرة المسلك تستمر فى حركتها لمسافة أبعد من تلك التى تستمر فيها الأجسام الخشنة، وذلك لاختلاف درجة الاحتكاك فى الحالتين.

١ ـ المشاق التى تقابل أصحاب العقائد والمثل والقيم فى خضم السلوك الواقعى فى المجتمعات البشرية المتباينة العقائد والميول والنظم وأنماط السلوك . . إلخ .

٢ ـ ظاهرة الانتصار والهزيمة فى الحروب وأسباب كل من النتيجتين المعنوية والمادية واتصالهما بالتركيب الكلى لبنيان الدول .

والقرآن نزل مبينا للحقيقة المطلقة ومحتوياتها فى شكل أمثال أحيانا وإشارات أحيانا وألفاظ وتعبيرات واضحة أحيانا . وقد نزل يبينها للإنسان أو ليتحقق بها الإنسان من خلال نصوصه . والقرآن كلام الذات وهو لذلك صفته ، وصفات الذات لها تعلقات بالمادة والطاقة الكونية ، وبذلك يكون كتاب الله المنزل على النبى صلى الله عليه وسلم له تعلق هو الآخر بمادة الكون وطاقاته . والقرآن نفسه ملىء بالآيات الدالة على ضرورة إقامة العلاقة المتلازمة التى لا تنفك بين آيات الله فى القرآن وآياته فى الكون . فالحقيقة أن الاثنين مرتبطان ارتباطا قويا ، وعلاقة الكون بالإنسان من خلال البيئة المادية أو الطاقة الخارجية ، والبيئة المادية أو الطاقية فى داخل نفس الإنسان ، هذه العلاقة هي التي تؤدى إلى الإيمان بالذات الإلهية بعد ما يتبين أن الخلق كله هو الحق من ربنا تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

القرآن الصفاتى موجود قديم سابق على خلق الإنسان ، لأن القرآن كلام الله . والإنسان هو المخلوق الذى تحمل عبء بيان الحقائق القرآنية الصفاتية القديمة : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن : ٣ ، ٤] .وهذه الحقائق الصفاتية القديمة تتخذ صورة حقائق مادية مخلوقة تمثلها طاقات الكون كله ومادة الكون كلها : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ٥ ـ ١٣] ، إلى آخر سورة الرحمن . إن الذى يزن ذلك كله بميزان العقل الذى يعتبر منحة من الله سبحانه وتعالى هو الإنسان نفسه الذى يشهد أن المادة والطاقة فى الكون كله هما من فعل الذات الإلهية وتنظمهما قوانين حركية ثابتة . وبذلك يقيم الإنسان بعقله الوزن السليم والصحيح للأمور أو بمعنى آخر يزن الأمور بوزنها الصحيح فلا يطغى بعقله فى موازينه للأمور بحيث يخسر الميزان بأن يقف عند حدود الماديات لايتعداها فتفوته بذلك حقيقة الإله الخالق لهذه الماديات جميعا ، أو يتعدى هذه الحدود فتطغى روحانيته على دواعى ماديته . والمطلوب هو تحقق الميزان القسط أو العادل الذى يقوم على الوسطية والتوزان بين دواعى المادية وطاقات العقل والروح .

الفصل الرابع

الإنسان والإلـــه

مفهوم الإله قبل القرآن :

يخبرنا القرآن أن الإنسان لم يقدر الإله حق قدره، وساقت آياته العديد من الأمثلة عن القوى والطاقات الكونية لتبين للإنسان صلة هذه القوى والطاقات بالقدرة الإلهية المحيطة الشاملة. ويبدو أن النظرة الإنسانية للإله تنبع من خلال الفكر التصورى وكذلك الخيال المشبه فى علاقته بمادة الكون وطاقته وتفاعلهما مع قدرات الإنسان العقلية.

الإله بالنسبة للإنسان هو الإله الذى يتصوره، وكل إنسان يتصور الإله تصورا خاصا به من حيث مستوى علمه وثقافته، ومن ثم يصفه أو يحدده أو يتصوره وفق هذه المستويات، ومجردا إياه أو مجسدا على تفاوت فى الدرجات. والكافرون بالله إنما يكفرون بهذه الإله، ولكنهم لايكفرون بالإله الحق المتعالى عن هذه الآلهة التى صنعها الإنسان من وحى فكرة.

الأمم البدائية مرت فى اعتقادها فى الإله بعدة أدوار بدأت بالتعدد ثم التمييز والترجيح ثم الوحدانية الناقصة. وفى هذه المرتبة الثالثة يكون العقل الإنسانى قد بلغ درجة من الترقى المعرفى الذى يتعذر معه عليه قبول الخرافات والأساطير، وتقترب العبادة من الاقتران بالتفكير فى الكون وأسراره وعلاقته بالإله وإرادته وقدرته وحكمته. ولقد بدت صورة الإله لدى الإنسان الأول بسيطة بساطة حياته ذاتها ومتصلة بالقوى ذات التأثير فى هذه الحياة. والتطور فى العقيدة الدينية ثابت وملازم لتطور الإنسان فى حياته ومستوى ثقافته وحضارته، وإن كان سلم التطور غير متعاقب الدرجات نتيجة الاختلاف البين بين الشعوب والقبائل فى التقدم حيث نشأت الديانات فى شعوب كثيرة لا فى شعب واحد. غير أن الإيمان بالأرواح كان هو الصفة الشائعة المشتركة لدى جميع الأمم البدائية. فلقد تصور الإنسان الإله أحيانا فى صورة أرواح من القوى الطبيعية: الشمس والقمر والنجوم والرعد والرياح والبرق والأمطار والمياه والظلام والنار والفجر.

والقرآن يصور لنا هذه الصورة البدائية لإدراك العقل للإله من خلال الكون فى نصه الذى يقرأ: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧] . وهو بذلك يفرق للعقل الإنسانى بين القوى الطبيعية فى الكون وهى مخلوقة ومتعددة، وبين الخالق الذى يستحق وحده الاتجاه بالعبادة دون سائر القوى الطبيعية مترقيا بذلك بعقل الإنسان من الشرك إلى التوحيد.

والقرآن يبين نفس هذا الاتجاه فى حديثه عن إبراهيم واتجاهه الفكرى نحو الإله حين يقرر: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦ - ٧٩].

كذلك تصور الإنسان الإله أحيانا فى صور إنسانية تقترن بأسماء الأبطال والقادة الذين ظن أنهم قادرون على فعل الخوارق والمعجزات.

كما تصور الإله من أسلاف الأسر الماضين يعبدهم أبناؤهم وأحفادهم يحيون ذكراهم فى شكل عبادة وقرابين.

وتعددت صور الألوهية . . فكان للمعانى آلهة (العشق والحرب والسلام)، وللبيت آلهة (البشر والموقد والطعام)، وللنسل والإخصاب آلهة (الإناث أو الأمهات الخالدات)، وللخلق آلهة (وهى التى ينسب إليها خلق السماء والأرض والإنسان والحيوان). وأخيرا فى المراحل التى سبقت التوحيد الكامل مرتبة الآلهة العليا صاحبة شرائع الخير التى يحاسب معتقدوها عليها وتجمع مثلا عليا وقيما للأخلاق والسلوك وتضمن السيادة الأبدية للأرواح فى عالم البقاء.

(والتوحيد) يأتى فى قمة سلم الترقى والتطور الإنسانى فى العقيدة فى الإله. والأديان الكتابية هى التى بلغت به درجاته العليا والدين الخاتم منها هو الذى بلغ به إلى غاية مرتقاه فى العلاقة بالإنسان.

والملاحظة الجديرة بالتأمل هى فى وجود اتجاه نحو الترقى المتصل، الإنسان وتفكيره وحياته، وصلة ذلك بعقيدته فى الإله. هذا الترقى يتجه إلى غاية واضحة هى التوحيد فى عقيدة الألوهية والوصول بفكرة الإنسان عن الإله إلى أعلى درجات التنزيه والكمال. وفى القرن السادس قبل الميلاد، كانت الديانات القديمة قد بلغت أقصى درجاتها فى تصور الفكرة الإلهية والعقيدة الروحية، وكان ذلك العصر هو عصر النضج والتمام فى الديانة الإسرائيلية، وهى آخر الحلقات فى السلسلة القديمة وأولى الحلقات فى سلسلة جديدة من ديانات الوحى

والأنبياء والديانات الكتابية [(١)] . وهذه الفترة من زمان الإنسان فى الأرض تعتبر فترة ذات أهمية خاصة بالنسبة للوصلة المهمة فى العلاقة بين المخلوق والخالق أو بين البشر وبين الإله، وهى الوصلة التى كان آدم فى البدايات هو مظهرها العظيم وحلقتها الأولى.

لقد حدثنا القرآن عن آدم منذ بداية سلوكه المكافح لاستعمار الأرض وتطوير حياته فيها أنه كان سيتحقق نوع من الاتصال بين الإنسان وبين الإله بطريقة ما عبر عنها القرآن بحقيقة «الهدى» فى تقريره: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨] . وإن جوهر هذا الهدى هو الإيمان بالإله الواحد وبصور وأشكال الهدى المنزل منه إلى الإنسان بالوسطاء ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٩] ، بهدف استمداد أشكال التنظيمين الفردى والاجتماعى لسلوك الإنسان وحياته فى الأرض من المصدر الربانى المتصف بعلم حقيقة التركيب الإنسانى فى توحده المادى الطاقى أو الجسدى الروحى، وعلى أساس من إقامة أشكال الحياة الاجتماعية وفق عقيدة التوحيد فى مستوياتها الأرقى، وما تقرره هذه العقيدة من تصورات وقيم وأنماط سلوك وعلاقات اجتماعية وتنظيمات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وعلمية وعسكرية وغير ذلك من تفصيلات البنيان الاجتماعى للإنسان فى الأرض بما نعرفه من مستويات العصر الحالى الذى يعيشه الإنسان وما سيتطور إليه فى المستقبل.

ولقد استطاع الإنسان فى القديم أن يصل فى تفكيره نحو الإله إلى مراتب عليا من التنزيه والتوحيد، وكان ذلك قبل ميلاد السيد المسيح بأكثر من عشرة قرون، ولكن ذلك كان عملا استثنائيا عبقريا لم يتميز به كل الناس. ولذلك اعتبر ارتقاء الأديان القديمة نحو عقيدة التوحيد فى النظرة إلى الإله، تقدما فكريا وروحيا كبيرا، تم بواسطة متميزين من الناس. والعمل الذى قام به الفلاسفة القدماء كان لا يخلو من الاتصال الفكرى بعقائد السابقين الدينية. فمن الدين تلقى الفلاسفة فكرتهم عن الروح وفكرتهم عن بطلان الظواهر المادية، ومن الدين تعلموا التفرقة بين العقل والمادة وكيف ينفذون إلى ما وراء الحس ويتعمقون فى تحليل كنه الموجودات إلى أعماق ما وراء الأجسام والمنظور. ومن الأديان الأولى استعاروا عقائد المؤمنين فى تعليل أصول الكائنات والتنبؤ عن مصيرها كما فهموا حقيقة وطبيعة قدرة الإله. وهم فى ذلك كله كانوا يدورون فى حلقة التوحيد أو يحلقون فى آفاقها لا يتجاوزونها، كما أنهم - وبمن فيهم سقراط وأفلاطون وأرسطو - لم تخل فلسفة لهم قط من فكرة دينية فى أساسها أو مضمونها [(٢)] . وهى فى إطارها العام تنزع نحو الترقى إلى آفاق التوحيد المقترن بالتنزيه والكمال فى أقرب ما تكون الصور من

---

(١) عباس العقاد: الله.

(٢) المصدر السابق: باب الفلسفة.

عقيدة الألوهية فى الكتب السماوية مع ملاحظة أن الفلسفة بدأت فى تلك الفترة التى سبق التنويه إليها، والتى كانت تعترض الطريق بين العقائد والديانات القديمة غير السماوية والعقائد والديانات الجديدة السماوية (حوالى القرن السادس قبل الميلاد)، ويمكن الرجوع فى ذلك لكتابات كل من أكسينوفان وهيرقليطس وفيثاغورس وأنكسفوراس وكل من المدرسة الأثينية الكبرى (سقراط وأفلاطون وأرسطو) ومدرسة إيطاليا الجنوبية (بارمنيدس وزينون وأمدوقليس) ومدرسة الرواقيين (زينون وكليانتاس وشريسبس) ومدرسة أبيقور (مذهب المشائين).

وتجدر الإشارة كذلك إلى دعوة كل من يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) وميلون، الفيلسوف الإلهى الإسكندرى اليهودى الذى وصل إلى الإيمان بالعقل الإلهى أو الكلمة التى تعتبر (ذاتا) لها صفات الذات الإلهية، وكل من سليمان بن جيبرول (١٠٢٠م الأندلس) وموسى بن ميمون (١١٣٥ ـ ١٢٠٤م قرطبة).

وتذهب الفلسفة الحديثة إلى تصور الإله مُنَزَّهًا عن التجسيد والتحديد، وتتمثله فكرة أو رمزا أكثر منه ذاتا أو صورة. ويمكن الرجوع لإدراك ذلك التصور إلى كتابات كل من (كارل يسبرس) و (هنرى برجسون) و(وليم جيمس) و(باروبس) و(والترليبمان) و(كيرك جورد).

وسنعرض بإيجاز شديد آراء فلاسفة المدرسة اللاتينية وأعظم المدارس السابقة فى صفات الإله:

ارتفعت صفات الإله إلى ذروتها العليا من التنزيه والتجريد فى مذهب الفيلسوف اليونانى أرسطو الذى كان يعتبر الإله كائنا أزليا أبديا مطلق الكمال لا أول له ولا آخر ولا عمل له ولا إرادة؛ إذ إن العمل يعتبر طلبا لشىء، والله غنى عن كل طلب، والإرادة اختيار بين أمرين والله قد اجتمع عنده الأصلح والأفضل من كل كمال فلا حاجة به إلى الاختيار بين صالح وغير صالح ولا بين فاضل ومفضول. وليس مما يناسب الإله ـ فى رأى أرسطو ـ أن يبتدئ العمل فى زمان لأنه أبدى سرمدى، لا يطرأ عليه طارئ يدعوه إلى العمل، ولا يستجد عليه من جديد فى وجوده المطلق بلا أول ولا آخر ولا جديد ولا قديم، وكل ما يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه والتى لا بغية وراءها، ولا نعمة مثلها ولا دونها ولا تخرج من نطاقها عناية تعنيه.

الإله الكامل المطلق الكمال لا يعنيه أن يخلق العالم أو يخلق مادته الأولى وهى «الهيولى» ولكن هذه «الهيولى» قابلة للوجود يخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى الوجود الذى يفيض عليها من قبل الإله فيرفعها هذا الشوق إلى الوجود ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع فى حدودها، فتتحرك وتعمل بما فيها من الشوق والقابلية، ولا يقال عنها إنها من خلق الله إلا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار [1].

---

(١) عباس العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

كمال مطلق لا يعمل ولا يريد. كمال مطلق يوشك أن يكون هو والعدم المطلق على حد سواء. لقد كان أرسطو يقول بكمال الكائنات العلوية ـ السماوية ـ أى بخلودها وبقائها بلا فناء لأنها من نور، والنور بسيط لا يعرض له الفناء كما يعرض على التركيب. ولكن العلم التجريبى قد تطور بعد أرسطو كثيرا وتكشفت معه وبه حقائق عن عالم المادة ـ وهو العالم السفلى عند أرسطو وغيره من الفلاسفة ـ لم يكن يدركها أرسطو العظيم أو غيره من الفلاسفة اليونانيين. فلو أن أرسطو علم أن المادة السفلية كلها من نور، وأن عناصرها تئول فى الحقيقة المطلقة إلى ذرات وجزيئات من الذرات، كلها مكهربة، وأن الذرات الكهربية تنقسم فتتحول إلى إشعاعات وطاقات رهيبة، لو أن أرسطو علم ذلك، لما أخطأ فى التفرقة بين لوازم البقاء والفناء أو بين خصائص البساطة والتركيب، ولأدرك قانون البقاء الملازم للمادة (التى وصفها بالسفلية) وللطاقة (التى وصفها بالنور أو العوالم العلوية) وقانون «الوحدة» المتصفة به المادة والطاقة باعتبارهما «الشيء الواحد نفسه»، ولعلم وحدة الملك والملكوت أو المادة أو الطاقة . . أو المادة الروح أو المادة والعقل . . أو العوالم السفلية والعلوية . . أو النور والكهربية والمغناطيسية الذرية . . ولعلم أن «العمل» أو «الشغل» هو مظهر الطاقة الكامنة فى العوالم كلها المادية والنورية (وهما الشيء نفسه) ولعلم أن «العمل» بذلك يلازم القوة ويلازم المادة ويلازم اللامادة والطاقة ويلازم العقل ويلازم الروح . . باعتبار هذه كلها مظاهر الوجود الطاقى النورى المطلق الذى تعتبر «الحركة» أو «العمل» أو «الشغل» أو«التسبيح» من فعل إرادته وأمره فى كينونة الكون على ما هو مكون عليه فى ظل وحدة الكثرة. ومن ثم فلا بد أن يكون (الإله) فوق هذا القدر من التنزيه الذى أفاضه عليه أرسطو.

ولقد استولت فكرة الألوهية على تفكير سقراط فقضى حياته طارقا بثقله للباب الذى يؤدى إلى «الله» فلم يفتح له ولم ير مما وراءه شيئا، ولكنه أدرك أن وراء هذا الباب كل شيء . . ووراءه الحق المطلق الذى يعم الوجود بالنور دون رؤية مصدره . . والله عنده جوهر فقط . . وإذا رجعنا إلى حقيقة الوصف والقول فيه وجدنا المنطق العقلى قاصرا على اكتناه وصفه، وتحققه، وتسميته، وإدراكه، لأن الحقائق كلها من تلقاء جوهره، فهو المدرك حقا، والواصف لكل موجود اسما فكيف يقدر المسمى أن يسميه اسما؟ وكيف يقدر المحاط أن يحيط به وصفا؟ إنه ليس بذى نهاية . . ليس على أنه ذاهب فى الجهات بلا نهاية كما يتخيله الخيال، وإنما لا نهاية له من جهة العقل إذ ليس يحده، ولا من جهة الحس فليس يحسه [1].

وأفلاطون تلميذ أرسطو ـ غلبت على تفكيره البيئة الوثنية، فأدخل فى عقيدته أربابا وأنصاف أرباب لا وجود لها فى ديانات التوحيد ولا عند الفلاسفة الموحدين، وقال بالفعل

---

(١) راجع كتاب الملل والنحل الجزء الأول وكتاب قضية الألوهية بين الفلسفة والدين.

المطلق وبالمادة الأولية أو «الهيولى». الأول كمال لا يحده الزمان والمكان ولا يصدر عنه إلا الخير والفضيلة، والصمود والدوام للعقل المجدد دون غيره الذى فيه تستقر الموجودات «الصحائح» أو المثل، وهى كالعقل المجدد خالدة دائمة لا تقبل النقص ولا يعرض لها الفساد. هذه الصحائح هى المثل العليا لكل موجود بالمادة أو الهيولى، والكمال هو ما فى عقل الله منذ القدم فيما يتعلق بالمادة الناقصة. وبقاء الله بقاء أبدى لا أول له ولا آخر ولا تحول فيه ولا تقلب ولا تعرض له الزيادة ولا النقصان، بينما بقاء الموجودات بقاء فى الزمان المخلوق المتصل بحركة الأفلاك.

وتعددت صور (الإله) عند اليونانيين غير أرسطو وأفلاطون وغيرهما من أصحاب النظر المجرد والفكر الفلسفى.. فكان «جوبيتر Jupiter» رب الأرباب عند اليونانيين لا يخلو من تجسيد ولا يعلو إلى تنزيه.. وقد عبد اليونانيون الأسلاف والطواطم ومظاهر الطبيعة وأعضاء التناسل ومزجوا هذه العبادة بطلاسم السحر والشعوذة. وترقوا فى تصور صفات الأرباب على مر الزمن حتى اقتربت من أفكار التنزيه التى سبقهم إليها المصريون والهنود والفرس.

والهنود ألحقوا الإله بالحيوان تارة.. وبعناصر الطبيعة تارة.. وبالأوثان والأنصاب تارة.. وانتهت عندهم هذه الأرباب المتعددة إلى الثالوث الأبدى الذى اشتمل على ثلاث من الصور الإلهية هى: الإله «براهما» فى صورة الخالق. والإله «فشنو» فى صورة الحافظ. والإله «شيفا» فى صورة الهادم. فالهدم والفساد من عمل الإله الأعلى الذى يتولاهما حين يتشكل لعباده فى تلك الصورة.. ولكل إله قرين اسمه «الشاكتى أو الصاحبة» ينسبون إليها من الشرور ما ينزهون عنه صاحبها أو قرينها.. وهذه الأرباب لا تبعد كثيرا من صور الشياطين والأرواح الشريرة المعروفة فى الديانات القديمة. ومع معارج التجديد والتنزيه والإطلاق لدى هذه الديانات نجد الذروة فى صورتين مختلفتين:

١ - الكارما.

٢ - النرفانا.

وكلهما يحسب من قبيل المعانى الذهنية. الأولى هى القدرة الغالبة على جميع الموجودات، ومنها الآلهة وأفلاك السماء، وهى حالة تُعبر «عما ينبغى». فالكارما ليست ذات الإله معروفة الصفات، وإنما هى مرادف لكلمة «الواجب» أو «الذى ينبغى» كما وجب فى الحوادث والموجودات (وهى أقرب إلى معانى الكينونة المستمدة من القرآن من مدلول كن فيكون).

والثانية هى الحالة التى تنتهى إليها جميع الأرواح حين تفرغ من عناء الوجود وتتجرد من شواغل الأرواح على السواء.. وتتساوى أرواح الآلهة وأرواح البشر فى حالة «النرفانا». إن

الكهنة الهندوس يقولون إن أرواح الكائنات تأتى من براهما روح العالم، فعندما تنتهى الروح من دورة الحياة تعود إلى روح العالم وتتحد مع براهما . . وهذا ما يسمى بالنرفانا وتلك أعظم سعادة يمكن أن تتمناها الروح . . ومن هنا جاء تناسخ الأرواح كما يؤمن به الهندوس، فالروح تتقمص عديدا من الأجساد خلال رحلتها فى الفضاء الخارجى حتى تصل إلى هدفها النهائى . . والتناسخ يتم بالنسبة لكل الكائنات البشرية والحيوانية والحشرية والنباتية فكلها يحكمها قانون واحد ولا تختلف روح عن روح إلا بقدر ما يقوم صاحبها به من أعمال .

ومع ذلك يخبرنا أحد الكتب المقدسة للهندوس (هى أسفار البوبانشا) عن نوع من العقيدة عال فى مستوى تنزيهه وتجريده . . فيه يوصف الإله براهما الخالق أو الروح الأعلى بأنه «جوهر النفس ليس هو الجسم ولا العقل ولا الذات الفردية ولكنه الوجود العميق الصامت الذى لا صورة له ، والكامن فى دخيلة أنفسنا . . واسمه (أتمان)» .

وجوهر العالم الواحد الشامل الذى لا هو بالذكر ولا بالأنثى، غير المشخص فى صفاته والمحتوى لكل شيء والكامن فى كل شيء والذى لا تدركه الحواس . . فاسمه «براهما» . وأتمان وبراهما حقيقة واحدة . . روح الأرواح . . إله واحد بعينه لأن الروح اللافردية وهى القوة الكائنة فى الإنسان هى بعينها روح العالم . وهما أساس الوحدة المثالية . . وحدة الوجود ووحدة الإله ، وهما معا القوة الروحانية المسيطرة على هذا العالم .

وتشابهت المعتقدات الإلهية لدى اليابانيين والصينيين إلى حد كبير فى الأصول، وعبدت عندهم الأرواح والأسلاف والعناصر الطبيعية ، واستعاروا من الإسلام والمسيحية والبوذية على تفاوت فى ذلك، ومزجوا ديانة الشمس بديانة الأسلاف، وإن كان اليابانيون أسرفوا فى تأليه صاحب العرش، بينما اعتدل الصينيون فى ذلك .

وفى بابل لم تتجاوز العقيدة الدينية مرحلة العبادة الشمسية ، وكان أقدم الآلهة إله السماء «آفو» السماء و«شمس» الشمس و«نتار» القمر ، و«بعل» الأرض .

وكان الأقدمون من الفرس يعبدون «مترا» إله الشمس أو النور ويطلقونه على عناصر الخير والصلاح ، وإن كان المجوس قد آمنوا بالعالم الآخر وبالثواب والعقاب فى الآخرة، وبقيامة الموتى ونهاية العالم وبعث الأرواح للحساب فى يوم القيامة . وارتقت العقيدة فى الإله على يد زرادشت الذى أنكر الوثنية وجعل من صفات الإله الخير المحض ونزل بإله الشر دون المنزلة المساوية بينه وبين الإله الأعلى . وقال بالثواب والعقاب وبأن خلق الروح سابق على خلق الجسد . وعمل على قصر الربوبية على الألوهية الواحدة الموصوفة بصفات عليا من التنزيه وفق ما كان يفهمه معاصروه، كما طهر عقائد أصل الوجود (هرمز وأهرمن ولدى الإله القديم زروان) وتنازع النور والظلام . والإله عند زرادشت موصوف بأشرف صفات الكمال التى

سيرقى إليها عقل بشرى لدين على حسب نشأته بالثنائية وقدم العنصرين فى الوجود (الخير والشر). [1] وهرمز (الإله) هو الاسم الذى يتجلى فى أرواح عليين، وهو أقوى القوى فى عالم الملكوت، وهو «السر المسئول» الذى له المزيد من أسماء أخرى: واهب الإنعام ـ المكين ـ العامل ـ القدس ـ الشريف ـ الحكمة الحكيم ـ الخيرة ـ الخيور الغنى ـ الغنى ـ السيد المنعم ـ الطيب ـ القهار ـ يحق الحق ـ البصر ـ الشافى ـ الخلاق ـ ميزتا (أى العلم بكل شىء) .

وشهدت مصر فى تاريخ الاعتقاد جميع الأطوار، من أدناها إلى أعلاها (الطواطم والأرواح والخصوبة وغير ذلك . .) . وارتفع الخاصة من المصريين القدماء فى تصورهم للإله إلى مراتب عليا من التنزيه والتجريد بما عرفوه من عبادة « آمون» ثم فيما ارتقى به الفرعون إخناتون (أمنحتب الرابع) إلى أعلى ما عرف من مستويات التوحيد فى القرن الرابع عشر قبل ميلاد السيد المسيح . فقد اعتبر الإله خالقا واحدا يقارب فى المفهوم عنه، المفهوم من الإله الخالق فى الديانات الكتابية ـ خاصة العبرية ـ فهو الحى المبدئ للحياة، الملك الذى لا شريك له فى الملك، خالق النطفة والجنين الذى ينمو منها، نافث أنفاس الحياة فى كل مخلوق بعيد بكماله، قريب بآلائه، تسبح باسمه الخلائق على الأرض ويسبح له الطير فى الهواء، وترقص الحملان من مرح فى الحقول، فهى تصلى له وتستجيب لأمره ويسمع الفرخ فى البيضة دعاءه فيخرج إلى نور النهار واثبا على قدميه، قد بسط الأرض ورفع السماء وأسبغ عليها حلل الجمال، وهو ملء البصر وملء الفؤاد، وهو الوجود وواهب الوجود وشعوب الأرض كلها عبيده لأنه هو الذى أقام كل شعب فى موطنه ليأخذ نصيبه من خيرات الأرض ومن أيام العمر فى رعاية الواحد الأحد آتون . ومع ذلك فقد كانت تقترن بهذا المفهوم عن الإله عبادة الشمس باعتبارها رمزا للإله ومرادفا لاسمه .

وقد بدأ الإسرائيليون بأن تصوروا الإله على صورة إنسان يأكل ويشرب ويتعب ويستريح ويغار من منافسيه ويخص قبيلته وحدها بالبركة والتشريع . وقرنت هذه الصورة تارة بعبادة الموتى أو ظواهر الطبيعة وتماثيل الطواطم من الحيوان والنبات ثم تطورت صفات الإله عندهم فى ترق إلى أعلى حتى ارتقت إلى الإله الأحد المنزه عن التجسيد وعن خلائق البشر القادر على كل شىء الرحيم والعليم بما كان ويكون .

ثم تطورت العقيدة فى الإله بعد ظهور المسيحية فانتقلت من الإيمان بالإله لأبناء إبراهيم فى الجسد إلى الإيمان بالإله لأبناء إبراهيم فى الروح . . ثم تطرقت إلى عقيدة الثالوث المجتمع بين الأب والابن والروح القدس، والمسيح المخلص فيها هو ابن الله أرسله فداء لأبناء آدم وحواء وكفارة عن الخطيئة التى وقعا فيها عندما أكلا من شجرة المعرفة فى الجنة .

---

(١) عباس العقاد : الله .

ثم تطورت إلى صورة عن الإله هو فيها إله واحد من أقانيم ثلاثة هى الأب والابن والروح القدس. . وأن المسيح هو الابن من هذه الأقانيم. . وهو ذو طبيعة إلهية واحدة عند فريق من المسيحيين، وذو طبيعتين إلهية وإنسانية فى مذهب فريق آخر.

مفهوم الإله فى القرآن :

ثم كان القرآن، فطرق باب العقيدة فى (الله) على أساس التفكير العلمى لا الخرافى وفى تجريد لمعانى الألوهية من جميع الخرافات والأوهام والتصورات والتخيلات والتجسيدات والقيود والتشبيهات، وربط هذه المعانى بفكرة منزهة أو رمز أو مثل دال على (الذات المعبودة) له صفات متصلة ومتوحدة فى حقيقة مرموز لها بلفظ (الله)، تدل على الذات وعلى أسمائه وصفاته من خلال القوى والطاقات الكونية فى كل الكائنات المخلوقة.

إن على الإنسان أن يزيد من معارفه عن الكون ومادته وطاقاته، عن كواكبه ونجومه، عن مجراته وسدمه عن قوانينه ونظامه فى الأفلاك والذرات، عن الكائنات الحية فيه، عن الكائنات الحية العاقلة، عن الإنسان وبناءيه العضوى والعقلى. . إلخ. على الإنسان أن يسلك طريقا معرفيّا ـ نظريا وتجريبيا ـ من خلال الكون الذى يحيا فى كوكب من كواكبه فى مجموعة من مجموعاته فى مجرة من مجراته، فيما هو منظور له، من أفق المنظور واللامنظور لتزداد معرفته بالمخلوقات وبالتالى بالخالق. يقرأ آيات الكون المسطورة بأحرف من نور فى كتاب الوجود، يلج بعقله وبروحه آفاق هذا الكون الفسيح الممتد وآفاق نفسه من كونه، ليرتقى فى معارج المعرفة والعلوم ويقترب من معرفة معانى الإله الحق بتجليه فى صفاته بعيدا عن الأوهام والتخيلات والتصورات القاصرة، وعلى أساس من الحقائق المقررة بواسطة النشاط العقلى المستمر فى تعامله مع قوانين المادة وقوانين الطاقة وقوانين الأحياء.

لقد خاطب القرآن عقل الإنسان موجها إياه للنظر والبحث فى حقيقتين قائمتين: التركيب الإنسانى ذاته بوحدته العضوية العقلية أو البيولوجية الروحية، والتركيب الكونى بوحدته المادية الطاقية:

ـ يبحث فى الخلق وأسلوبه وأشكاله والقوانين أو السنن التى تحكم حركة المخلوقات فى الأرض.

ـ يبحث فى النجوم وأنوارها السارية وخواص هذه الأنوار والأضواء.

ـ يبحث فى المادة وتكوينها الذرى، وحقائق التركيب الذرى وما يتصل بها من تفتيت والتحام وحركة ونظام وخواص وطاقات.

ـ يبحث فى الحركة الفلكية يستنتج منها أفكار الزمان والتقويم الزمنى والحساب الزمنى.

ـ يبحث فى الطاقات المسخرة له فى إطار كوكبه الممهد لحياته وتطورها فى ترق وتكمل.

ـ يبحث فى عجائب المخلوقات فى الأرض، فوق سطحها، وفى باطنها، وفوق مياهها وفى أعماقها، وفى أجوائها.

ـ يبحث فى طبقات السماء والأجواء ليخترقها بما أوتى من سلطان قادر على النفاذ من سلطانها هى.

ـ يبحث فى عوالم الجماد، وعوالم النبات، وعوالم الحشرات والحيوان والطير.

ـ يبحث فى عالم نفسه وحقائق تركيبه العضوى ونشاطيه العقلى والروحى.

فى ذلك كله، وفى غيره، نزلت نصوص الكتاب العربى ليقرأ قرآنا على الناس على مكث ليتدبروه، ميسرا للذكر ليعلموه، متدرجا فى البناء ليقيموه. ينطلق الإنسان فى وجود نفسه ووجود الكون الخارجى، يشهد الحقائق الطبيعية أو الأسمائية، مدركا على قدره لمقادير طاقاتها، ودرجات سعتها وكثرة صورها، واختلاف أشكالها، واستمرار حركتها، ودوام امتدادها، وحقيقة إطلاقها، وطبيعة قوانينها أو سننها، وسر حيطتها ووحدتها وقدر مجهولها. . ليبنى من خلال هذه المعارف عقيدته فى (الإله) ويسلك عن طريق الكون المادى الطاقى مسالك المعرفة المرتبطة بالحواس وبإدراكه الزائد على الحواس، فى الطريق المكتشف لعظمة وقدرة (الله) الاسم الجامع الدال على (الذات المعبودة) والذى ليس (كمثله) شىء فى كل شىء سبحانه وتعالى عما يصفه الواصفون أو يتخيله المتخيلون أو يتصوره المتصورون:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢١ - ٢٤].

لقد ألقى الله سبحانه وتعالى على قلب النبى المصطفى قولا ثقيلا، قرآنا باسم الله الذى خلق الإنسان والكون. وكان النبى المصطفى على مستوى هذا القول الثقيل المعنى فى معرفة الحق، ولذلك كان يقوم الليل كثيرا مقرنا المعرفة بالعبادة. وكان أشد الناس خشية لله. وكان يوجه الناس إلى التفكير فى الكون والكائنات ليتحقق الإيمان المقترن بالعلم وتتحقق معه الرغبة والرهبة.

والحق أنه لا يدرك معانى الرهبة والخوف المؤديين إلى كثرة السجود وسهر الليل فى التفكر والتأمل والتعبد، إلا فرد من الناس عرف ما فى الكون المحيط الخارجى وما فى الكون الداخلى فى النفس والجسم، آفاقهما وأسرارهما وطاقاتهما وخواصهما، وخبر ما فيهما من

جلال مخيف ومحير. كما أنه لا يداوم على أداء هذه العبادات المضنية والتأملات الفكرية فى إخلاص طوية للإله المعبود دون شريك، إلا فرد من الناس خبر ما فى الكون المحيط الخارجى وما فى الكون الداخلى فى الجسم والنفس، من جمال مدهش جنبا إلى جنب مع الجلال المحير، فاتجه مع هذا الإدراك للجمال والجلال، إلى الذات المبعودة اتجاها شعوريا كليا، الاقتراب فيه لذة، والحياة به بقاء، والوجود به عزة والوحدة فيه أنس، والرؤيا فيه نور، والأمر فيه وصل فى خشية من علم، وشهود فى تأويل من رسوخ فى علم. وقد جاءت نصوص القرآن فى سورة مريم تقرر: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: ٥٨]. وهذه أيضا حال العلماء والراسخين فى العلم. والذين شملهم النص القرآنى السالف هم: زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإدريس، مضافا إليهم عدد من المهتدين والمجتبين.

بذلك يرقى العلماء والراسخون فى العلم إلى مصاف الأنبياء - فى العلم وفى درجات الخشية والخوف من الإله الحق - كلهم إذا تتلى عليهم آيات الرحمن انكمشوا فى أنفسهم إجلالا وإعظاما: «العلماء ورثة الأنبياء» حديث شريف. فهم كاشفون للحقيقة دالون على عظمة الحق. يقول عالم الفيزياء الشهير ألبرت أينشتاين: «إن دينى يتكون من إعجاب متواضع بالروح الأعظم غير المحدود الذى يكشف عن نفسه من خلال التفاصيل الدقيقة التى نستطيع أن ندركها بواسطة عقولنا العاجزة الضعيفة. هذا الاعتقاد العاطفى العميق بوجود قوة عاقلة عليا تظهر فى الكون غير المدرك يكون فكرتى عن الله».

ويظل الإله الحق، المعنى المجرد فوق كل تصور إنسانى، وذلك من واقع حقيقة المنظور واللامنظور فى طاقات الكون وصورها المادية، وهو الأمر الذى يقرره القرآن فى قسمه ﴿ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]، ويبرزه فى وضوح تام فى تقريره ﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾ [يوسف: ٧٦] ومع ذلك فالسبيل مفتوح أمام العقل الإنسانى لينشط فى الطريق المؤدى إلى معرفة الإله المعرفة الحقة. والطريق المؤدى إلى تقديره حق قدره هو طريق الطاقات والقوى فى الكون، بخصائصها وآثاها وارتباطاتها بالمادة وقوانينها وحركاتها ونظمها وخواصها، كل ذلك فى نسبه إلى الإدراك الإنسانى، سواء الإدراك المتصل بالحواس أو الإدراك الزائد على الحواس.

والقرآن يخبرنا بأن هناك صلة قوية بين الألوهية وبين الكون وطاقاته وقواه [١]. ومنابع الطاقة فى الكون عديدة نذكر منها على سبيل المثال: أشعة الشمس والرياح والوقود

---

(١) باعتبار الإله هو خالق هذا الكون وطاقاته وهو منزه فى ذاته وصفاته عن الخلق.

(البترول والفحم) والماء الجارى والأغذية العضوية والمتفجرات وحرارة باطن الأرض والكهرباء والجاذبية والذرة . . ومن الآيات القرآنية الدالة على هذه الصلة ما يلى :

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٢ - ٤] .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج : ٦٥] .

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس : ٢٤ - ٣٢] .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك : ٣٠] . ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [الملك : ١٩] .

﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ [الرعد : ١٢] .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ﴾ [النور : ٤٣] .

﴿ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٢] .

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ [الواقعة : ٥٨ - ٦٤] .

وإذا عرفنا أن كل التفسيرات الإنسانية المتصلة بالإله المعبود، قاصرة عن بلورة عقيدة

متكاملة تجريدية عن الإله، خلصنا إلى أن الأسلوب القرآنى يعتبر الأسلوب الأمثل الممكن عن طريقه الوصول إلى معرفة أسماء وصفات الإله وتقديره حق قدره فى ظل عقيدة متكاملة وتصور تنزيهى شامل.

إن الصلة بين الإنسان وبين الإله تنبنى فى أساسها على «المعرفة» التى هى لب «العبادة». والمعرفة من خصائص الإنسان الفريدة المبنية على العقل، وهى ليست إفرازا عضويا بحتا كما يقول الماديون (فخته)، وإنما هى تتصل بالتركيب العضوى للإنسان والبيئة المحيطة به وبالطاقة الكهربية المغناطيسية التى تتفاعل مع نيوترونات المخ لتستقبل النشاط العقلى المستمد بدوره من النفخة الروحية الربانية أى الروح.

الصلة بين الإنسان وبين الإله إذن تقوم بواسطة القدرات النابعة من العقل سواء فى إطار الحواس المعروفة أو خارج إطار الحواس فى مستوى أكثر تجريدا وإطلاقا يمكن أن نسميه «الفؤاد». وإدراك خصائص وأفعال الذات الإلهية لا يمكن أن يتم إلا إذا كانت هذه الذات، كما يقول الأستاذ أبو الفيض المنوفى: [1] «ممثلة بأضوائها فى عالم مثل هذا الوجود الذى نعيش فيه وتكون هى فى ذاتها وفى وجودها الوجوبى منزهة عن كل صورة أو فكرة من صور الوجود الإمكانى، أو تصورات متضامنة ـ فكل ما خطر ببالك تجد الله خلاف ذلك ـ لأنك لا تعرفه إلا به، أى بما هو مغروس فى فطرتك قديما من نوره. وفقط نستدل على وجود تلك الحقيقة الإلهية بهذا النشاط البارز فى محيط خصائصها والبادى فى عقولنا وإحساسنا فى كل شىء من الموجودات الإمكانية. وتكون تلك الفاعلية هى الأمر الدال على وجود الفاعل الإلهى . . .

وتظل الذات ـ فى ذاتها ـ دائما محجبة ومنزهة عن العقل والحس، وما حجابها سوى مظاهر بقية نشاط خصائصها الإلهية التى تحرك بها سائر الكائنات، تكوينا وفاعلية وصيرورة، من وراء ستار الكائنات، فتكمن فاعليتها الإلهية خلف أطياف سائر الصور والمظاهر الكونية وتكون فى عالم الذات كأفكار عقلية مبصرة ثم تكون فى عالم الموضوع الكونى كطاقة وحركة وسرعة، أو علل ثانوية وقوانين عامة». انتهى.

إن الله ظاهر ظهورا تاما كاملا شاملا. وهذا الظهور كائن فى حقيقته كما كان عليه دون أن تغيير فى هذه الكينونة الأبدية، أى أن الله سبحانه وتعالى هو واجب الوجود الأزلى الأبدى، أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء، لا مكان ولا زمان يحدانه ولا بعد فيزيقى أو روحى يحتويه. وهو يظهر بالصفات ثم بالأفعال ثم بالذات، وظهوره بذاته لا يكون إلا لذاته، وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا المعنى ما يلى: «اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك». فلا يعرف الذات إلا الذات فى المقام الذى عبر عنه الصوفية بقولهم «العجز عن

---

(١) فى كتابه (المعرفة العظمى).

الإدراك هو قمة الإدراك» . وهو الأمر الذى يقرب إلى مفاهيمنا من خلال ما نعرفه عن قاعدة «اللاتحديد» ـ التى اكتشفها فيرز هيزنبرج عام ١٩٢٧ ـ والتى تضع حدا للقياس والمشاهدة فيما يتعلق بالمكان والسرعة فى اللحظة ذاتها ، وهما العاملان اللذان يعينان مركز الجسيمات الصغيرة جدا .

إن الصلة بين الإنسان وبين الألوهية ، صلة عميقة وأصيلة وأساسها «المعرفة» الناتجة عن النشاط العقلي . والمعرفة هى لب العبادة ، وهى من معجزات العقل الإنسانى المستمد بدوره من سر النفخة الربانية الروحية . فالعقل ليس إفرازا عضويا بحتا كما يذهب إلى ذلك الماديون (فختة وغيره . . .) إنما هو يتصل بالتركيب العضوى السوى للإنسان إلى جانب البيئة المحيطة التى تعتبر «مادة» المعرفة . والمخ ـ والجهاز العصبى المتقدم فى الإنسان السوى ـ يستمد من الطاقة الكهربية ليؤدى نشاطه ، والطاقة الكهربية ذات صلة ، وإن كانت غير معروفة الكنه ، بالقدرة العقلية النابعة من النفخة الروحية ذات الصلة بمصدرها الربانى الإلهى ﴿ .. ونفخت فيه من روحى .. ﴾ والقدرة العقلية بدورها قد تكون مرتبطة بالحواس الإنسانية ـ النشاط العقلي العادى ـ وقد تكون غير مرتبطة بالحواس وإنما خارجة عنها أو زائدة عليها ، وهى عندئذ عقل مجرد عن فسيولوجية الجسد وقوانينه الطبيعية التى تحكم نشاطه ، أو بتعبير آخر ، هى روح مطلقة عن جسدها لها قدراتها وقوانينها الخاصة بها والتى ما زالت معرفتنا بها فى دائرة «القليل» كما يخبرنا القرآن ، وتستمد فى حالتها هذه من طاقة لا نعلم عنها شيئا .

وبذلك تكون الذات الإنسانية بطاقاتها العقلية والروحية وما تتصف به من وعى وإدراك ، عاجزة عن إدراك كنه الذات الإلهية ، لأن الذات الإنسانية بطبيعتها وبحكم وجودها فى الدائرة الكونية ستظل تجهل كنه العديد من الظواهر والطاقات المتصلة بالكون ، وفى الوقت نفسه فإن هذه المادة والطاقة الكونية تعتبران معراج الترقى فى المعرفة بخصائص هذه الذات ، أى بأسمائها وصفاتها . والنشاطات الحسية فى الذات الإنسانية ـ والتى تنتج عنها المعرفة ـ تعمل كلها فى حقيقة الأمر بتأثير النشاط الطاقى والخصائص الأسمائية التى ينبع منها هذا النشاط .

وكمبدأ عام ، فإن الألوهية لا يمكن لذلك أن تخضع لتجارب علومنا المادية . فذات الله سبحانه وتعالى من الغيب الذى لا يمكن إدراكه بالحواس ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ومن هنا يعجز العقل عن إدراك كنهه ولهذا المعنى ذهب روبرت موريس بيج [١] (Robert Morris Page) حيث يقول : « إن الإله الذى يسلم الإنسان بوجوده لا ينتمى إلى عالم الماديات ولا تستطيع حواسنا المحدودة أن تدركه ، وعلى ذلك فمن العبث أن نحاول إثبات وجوده باستخدام العلوم الطبيعية لأنه يشغل دائرة غير دائرتها المحدودة الضيقة » .

---

(١) هو مكتشف الرادار عام ١٩٣٤ .

ولعل معلوماتنا عن بعض الطاقات الكونية التى ما زلنا نجهل «كنهها» توضح مفهوم عدم قدرة العقل الإنسانى على إدراك «كنه» الذات الإلهية. ولنضرب مثلا على ذلك بالكهرباء.

يقول الفيلسوف والرياضى البريطانى برتراند راسيل »[1].

«الكهرباء ليست شيئا مثل كاتدرائية القديس بولس مثلا، إنها طريقة لتصرف الأشياء. وحينما نصف تصرف الأشياء عند كهربتها ونقول تحت أى ظروف تجرى كهربتها، نكون قد قلنا كل ما لدينا أن نقوله».

وبالنسبة للضوء ـ مثلا ـ فما زالت هناك نظريتان تفسران جميع ظواهر الضوء ولا يمكن تغليب إحداهما على الأخرى للفصل فى حقيقة الضوء. والنظريتان هما نظرية الدقائق والنظرية الموجية، كل منهما تفسر بعض الظواهر الضوئية. ودائرة المعارف البريطانية تقول عن الضوء: «إنه من المعانى الأصيلة الأولى التى يعجز عن الوصول إليها أى معنى آخر أو معان أخرى نسخرها لتفسيره. فطبيعة الضوء لا يمكن تعريفها إلا بتعداد خواصه، وبناء هذه الخواص على أبسط الأسس الممكنة، وبما أن هذه الأسس تعجز عن إدراكها خبرة هذه الحياة، فقد وجب أن نعبر عنها بصورة من صور المنطق البحت أى الرياضة.. وبذلك يمكننا أن نصف كيف يعمل الضوء، مستعينين بالتشبيهات والاستعارات، وهذا الوصف هو (حقيقة) الضوء ولا يمكن أن نصل لأكثر من هذا الوصف». العلم إذن لا يعرف شيئا عن «كنه» الضوء أو طبيعته وكل ما توصل إليه هو معرفة «خصائص» الضوء فقط. ولذلك نتساءل، إلى أى مدى يتصل الرجل العالم بالحقيقة فى ذاتها؟ إن الرجل العالم يكون قد وصل إلى «قمة الإدراك» عندما يعرف كل شيء عن أفعال وأوصاف الكهرباء أو الضوء، أى التصرفات والخصائص، وهو يكون بذلك فى مرتبة «العجز عن إدراك»كنه أو ذات حقيقة الكهرباء والضوء، وهو نفس ما ذكرناه عن ذات الله التى يعجز، كل من سواها عن إدراك كنه أو ذات حقيقتها، الأمر الذى سبق أن قلنا إن الصوفية عبروا عنه بقولهم المشهور «العجز عن الإدراك هو قمة الإدراك».

وما نقوله عن الكهربية أو الضوء هو «مثل» لما نقوله عن ذات الله والأسماء والصفات الحسنى. وقد تناول القرآن هذا «المثل» فى الآية ٣٥ من سورة النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]. فالكهربية المغناطيسية هى فى فهمنا ـ والله أعلم ـ «الشجرة المباركة الزيتونة» اللاشرقية واللاغربية بمعنى أنها شمالية جنوبية ـ قطبا المغناطيس ـ والتى توقد منها الزجاجة (أى المخ

---

(١) فى كتابه «النظرة العلمية».

وهى كأنها كوكب لأن المخ لا يضىء بذاته) التى يضىء زيتها من نور ربانى المصدر لا نعلم عن حقيقة ذاته شيئا، وبما ينتج عنه نور المصباح (أى العقل) وهو سر النفخة الروحية الربانية. ﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ والذى يعتبر بدوره «مثلا» لنور الله، نور السموات والأرض أى الكون كله ﴿ نور على نور ﴾ والذى نشاهد قدراته، ولكننا لا نعلم عن حقيقة ذاته شيئا[1]. ومن هنا يمكننا أن ندرك المعنى الذى قصده النبى الخاتم محمد ﷺ، عندما قال: «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله فإنكم لن تقدروه قدره».

عندما قرر القرآن حقيقة أن الله نور السموات والأرض، ونحن يستحيل علينا أن ندرك ذاته، فإنه يسر علينا أمر الفهم بذكره «مثل» هذا النور ممثلا فى المشكاة والمصباح والزجاجة، مشيرا بذلك - فى فهمنا والله أعلم - إلى الوعى العقلى (المخ + الحواس فى حدود الجسد) وإلى الوعى الروحى (الإدراك الزائد على الحواس) حيث:

المشكـاة = الجمجمة أو الغلاف الحافظ للمخ فى الإنسان.

الزجاجة = المخ الهش.

المصباح = الوعى العقلى والوعى الروحى.

وقد اعتبر القرآن الزجاجة كأنها كوكب درى بمعنى أنها لا تضىء بنور أو طاقة ذاتية وإنما تضىء من «زيت» من مصدر آخر غير النار، بالضبط كالكواكب التى تستمد إضاءتها من النجوم النارية، ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾. وقد ذكرنا من قبل أننا نميل إلى اعتبار الشجرة المباركة الزيتونة أنها المعجزة الكهربية المغناطيسية لأننا نعرف أن الخلايا العصبية فى المخ - النيوترونات - تعمل بواسطة الشحنات الكهربية. والشجرة مباركة لأن الله هو الذى أنبتها أى خلقها، وهى زيتونة لأنها أساس التوازن الكهربى فى الذرة الذى يحقق «سلام» البنية الكونية كلها بتماسك الذرة بقوة «الربط» باعتبار الذرة هى أساس البنيان الكونى كله. وزيت الإضاءة ربانى المصدر، والإضاءة ذاتها تتم بكيفية لا نعلم حقيقتها وإنما نشهد ونعلم تحققها من خلال آثارها فقط. وصدق الله العظيم: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

العلاقة الوثيقة التى قررها القرآن بين مفاهيم الألوهية وبين المظاهر والطاقات والحركات فى الكون فى العلاقة بالإنسان، تقودنا إلى إدراك الاتجاه العام القرآنى فيما يتعلق بالنشاط المعرفى للإنسان. وأول ما يستلفت النظر هو تقرير العلاقة بين الإدراك الحسى للإنسان المتميز بتركيب عضوى فريد قوامه الحواس، وبين السلوك الإنسانى فى واقع الحياة فى اتصال بنوع المعارف التى يحصلها الإنسان بواسطة حواسه ونشاطه العقلى. تذكر سورة الإنسان ما يلى:

---

(١) تناولنا هذا الموضوع بتفصيل أكثر فى كتابنا (الإسراء والمعراج والعلم الحديث) فليرجع إليه من شاء.

(١) خلق الإنسان من النطفة.

(٢) تميزه بالإدراك الحسى الذى أشارت إليه الآية بالسمع والبصر.

(٣) القدرة على البيان والتمييز ومواجهة الحياة.

(٤) اختلاف الاتجاهات الإنسانية عند الممارسة الواقعية للحياة اليومية فيما يمكن أن يوصف فى النهاية بما هو خير أو ليس بخير. واختلاف هذه الاتجاهات فكريا فى تقويم فكرة الألوهية.

تظهر جليا فى هذه السورة [١] فكرة الترابط بين السلوك والمسئولية واتصالهما بالتكليف الملازم للوجود الإنسانى بصفته وجودا واعيا مميزا ومدركا وعاقلا. والتقريرات فى السورة تبين نوعين للصلتين الفكرية والنفسية للإنسان بالحقيقة الإلهية وبرد الفعل تجاه النتائج المترتبة على المعيشة المدنية القائمة فى مستواها المعين، أى رد الفعل إزاء ما نصفه بالنقمة تصيب الإنسان أو النعمة؛ إنسان يتسم باستشعار الصلة بين الحياة المادية وبين الحقيقة الإلهية بالقدر الذى يصفه القرآن بإما «شاكرا» . . وإنسان لا يستشعر تلك الصلة وهو المشار إليه بـ«الكفور» أى الجاحد.

وتتضح من الآيات أيضا فكرة الجزاء المترتب على التكليف الملازم للإنسان المتميز بالعقل والإدراك والتمييز . . إلى آخر الصفات المميزة للإنسان العاقل، ومن هنا كان اهتمام القرآن بالسلوك الإنسانى فى واقع الحياة، والاهتمام بتحقيق التوازن العضوى والفكرى أو الجسدى والروحى للإنسان الفرد، وبالتالى الجماعة، فى السلوك، وهو يرفع الإنسان حين يخاطب حقيقته، إلى المرتبة التى يقف عندها فى أعلى مستوى من مستويات المسئولية المتصلة بحرية الاختيار لديه باعتبار الإنسان حرا فى أن يختار السبيل الذى يهديه إليه عقله فى حياته. الحرية نابعة من العقل، وهو فى نشاطه يتصل بالحواس الإنسانية ويستفيد من التجربة كثيرا.

والهدى القرآنى - وغيره من الهدى الدينى - لا يفرض على العقل الإنسانى ونشاطه، سواء فى الفكر النظرى أو السلوك المنبنى عليه، أى نوع من أنواع الضغط أو الإجبار: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ولكن الإرادة الإنسانية الحرة لا تعمل فى فراغ من الوجود تنفرد فيه هى بالإرادة لترقى إلى مستويات من التصرف المطلق بغير حدود فى مواجهة الوجود الطبيعى وكائناته.

إن الإرادة الإنسانية وهى تملك القدرة على إتيان التصرف الحر المختار النابع من التوجيه العقلى إنما تأتى هذا التصرف أو ذاك من خلال النسبة إلى الوجود الطبيعى - المادى والطاقى - وإلى الكائنات الأخرى وإلى القدرات البيولوجية والفكرية والروحية المكونة «للأنا» الفردية أى الذات الإنسانية. ومن ثم فتصرف الذات الإنسانية دائما نسبى وإدراكها الحسى دائما

---

(١) سورة: الإنسان.

نسبى . ومعنى ذلك أن الإرادة الإنسانية تعمل فى إطار من النسبيات التى تتصل بوجود طبيعى أو فيزيائى معين يستوعبه ـ أو فى أجزاء منه ـ الإدراك الحسى فى صورة محددة منسوبة إلى هذا الإدراك ذاته بما لاينفى وجود الإرادة المطلقة التى تستمد منها الإرادة الإنسانية النسبية .

إن الإنسان لن ينفرد بالسلطة الإرادية فى العالم المرئى من الكون بالدرجة التى يظن فيها أنه قد ألغى كل إرادة للذات الإلهية ، ولكنه ينبغى أن يدرك جيدا أنه حينما يتصرف من واقع ميزة القدرة الإرادية التى يتمتع بها ، فإنه يتصرف عندئذ فى استمداد من القدرة والإرادة للذات الإلهية وهى التى منحت الإنسان العقل الكامل والقدرة والإرادة الحرة النابعة منه سبحانه وتعالى . وليس فى هذا الذى نقول أى قدر من الإعجاز أو الميتافيزيقية ، إنما هذا المعنى يتصل بالخاصية العقلية التى يتميز بها الإنسان والتى يعرفها العلماء اليوم معرفة كبيرة . ففى إطار هذه الخاصية كان التكليف وما يترتب عليه من فكرة الحساب بالعقاب أو الثواب ، وكلها أمور متصلة بالقدرة الإنسانية على إتيان التصرف الإرادى الحر . كما أنها توضح معانى «المعصية» الآدمية المتمثلة فى الأكل من الشجرة بعد النهى الإلهى المتصل بذلك .

ولقد تصور البعض ـ من المثاليين ـ أن العقل وحده هو الموجود الحق الذى ينطوى فيه كل موجود مغاير ويعتبر من إنتاجه ، وعلى النقيض من ذلك تصور البعض الآخر ـ من الوضعيين ـ أن الطبيعة هى الوجود الحق وهى التى «تنقش الحقيقة فى العقل الإنسانى» . وفى اعتقادى أن هذا التصور أو ذاك قاصر عن وصف الأمر الواقع وصفا مقنعا .

إنه من خلال التفاعل الوثيق بين التركيب الإنسانى وطاقته فى النشاط المخى الكهربى والمتصل بالكائنات فى البيئة المحيطة ، يتم الإدراك الحسى . فهناك تفاعل ثلاثى بين الخاصية البيولوجية أو العضوية وبين الخاصية العقلية المتصلة بالنشاط المخى الكهربى وبين البيئة المحيطة بالإنسان فيما يستشعره فى داخل نفسه وفى الوجود الخارجى المحيط أو الوجود الطبيعى . من هذه العلاقة وتفاعلها اللازم ينتج التصور المجرد للحقائق وتنتج المعرفة التى تتطور فى ترقيها نحو المعرفة الحقة للإله الحق . وواضح أن هذه العلاقة لا ينفرد بها عنصر من عناصر الوجود سواء كان عقليا مثاليا أو ماديا واقعيا أو وضعيا ، وإنما تبرز هذه العلاقة من خلال عملية توازن فى العلاقة بين هذه العناصر التى بواسطتها جميعا يمكن إيجاد تصور إنسانى معين للحقيقة فى وجوديها المثالى والواقعى على السواء . وجوهر عملية التوازن هذه ، هو الطاقة فى الوجود وبصفة خاصة الطاقة الكهربية المغناطيسية . فبمعرفة هذه الخاصية الكهربية المغناطيسية يمكن الوصول إلى معرفة أدق عما يصفه القرآن بالروح ، ويمكن أن تتضح بذلك خصائص أكبر لطبيعة النشاط العقلى والخواص الإنسانية الروحية أو العقلية فى علاقتها بالبيئتين الداخلية والخارجية اللتين تحيطان بالإنسان من الخارج ومن الداخل .

إن آدم هو الذى يمثل القدرة المحدودة على كشف الحقيقة فى النظام الكونى ، بما فيه من الكائنات الذكية التى يأتى على قمتها الإنسان ذاته بتكوينه الجسدى الروحى . يكشف الحقيقة

من حيث صفاتها وآثارها وخصائصها كما تدل على الإله الواحد المعبود الظاهر من حيث بطونه، والباطن من حيث ظهوره، الأول والآخر والحى القيوم.

الذات والأسماء الحسنى :

إن الذى أريد توضيحه هو الفارق الموجود بين الذات وبين الأسماء فيما يتعلق بإدراك الإنسان. الإنسان ـ بكل إمكاناته ـ يعجز عن إدراك الذات ولكنه يستطيع أن يدرك أسماء ـ أو صفات ـ الذات عن طريق مظاهرها أو مرائيها فى النفس وفى الطبيعية ونظاميهما الأمثلين :

﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : ٣ - ٤].

ومن هنا فإن أصحاب النظرة المادية يجانبهم الصواب حين يظنون أن العقيدة الدينية هى تقديس لمعبود لا تناله الحواس ولا يدرك صفاته العقل وتفترض معه جنة خيالية بعيدة عن الواقع. ذلك أن مفهوم الذات الإلهية فى القرآن يدل عليه الاسم الجامع الرامز وهو الله، جامعا لكل الأسماء الحسنى ـ بالكيفية التى يمكن أن يدرك خصائصها الإنسان من خلال انعكاساتها فى الوجود كله وكائناته كلها.

ومن هنا فإن العقل الإنسانى يتعامل مع فكرة الألوهية فى وضوح وليس فى إبهام، وذلك من منطلق حقيقة بسيطة وهى أن الله فى الحقيقة ﴿ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥]. ولولا النور فى الكون لتعطلت الحواس الإنسانية ولساد الكون ظلام يعنى الجهل التام بحقائق الوجود والتعطل التام لقدرة الإنسان على تشغيل الحواس وبالتالى تعطل المعرفة الإنسانية.

وبذلك يتضح الفارق بين الكمال الإلهى والنقص البشرى، وعند هذه المرتبة يتلقى الإنسان «هدى» الإله ليختط على أساسه نمط سلوكه فى حياته الواقعية يستعمل قدراته العقلية لتنمية حصيلة تجاربه فى إطار الممارسة الفعلية لتعاليم الدين وتوجيهاته، وبما فى هذه التجربة من خطأ وصواب واستقامة وانحراف وطاعة ومعصية وجهاد ومجاهدة... وكلها ظلال الصورة الآدمية فى القرآن.

إن الإنسان يستطيع بعقله ـ وفى حدوده ـ أن يكون فكرته عن الإله من خلال أسماء وصفات الإله الحسنى. وقد اعتبر الفيلسوف والشاعر الصوفى محمد إقبال أن تصور الذات الإلهية متصفة بصفات البشر أمر لا مفر منه ولا يمكن تجاهله فى فهم الحياة لأن الحياة لا يمكن أن تفهم من داخل النفس، بينما كان المخرج من تصور صفات الله على مثال صفات البشر هو الذى حدا بابن حزم الأندلسى إلى التردد فى نسبة «الحياة» إلى الله فقال: «وعندى أن تصور

صفة الحياة للذات الإلهية يكون من خلال المظهر الكونى أو الكائن للاسم فى الأشكال والصور المختلفة ومنها حياة الإنسان» .

وهذا التصور الأسمائى يقترن بالتنزيه الكمالى الواجب لله سبحانه وتعالى النافى للمثلية عنه سبحانه وتعالى فى كل شىء وهى دائرة توحيد الذات للذات التى أشرنا إليها فيما سبق . ويجب أن ندرك أنه لا يلزم تصور صفات الله على غرار صفات البشر ، كما ذكر ابن حزم ، ولا تصورها متصفة بصفات البشر كما ذكر إقبال ، إذا أخذنا فى اعتبارنا فكرة «التضاد» التى أوضحناها سالفا فيما يتعلق بالكمال الإلهى والنقص الإنسانى . وربما كان من المفيد أن ينظر الإنسان إلى صفاته البشرية باعتبارها مظاهر أو مرائى للأسماء والصفات الإلهية الإيجابية التأثير ، كما تنسب صفات الإنسان إلى ذاته المدركة .

وهنا لا مفر من أن نرتفع عن حقيقة التجسيد للهيكل البشرى إلى حقيقة التجريد الذى يمثله العقل أو تمثله الروح لدى الإنسان . فإذا كان الإنسان ذاتا واعية ومدركة وهو يحمل «النقص» فى أسمائه وصفاته ، فإن الله ذات واعية مدركة تحمل «الكمال» فى أسمائها وصفاتها ، وهذا ما يقتضيه فارق النقص والكمال الذى تحدثنا عنه أنفا ، بين المخلوق والخالق ، وتكون النتيجة أن كل نقص يضاف إلى الأسماء والصفات الإنسانية هو انعكاس لكل كمال يضاف إلى الأسماء والصفات الإلهية فى إطار معنى ليس كمثله شىء أى فى كل شىء .

ويذهب البعض إلى القول بأن الذات ، باعتبارها ذاتا ، لابد أن تشغل مكانا ـ وهو فى حالة الإله مكان خاص يليق بها ، ولكن الحقيقة ـ عندى ـ بالنسبة للآيات التى تتصل بهذا الأمر الذى نتحدث عنه ومثالها الآيات التالية :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة : ٧]

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١] .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] .

الحقيقة عندى أن المفهوم الذى تبرزه هذه الآيات ليس هو «المكان» ولكن هو «الوسعة» التى تتصف بها الذات الإلهية فى تجاوز للزمان والمكان النسبيين بالنسبة إلى القياس الإنسانى .

إن أول ما يشد الانتباه إلى الفكرة الإلهية فى القرآن ، هو استحواذ هذه الفكرة على

الوجود فى كل صورة وأشكاله بحيث تنتفى عن هذا الوجود كله صفة الاستقلال سواء فى الإيجاد الأول أى الخلق، أو فى استمرار الوجود ذاته بما يحقق إيجابية الاسم القيوم بالقدر الذى نفهمه من خلال صلته بالوجود كله. وبذلك أيضا فإن فكرة الألوهية تستحوذ على الإنسان الفرد - وينعكس أثرها بالتالى على الجماعة المنظمة - فى حواسه المدركة وفى إدراكه الزائد على الحواس، وفى فكره وشعوره ونفسه وسره وخياله وتصوراته بحيث تمتد لأبعاد عميقة جدا فى الشعور والسر والخفى وما هو أخفى من دوائر الوعى الباطن أو اللاوعى، وينعكس ذلك على السلوك الفردى حيث لا يراقب الفرد إلا نفسه، وعلى السلوك الاجتماعى بدرجاته المختلفة (أسرة . . قبيلة . . جماعة . . شعب . . أمة . . إنسانية . .) بما تتجلى معه إيجابية التأثير للوجود الذاتى الإلهى على الوجود الذاتى الإنسانى ليصبح الإنسان ذاته إيجابى التأثير على نفسه وعلى الدوائر الاجتماعية التى ذكرناها سالفا وهو ما يفهم من قوله تعالى: ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ [يونس: ٩] و﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [الرعد: ١١]و ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾.

ومن هنا فإن موقف الإنسان الفرد من الإله سيمتد إلى موقف له من الكون بكل كائناته ومن المجتمع بكل أفراده، يمكن معه أن تتبلور وتنطلق إيجابية الإنسان لتبدع وتطور وترقى، كما سيبلغ الإنسان اطمئنانه وأمانه حين يفرض على نفسه نظام الله الأخلاقى ليعيش فى سعادة ووفاق مع هذه النفس أولا ثم مع سائر الناس فى المجتمع وأخيرا مع الإنسانية جمعاء فى العلاقة بين الشعوب والأمم، لأن ذكر الإله يؤدى إلى الأمان والطمأنينة والسلام النفسى الذى ينعكس أثره حتى على الكيان العضوى للإنسان ذاته.

إن الإنسان سيمكنه أن يدرك قدرات أو صفات أو أسماء الإله إذا بحث فى الطاقات والقوى الكونية، وهو سيسجد أى سيخضع حتما لله إن هداه عقله إلى معرفة الحقائق حول هذه الطاقات والقوى لأنها هائلة، عظيمة، مخيفة، فيها من مظاهر الجمال ما يدهش، وفيها من مظاهر الجلال ما يحير، وهى حالات لا يعرفها إلا العلماء الذين يحتمل أن يكون قد فاتهم الإيمان بالقرآن نتيجة عدم دراسته، أو دراسته دراسة سطحية بغير لغته العربية، أو الإهمال نتيجة النظر إلى واقع المسلمين المتخلف، أو إضمار سوء النية للقرآن ونبى القرآن ودين القرآن.

يقرر القرآن فى الآية ٤١ من سورة فاطر: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١] وهو يشير بذلك إلى السنن والقوانين فى الطبيعة، وهى التى يثبتها القرآن جنبا إلى جنب مع حقيقة الطاقات والقوى. إن الأمر بذلك هو أمر القوانين الطبيعية التى تتحكم فى، أو تحكم، هذه الطاقات والقوى الكونية كلها فى نظام. كل شىء يخضع للإمساك الإلهى أى الإمساك بواسطة

الطاقات التى تعمل فى إطار قوانين وسنن محددة التى لولاها لتضاربت المخلوقات كلها فى فوضى يزول معها النظام وتختل وتتضارب وتتناقض فيها القوانين وهى الحالة التى يصورها القرآن فى تقريره: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ويمكن لأى عالم أن يتصور النتيجة التى تحدث فى الأرض لو سادت الفوضى محل النظام فى المجتمع الكونى.. إنها نتيجة رهيبة من التدمير والفساد والضرر، إن تحققت فمن ذا الذى يمكنه أن يعيد إلى المجتمع الكونى الهائل نظامه المفقود؟: ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [فاطر: ٤١]. إن الإنسان، على الأقل، لا يستطيع ذلك. والإنسان يعلم أن الذرة هى التركيب الأولى لمادة الكون كله، أى السموات والأرض كما يذكر القرآن، فما هو السر وراء إمساك الذرة أو توازنها؟

إن العلم يخبرنا أن النواة الذرية تركيب متماسك تماسكا شديدا لا يتفكك إلا تحت ظروف طاقة عالية جدا. ويخبرنا أن هناك ذرات مستقرة وذرات غير مستقرة، وإن عدم الاستقرار فى نوى الذرات بالرغم من عدم إمداده بالطاقة من الخارج، يتصل بالقوى التى تعمل بين مكونات النواة وتحفظها متماسكة بعضها مع بعض تماسكا تاما. كما يخبرنا العلم أن تماسك الجسيمات النووية داخل النواة يرجع أصلا إلى النقص فى كتلتها الحقيقية عن المجموع الكلى لكتل جسيماتها، وكلما زاد هذا النقص ازداد استقرار النواة وتماسك جسيماتها، وتسمى الطاقة المكافئة لهذا النقص بطاقة الربط. وقد قاس العلماء كتل أغلب النوى المستقرة وغير المستقرة وحسبوا نقص الكتلة وطاقة الربط فى كل منها، وكانت النتيجة التى وصلوا إليها أن متوسط طاقة الربط التى تخص الجسم الواحد فى النواة، أى طاقة الربط مقسومة على مجموع عدد البروتونات والنيوترونات، تتراوح دائما بين ٦, ٩ مليون إلكترون فولت. والقوة التى تربط الإلكترونات فى نواة الذرة هى « قوة جذب الكهربية الساكنة». (Electro-static Attraction).

إن العقل سوف يصل إلى مدارك من الحقيقة عن طريق وجهها الكونى فقط، بالضبط كما أنه سيصل إليها عن طريق وجهها القرآنى فقط. ومعارج الحقيقة «علوم» وسبيلها «التجريب والتجريد الرياضى» أو «المشاهدة والاستقراء والاستنتاج»... إلخ. والعقل عندما يصل إلى الحقيقة فى الصورة التى تتطابق فيها أجزاؤها فى الكون مع القرآن، فإنه سيكون قد وصل إلى المعانى الحقيقية للإيمان بالله وبالكتاب «القرآن» وبالرسول الخاتم «الإنسان»، ويبقى على العقل أن يدرك تطابق الحقيقتين حتى يؤمن بوحدة الحقيقة ذاتها كما جاء بها الكتاب المقروء قرآنا، فيؤمن به وبآياته. والإيمان ينتج ويزداد بالبحث العقلى الذى يتوصل إلى إدراك تطابق الحقيقة فى الكون مع الحقيقة فى القرآن، وهى تعنى كما ذكرنا، «وحدة الحقيقة».

ولما كانت الحقيقة فى ذاتها واحدة ولها مظهران، كونى وقرآنى، فإن إدراك هذين المظهرين المتماثلين تماما لا يأتى إلا عن طريق البحث العقلى وترقى هذا البحث فى صورة المعرفة الإنسانية. ولما كان الكون حديثه هو حالته، وتعبيره هو وجوده فى الصورة الطبيعية (المادية الطاقية) وتسبيحه هو منطوقه غير المعلوم لنا، فإن الإنسان يظل - وهو فى دوره العاقل - فى حاجة إلى حديث بيانى بالأسلوب الذى يناسب ميزته العقلية، ليدرك بهذا الحديث الحقيقة الكونية فى صورة منطوقة ميسرة يمكنه أن يفهمها من حيث مخاطبتها لعقله، ويكون هذا الحديث مكتملا فى النظرة المعرفية، اكتمال الكون فى النظرة الخلقية، فيدرك الإنسان به أن الأمر كله هو الحق من عند الله. وعندئذ تثبت الصلة بين الكون وبين مكونه، وبين القرآن وبين منزله، وبين الإنسان وخالقه: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٤].

ولما كانت الحقيقة فى ذاتها واحدة ولها مظهران، كونى وقرآنى، فإن إدراك هذين المظهرين المتماثلين تماما لا يأتى إلا عن طريق البحث العقلى وترقى هذا البحث فى صورة المعرفة الإنسانية. ولما كان الكون حديثه هو حالته، وتعبيره هو وجوده فى الصورة الطبيعية (المادية الطاقية) وتسبيحه هو منطوقه غير المعلوم لنا، فإن الإنسان يظل - وهو فى دوره العاقل - فى حاجة إلى حديث بيانى بالأسلوب الذى يناسب ميزته العقلية، ليدرك بهذا الحديث الحقيقة الكونية فى صورة منطوقة ميسرة يمكنه أن يفهمها من حيث مخاطبتها لعقله، ويكون هذا الحديث مكتملا فى النظرة المعرفية، اكتمال الكون فى النظرة الخلقية، فيدرك الإنسان به أن الأمر كله هو الحق من عند الله. وعندئذ تثبت الصلة بين الكون وبين مكونه، وبين القرآن وبين منزله، وبين الإنسان وخالقه: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٤].

الفصل الخامس

الإنســان والعقــل

الطاقة الروحية :

إن الإنسان مخلوق عظيم، وكريم، وهو يملك إمكانية أن يكون عقليا صرفا بتجاوز قيود عناصره، ولكنه حين يفعل ذلك فإنما يفعله فى لحظة من لحظات الإشراق العقلى ثم ما يلبث أن يهبط إلى مستوى ضروراته الغريزية المتصلة بتركيبه العضوى. وعلى الإنسان أن يحفظ التوازن بين نشاطه العقلى وبين نشاطه العضوى حتى يكون وسطا. هذا الوسط يمكن للإنسان عن طريقه أن يبلغ أقصى درجات المعرفة الممكنة التى بها يكون قريبا من ربه أو يكون ربه قريبا منه.

والسؤال الذى يرد هو هل يستطيع الإنسان أن يصل إلى مستوى الوعى الروحى وهو فى ثيابه الجسدية؟

إن الإنسان إذا تمكن أن يصل إلى هذا المستوى الروحى المجرد عن جميع لوازم عناصر تركيبه العضوى، وتأثيرات وضغوط دواعى السلوك اليومى فى حياته، والبيئة الطبيعية الخارجية المحيطة، فإنه سيكون قد احتوى الطاقة الكونية كلها فى إطلاق مجرد عن المكان والزمان، وعندئذ يكون قد طوى المكان بلا انتقال وأحاط بالزمان بلا تحرك وأدرك معارف جمة بلا تجارب حسية.

وهذا هو الذى حصل للنبى صلى الله عليه وسلم فى المعراج، حيث انجلت حقائق الكون انجلاء تاما لروح النبى. فى هذا المستوى المشرق للروح تتم العديد من الظواهر الروحية التى تسمى بظواهر العقل الزائد على الحواس (Extra Sensory Perception) مثل الجلاء البصرى وانتقال الأفكار والتنبؤ وتأثير العقل على المادة، وغير ذلك من الظواهر المتصلة بالعقل المجرد. فهنا تتصل المطلقات المجردة اتصالا حقيقيا فى عالمها المغاير للعالم الفيزيقى

الذى نعرفه بحواسنا حيث تنتهى القيود المتصلة بالمكان وبالزمان وبالتركيب العضوى والحواس الظاهرة المتصلة بالإنسان، وهى الحال الذى يقول فيها أستاذنا الإمام أبو العزائم:

غـشت أنواره سـدرة ذاتى	فـكـنت ولا مـكـان ولا بـريـه
ولا صـبح يلوح ولا مـسـاء	ولا عـرش يلوح لدى العطيـه
تراءى الوجـه لى حولى مضيئا	فـأفنانى بـه لا بـالمزيـه
أنا من عندها والوجـه حولى	وسكرى من مـدامتـه الرويه
أنور القـدس أم غـيب مصون	أم المجـذوب للذات العليـه؟

ويمكن القول بأن ظاهرة الجلاء البصرى يشير إليها النص القرآنى التالى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق : ٢٢] . لأنه يبصر ما لا يبصره الشخص العادى الذى تحجب قدرته على الرؤيا المتجاوزة للزمان والمكان، ما يحجب البصر أو المبصرات عادة من عوائق مادية خارجة عن جسم الإنسان أو متعلقة به. وأبرز مثال للجلاء البصرى هو ذلك الذى حصل للنبى صلى الله عليه وسلم عندما سألته قريش أن يصف لهم بيت المقدس بعد الإسراء ولم يكن النبى يدرك تفاصيل بنيانه، فرآه حينئذ منجليا أمامه فى صورته الأصلية وهو على هذا البعد الذى نعرف بين مكة والشام، الأمر الذى قال فيه النبى ﷺ : « فجلا الله لى البيت . . » .

أما انتقال الأفكار أو التحدث عن بعد فتدل عليه واقعة عمر بن الخطاب وسارية الذى ناداه عمر ـ وهو على المنبر بالمسجد ـ وحذره بضرورة الاحتماء بالجبل من العدو، وقد وصلت الرسالة العمرية إلى سارية على ما يفصلهما من مسافة كبيرة ونفذ سارية ما نصحه به عمر بن الخطاب رضى الله عنه. إن هذه الواقعة العمرية تحتوى على ظاهرتين:

الأولى : ظاهرة الجلاء البصرى حيث رأى عمر بن الخطاب رؤية تجاوزت حدود المكان، أو ربما أحس عمر بموقف سارية أخيه فى الإيمان والإسلام، والرؤيا عن بعد تسمى (Clairvoyance) .

الثانية : ظاهرة قريبة من ظاهرة انتقال الأفكار (Telepathy) حيث وجه عمر كلمات سمعها من وجهت إليه وبعد ما بينهما يزيد على عشرات الأميال.

انتقال الأفكار أو التليباثى عبارة عن إدراك شخص لأفكار شخص آخر دون تدخل الحواس الخمس المعروفة، وهى السمع والبصر والشم والذوق واللمس. صحيح أن عمر تفوه بكلمات، ولكن القوانين العادية المعروفة تجعل من المستحيل سماع هذه الكلمات على

بعد يزيد على عشرات الأميال دون «وسيط» . وإن كانت ظاهرة التليباثى تعنى بالضبط انتقال الأفكار بلا وساطة من الحواس ، فإن الظاهرة العمرية تكون إذن مشابهة لظاهرة انتقال الأفكار . ماذا حصل بالضبط؟

لقد انتقلت الكلمات العمرية إلى سمع سارية ـ والمسافة بينهما كما قلنا تزيد على عشرات الأميال ـ فى الصحراء فى اللحظة التى كان عمر ينطق بها . فهل سار الصوت العمرى عابرا للمكان بسرعة الصوت المعروفة ليبلغ فى لحظتها أذنى سارية؟ لا نعتقد ذلك ، لأن غيرها من الكلمات لم تصل إلى سمع سارية ، فضلا عن أن بلوغ الكلمات إلى سارية كان يحتاج إلى وقت أطول إذا أخذنا فى الحسبان السرعة التى يسير بها الصوت . إن الذى حدث يحتاج إلى وسيط ينقل الكلمات عبر هذه المسافة الشاسعة ليكون كل طرف ، المتكلم والسامع ، أو المرسل والمستقبل ، على اتصال مباشر بالطرف الآخر . فإذا افترضنا وجود هذا الوسيط بين عمر وسارية فلا بد وأن يكون وسيطا عقليا أو روحيا لانعدام أدوات الاتصال المادية المعروفة لنا الآن ، فى ذلك الوقت .

لقد صدق النبى الخاتم صلوات الله وسلامه عليه حين ذكر أن عمر بن الخطاب من المحدثين القليلين من المسلمين آنذاك . والعلم التجريبى يخبرنا اليوم أن مثل هذه الظواهر تعتبر ظواهر عقلية متجردة عن المادة ، أو ظواهر روحية لا تنطبق عليها القوانين التى تنطبق على المادة . وإذا كان الصوت ـ كما نعرف ـ ينتقل عبر تموجات أو أمواج ، فهو يخضع عندئذ ـ كما يخبرنا علماء الطبيعة ـ لقانون التربيع العكسى بمعنى أن كل جسمين يجذب أحدهما الآخر بقوة تتناسب طرديا مع كتلته ، أى أن الكتلة أو الجسم الكبير ينجذب بقوة أكبر من الجسم الصغير . كما تتناسب الكتلة عكسيا مع مربع المسافة بمعنى أنه إذا زادت المسافة بين جسمين يجذب أحدهما الآخر إلى الضعف ، فإن قوة الجاذبية تنخفض إلى الربع ، أى مربع المسافة .

أما الإدراك خارج الحواس ، مثل انتقال الأفكار والجلاء البصرى ، فإنه لا يخضع لهذا القانون ، فهذا الإدراك يزيد بزيادة المسافة ولا ينقص ، [1] وبالتالى فهو لا يخضع لحدود المكان . . . ثم هو يستطيع أن يسبق الزمان فلا يخضع لحدوده الفيزيقية المعروفة ، وهو ما يمكن أن يؤدى إلى ظاهرة التنبؤ .

وعلى ذلك فإن انتقال صوت عمر بن الخطاب كان على غير الأسلوب الذى تنتقل به الأصوات والذى نسميه بالتموجات أو الأمواج أو الموجات . لابد أن يكون العقل أو الروح فى خارج حدود الحواس قد لعب دورا ما فى انتقال الكلمات التى ركز عليها عمر فاستقبلها العقل المقابل أو الروح المقابل عند سارية .

---

(١) يراجع فى تفاصيل إثبات ذلك بالتجربة ، كتاب «العقل وسطوته» تأليف الأستاذ ج . ب . راين ، ترجمة الأستاذ محمد الحلوجى .

إننى أعتقد أنه على أساس هذه الظواهر العقلية والروحية الخارجة عن الإدراك الحسى يمكننا أن نسعى فى طريق إيجاد تفسيرات للعديد من الحقائق المتصلة بآيات القرآن الكريم ، كما فى المعراج مثلا ، فضلا عن إيجاد تفسيرات للحقائق الكامنة وراء الدلالات والإشارات القرآنية فى محتواها اللفظى الذى قد يأتى أحيانا فى صورة قصة أو حوار أو غير ذلك كما فى النصوص المتصلة بآدم عليه السلام والحروف المتقطعة فى أوائل السور . والحقائق المتجمعة لنا فى هذا العصر المتقدم علميا ، تشير إلى أن هناك فى الإنسان حقيقة روحية لا مادية ، وقد ثبت بالتجربة المدعمة بالإحصاء الرياضى الدليل على وجود هذا العامل الروحى فى الإنسان ، وذلك من خلال المباحث الروحية ومباحث علم الباراسيكولوجى ، بل ذهب كثير من العلماء المتخصصين فى دراسات المخ وجراحة الأعصاب إلى أن العقل يبقى فى صورة مجردة فعالة بعد تحلل الجسد بالموت ، وأنه ـ أى العقل ـ يستمد عندئذ من طاقة عالية لا نعرف كنهها على وجه التحديد ، ومن هؤلاء العلماء الأستاذ الدكتور ويلدر بينفيلد ، الأمريكى الجنسية . ولا توجد حتى الآن نظرية مادية تفسر عمل العقل الواعى ، وحتى علم الطبيعة يقصر عن إيجاد مثل هذا التفسير نتيجة الظواهر العديدة التى تكتشف كل يوم لقدرات العقل فى نشاطه الزائد عن الحواس . فهناك من الظواهر ما يناقض النظرة المادية التى كونها بعض العلماء عن الإنسان ونشاطه العقلى ، بناء على الدارونية البيولوجية . ومن هذه الظواهر :

١ ـ انتقال الأفكار Telepathy .

٢ ـ الجلاء البصرى أو الرؤية عن بعد Clairvoyance .

٣ ـ الجلاء السمعى والجلاء الشمى .

٤ ـ تأثير الفكر أو الطاقة الروحية على المادة Phsycho Kinetic Energy .

٥ ـ التنبؤ Prophecy or Prediction .

٦ ـ الوحى Revelation .

٧ ـ التخاطب عن بعد .

٨ ـ الظواهر المصاحبة للموت الكلينيكى أو الطبى Clinical Death .

٩ ـ الطرح الروحى والطرح الجسدى الروحى Astrac Projection .

وقد ثبت ما يلى فيما يتعلق بهذه الظواهر :

١ ـ الطاقة الروحية تزيد بزيادة المسافة ولا تنقص ، ومن ثم فهى لا تخضع لقوانين المكان وتختلف عن القوانين الفيزيائية التى تتناول حركة المادة ومنها قانون التربيع العسكى المتصل بالجاذبية .

٢ ـ الطاقة الروحية يمكن أن تسبق المقاييس الزمنية المتصلة بحركة المادة والطاقة المعروفة فى الكون، ومن ثم فإن لهذه الطاقة الروحية أو العقلية القدرة على «التنبؤ». وهو من الظواهر الروحية التى تختلف عن التنبؤ العادى المتصل بإمكان معرفة ظروف معينة نتيجة توافر معلومات محددة عن الظاهرة موضع البحث وموضوع التنبؤ.

٣ ـ بالنسبة للطاقة الروحية فإن النتيجة قد تسبق السبب، وذلك بخلاف علاقة السببية المعروفة فى علم الفيزياء.

٤ ـ وجود الروح أو العقل المجرد بعد الموت.

٥ ـ القدرة على الإنباء بأحداث غيبية بلا مقدمات أو معلومات مسبقة.

وقد تناول القرآن ظاهرة التنبؤ فى سورتين على النحو التالى:

١ ـ فى سورة الروم قرر القرآن أن الروم بعد أن غلبت من الفرس، سوف تغلب وتنتصر على الفرس وأن ذلك سيتم فى بضع سنين فقط، ثم يقرر: ﴿ **لله الأمر من قبل ومن بعد** ﴾ وهى عبارة عميقة الدلالة فى تفسير الظاهرة التنبئية الروحية وتجاوزها للقوانين الفيزيائية التى تحكم وتقيس الزمن من مختلف الجوانب. فالآية تجعل «القبل» أى الماضى، و«البعد» أى المستقبل، بالنسبة لله سبحانه وتعالى متساويين حيث لا قبل ولا بعد عند الله، أى عدم تصور وجود الله فى الزمان، ومن هنا كان الأمر بالنسبة للعقل المجرد أو الروح بالنسبة للزمان، غيره بالنسبة للعقل المقيد بالحواس والمتصل عندئذ بالمقاييس التى أوجدتها العلوم الفيزيائية.

٢ ـ فى سورة العنكبوت يقرر القرآن ظاهرة التنبؤ فى مجال السلوك الاجتماعى للإنسان: ﴿ **الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ** ﴾ [العنكبوت: ١، ٢] فهنا تأكيد وقوع أنواع الفتنة المختلفة فى المستقبل للمؤمنين.

ماذا تنقله لنا قصة آدم عن المعرفة الغيبية؟:

إننا نعلم أن آدم وزوجه لم تكن لديهما القدرة على معرفة الغيب. ولكننا نقول أيضا إن طبيعة الشجرة المحرمة عليهما وإن كانت مجهولة لهما فى البداية: ﴿ **ما ووري عنهما من سوءاتهما** ﴾ إلا أن آدم وزوجه لابد أن يكونا قد تعلما بعد فترة بالمشاهدة من كائنات البيئة المحيطة فى الجنة، أو ربما بالإدراك الفطرى الغريزى، تعلما كيف يتم التزاوج، وبتعبير القرآن وسوس لهما الشيطان بهذه الحقيقة. لكن آدم وزوجه كانا يجهلان النتيجة التى كانت ستترتب فى المدى الطويل، على تناسلهما واستعمار نسلهما للأرض استعمارا مؤقتا عند تطلعهما بالأمل فى حب البقاء. وكان من ضرورات الأمور أن يكون السبيل المؤدى إلى المعرفة الإنسانية وترقيها وتطورها، هو السبيل المتدرج الناتج عن النظر والملاحظة والتجربة والاستنتاج.. إلخ. فذلك كان يتوافق مع حرية الإرادة لدى آدم.

وهناك وجهة نظر ـ كما يقول الأستاذ ج . ب . راين ـ تربط بين حرية الإرادة وبين التنبؤ، على أساس أنه مع التنبؤ بالأحداث المستقبلة التى يمكن أن تحدث للإنسان فى مجال سلوكه الاجتماعى، فإن إرادته الحرة يمكن أن تلعب دورا فى تضييق مجال هذه الأحداث، كما أن الأحداث نفسها تخضع لما يتم عليه العزم بعد ذلك من جانب الإنسان ذاته، وهو قد ينسى مثلا فتقع الأحداث حيث ينتفى العزم على تجنبها، وقد يتذكر فيقوى العزم على تجنبها فتتحقق بالقدر الذى تنجح فيه العزيمة أو تفشل .

والحالة الأولى، حالة النسيان وضعف العزيمة يصورها القرآن بالنسبة لآدم وتحركه بدافع الغريزة نحو الفعل المحتوم : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ﴾ بينما الحالة الثانية، حالة التفكر المصاحب بالعزيمة الصادقة على تجنب الحادثة، يصورها القرآن فيما يلى ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ وأيضا ﴿ ... لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ .

الإنسان الذى جاهد نوازع الشر فى نفسه حتى خلص من اتباع هواها هو عبد لله يسمو فوق مستوى غرائزه عندما يتعرض لفتنة الشر . وأولو العزم من هؤلاء، قليلون . فإذا رجعنا إلى نصوص القرآن لوجدنا سورة العنكبوت تخبرنا بتنبؤ خاص بالمؤمنين، وهو أنهم سيتعرضون حتما للفتنة . فهذا إنباء متعلق بالسلوكين الفردى والجماعى يتوقف تحققه على تحقق سببه، وهو هنا لا يشير إلى حادثة تفصيلية معينة، وإنما يقرر مبدأ عاما تلعب فيه الحرية الفردية دورا أساسيا .

فالإنسان يملك بإرادته الحرة أن يؤمن أو لا يؤمن، فإذا اختار بحريته المطلقة طريق الإيمان، فهناك قدر من التنبؤ بالنسبة له، وهو أنه سيتعرض للفتنة . ومع ذلك هو يقابل هذه الفتنة بعزيمة المؤمنين ويستعد لها قبل حدوثها ليواجهها ولا يتأثر بها .

أما سورة الروم فإنها تقرر حادثة لا مجال للإرادة الإنسانية فيهما كما قد يرى المراقب للأحداث، فالروم سوف يتمكنون من هزيمة الفرس فى بضع سنين . فهل هذا الأمر يعتبر قدرا محتوما لا دور للإرادة الإنسانية فيه؟

إننا نعلم أن للنصر أسبابه كما أن للهزيمة أسبابها، وأن الدول كما ترتفع فى القوة فإنها تضعف وتنهار بفعل العديد من العوامل الداخلية التى تنشر الخلل والفساد فى تركيبها وفى أفرادها أنفسهم، والنبى ﷺ يقول فى هذا المعنى (إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة) أى ساعة هلاك الأمة التى يوسد الأمر فيها لغير الأكفاء من أبنائها فلا يوضع الفرد فى المكان الذى يناسبه مؤهله الفعلى، وإنما يتولى الأمور المهمة فى الدولة أولئك الذين لا يملكون المؤهلات على شغل هذه المناصب بالكفاية والخبرة والدراية المطلوبة . وحادثة الروم من هذا القبيل الذى يسرى على انتصار الأمم وانهيارها . وإذا كان الإنباء بأن الروم ستغلب الفرس

يعنى بنفس القدر مع وجود أسباب النصر المادية والمعنوية ، فإن تلاشى هذه الأسباب هو الذى أدى فيما بعد إلى انحلال الإمبراطورية الرومانية ، ثم نشوء هذه الأسباب مرة أخرى هو الذى أدى إلى ازدهار الإمبراطورية الإسلامية .

وهكذا ترتبط الحوادث المستقبلة بأسبابها التدريجية . ودور الإرادة الإنسانية فى تجنب هذه الأحداث دور محدود . ومعرفة الغيب ذاتها تعتبر من القدرات المحدودة الخاصة وليست من القدرات العامة التى يمكن أن يتصف بها أى إنسان . والمعرفة المطلقة بالحوادث المستقبلة تشل ـ كما قلنا ـ الإرادة الإنسانية الحرة لأن ثبات هذه الحوادث يعنى ضرورة تحققها حتى ولو علم الإنسان بذلك . وذلك يعنى اطلاع كل إنسان على قدره أو على ما كتبه الله له فى اللوح المحفوظ ، وهو غيب (وهو عندئذ لن يكون لوحا محفوظا لأن الإنسان اطلع عليه) ، وعندها تستحيل الحياة الحرة للإنسان ويصبح هناك وجود إنسانى مسيَّر ينتفى معه دور العقل وتنقلب فيه موازين الأمور انقلابا خطيرا .

وإذا كانت الحوادث المستقبلة التى يطلع عليها الإنسان ، يمكن تغييرها ، لكان معنى ذلك أن كل إنسان يمكنه أن يغير من القضاء والقدر ويتصرف فى قدره كيف يشاء ، ولكن لن تكون هناك قيمة فعلية للتنبؤ ذاته لأنه سيكون تنبؤا بما لا يقع . وقد نقل هذا الرأى البروفيسور ج . ب . راين ، وتساءل بناء عليه : كيف يثبت عندئذ التنبؤ نفسه؟

ومن هنا نخلص أيضا إلى أن التنبؤ لابد أن يكون من عمل العقل المجرد عن المادة ، أو الروح ، وهذه المقدرة الروحية لا تكون إلا لإنسان تجردت روحه عن مقتضيات بشريته العضوية ، أقصد حواسه . أما الإنسان العادى ، فإن قدرته على التنبؤ بفعل النشاط الروحى أو العقلى المجرد عن العناصر ، تكون محدودة نتيجة تأثيرات الحواس ودواعى العضوية ذاتها . فهناك عالمان مختلفان لكل منهما قدراته وقوانينه التى تحكمه . والقرآن يقرر هنا بالذات : ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٠] .

ويذهب الأستاذ مصطفى محمود إلى هذا المعنى الذى نقول به عن البرزخ حيث يقول (١) :

«ذلك البرزخ الذى يفصل أرواح الموتى عن دنيا الأحياء ، فإن القرآن يعود فيلقي الضوء علي معناه في آيتين منفصلتين : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٥٣] . والحجر المحجور هو المنع الممنوع المحظور . والآية تتحدث عن أحواض البحار والمحيطات الملحة وأنهار المياه العذبة ، كيف تلتقى ويصب الواحد منها فى الآخر دون أن تمتزج ودون أن تتلوث الأنهار العذبة بالملوحة . . فتظل الأنهار عذبة والمحيطات ملحة بما أقام الله من برزخ (فاصل أو حاجز) بينهما . ويتكرر

---

(١) فى كتابه : (القرآن ، محاولة لفهم عصرى) ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

الكلام نفسه فى آية أخرى بسورة الرحمن: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠].

ومن الواضح هنا أن البرزخ ليس مجرد الأرض الفاصلة. . فالأرض الفاصلة لم تمنع من مسيل الأنهار لتصب فى المحيطات. . وإنما فى القوانين التى جعلت المحيطات فى المنخفض من الأرض والأنهار تنزل إليها من أعالى الجبال، ولو حدث العكس لتلوثت كل المياه العذبة. ثم إن الله جعل مياه المحيطات ترتفع فى المد (بفعل جاذبية القمر) ولكن بمقداره، ولو كان القمر أقرب إلى الأرض مما هو، لكان المد العالى الذى يحدث كفيلا بأن تصب المحيطات فى الأنهار فتلوثها ولما وجدنا قطرة ماء نشربها.

إن البرزخ، والحجر المحجور، والمنع الممنوع، كلها إشارة إلى القوانين الفيزيقية التى تمنع وتضبط وتحفظ لكل شيء حدوده ومكانه. وهذا يفسر لنا ما قاله القرآن عن الموتى: ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] .فليس معنى البرزخ هنا فاصلا مكانيا يفصل أرواح الموتى عن دنيا الأحياء، وإنما معناه القوانين المانعة. فالأرواح مع أنها قد تكون حولنا فى ذات اللحظة والمكان، ولكن الاتصال يظل مستحيلا ومعدوما لاختلاف قوانين وجودها عن قوانين وجودنا. . وهذا هو البرزخ». انتهى.

ويتضح هذا المعنى جليا فيما يروى عن النبى ﷺ أنه لما مر بقتلى بدر سلم على أهله، ولما سئل كيف يكلم قوما قد جيفوا، أجاب بأنهم يسمعون ولكنهم لا يستطيعون الإجابة، أى أنهم فى هذه الصورة من الوجود الروحى الصرف يتمتعون بالإدراك والعقل ولكن القوانين التى تخضع لها الروح هناك تخالف تماما القوانين التى تنطبق على المادة هنا، ومن ثم يستحيل الاتصال على النحو الذى تعودناه.

والإدراك العقلى أو الروحى ـ من واقع التنبؤ ـ يسبق وجود الحادثة المادية، أى أن الوجود اللامادى يسبق الوجود المادى، أو أن الروح أو الوعى العقلى يسبقان المادة أو الطاقة المادية (أى الكامنة فى المادة). هكذا ثبت بالتجربة وما أدت إليه من نتائج ويكون العقل بذلك قد تخطى حواجز الزمان والمكان (المسافة)، وذلك بالنسبة لعلمنا العادى الذى يحده الزمان والمكان. فإذا كانت الحركة العادية فى المكان تحتاج إلى الوقت أو الزمان، فإن ما يكون خارج المكان (أى البعد) فلا بد أن يكون خارج الوقت والزمن أيضا.

وهنا يستوقفنا القرآن فى سورة الكهف وما ورد فيها رموز على حقائق. إن الحقيقة الزمانية المستخلصة من آيات الكهف تساوى بالضبط النتيجة التى أشرنا إليها آنفا وهى أن ما يكون خارج المكان لابد من أن يكون خارج الوقت أو الزمان أيضا. وقد كان أهل الكهف ـ والقصة فيهم كما فى آدم تشير إلى حقائق تحويها النصوص ـ خارج المكان المعتاد، كانوا فى «الكهف»

ومن ثم كانوا خارج الزمان أيضا إذ عندما أفاقوا من حالة النوم التى كانوا فيها قالوا إنهم لبثوا ﴿ يوما أو بعض يوم ﴾ بالنسبة لهم هم، أما بالنسبة للمقيمين فى المكان المغاير - خارج الكهف - فقد لبثوا ثلاثمائة من السنين الشمسية، تزداد تسعا بالنسبة للحساب القمرى.

الأمر بالنسبة إلى أهل الكهف أمر عزلة تامة فى المكان وهذه الحالة ينتج عنها اختلاف فى حساب الزمان لاختلاف النظام القياسى للزمان بين أهل الكهف وبين المراقبين فى الخارج بما يعنى وجود نظامين مختلفين تماما فى أبعادهما المكانية والزمانية والقياسات المتصلة بهما. والفكرة فى نسبية الزمان هنا واختلاف قياساته حسب مركز المراقب ونظامه القياسى توضحها الآية التالية: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ [الكهف: ١٢]. هل هم المراقبون الأيقاظ؟ أم هل هم أصحاب التجربة أنفسهم فى عزلتهم؟ فكل من الفريقين ذكر زمنا مختلفا فى عده بالنسبة لفترة البقاء فى الكهف لأن كلا من الفريقين كان له نظامه الزمانى المختلف فى قياساته، فى إطار نظامه الفيزيقى المغلق. بالنسبة للمراقب من خارج الكهف كان الزمان ثلاثمائة عام شمسى أو ثلاثمائة عام قمرى وتسعا، وبالنسبة لأصحاب الكهف كان الزمان يوما أو بعض يوم. ولما خرج المنعزل فى الكهف من مكانه ليعود إلى المكان الذى تركه قبل عزلته - وهو مكان المراقب من الخارج - كان الواقع الخارجى قد تغير تماما بالنسبة إليه عما تركه قبل العزلة، فالأماكن والأشخاص والأحداث كلها تغيرت وتعاقبت أجيال وراء أجيال من الناس فى المكان الخارجى، بينما المنعزلون فى كهفهم ظلوا على حالتهم نفسها التى بدءوا منها العزلة، لم يتغيروا فى الهيئة أو الشكل أو الصورة لأن الزمان الذى مضى بالنسبة لهم كان يوما أو بعض يوم.

وهذا هو بالضبط ما وصلت إليه نظرية النسبية الخاصة فيما أسماه علماء الفيزياء بـ«مفارقة التوءمين». (Twin Paradox) التى توصل إليها عالم الفيزياء الشهير ألبرت أينشتاين والتى أثبتت التجارب صحتها بعد وفاته، والتى مقتضاها باختصار شديد أن إنسانا يستقل صاروخا ينطلق من الأرض إلى الفضاء بسرعة تقرب من سرعة الضوء، يعود بعد عام - من حساب الزمن وفقا للسرعة المنطلق بها الصاروخ - إلى الأرض ليجد أن الزمان - بمقياس أهل الأرض - قد مضى بمئات من السنين الأرضية وأن الجيل الذى كان يعاصره وقت بداية رحلته بالصاروخ، قد انتهى وأعقبته أجيال أخرى.

إن اختلافات القياس، والنظم الفيزيقية المغلقة، وبالتالى الحقائق فى العالم الفيزيقى تجعلنا نفهم وجود المتغيرات الحسابية أيضا بالنسبة للقدرات العقلية المجردة، أى الزائدة على الحواس أى الروحية التى توجد بالنسبة لها بالضرورة حقائق مغايرة عن الحقائق المعروفة لعلماء الطبيعة، ستفسر لنا الكون تفسيرا جديدا علينا، إذ الروح كائن مستمر فى «القبل» وفى «البعد» وفى «الآن» بالنسبة لمفاهيمنا العلمية المتصلة بالمادة والطاقة. الروح لها وجود مستقل

عن الزمان والمكان بمقاييسهما الفيزيقية البحتة. وأقرب مثال محسوس للروح هو الطاقة الضوئية المطلقة السرعة (حوالى ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر ثانية) والحركة الروحية لها زمانها المعروف بالزمان الروحى، كما أن طبيعة الروح أو كنهها لا يمكن إدراكه أو معرفته. ولذلك لما سأل اليهود فى المدينة النبى صلى الله عليه وسلم عن حقيقة الروح، ماهى ، لم يجبهم بحقيقة كنه الروح وإنما قال ما أوحاه إليه ربه: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥].

الروح هى أساس العقل. والعقل هو شعور ذاتى بالمعرفة وإحساس بالوجود الذاتى الذى تتصل به الذاكرة الواعية، فهو شىء غير مادى فى طبيعته، وإنما يترجم إلى ظواهر مادية وتطبيقات لها متطورة باستمرار. والإدراك العقلى فى الإنسان العادى يوجد من خلال وساطة المخ والجهاز العصبى المتقدم لدى الإنسان، فالمخ يمكن تشبيهه بالكمبيوتر وهو - أى المخ - يستعمل الطاقة الكهربية فى نشاطه الذى به يبرز الوعى العقلى المتصل به، ولكن الوعى العقلى يمكن أن يوجد فى صورة منفصلة عن المخ تماما بعد توقف نشاط المخ وفناء الجسد الإنسانى بالموت. والوعى فى هذه الحالة هو وعى عقلى مجرد أو وعى روحى. وهناك حالة من الوعى هى وسط بين الحالتين السابقتين، وهى حالة الوعى فى الموت الطبى أو الكلينيكى. وفى الحالات الثلاث يستمد العقل من طاقة، هى الكهرباء فى الحالة العادية للإنسان الحى، وهى غير معروفة فى حالتى الموت الكلينيكى والموت الكامل، حيث يستمر بقاء الروح بنشاطها الواعى.

النفس الإنسانية :

يتناول القرآن النفس الإنسانية من خلال نظرته العامة للإنسان باعتباره كائنا مكرما ومفضلا على كثير من خلق الله تفضيلا.

كائن خلق فى أحسن تقويم يجمع بين طبائع الجسد الطينية وخصائص الروح النورانية. فهو فى نظر القرآن ليس آلة وليس حيوانا، وإنما هو خليفة الله فى الأرض لاستعمارها والكد فيها من أجل البقاء والحفاظ على النوع وبناء مستقبل مدنى وحضارى متقدم فى إطار توجيه هدى الله الآتى للإنسان فيما نعرف من رسالات الأنبياء والرسل المصطفين والذين يأتى خاتمهم بصورة الهدى الكامل المكتمل فى شكل وموضوع قرآن عربى يضع القواعد العامة والمبادئ والأسس للمدنية والحضارة الربانية للإنسان فى الأرض مع بيان قواعد وأسس العلاقات الاجتماعية والعلاقات فيما بين الأمم والشعوب.

والقرآن يستند فى تعامله مع الإنسان إلى مبدأى (الخبرة) (والعلم) الخبرة والعلم الإلهى -

حيث الله سبحانه وتعالى خالق الإنسان هو مصدر القرآن ـ بالإنسان وبخصائصه وبطبائعه وبنوازعه وبخواطر وإلهامات وإمكانات عقله وروحه، وهو ما يقرر القرآن بشأنه: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٣، ١٤] . ومن هنا تأتى المعالجة القرآنية لشئون الإنسان على أكمل ما تكون المعرفة بالإنسان ذاته ولتوجه سائر العلوم والمعارف المتصلة بالإنسان للتعامل مع الإنسان من هذا المنطلق الربانى، وخاصة فى شئون الإنسان النفسية بما يضمن صحتها وسلامتها وتوازنها.

والعلاقة بين النفس والعقل والروح فى اتصال بالجسد، علاقة وثيقة ومتشابكة ومتداخلة. وبرغم تقدم العلوم الحديثة وتقدم التجارب الروحية ، فإن الروح وطبيعتها وكنهها مازالت سرا مغلقا غير معروف، وكل ما نعرفه عن الروح هو ملاحظة أو مشاهدة آثارها فى الجسم الذى تعتبر هى سلطانه، وهو مملكتها المؤقتة فى الحياة الدنيا، أو مشاهدة آثارها على المادة فى الكون فضلا عن الكون الروحى الذى يعتبر بيئتها التى يأتى فيها نشاطها. والعوالم الروحية تطلب الله سبحانه وتعالى كما نطلبه نحن فى حياتنا الفيزيقية الدنيوية، وهذا يتمشى مع ما يقرره القرآن فى الآية: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥] ، وذلك باعتبار الروح فى الإنسان هى نفخة من روح الله، وهى التى يسميها أبو العزائم بالنفخة القدسية المفهومة من تقرير القرآن: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩] .

ومن هنا، فإن البحث فى كنه الروح أمر ليس فى مقدور الإنسان العاقل الذى كان ومازال ولن يزال علمه بالنسبة للروح وماهيتها، قليلا. فالروح تعرف بآثارها وتأثيراتها من خلال القدرات المختلفة للإنسان الذى آدم هو بداية نوعه، وتحديد العلاقة بين النفس والروح أمر صعب، بل بالغ الصعوبة ولا يمكن القطع فيه بصحة مفهوم معين، ولكن الحديث فى تحديد هذه العلاقة هو من قبيل الاجتهاد فى التفسير الناتج من الفهم المتباين بين الناس وبين المتطرقين لهذا الموضوع منهم.

ولقد استعمل القرآن تعبير النفس وهو يقصد مفاهيم تختلف بعضها عن بعض. فقد استعمل القرآن تعبير النفس بمعنى الذات بجملتها كما فى قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة: ٤٨]، وكما فى قوله سبحانه وتعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ [آل عمران : ٢٨] كما وصف النفس بظاهرة الحياة والموت كما فى قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] . كما استعملها بمعنى الشخصية

المكونة للإنسان كما فى قوله تعالى: ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن ﴾ [المائدة: ٤٥]، وكما فى قوله تعالى: ﴿ أقتلت نفسا زكية بغير نفس ﴾ [الكهف: ٧٤] واستعملها بمعنى السر كما فى قوله تعالى: ﴿ فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴾ [المائدة: ٥٢] أو الخفى كما فى قوله تعالى: ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وكما فى قوله تعالى: ﴿ تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ﴾ [المائدة: ١١٦] ويكون السر والخفى هنا بمعنى الغيب الذى لا يطلع عليه الغير من الناس ويعلمه الشخص نفسه فقط و يطلع عليه الله وحده سبحانه. كما استعملها بمعنى الروح ـ على الأرجح ـ كما فى قوله تعالى: ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ [الزمر: ٤٢].

كما أشار القرآن إلى العديد من الطبائع والحالات بالإنسان والمتصلة بالنفس، فنسب إليها نوازع السلوك والانفعالات الكثيرة وصحوة الضمير والطمأنينة والخوف والضيق والأسف، كما نسب إليها صفات مثل الذكر والتذكر والفكر، كما نسب إليها دوافع السلوك المرتبطة بالغريزة والعقل الخير أو الضمير الحى، ونسب إليها السكون والحركة نحو الخير أو الشر نتيجة ما وصفه بأنه وسوسة النفس، كما نسب إليها العادات والطبائع والأخلاق والأفعال فى الخير والشر، ثم نسب إليها ظاهرة الموت والحياة والوفاة. والأخيرة أى الوفاة ـ هى الحالة والبيئة التى تحيا وتنطلق فيها النفس أو الروح عند النوم وعند الموت، وهى طور من أطوار الوجود الإنسانى ولا تعنى العدم الذى هو من نصيب الجسد فقط.

وغالبا ما تكون النفس هى المسئولة عن الحياة بالنسبة للإنسان، حيث يتصل بها الموت وتتصل بها الوفاة، وهو ما يقرره القرآن فى تقريره: ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ، أى بعد فترة حياتها الدنيوية انتقالا إلى البرزخ، ومنه إلى البعث يوم القيامة وهو ما يقرره القرآن أيضا: ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [الزمر: ٤٢] . وإذا كان القرآن حسب فهمنا ـ استعمل النفس بمعنى الخلية حاملة الحياة ﴿ وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ﴾ [الأنعام: ٩٨] . فإنه غالبا ما تتصل ظاهرة الموت للنفس بتأثر يحدث لخلايا مكونات الجسم الإنسانى بما يوقف أداءها لنشاطها وخدمتها للجسم الحى أو بمعنى آخر يحصل تلف لهذه لخلايا خصوصا خلايا المخ.

فالذى يحدث عند الموت هو توقف القلب عن إيصال الدم إلى خلايا المخ بما يؤدى إلى

الموت الحقيقى . وهذا يؤدى بنا إلى القول بأن النفس فى هذا المقام هى غير الروح الذى يشير إليه القرآن فى تقريره ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩] . فهذه النفخة القدسية لا تتأثر بتوقف نشاط أو تلف خلايا الجسم لأنها نفخة من روح الله أو قبس من نوره وهى تتصل بالإنسان عن طريق المخ الذى يتصل به نشاط العقل ونشاط النفس فى الجسد الطينى المسوى الموجود فى الحياة الدنيا .

وهى - أى الروح - تمثل نوعا من الطاقة لا نعرفه ولا نعلم عن كنهه شيئا ، وكل ما نعلمه عنها هو من خلال رؤية وملاحظة آثارها على مكونات الإنسان بطريقة غير معروفة تجعلها سلطان هذا الإنسان والمسيطر على قواه وطاقاته ، ومن هنا لم يذكر القرآن فى أى من آياته أن الروح تذوق الموت أو أنها يصيبها الفناء لأنها - والله أعلم - مخلوق نورى ذو طاقة مازلنا لا نعلم طبيعتها تستمد من نور الله أو روح الله والخوض فيها حتى فى عصرنا الحالى الذى تقدمت فيه العلوم تقدما باهرا يحتاج إلى معرفة بالله وأسماء وصفات وأفعال الله على قدرها ، وهو ما يستحيل إدراكه من جانب أى مخلوق بحيث ستظل معرفتنا عن الروح ضئيلة أو قليلة لأنها كانت ولاتزال وستظل كما قرر القرآن ﴿ من أمر ربى ﴾ أى ستكون معرفتنا بآثارها وتأثيراتها مقيدة ونسبية دائما ، بينما عالم الروح الحقيقى هو الإطلاق وعدم التقيد .

والنفس كائن يشارك الإنسان فيه غيره من الكائنات ؛ فالجمادات لها نفوس والنبات له نفس ، بل ثبت أن له جهازا عصبيا حيث ينجذب إلى المصدر الممد له بالطاقة وهو الشمس كما يستجيب ويتأثر بالموسيقى ، وهو يؤدى تسبيحاته لله تبارك وتعالى كالجماد بأسلوب لا نعلمه ، كما أن الحشرات والطيور والحيوانات لها نفوس وهى المسئولة عن الحياة واستمرارها لدى هذه الكائنات المختلفة . وإذا اعتبرنا عرش الله سبحانه وتعالى هو النفس بمعناها المتمثل فى الخلية الواحدة الحية لكل المخلوقات ، لفهمنا معنى كون العرش قد كان على الماء باعتبار الماء عنصراً أساسيا لكل كائن حى وباعتبار الأشكال الأولى للحياة قد ظهرت على الماء ، ومنه انتقلت إلى الطين (الماء + التراب) لعلمنا المقصود من الآية القرآنية التى تقرر لنا : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ [هود : ٧] . والآية التى تتحدث عن استواء الرحمن على العرش والتى تقول : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] واسم الرحمن مشتق من الرحمة ، ورحمة الله فى الخلق سبقت غضبه ، ومن هذه الرحمة الإلهية وفى محيطها وعلى أساسها نشأت الحياة بكل صورها المعروفة واستمرت على هذا الكوكب إلى يوم الوقت المعلوم والله أعلم .

القرآن يحدثنا عن الوفاة وهى حالة تكون عليها نفس الإنسان عند نومه أو عند موته : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢] . والنفس

التى لم يأذن الله بموتها بعد عند النوم تكون نفسا طليقة أو مرسلة تتصل ببدن صاحبها ليحيا بعد صحوه من النوم .

أما النفس التى أذن الله بموتها فإن الله سبحانه وتعالى يمسكها بحيث لا تعود للاتصال ببدن صاحبها ليحيا بعد صحوه من النوم فى الحياة الدنيا العادية .

وغالبا ما يكون المقصود بتعبير النفس هنا هو الروح الإنسانى والله أعلم .

ويخبرنا الروحيون أن الإنسان حين ينام ـ أو يموت ـ ينفصل عن بدنه الجسم النجمى الذى يظل مربوطا بالجسم المادى بما يعرف بالحبل الفضى بالضبط كما يكون الطفل فى بطن أمه مربوطا بها بالحبل السرى لينقل الغذاء من الأم إلى جسمه هو . والوفاة هى غالبا حالة يظل العقل فيها نشطا إلا أنه عقل متصل بالروح المرسلة المستقلة فى حاله وفاتها عن الجسم ، وبالتالى لا تخضع لقوانين الجسم المادية أو الفيزيقية وحدود وضوابط العالم المادى أو الفيزيقى الذى نعيش فيه ونخضع لقوانينه ، أى أن مشاهد الناس أو الروح المرسلة حالة الوفاة يمكن أن تختلف عن مشاهد النفس حال اتصالها ببدنها فى الحياة الدنيا .

وهنا نمس ظاهرة الرؤى أو الأحلام ، هذه الظاهرة لها اتصال بالإنسان على مستويات مختلفة من الوعى أو العقل ، ولعل أرقى أنواع الرؤى فى حالة الوفاة فى النوم هى الرؤى الصادقة التى وصفها النبى ﷺ بأنها جزء من أربعين جزءا من النبوة . وتختلف الرؤية المنامية عن الأحلام المنامية ، فغالبا ما تكون الأحلام نابعة من الاتصال بمستويات باطنة أو خافية من الوعى أو العقل الإنسانى ونتيجة التجارب فى معترك الحياة الدنيا . . أى هى انعكاسات لوعى العقل للخبرة والتجارب الحياتية الدنيوية التى يسجلها المخ خلال فترة الحياة الدنيا . ومن هنا وصفها النبى أنها من الشيطان فيما روى عنه من قوله ﷺ : «الرؤية من الله والحلم من الشيطان» .

ولا شك أن خبرات النفس أو الروح حال وفاتها فى النوم تكون فى تجانس من الحياة الروحية للكائنات الروحية سواء كانت هذه الكائنات أرواح بشر ماتوا أو ملائكة أحياء أو جنا قائمين فى عالمهم المغاير الفيزيقى المادى الذى نعرفه . ويمكن للحالات النفسية أو الروحية أثناء النوم أن يكون لها تأثير مادى أو فيزيقى على جسد الإنسان يلاحظه المراقبون للنائم أثناء نومه أو يلاحظه الشخص نفسه بعد استيقاظه من النوم . وقديما حدثنا النبى ﷺ فقال فيما روته لنا كتب الأحاديث : «والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون» . أى أن النوم يعتبر موتا أصغر وأن الصحو منه يعتبر بعثا أصغر كالذى سنصادف حقيقته عند الموت الفعلى ثم البعث الفعلى فى اليوم الآخر للحساب .

وعند النوم تكون النفس أو الروح فى عالم من أمر ربها يختلف كما قلنا فى طبيعته عن

عالمنا المادى أو الفيزيقى المعروف، ومشاهد النفس فيه إذن مختلفة عما تشاهده النفس أو الروح حال ارتباطها بالبدن فى الحياة الدنيوية العادية التى نحياها، ولن يمكننا أن نعرف شيئا عن هذه البيئة الروحية التى تحياها النفس أو الروح فى نومها أو موتها إلا عند إجراء اتصال بالأرواح الميتة أو بالشخص الذى صحا لتوه من نومه عائدا من جديد إلى حياته المادية أو الفيزيقية المعروفة فيما يمكنه أن يتذكره من مشاهداته عن طريق وعى وتذكر الرؤى والأحلام.

وقد كان النبى ﷺ يتمتع بظاهرة الرؤى الصادقة، كما أن كثيرا من البشر فى الماضى والحاضر ـ وفى المستقبل أيضا ـ كانوا أو مازالوا أو سيظلون يتمتعون هم أيضا بظاهرة الرؤى الصادقة وهى الظاهرة التى سبق أن قلنا إن لها اتصالا بخصائص النبوة الأساسية من الإنباء سواء بالحاضر أو الماضى أو حتى المستقبل، وهى منة من الله يمنحها لمن يشاء من عباده. وتعتبر ظاهرة الطرح الروحى أو الإسراء إحدى ظواهر النفس أو الروح المتوفاة أو النائمة. بمعنى أنه يمكن للشخص أن يطرح نفسه أو روحه خلال النوم ـ كما فى اليقظة ـ لينتقل إلى أماكن بعيدة أو قريبة يتصل أثناءها بأشخاص عاديين مستيقظين ثم يعود الروح المطروح ليتصل بجسده النائم غير المتحرك من المكان ليقص على الناس مشاهدته وتجاربه واتصالاته خلال رحلة الطرح بعد استيقاظه من نومه.

كما تتصل بحالة الوفاة فى النوم العادى ظاهرة التنويم المغناطيسى، وإن كان فى هذه الحالة الأخيرة فإن النائم عن طريق التنويم المغناطيسى يكون أداة فى يد موجهه المنوم الذى يمكنه السيطرة على النائم تماما ويوجهه لإتيان أعمال معينة أو لتذكر أمور ماضية أو حاضرة أو مستقبلية وفقا لنوع الإشارات الموجهة إلى النائم: هل هى إشارات طولية أو عرضية حسب تعبير المشتغلين بهذا الأمر.

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى حالة النوم التى مر بها أهل الكهف حيث كان نومهم ظاهرة معجزة ـ لطولها ـ أشبه بحالة النوم المغناطيسى حيث يذكر القرآن لنا: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: ١١]. وهذا يعنى تعطل حاسة السمع لديهم تماما، وهو نفس ما يحدث للمنوم مغناطيسيا الذى يفقد هو الآخر حاسة السمع تماما كما ثبت من التجارب العلمية بحيث لا يوقظه أى صوت بجانبه مهما قوى هذا الصوت.

وهناك تماثل يمكن ملاحظته بين حالة الروح أو النفس عند النوم وبين حالة الروح أو النفس بعد الموت، إذ كلاهما يعيش فى عالم روحانى خالص سماه القرآن فى الموت بعالم البرزخ حيث ذكر: ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. حيث تنتقل النفس الإنسانية أو الروح الإنسانى إلى هذا العالم بعد موتها وتظل حياتها قائمة فى هذا العالم الروحى البرزخى الذى يوصف بالقبر أيضا إلى أن يبعث الله الأجساد والأرواح لتتصل

بعضها ببعض بصورة لا ندركها أو بشكل لا ندركه غالبا ما تكون السيطرة والغلبة والتحكم فيه للروح على البدن بما يغاير حياتنا الجسدية التى عهدناها فى الحياة الدنيا حيث كانت السيطرة والغلبة والتحكم فيه للبدن ودواعيه .

فالنوم كالموت هو حالة تعيشها النفس أو الروح الإنسانية ، وهما لا يعنيان التحول إلى العدم لأن النفس أو الروح الإنسانية باقية خالدة فى عالمها حتى بعد تحلل الجسد فى التراب وتلاشيه ، وهذا ما نفهمه من الآية : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ بما يعنى أن الموت حالة من التطور فى حياة الإنسان العقلية الواعية فى مستوى الروح العاقل أو الواعى فى البيئة الروحية الخاصة به ، وربما تلقى هذه الحقائق ضوءا على ما حدثنا به النبى صلى الله عليه وسلم من أن الله أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهى أيضا حقائق للجنات التى أعدها الله للمتقين فى الآخرة .

ويبدو أن جميع حالات نشاط النفس متصلة بالمخ فى الإنسان حتى حالات النشاط الروحى متصلة هى الأخرى بالمخ ، كما أن أى اعتلال فى وظائف المخ يعنى اضطرابا أو عدم توازن فى الحالة النفسية للإنسان . وهذه الحالات التى نسميها مرضية هى التى ارتكز عليها علماء النفس مثل فرويد ويانج وإلدر وغيرهم ، ومن هنا لا يمكن لنا أن نجزم بصحة الاستنتاجات أو النتائج المتصلة بالنفس الإنسانية فى حالاتها المرضية هذه ؛ وذلك أن المهم أو الأهم هو دراسة وتحليل حالات وأنواع النشاط النفسى ، ومن خلال النفس السليمة الموجودة لدى الإنسان العادى السوى المحتفظ بصحته النفسية الطبيعية من خلال النشاط المتزن والمعتدل للمخ .

ومن هنا فغالبا ما تتصل النشاطات الغريزية بالنفس عن طريق إشارات أو توجيهات المخ . والقرآن مثلا يقسم النفوس من حيث نشاطاتها إلى ثلاثة أقسام : النفس الأمارة بالسوء كما فى تقريره : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] . والنفس اللوامة التى تلوم صاحبها وهى فى حالتها المعتدلة السوية عندما يقترف أفعالا نعتبرها منحرفة أو خاطئة فى حكم الدين كما فى تقرير القرآن : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة : ١ ، ٢] . ثم ثالثا النفس المطمئنة وهى تمثل حالة السلام والهدوء الداخلى الناتجة عن النشاط المعتدل السوى لدى الإنسان المؤمن ، وهى الحالة التى يمكن وصفها بأنها (Peace of Mind) والتى تنبع بشكل كبير عن قوة الإيمان الدينى لدى الفرد ، كما فى تقرير القرآن ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] .

وفى هذا الإطار من مستويات ونوعيات النشاط النفسى للإنسان يقرر القران أيضا :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧ – ١٠] .وسواها هنا بمعنى ـ والله أعلم ـ جعلها سوية أى سليمة فى كامل صحتها ونشاطها المعتدل الذى لا تشوبه أى علة أو مرض يجعلها منحرفة أو غير سوية . كما أن سواها قد يكون بمعنى أكمل خلقها بحيث يمكنها أن تؤدى وظائفها سواء فى الخير أو الشر . وهنا يأتى مغزى تعبير ﴿ فألهمها ﴾ الذى ورد فى الآيات السابقة من سورة الشمس . فالإلهام ناتج غالبا من الإشارات التوجيهية الصادرة من المخ والمتأثرة بالبيئة التى يتعامل معها المخ فى الإنسان فى الحياة اليومية العادية .

ولما كان العقل يتصل فى نشاطه هو الآخر بالمخ ، فإنه يمكنه عند المؤمن المستقيم أن يتحكم فى النشاط النفسى المتصل بالبيئة المحيطة والمعبر عن الغرائز الطبيعية المختلفة لدى الإنسان ، وهنا تتضح أكثر معانى الإلهام سواء بالفجور أى الانحراف أو بالتقوى أى الاستقامة . والنفس الساكنة هى حالة من حالات النفس المطمئنة بينما النفس المتحركة ، أى التى تبدأ فى أداء نشاطها بواسطة إشارات وتوجيهات المخ عند الاحتكاك بالبيئة المحيطة ، هى التى تبرز النشاط الغرائزى الطبيعى لدى الإنسان والمتجه غالبا نحو عدم الاعتدال فى الاستقامة أى إلى الشر .

فغالبا ما توصف النفس عند تحركها بأنها تتحرك نحو الشر ، وذلك بالمفهوم العكسى لمعنى النفس الساكنة . وغالبا ما يكون نشاط النفس ، وهو المتحركة المتصل بالغرائز ناتجا عن توجيهات وإشارات المخ المرتبطة بالتكوينين الطبيعى والفسيولوجى لدى الإنسان والمتصل كما قلنا بالغرائز الطبيعية المختلفة كغريزة الجنس أو الإضرار بالغير أو غير ذلك مما يوصف بأنه شر فى مفهوم الديانات السماوية أساسا . هنا يكون النشاط فى الشر أو الفجور كما وصفه القرآن ممثلا لحالة غير سوية للنفس ممكن مع ذلك أن يعود الإنسان لحالته الطبيعية السوية بعدها ليدخل فى إطار ما وصفه القرآن بأنه النفس اللوامة وهى ـ والله أعلم ـ النفس التى تعود لحالتها المعتدلة الطبيعية فى أعقاب الانحراف المؤقت لتكتشف أن تصرفها المعين فى الشر ـ وهو تصرف غير معتدل ـ هو تصرف خاطئ فيتحرك نشاطها عند هذه الحالة نحو الندم والرجوع إلى الحق وتلوم صاحبها على ما اقترف من نشاط منحرف خارج عن دائرة الاستقامة فى إطار الدين الذى هو فى الحقيقة تعبير للسلوك أو الأفعال المعتدلة فى وسطية تتناسب مع طبيعة الإنسان المكون من جسم مادى وجسم روحى .

ثم ترتقى النفس الإنسانية فى طهارتها إلى درجة النفس المطمئنة والتى هى ذات صلة إيمانية بخالقها العظيم والتى تكون غالبا فيما نعرفه من حالة وصفها بالسكون . لقد قلنا إن نشاط المخ قد يكون فى إطار ما يسميه أو يعتبره الدين شرا أو خيرا ، فى الحالة الأولى يحرك المخ النشاطات النفسية المتصلة بالغرائز لتعبِّر هذه النفس عن طبيعتها فى حالتها هذه عن طريق

السلوك المنحرف، وفى الحالة الثانية يحرك المخ النشاطات العقلية التى تزن مختلف التصرفات والسلوكيات لتضع حدا أو تحاول إيقاف النشاطات النفسية المنحرفة بما تعنيه كلمة العقل نفسها من كونها تعقل الإنسان عن أداء أى تصرف خاطئ فى إطار ما هو شر.

وهنا نفهم معنى ألهمها تقواها بحيث يكون المقصود - والله أعلم - أداء نشاط عقلى مستقيم مع الخير الذى يدعو إليه الدين، يمكن الإنسان من كبح جماح نوازعه النفسية الشريرة والمتصلة غالبا بتكوينه الطبيعى الغريزى الذى يعبر عن نفس الضرورة فى شكل تصرفات أو سلوكيات ليست مستقيمة أو على الأقل خارج الأطر التى حددها الدين لكيفية الأداء المشروع والسليم للتعبير عن هذه الغرائز المتصلة بالجسم الطينى واحتياجاته الضرورية.

فالقرآن يخبرنا على سبيل المثال أن الشر هو وظيفة الشيطان الذى هو عدو للإنسان يجب أن يحتاط منه ومن تأثيراته. ويذكر لنا فى آية من آياته: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]. وغالبا - والله أعلم - ما يكون المقصود من الشيطان القرين أنه تعبير عن النفس المتحركة بالشر لدى الإنسان، حيث إن هذه الأعمال الموصوفة بالشر منسوبة دائما إلى الشيطان. وربما يقرب إلينا هذا المعنى الذى نقول به ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم. فالدم هو مصدر كل نشاط حيوى فى الإنسان، والنشاط الحيوى يتصل من خلال وظيفة الدم بالغرائز الطبيعية فى الإنسان. والنشاط الغريزى للإنسان غالبا ما لا يعرف الضوابط التى تضبطه وتوجهه وتجعله مفيدا، ومن هنا تأتى وظيفة العقل ويأتى الأسلوب الذى أوصانا به النبى ﷺ من الحد من قوى هذا النشاط الحيوى الغريزى فيما نصحنا به من تضييق الخناق على الشيطان عن طريق الصوم لأنه يقلل من حيوية الجسم الطينى، ويرفع من قدرات الروح والعقل. وقد وصف النبى ﷺ هذه الحالة فى قوله فى الحديث نفسه (فضيقوا عليه مجاريه)، أى قللوا من الحيوية التى يمنحها الدم لسائر أعضاء الجسم حتى تقل النشاطات الغريزية.

وقد كان للحديث عن الغريزة الجنسية بالذات موضع مركز فى قصة سيدنا آدم عليه السلام ووجوده الأول فى الجنة وعلاقته بالشيطان الذى كان سببا لهبوطه من هذه الجنة بسبب الغريزة الجنسية. والمشتغلون بالروحية الحديثة يعتبرون القرين أو الشبيه أنه هو الجسم النجمى، أحد أجسام سبعة يتكون منها الإنسان هى - كما يقولون - الجسم الفيزيقى - الجسم النجمى - الجسم الحيوى - العقل الغريزى - الإلهام - العقل الروحى - الجسم الروحى أى الروح.

وهذه الأجسام - عندهم - أغلبها غير منظور، وهى متداخلة بعضها فى بعض على هيئة طبقات متباينة فى الذبذبة. وقد يختلف البعض فى تسميتها، ولكن هذا لا يغير شيئا من النتيجة النهائية.

وقد سموا القرين بالجسم النجمى أو النفسى أو الشبيه أو الجسم العصبى أو الجسم الحيوى أو الجسم الشهوانى أو الجسم قبل المادى، كما يسمى فى روسيا بالجسم البيوبلازمى أو الطاقى.

وغالبا ما يكون القرين مشابها لقرينه، وفى هذه الحالة الإنسان العادى، وهو ما يفهم من الآية التى سبق أن أشرنا إليها حيث جعلت الآية القرين شيطانا لأن قرينه ـ الإنسان ـ لا يؤدى وظائفه الروحية أو الأخلاقية المطلوبة والمتمثلة فى ذكر الله أو ذكر الرحمن حسب نص الآية. بينما يخبر رسول الله ﷺ عن قرينه «إلا أن الله قد أعاننى عليه فأسلم». وهذا أمر طبيعى لأن النشاط العقلى فى الخير والنشاط الروحى فى الخير لدى النبى ﷺ كانا عاقلين ومسيطرين وموجهين لجميع أوجه النشاط النفسى عنده ﷺ حتى تلك المتصلة فيها بحيوية الجسم والنشاط الغريزى لديه.

ومن هنا كانت توجيهات النبى لنا بأن نحكم عقولنا المرشدة للخير لعقل أو ضبط تصرفاتنا المتصلة بالنفس الأمارة بالسوء وغرائزها، فقال على سبيل المثال: «ليست الشديد بالصُّرعة ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب». وفى هذا المعنى يقول أستاذنا أبو العزائم رضى الله عنه:

جاهد نفوسا فيك بالشرع الأمين	واحذر قوى الشيطان فى القلب كمين
غل وكيد من حسود ماكر	ظلم العباد بنية فى كل حين
هذا اللعين به الهلاك فخله	أسرع إلى القرآن فى الركن المتين

ومن هنا فالقرين غالبا ما يكون هو النفس، إما فى اتصالها بالحيوية والغرائز والشهوات بحيث يكون القرين شيطانا يقوم بالتأثير بالشر على قرينه أو صاحبه، وإما أن يكون هو النفس فى سكونها واطمئنانها فى إطار من التوجيه نحو الخير من جهة العقل والروح فى اتصال بالمخ فى كلتا الحالتين السابقتين. ولذلك سماها الروحيون مرة بأنها متصلة بالشهوة والغرائز ومرة بأنها جسم نورى أو طاقى أو قبل المادى. كما أن القرين قد يكون كائنا حقيقيا من الجن العاصى يوصف بأنه شيطان يوسوس للإنسان بالشر والمعصية.

والنفس غير الفؤاد، والفؤاد غير القلب. فالفؤاد غالبا ما يكون مستوى من الحواس الواعية للروح، وهو مستوى أرقى بكثير من مستوى الحواس الواعية للعقل المتصل بالجسد فى حياتنا المادية العادية. فالفؤاد بذلك تكون له رؤية خاصة به، وهى متصلة بالروح وقدراتها الطاقية النورية، وهذا هو المستوى الحواسى الذى تحقق به النبى فى الإسراء والمعراج فيما يذكره لنا القرآن من تقريره: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ [النجم: ١١ - ١٨]. فالرؤية هنا

للروح المحمدى الشريف بحواس الروح التى يمكنها أن ترى وتسمع وتعى وتعقل فى مستويات كما قلنا تعلو وتفوق بكثير ما هو معروف لنا من مستويات الرؤية والسمع والوعى والعقل المتصلة كلها بجسمنا المادى الطينى فى الحياة الدنيوية العادية .

وهذا الفؤاد للنبى هو الذى تلقى الوحى القرآنى من جبريل عليه السلام فيما وصفه القرآن بأنه القلب ، أى قلب الشيء ومركزه الواعى العاقل فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٥] . فالمسألة هنا روحية بحتة تتصل فيها روح جبريل بروح النبى لإبلاغ الروح القرآنى الذى هو من أمر الله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] .

وقد كان النبى ﷺ يتمتع بظاهرة الجلاء البصرى فى حياته العادية حيث كان يرى مثلا من خلفه فى الصلاة كما ظهرت منه هذه الظاهرة عندما راح يصف بيت المقدس للكفار فيما وصفه لنا النبى ﷺ من أن الله تبارك وتعالى (جلا) له البيت حتى يصفه على وجه الدقة .

هذا ولما كان الدين فى معناه الواسع إنما يستهدف تهذيب النفس الإنسانية وإنماء الثروة الأخلاقية لدى الإنسان الذى تدفعه طبائعه الطينية دفعا لارتكاب الخطأ ، فقد كانت توجيهات النبى صلى الله عليه وسلم الأساسية للمسلمين منحصرة فى موضوع حسن الخلق حتى إن الله سبحانه وتعالى تباهى بأن النبى نفسه هو على مستوى أخلاقى عالٍ فى التقرير القرآنى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

ومن هنا أيضا ومن خلال المعرفة التامة الكاملة بطبائع النفس الإنسانية اعتبر الدين محاولات الإنسان المؤمن المستمرة فى مراقبة نوازعه النفسية والاهتمام بإعلاء قدراته وسماته الأخلاقية ، اعتبر ذلك جهادا أكبر فى حين كان الجهاد بالسلاح فى القتال جهادا أصغر . فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال للمسلمين العائدين من إحدى الغزوات ما معناه : « أهلا بكم وقد عدتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . . جهاد النفس» . كما حدد النبى مهمته الأساسية من اصطفائه بالرسالة فى أنها تتمثل فى إتمام محاسن ومكارم الأخلاق حين قال ﷺ فيما روته لنا كتب الأحاديث : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاقا» . وحين قال أيضا : «قربكم إلى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاق) وحين قال أيضا (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى» . وغير ذلك من الأقوال المأثورة عن حضرته ﷺ .

كما أننا نعرف الرواية المشهورة عن النبى ، عندما ذكر للصحابة وكانوا جالسين معه أنه يدخل عليهم الآن رجل من أهل الجنة ، ولما تفقد عبد الله بن عمر حال هذا الرجل وجده لا يكثر فى العبادة أو تلاوة القرآن ليلا ، وإنما يأتى الفرائض المعروفة فقط فى أوقاتها ، إلى أن اكتشف سر استحقاقه للجنة فيما قاله له الرجل من أنه يبيت وليس فى قلبه غل لأحد من الذين آمنوا .

هكذا كان صفاء جوهر النفس وسلامتها وأمنها وسكونها أو ربما اطمئنانها سببا فى دخول الجنة بفضل ورحمة من الله تبارك وتعالى. وهو درس للمؤمنين عظيم الفائدة فى العمل على الاحتفاظ بصفاء وسلامة النفس حتى تعيش فى أمن وأمان فى إطار من نوازع الخير لكل الناس.

ولعل هذا السمو النفسى والأخلاقى الذى يدعو الدين الناس إليه هو الدعامة الأساسية فى السلام الفردى والأسرى والاجتماعى والدولى. ولعله أيضا أساس الفرد السليم الصحيح نفسيا المعتدل السلوك الذى يجعل علاقات الأفراد فى الأسرة والمجتمع على أرفع وأسلم مستوى متاح للبشر فى الدنيا.

ويقتضينا الأمر الإشارة السريعة إلى مراتب الوعى العقلى الداخلى المتصلة بالنفس الإنسانية فى عالمها الباطن داخل الإنسان، وما تحمله من آيات بأحداث يتميز بها هذا العالم الداخلى فى الإنسان، والذى إذا عرف الإنسان حقيقته ازداد قربا من خالقه تبارك وتعالى بالمعرفة بأسماء وصفات هذا الخالق. وحسب فهمى فمراتب الوعى الداخلى هى :

١ ـ السر : وهو فى دائرة الشعور أو الوعى.

٢ ـ الخفاء : وهو فى دائرة اللاشعور أو اللاوعى أو الوعى الباطن.

٣ ـ الأخفى : وهى درجات وطبقات فى مجالات الغيب تظل تتعمق داخل النفس إلى درجة العماء التام أو الجهل المطلق أو العجز عن الإدراك الواعى.

ويتصل بالنفس الإنسانية موضوع الحساب يوم القيامة وما يسبقه من وجود روحى فى حياة البرزخ التى تعقب الموت وتحلل الجسد الإنسانى. فالحساب فى الآخرة فى فهمنا لآيات القرآن هو حساب ذاتى. أى أن كل إنسان سيحاسب نفسه ويواجه شريط أعماله وسلوكياته وأفكاره مسجلا عليه من المخ الخاص به عاكسا حياة الفرد فى الدنيا، ومن هنا فإن حال الإنسان فى الدنيا هى نفسها حاله فى الآخرة وفى البرزخ الذى يسبق البعث: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٢]. والذى يحصل فى الحقيقة هو ما تشير إليه الآيات القرآنية : ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. فالكتاب الذى يلقاه الإنسان منشورا هو عبارة عما سجله المخ طوال الحياة الدنيا من أفكار وسلوكيات وأعمال ونيات صاحبه. والمخ كما نعلم هو كالكمبيوتر الذى يعتبر سجلا للحفظ، كمبيوتر كامل بآلة النسخ التابعة له وشاشة الرؤية. . وهو يسجل كما قلنا كل صغيرة وكبيرة من أعمال الإنسان الفرد طوال فترة حياته الدنيوية. ويوم القيامة يجد الإنسان ما عمل حاضرا أمامه

بواسطة هذا السجل أو الكتاب الذى يحوى كل مشاعر وأعمال الإنسان من أصغرها إلى أكبرها، وهو معنى قول الإنسان: ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، أى أنه لا ظلم لأى إنسان خلال عملية الحساب لأن الحساب من الإنسان نفسه لنفسه: ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤].

وعملية تسجيل المخ لمشاعر ونيات وأعمال الإنسان يصفها القرآن فى الآيات التالية: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٧، ١٨]. فنحن نعلم من علم التشريح أن المخ يتكون من جزأين أيمن وأيسر أى جزء عن اليمين وجزء عن الشمال، وكل جزء مسئول عن وظائف أعضاء معينة متصلة بالسر والظاهر من أفكار وأعمال الإنسان وحواسه، بحيث يسجل المخ بجزأيه أعمال الإنسان صغيرها وكبيرها، متلقيا هذه المعلومات من العقل الإنسانى أو النفس الإنسانية بحيث يكون المخ رقيبا على صاحبه، أو بتعبير آخر يكون الشخص رقيبا على نفسه من نفسه لأن الإنسان لا يستطيع أن يهرب من نفسه أو يتوارى عن نفسه، كما لا يستطيع أن يهرب من مخه أو يتوارى عن مخه ووظائفه التى يؤديها، وفى مقدمتها العقل والوعى والإدراك بكل دقائقه وجزئياته وتفاصيله التى ضرب القرآن لميزاتها مثلا بالوزن الذرى الذى توزن به الأعمال يوم القيامة كتعبير مبسط لشمول الحساب لكل دقائق وتفاصيل الأعمال الدنيوية للإنسان التى يسجلها على نفسه بنفسه من خلال نشاط المخ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] بلا أى ظلم، بمنتهى العدل والقسط: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وفى البرزخ فإن الأرواح تحس بالعذاب النفسى كما تحس بالنعيم النفسى وفق أعمال صاحبها فى الحياة الدنيا لأن القبر كما أخبرنا النبى صلى الله عليه وسلم إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

والعذاب فى البرزخ هو غالبا الذى أشار إليه القرآن فى تقريره: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١]. وحياة البرزخ ـ الذى يعنى الفاصل أو الحاجز بين شيئين ـ هى التى يشير إليها القرآن فى تقريره ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وهى البيئة الخاصة بالأرواح التى تتفاوت فى مراتبها ومقاماتها وحالاتها فى هذا الطور من الحياة الإنسانية والذى يمهد له طور حياة الإنسان فى الدنيا.

هذا ونختار ثلاثا من آيات القرآن نتحدث عنها بإيجاز كمثال فقط لأسلوب وتوجيه القرآن فى معالجة النفس الإنسانية. نختار آيات نهاية سورة الضحى: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ٩ - ١١].

(١) ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾: اليتيم فى الإسلام هو الذى فقد أباه، وهناك بعض الشعوب تعتبر اليتيم هو من فقد أمه وتنسب المولود لأمه لا لأبيه، ولكن الإسلام يأخذ بالاعتبار الأول الذى هو فقدان الأب. وتدعو الآية إلى توجيه ذى تأثير بالغ فى نفس الإنسان وهو هنا الإنسان الذى فقد أباه، خاصة وهو فى سن صغير أو فى الشباب. والشخص الذى يفقد أباه يشعر بأنه فقد القوة العصبية والحماية، والعائل للأسرة، والناصح المرشد فى أمور الحياة ومشكلاتها لدى الصغير، وبصفة خاصة فقد الرعاية والحنان والعطف والحب وسائر العواطف التى يوفرها وجود الأب، ومن هنا تكون نفسيه اليتيم فى حاجة دائمة إلى المعاملة الحسنة الرقيقة التى تعوض اليتيم ذلك الجانب النفسى المفقود بفقدان الأب.

وجاء التوجيه القرآنى بعدم قهر اليتيم حتى لا يتألم نفسيا وحتى لا تكبر فى نفسه مشاعر فقدان الأب الذى كان سيشمله بالحماية من القهر والرعاية من الاعتداء والدفاع من سوء المعاملة. وعلى الأفراد فى الأسرة وفى المجتمع أن يراعوا موقف اليتيم وحالته النفسية بمعاملته معاملة كريمة كلها رفق وحنان وحب بلا أى قهر مؤلم لنفسيته حتى يشعر بحب ورعاية الأسرة والمجتمع فينشأ عاملا إيجابيا فيه يشارك بعواطف المحبة فى بنائه ويأخذ دوره وواجبه اللذين هو مؤهل لهما تجاه أسرته وتجاه المجتمع وحتى لا يكون عنصرا حاقدا أو كارها أو معتديا فى المجتمع نتيجة فقدان صحته النفسية بسبب القهر وسوء المعاملة.

وينطبق على وضع اليتيم هنا المثل الذى ذكره النبى ﷺ فيما روى عنه: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

إن مشكلات إهمال اليتيم أو قهره وسوء معاملته كثيرة، إذ إن فساد الصحة النفسية لليتيم بما نعرفه من العقد النفسية يجعله عرضة للأفكار الهدامة ولنزعة الميل لإيذاء وقهر الغير كما يفعل به هو، والسلوك مسالك العدوانية على الآخرين فى الأسرة والمجمع، كما يجعله عرضة للانحراف الخلقى نتيجة فقدان الموجه والمربى. وحتى بالنسبة لرعاية وإدارة أموال اليتيم فقد فرض القرآن على المسئول عن ذلك اتباع سلوكيات وأخلاقيات معينة حتى إذا بلغ اليتيم سن النكاح ـ البلوغ ـ وكان ذا رشد فى المعاملات المالية فيجب أن يدفع إليه بأمواله ليتولاها بنفسه مستقلا عن مشاركة الغير فى إدارتها والتصرف فيها حتى يعوضه ذلك فى الجانب النفسى عن فقدان أبيه ويشعره فى نفسه بالاستقلال والحرية وبلوغ الرجولة المسئولة عن رعاية نفسها ورعاية أسرتها ومجتمعها.

(٢) ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ : السائل إنسان محروم من كثير من النعم التى أنعم الله بها على غيره فى المجتمع وغالبا فى الناحية المادية التى تشمل المال والممتلكات من العقارات والمنقولات وغيرها من أساسيات الحياة. والمحروم الذى يسأل الناس لديه نقص نفسى يشعر به ويؤلمه إذا قارن نفسه بسائر غير المحرومين والقادرين من أفراد المجتمع. فهو صاحب نفس حساسة وحاجته وفاقته تدفعانه إلى التخلى أو التنازل عن جزء من كرامته ليسأل الناس ليعطوه أو يمنعوه، وهى حالة لا يشجعها الإسلام، ودعا النبى ﷺ إلى تجنبها حيث روى عنه أنه قال : « لأن يأخذ أحدكم فأسه فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه» ذلك أن فى السؤال للحاجة نوعا من المذلة وإهدار عزة النفس وكرامتها والمساس بالشخصية المسئولة عن العمل والكفاح من أجل الرزق.

والذى يسأل الناس ليعينوه لديه جميع هذه الاعتبارات تعتمل فى إطار القاعدة النفسية، ومن ثم أمر القرآن الناس ألا ينهروا السائل إذا سأل سواء أعطوه صدقة أو لم يعطوه، ودعا إلى التحلى بالأخلاق والسلوكيات التعاملية الفاضلة فى معاملة السائل بمواجهته بكلمة معروف حسنة ترضيه نفسيا، وإن لم تتبعها أو تتزامن معها صدقة فعلية. أما الصدقة التى يتبعها أذى بالقول للسائل فمرفوضه ونهى عنها تماما فى الإسلام لأنها تؤذى مشاعر السائل وتؤلم نفسيته الحساسة، وتنمى لديه مشاعر الحقد والكراهية للمجتمع الذى لا يشعر بحاجته وفاقته، بل يؤذيه بالقول بعد منعه ما سأل. وفى هذا يقرر القرآن : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ [البقرة : ٢٦٣]. هذا فضلا عن أن حسن معاملة السائل تعنى توافر نوع من الشعور والتقدير بالتكافل الاجتماعى ومسئولية الإنسان تجاه الفقراء والمساكين والسائلين والمحرومين.

(٣) ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ : إدراك وفهم كاملان وشاملان لطبيعة النفس الإنسانية. فالإنسان يجب أن يتفاخر ويتباهى ويتعالى بما أوتيه من نعم وبخاصة المال والجاه. وقارون مثال لما نقول من بيان لطغيان المال وإضلاله، وإن كانت طبيعة المفاخرة والتباهى والاستعلاء هى من أخص خصائص امتلاك المال كأحد عناصر النعمة الموهوبة من الله سبحانه وتعالى. ولما كان الأمر كذلك فإن الله يدعو الإنسان فى هذه الحالات إلى تذكره سبحانه وتعالى باعتباره مصدر هذه النعم التى منها المال والجاه وغيرها كثير ثم التحدث بلا تعال حول فضل الله على المنعم عليه بالنعم الكثيرة ليخرج ما فى نفسه من مشاعر إنسانية متصلة بكثرة

النعم فى حيز العلانية المقبولة غير الضارة حتى لا يسىء إلى غيره ممن لم يؤتهم الله سبحانه وتعالى نفس القدر من النعم .

فتلبية ضرورات النفس فى حالات كثرة النعم تعتبر عملا حكيما فيما إذا كانت بالطريقة المقبولة غير الضارة التى تؤكد على قدرة الله ومشيئته الحرة فى الرزق بالنسبة للناس . فالتوجيه فى الآية يقيم الوصلة الإيمانية بين العبد وربه ويسمح بالتعبير عما فى النفس من شعور طبيعى فى صورة مقبولة وبناءة يدعمها الإيمان بقدرة الله على العطاء وقدرته على الحرمان ، ويحوطها الاعتراف بأن مصدر النعم كلها هو الله سبحانه وتعالى مما يجعل المنعم عليه تنبض نفسه بمشاعر الخير والتعاون على البر والتقوى فى العلاقة بالأفراد ، سواء فى الأسرة أو فى المجتمع . والله سبحانه وتعالى يحب أن تظهر على الناس آثار نعمته ، محققا بذلك متطلبات النفس الإنسانية من حب المال والجاه وغيرهما والظهور بمظهر يتناسب وهذه النعم الوفيرة . «هكذا الإنسان» وهكذا يستجيب القرآن لدواعى غرائزه الطبيعية بعد توجيهها وضبطها فى الإطار النافع للإنسان نفسه ولأفراد أسرته ولمجتمعة .

اتصال الجانب النفسى بالأخلاق:

الجانب النفسى فى القرآن من أهم الجوانب التى يشتمل عليها كتاب الله . بل لعل النفس الإنسانية هى أهم جانب اعتنى به الإسلام فى التربية الفردية ، ومن هنا كانت الأهمية التى أعطاها المربون المسلمون ، ومنهم أئمة الصوفية ، للصحة النفسية للفرد المسلم . والقاعدة التى ينطلق منها علم النفس فى الإسلام هى قاعدة الإيمان بالإله الواحد ، وبأنه خلق الإنسان من طين الأرض ثم سواه ونفخ فيه من روحه فصار الإنسان خلقا آخر متميزا ومنفصلا وفريدا فى قدراته العقلية والروحية وخصائص تركيبه النفسى المتصل بالمخ ووظائفه ووظائف سائر الأعضاء .

إن ثنائية التركيب الإنسانى من جسد وروح ، جسد أرضى وروح نورانى سماوى هى الأساس الذى يتناول من خلاله علم النفس الإنسان . ويتصل بهذا الجانب النفسى ، علم الأخلاق اتصالا وثيقا لأن تربية النفس وتهذيبها هما من أخص خصائص الأهداف التى دعا إليها القرآن . والرسول نفسه عليه الصلاة والسلام إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، والأقربون منه مجلسا يوم القيامة هم خيار الناس أخلاقا ، والدين فى أحد أهم أهدافه هو عبارة عن معرفة إلهية بخصائص الإنسان وترتيبات إلهية للحفاظ على الصحة النفسية

للإنسان والرقى بمستوى النفس الإنسانية إلى أعلى مستوى يتحقق معه اطمئنان هذه النفس لتدخل فى عداد عباد الله، وبالتالى جنته، بعد رجوعها إلى بارئها بالسلام معه سبحانه وتعالى ﴿ يَٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

ولقد اعتبر علماء الدين من الصوفية أن صفاء جوهر النفس فى الإنسان هو أولى خطوات السير والسلوك فى الطريق إلى الله سبحانه وتعالى عبر حياة الإنسان فى الدنيا، وكان همهم الأول هو تربية الأفراد وتهذيب أخلاقهم وتزكية نفوسهم، وهو جوهر الدين الإسلامى فى الأساس وكذا كل الأديان السماوية بلا استثناء. والإنسان الصحيح نفسيا فى أعراف علوم النفس الحالية بجميع مدارسها هو الإنسان الوسط، أما الذى ينزع إلى التطرف يمينا ويسارا فهذا إنسان ليس مكتمل الصحة النفسية. ومن هنا كانت توجيهات القرآن الكريم للإنسان المسلم، وكذا الأمة المسلمة كلها أن يكونوا وسطا فى كل شىء بحيث يقيم الفرد التوازن المطلوب لحصته النفسية بالنسبة لدواعى جسده ودواعى نفسه أو روحه، وشدد القرآن على إقامه: هذا الميزان العادل من جانب الإنسان: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٩] بعد قوله: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ [الرحمن: ٧ - ٨]. فالكون له ميزان هو عقل الإنسان يفكر وينظر ويتأمل ويبحث ويدرس ويكتشف ويستغل ما فيه من خيرات وطاقات، ولكن بشرط إخضاع هذا النشاط العقلى لتعاليم الدين وأهدافه.

وبالنسبة للإنسان ذاته، فإنه مطالب أيضا بعدالة الميزان بين كفتيه الجسدية والروحية فلا يخسر الميزان بإثقال كفة الجسد، ولا يطغى فيه بإثقال جانب الروح، وإنما يقيم الوزن بالقسط بين طبائعه وخصائص تكوينه الثنائى فى وسطية هى أساس الصحة النفسية للإنسان السوى.

إن من أهداف الأديان السماوية كلها، وبخاصة الدين الإسلامى الخاتم تهذيب النفس الإنسانية وتربيتها على أحسن الأخلاق ومعالجة نوازعها من الشر بأسلوب متدرج يجمع بين الشدة واللين وبين الترهيب والترغيب وبين الوعد والوعيد وبين بيان قيمة الدنيا والآخرة.

والدين فى حقيقة جوهره يتصل بمعاملة النفس الإنسانية من منطلق العناية بالفرد وصحته النفسية وبالأسرة وتكاملها النفسى والمجتمع ونوازعه وسلوكياته المتصلة بتوجيهات النفس ثم الأمة وتوازنها النفسى شأنها شأن الفرد بالضبط. ولا شك فى أن البناء النفسى المتوازن للفرد هو الشغل الشاغل للأديان، لأن الفرد المتوازن نفسيا هو الفرد السوى الذى يمكنه أن يحقق فى

طبيعة نفسه وأخلاقه وفى سلوكياته وفى وظائفه الاجتماعية ومهام المسئوليات المنوطة به فى الدولة أكبر قدر من الخير والنفع لنفسه ولمجتمعه فى إطار من التوازن القائم على الوسطية. والوسطية فى السلوك غالبا ما تعنى أن صاحبها يتمتع بشخصية سوية معتدلة فى مزاجها قادرة على التحلى بالأخلاق الفاضلة التى هى أساس كل دعوة دينية بما فى ذلك الدعوة القرآنية الخاتمة.

وقد حصر النبى ﷺ مهمته فى الحياة الدنيا فى إتمام مكارم الأخلاق فيما روى عنه من قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وفى قوله ﷺ: «أقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا»، وفى توصياته الكثيرة فى التحلى بمكارم الأخلاق وضرورة ضبط جماح النفس وعلاجها بالتدرج بمختلف الوسائل حتى تستقيم على المنهج الأخلاقى الذى يريد القرآن من الأفراد أن يعيشوا فى إطاره وعلى مستواه مستهدفا سعادة وخير الإنسان فى الدنيا والآخرة.

ويتصل بموضوع النفس والتربية والأخلاق الصفات التى تتحلى بها النفس، وهى إما صفات تدخل فى جانب الشر الذى يقترن بالشيطان وإما صفات تدخل فى جانب الخير وتتصل بكمال العقل.

والشر كما ذكرنا من قبل يتصل بالنفس من حيث حركتها أو تحركها، بينما الخير يتصل بالنفس من حيث سكونها أو سكينتها، وتعبير السكون أو السكينة استعمله القرآن فى الحياة الزوجية ليجعل من المرأة الزوجة نفسا من نفس الرجل الزوج ليسكن إليها ويجد الراحة والهدوء والمودة والرحمة كلما فرغ من مشاغل حياته اليومية وما فيها من كد وتعب ومتاعب وإشكالات يضطرب معها الاستقرار النفسى المطلوب لدى المؤمن فيعود إلى بيت الزوجية، إلى النفس التى هى زوجه ليجد السكينة والسكون والطمأنينة والهدوء وراحة البال ولتعويض النفس لهموم الدنيا والرزق والمعيشة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]. وهذه إشارة إلى الراحة النفسية والالتقاء النفسى والقبول النفسى الذى يجب أن يتوافر فى المرأة التى يختارها الرجل زوجة له تشاركه دينه ودنياه وربما آخرته.

والنفس التى أدبها الله سبحانه وتعالى تتحلى بالأخلاق الفاضلة من الصدق والأمانة والكرم والشجاعة والرحمة واللطف والتواضع للمؤمنين والعزة على الكافرين والرضا والصبر والحب والإخاء والصفاء والعفة والسماحة والتقوى والحياء واللين والعدل والرأفة والألفة والرفق والطمأنينة والكياسة والفطنة والإيمان والاعتدال والتأنى والبر والإحسان

واليقين والثبات والتسامح والطهارة والنضج والحلم . . . وغير ذلك من الأخلاق الفاضلة التى تتصل بالصحة النفسية للإنسان .

بينما النفس التى تفتقد إلى الأدب الربانى تتصف بالأخلاق الذميمة أو الرذيلة من الكذب والخداع والغش والغرور والغلظة والكبر والحسد والغل والبخل والجحود والبغض والغلظة والفجور والغضب والعنف والضعف والجبن والإسراف والتقتير والغدر والرياء والنفاق والبهتان وقول الزور والنميمة والغيبة والعجلة والشرك والكفر والجهل . . . إلى غير ذلك من الأخلاق الذميمة التى تتصل بالأمراض النفسية للإنسان .

والدين هدفه الأساسى كما ذكرنا من قبل هو تربية النفس الإنسانية لتتحلى بأكبر قدر من مكارم الأخلاق . ولتبتعد إلى أقصى درجة عن الأخلاق الذميمة بحيث إنه بقدر حسن الخلق بقدر القرب من مقام النبى صلى الله عليه وسلم يوم القيامة : «(أقربكم إلى يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا)» . حديث شريف .

أما الحالات النفسية فتتفاوت لدى الإنسان بين صحة ومرض وخوف ورجاء وانطواء وانفتاح وضيق وانشراح وانعزال واجتماع واختلال وتوازن وتطرف واعتدال وغضب وكظم وتحرك وسكون وميل واتزان وكره وحب وشك ويقين وانفعال وسكينة وجاهلية وسلام وهياج وهدوء وغيرة وإيثار وإيمان وكفر وتوحيد وشرك واطمئنان وريبة ويقين وشك وعز وذل وجهاد وترك ومخالفة ومطاوعة وحق وباطل واتباع وابتداع وهدى وضلال واستقامة وانحراف وفرح وحزن وضحك وبكاء وتردد وعزم وقبض وبسط وأنس ووحشة وندم وانبساط ولوم ومدح ورهبة ورغبة وسخط ورضا وفساد وصلاح وظلام ونور وموت وحياة (مجازا) ولذة وألم . . . وغير ذلك من الحالات النفسية للإنسان سواء فى الصحة النفسية أو فى المرض الذى يلم بالنفس .

وينبغى أن يكون معلوما أن معظم الحالات النفسية إن لم يكن كلها ، ذات علاقة بالمخ فى الإنسان وطريقة أدائه لوظائفه بحيث يؤدى أى نقص أو خلل أو تغير فى الأداء الوظيفى للمخ لأى سبب إلى الاعتلال النفسى والعكس صحيح . ولما كان المخ هو الجهاز الذى يؤدى من خلاله العقل نشاطه فإن التكليف الإنسانى جاء مرتبطا بالعقل وحسن أدائه لنشاطه أو بتعبير آخر باكتماله على النحو الذى يؤدى فيه نشاطه طبيعيا أيا كان مستواه من النشاط أو الذكاء ، والذى قد يختلف من إنسان إلى آخر . فالمخ هو مصدر الأفكار والأفعال وبالتالى السلوكيات والانفعالات وما يصدر منه من إشارات أو تنبيهات أو انعكاسات تحدد انفعال الإنسان ، كما أنه هو الذى يسيطر على الجسم الإنسانى ويحركه فى حياته ويتصل العقل بالمخ كما ذكرنا من

قبل، كما تتصل بالروح بالعقل وتعتبر القائد الأعلى للهيكل الإنسانى كله بينما الحياة تتصل بالنفس، والحياة العاقلة تتصل بالروح، فالنفس تحيا وتموت وتتوفى وتذوق الموت بينما الروح باقية خالدة لا تموت.

وقد تتطور الحالات النفسية لتصبح حالات عقلية فى الصحة وفى المرض. ففى الصحة ظواهر الإلهام والتنبؤ ومعرفة غيب الأحداث والذكاء والنبوغ وبعض ظواهر الإدراك الزائد على الحواس وغير ذلك. وفى المرض ظواهر الجنون والهستيريا والملاخوليا والسفه والعته والصرع والانفصام وغير ذلك.

وقد تتطور الحالات أو الظواهر العقلية لتصبح حالات أو ظواهر روحية عاقلة كالطرح أو الإسراء والوحى والجلاء البصرى والجلاء السمعى والجلاء الشمى والوساطة، وخاصة وساطة الغيبوبة وغير ذلك مما نعرف ومما لا نعرف فى البيئة التجريدية للروح وما تتمتع به فى بيئتها من قدرات وطاقات.

وغالبا ما يكون تعلق النفخة القدسية الربانية الروحية بالإنسان عند طور الرجولة الذى يمكن تحديده بسن الأربعين وهو سن التسوية للإنسان. ذلك أن القرآن يقرر ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. ﴾ [الحجر: ٢٩]. ويقرر فى آية أخرى: ﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ [الكهف: ٣٧]. بما يعنى أن التسوية هى طور الرجولة وهو الطور الذى تكتمل عنده قدرات العقل والروح ابتداء من تعلقها بالجنين وخلال مراحل تطوره فى الخلق داخل بيئة الأم ثم خارجها مرورا بالطفولة ثم الشباب ثم الرجولة وما يتبعها من أطوار.

وقد يكون اكتمال القدرات العقلية يتم عند البلوغ الطبيعى للإنسان، ولكن الرشد قد يصاحب هذا البلوغ وقد يتأخر عنه إلى فترة بعد ذلك، ولذلك يقرر القرآن فى اليتامى. ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء: ٦]. وغالبا ما يكون التكليف والمسئولية مقترنين بسن البلوغ، وهو سن مبكر جدا عن الأربعين، غير أن الرجولة الكاملة لا تتحقق إلا عند سن الأربعين.

ويتصل الجانب الأخلاقى بموضوع الاستقامة بالنسبة للمؤمن. فالاستقامة تعنى الالتزام بتطبيق أوامر الله وبتجنب نواهيه. وهى - أى الاستقامة - تقتضى عناصر ثلاثة:

الأول: وجود الله وجودا واجبا بذاته متسميا بأسمائه وصفاته الحسنى.

الثانى: الإنسان المؤمن.

الثالث: الالتزام بأوامر ونواهى الدين، أى القرآن والسنة الصحيحة.

ومما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى يعتبر الأساس فى الصحة النفسية للإنسان؛ لأن مجرد استشعار الإنسان لوجود الله يعتبر ركيزة من الركائز التى يحاول الإنسان الاتصال بها باللجوء إليها عند الحاجة وبالحياة فى ظل الأسماء الحسنى الجمالية التى تكمل النقص الموجود لدى الإنسان باعتباره كائنا ضعيفا يحتاج دائما إلى الوجود الإلهى وأسمائه وصفاته ليسعد بالأمن والأمان والراحة والطمأنينة فى حياته النفسية .

والإنسان المؤمن شرط من شروط هذا العيش المطمئن فى رحاب وصفات الجمال لله سبحانه وتعالى. كما أن أسماء وصفات الجلال لها أيضا تأثيرها الإيجابى على البناء النفسى للإنسان المؤمن وسلوكياته فى المجتمع ومنفردا. وأسماء وصفات الجمال والجلال تستهدف إقامة التوازن النفسى لدى الإنسان بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد بحيث يحيا الإنسان المؤمن فى وسطية بين خوف ورجاء ولا يطغى أحدهما على الآخر؛ فهما كجناحى الطائر يقيمان التوازن فى الحركة والسلوك .

وعلى سبيل المثال، فإن الإنسان المؤمن حين يخرج عن الاستقامة ويقترف ذنبا من الذنوب فإن توازنه النفسى يختل لأنه مرتبط بالله ويؤمن بثوابه وعقابه، ولكن الله تواب رحيم يقبل التوبة عن عباده ويفتح لهم أبواب رحمته ليجد فيها الإنسان المؤمن ملجأه وملاذه يستشعربالتوبة الصادقة النصوح رضا الله ومغفرته ورحمته فتعود إليه راحته النفسية وطمأنينته النفسية ليحيا من جديد فى جنة الاستقامة ذات الطمأنينة النفسية والراحة النفسية .

فعملية التوبة عملية نفسية بحتة بها يعيد الله سبحانه وتعالى إلى الإنسان المؤمن راحته وطمأنينته فى نفسه من باب الأمل فى رحمه الله وكونه توابا أو عفوا، ومتى استعاد الإنسان المؤمن راحته وطمأنينته وأمنه وأمانه النفسى استعاد سلوكه المستقيم فى رحاب الدين، فالوجود الإلهى المتصف بأسماء الجمال يتيح للإنسان اللجوء إلى الله ذاته بما يستعيد به هذا الإنسان المؤمن توازنه النفسى فى إطار سعة رحمة الله لكل شيء .

ونظرا لأن الله سبحانه وتعالى يعلم ضعف الإنسان وقد خلق من طبائع تحتم ارتكاب الخطإ فى فترة الحياة المسئولة، فقد فتح الله باب اللجوء إليه بالاستغفار والتوبة ليزيد الإنسان التائب فى حسناته أو يبدل سيئاته حسنات لتشقل فى ميزان الحساب يوم القيامة بما يسعد ويريح المؤمن فى حياته الدنيا وينعكس عليه بالخير فى الحياة الآخرة وفى البرزخ الذى يسبقها .

ومن هنا يقرر القرآن فى كثير جدا من آياته هذه الحقائق التى أشرنا إليها والتى تجمع بين ضعف الإنسان وحتمية خطئه وإلى فتح باب اللجوء إلى الله بالتوبة وإلى الترغيب فى ذلك ببيان قدر الثواب المرتبط بالتوبة. وتقريراً أو إدراكًا من الله سبحانه وتعالى لطبيعة النفس الإنسانية فإنه قد تحدث عن التوبة النصوح وليس مجرد التوبة الخالية من الندم أو العزم على

عدم تكرار الخطإ فإن التوبة حتى تقبل من الله لتحدث بذلك آثارها النفسية المطلوبة ينبغى أن يصاحبها ندم وحسرة وعزم على عدم تكرار الفعل الخطأ . . عندئذ تكون النفس المؤمنة قد استعادت جادة سلوكها المستقيم فيهب الله سبحانه وتعالى لها الراحة والطمأنينة والأمن والأمان عن طريق مغفرته ورحمته : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٧، ١٨] .

وفى التحقيق ينبغى أن يكون معلوما أن التواب هو الله . بمعنى أن التوبة تبدأ أولا من الله إلى الإنسان المؤمن ثم من الإنسان المؤمن إلى الله . فعندما يتوب الله على المؤمن فإنه ييسر له أن يلجأ إلى الله ذاته ليتوب إليه متابا وهو ما تشير إليه الآية الكريمة ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ [التوبة : ١١٨]

الأسماء التى تعلمها آدم:

آدم هو أول مخلوق تميز بالمخ الكبير ، سواء بالنسبة للزيادة فى الحجم المطلق للمخ أو فى حجمه بالنسبة للجسم . وسلوك الإنسان يرجع إلى الثقافة إلى حد كبير حيث يكتسب الإنسان الخبرة والمعرفة بالتعليم والتعلم . ولابد أن ندرس المخ بالتفصيل العميق حتى ندرك سر إشارة القرآن إلى الميزة أو الخاصية الفريدة فى الإنسان العاقل ، آدم ، وهى ميزة العقل أو الروح وخصائصهما .

والروح تعتبر خاصية من خصائص الإنسان العاقل ينفرد بها دون سواه من سائر الكائنات ، وهى الروح المنفوخ فى الإنسان من الله بعد التسوية ، ونحن نعلم من علماء الأحياء أن المخ القادر على التفكير التصويرى لا يمكن أن يكون إلا فى جسم الإنسان . وقد صور جوليان هكسلى هذه الحقيقة تصويرا جيدا ـ رغم إلحاده ـ حين قال : « إن خاصية الإنسان الجوهرية ككائن حى هى التفكير المعنوى ، وليس من الممكن أن ينشأ التفكير المعنوى إلا فى حيوان متعدد الخلايا ، حيوان ثنائى التماثل له رأس وجهاز دموى ـ حيوان فقارى أرضى بين الفقاريات ، وثديى بين الثدييات الأرضية . وأخيرا ما كان يمكن أن ينشأ إلا فى نوع من الثدييات يعيش فى جماعات وينجب فردا واحدًا فى الولادة الواحدة بدلا من عدة أفراد ، وقد أصبح منذ عهد قريب أرضيا ولذلك فالتفكير لم يتطور إلا فى الإنسان فقط ، وما كان أن يتطور إلا فى الإنسان» . انتهى .

إنه نتيجة لنشاط المخ واستقباله للعقل من مصدره الربانى ، بالوسائط الطاقية الكونية فى

العلاقة بالحواس، وبغير هذه الوسائط فى استقلاله عن الحواس، كانت إمكانات استعمال الرمز واللغة، وهما قدرتان من أخص ميزات البشر. كذلك يتميز الإنسان بالقدرة على الإدراك أى فهم العلاقات، وهى قدرة إنسانية تنمو بالتدريج مع القدرة على الكلام. والفعل الإرادى الحر والمميز بين الخير والشر هو خاصية أخرى من خصائص الإنسان العاقل.

والنصوص القرآنية صريحة وواضحة فى بيانها لهذه الخصائص لآدم، وإنه بسبب هذا التميز فى الخلق خص آدم بالذكر الكثير فى القرآن. ويروى لنا المفسرون أقوالا غير مقنعة فيما يتعلق بمسألة الأسماء التى تعلمها آدم، وقد ساق ابن كثير - فى تفسيره - نماذج من هذه الأقوال على النحو التالى:

(١) ما رواه السدى عمن حدثه عن ابن عباس[١] : «علمه أسماء أولاده إنسانا إنسانا، والدواب، الحمار والجمل والفرس.. إلخ».

(٢) ما رواه الضحاك عن ابن عباس من أنها هى الأسماء التى يتعارف بها الناس، إنسان ودواب وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار وأشباه ذلك.

(٣) ما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم أنه علمه اسم كل شىء حتى الفسوة والفسية.

(٤) ما ذكره مجاهد من أنه علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شىء.

(٥) ما قيل من أنها أسماء الملائكة أو أسماء ذريته جميعا.

(٦) ما يقوله ابن كثير نفسه من أنه علمه أسماء الأشياء كلها، ذواتها وصفاتها وأفعالها، كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفسية.

هذا والتفسير التقليدى للنص القرآنى ﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ [البقرة: ٣٣]، غير مقنع بنفس الدرجة. وأمثلة هذه التفاسير ما رواه زيد بن مسلم من أنه قال أنت جبريل وأنت ميكائيل وأنت إسرافيل حتى عدد الأسماء كلها حتى الغراب، وما رواه مجاهد من أنها اسم الحمامة والغراب واسم كل شىء. ونقل الإمام الطبرى فى تفسيره، مرويات شتى فى معانى الأسماء، فمن المفسرين من قال إنها أسماء الملائكة، ومنهم من قال إنها اسم كل شىء كالبعير والبقرة والشاة والقصعة، وأضاف بعضهم الجن والوحش، وذهب البعض إلى أنها أسماء ذرية آدم.. ثم قال الطبرى:

« وأولى هذه الأقوال بالصواب وأشبهها بما دل على صحته ظاهر التلاوة، قول من قال إنها أسماء ذريته وأسماء الملائكة، دون أسماء سائر أجناس الخلق، وذلك أن الله

---

(١) مع ملاحظة أن روايات السدى عن ابن عباس غير صحيحة ومتهمة من الكثيرين فى صدقها.

قال: ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ [البقرة: ٣١] . يعنى أسماء أعيان المسمين بالأسماء، ولا تكاد العرب تكنى بالهاء والميم ـ هم ـ إلا عن أسماء بنى آدم والملائكة، وأما أسماء البهائم وسائر الخلق سوى من وصفنا، فإنها تكنى بالهاء والألف أو بالهاء والنون». ولكن الحقيقة أن القرآن استعمل الضمير عن غير العاقل بضمير العاقل أحيانا ـ وهو ما أقره الإمام الطبرى نفسه ـ كما في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾ [النور: ٤٥] . وكما فى قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

أما الإمام محمد عبده ـ عليه رحمة الله ـ فقد نهج نهجا جديدا فى تأويل «الأسماء» فاعتبرها: « ما تهيأ فى فطرة هذا الخليفة الإنسانى واستعداده، من علم ما لم يعلموا ـ أى الملائكة ـ فتبين لهم وجه استحقاقه لمقام الخلافة فى الأرض، وإن كل ما يتوقع من سفك الدماء والفساد لا يذهب بحكمة الاستخلاف وفائدته ومقامه وناهيك بمقام العلم وفائدته وسر العالم وحكمته. . ثم إن هذه القوة العلمية عامة فى النوع الآدمى كله، ولا يلزم من ذلك أن يعلم أبناؤه الأسماء من أول يوم، فيكفى ثبوت هذه القوة لهم، معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال. . . ومن ذلك عرفنا بهذه القصة قيمة أنفسنا بالعلوم التى خلقنا مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق، لتظهر حكمة الله فينا، ولعلنا نشرف على معنى إعلام الله الملائكة بفضلنا ومعنى سجودهم لأصلنا، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون». انتهى.

ونحن نميل إلى المعنى الذى ذهب إليه الأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ بل إلى نهجه العام فى التفسير، ولذلك فالآيات الخاصة بالأسماء إنما تشير ـ فى فهمى ـ إلى الميزة الفريدة لدى آدم ـ الإنسان العاقل ـ والتى تفتقر إليها الملائكة، وهى الميزة المتصلة والنابعة أساسا من العقل المكتمل والمتصل ببقية أعضاء التركيب العضوى وما اختص به من القدرة على الكلام وعلى الإشارة الرمزية للأشياء وعلى القدرة على تسمية الأشياء بمسمياتها، أو بعبارة أخرى القدرة على إتيان النشاط اللغوى فى تفاعل مع البيئة المحيطة ومحاولة استغلالها والسيطرة عليها، وهى الميزة التى بدا معها الإنسان، لأول مرة فى تاريخ الأحياء، قادرا على التفكير العلمى باعتباره نمط التفكير الذى كان سيصل إليه مع تطور حياته فى الأرض والذى بدأ بالخرافة ومر بالتخيل والتصور وانتهى إلى العلمية كما نعرفها.

إننى لا أعتقد أن آدم تعلم أسماء كل شىء فى الأرض فى البيئة التى سكنها، من أنواع النباتا والحيوانات والجماد وغيرها، سواء بصورة كلية أو جزئية، إذ إن ذلك يقتضى كما نعلم، تجارب طويلة وخبرات واحتكاكات تحتاج بدورها إلى زمان طويل بالقدر الذى يتيحه أسلوب الإنسان فى التعلم؛ فنحن نعلم اليوم أن هناك ما يزيد على المائتى ألف نوع من أنواع

النباتات فى الأرض، وما يزيد على ثمانمائة ألف نوع من أنواع الحيوانات، وكل نوع من هذه الأنواع يضم أشكالا فردية مختلفة، ولا يمكن أن نتصور أن آدم قد تعلم أسماء كل تلك الأنواع وفروعها العديدة المنتشرة فى الأرض فى كل أرجائها، وفى أعماق المياه والمحيطات، فإن ذلك يستحيل تماما أن يدركه إنسان واحد كان ما زال يعيش عيشة بدائية فى الأرض، فضلا عن عدم وجود أى حكمة واضحة فى ذلك. ومن هنا، فإننا نعتقد أن دلالة النصوص القرآنية بالنسبة لتعلم آدم الأسماء دلالة أخرى غير التى ذهب إليها المفسرون التقليديون. وتكون هذه الأسماء التى تعلمها آدم وتعلمتها الملائكة منه، هى أسماء يمكن لآدم أن يحيط بها دون حاجة للمجهود العقلى المستمر والمترقى فى التعلم والذى ما زال آدم اليوم يخوض أحد أدواره فى سلسلة العمل العقلى الدائب والمجهود البدنى المستمر. ولا نتصور ذلك إلا أن تكون هذه الأسماء وثيقة الصلة بآدم ذاته وبالبيئة القريبة منه.

إن النصوص القرآنية الخاصة بتعلم آدم الأسماء وتعليمه إياها للملائكة - إلى جانب نصوص أخرى فى القصة الآدمية - تشير كلها إلى الخصائص المعجزة فى الإنسان العاقل على النحو التالى:

(١) ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]. فلا بد أن يكون هناك عقل مكتمل يشير إليه اكتمال الأسماء وتكون لديه القدرة على تسمية الأشياء بمسمياتها الدالة عليها.

(٢) ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١]. إشارة إلى التصرف الإرادى الحر والتكليف المتصل به.

(٣) ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]. إشارة إلى إبراز الحاجات الأساسية للإنسان الحى فى بيئته الأولى المحدودة وهى الجنة.

(٤) ﴿ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ تبيين لعلاقة الشجرة بالسوءة أى غريزة الجنس لدى الإنسان.

(٥) ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴾ إشارة إلى الغريزة والتعلم فيما يتعلق بالسلوك الإنسانى، وبخاصة السلوك الجنسى.

(٦) ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة: ٣٧]. إشارة إلى الفهم، بمعنى إدراك العلاقات لأن فهم ظاهرة العداوة هو فى العلاقة التى تربط بينها وبين الظواهر السابقة المؤدية إليها والمتمثلة فى وقائع ما سماه القرآن بالمعصية والدافع إلى ارتكابها.

(٧) ﴿ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ [البقرة: ٣٣]. إشارة إلى المقدرة على الرمز البيانى، أو الكلام الواضح النابع من القدرة على التفكير التصويرى الذى يتطلب استعمال اللسان والفم لإخراج الأسماء الدالة على المسميات.

وقد ذهب البعض إلى اعتبار الأسماء التى تعلمها آدم هى الأسماء الحسنى الإلهية، بمعنى أن الأسماء كلها ظهرت من خلال الحقيقة الآدمية العاقلة، سواء فى آدم نفسه أو فى البيئة الخارجية باعتبارها حيطة الوجود كله، وقد عدّد القرآن منها تسعة وتسعين اسما؛ فيكون آدم هو مقتضى ظهور الأسماء كلها، فالمادة وحدها لا تمثل هذا المقتضى، كما لا تمثله الكائنات الحية الأخرى، ولا يمثله إلا الإنسان فقط، حتى الملائكة لا تمثله.

ويبدو أن طبيعة الخلقة الملائكية لا تسمح بالعلم الذى تدخل فيه الموضوعات المتصلة بالعنصر الطينى الأرضى الذى هو قوام الغرائز فى الإنسان. ولذلك كانت طبيعة الخلقة الآدمية الجامعة بين عناصر الطين وبين طاقة الروح، فيها زيادة على طبيعة الخلقة الملائكية التى هى ذات طبيعة روحية صرفة. وتكون الملائكة بذلك، قد تعلمت من طبيعة آدم الخلقية ذاتها، الأسماء الحسنى الإلهية كلها، أى شاهدت فى آدم المخلوق الذى ظهرت به الأسماء التى كانت لا تعلمها لاتصالها بالجانب المادى البحت.

لقد فرق القرآن بين الحالة البدائية للإنسان فى البداية - حيث لم تكن هناك علوم وثقافات ومفاهيم دينية متبلورة كما يليق بعظمة الذات الإلهية - وبين الحالات التى تلت هذه الحالة البدائية والتى كانت ستكون محلا للمخاطبة من جانب الله بواسطة الرسل المصطفين من النوع الإنسانى ذاته. وفرق الحالتين أساسا هو فى درجة نمو القدرات العقلية للإنسان ونمو مداركه نتيجة النشاط العقلى المستمر والمترقى فى العلاقة بالبيئة. إن صور الهدى الموحاة إلى المصطفين من الناس لمجتمعاتهم المعاصرة - باستثناء الصورة الخاتمة الشاملة للمجتمعات كافة - لم تبدأ فى الظهور إلا بعد فترة الوجود الآدمى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨ - ٣٩].

أما قول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ فإنها فى فهمنا تدل على أن الله ألهم آدم عليه السلام أن يلجأ إلى ربه تائبا نادما على ارتكابه للمعصية سواء بالشعور النفسى المعبر عن الندم وإرادة التوبة أو بالدعاء بالوسيلة التى علمه ربه إياها أن يلتجىء إليه بها باعتباره - كما تقول الآية - ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧]. وماروى من حديث عن كونها آيات من سورة الأعراف فهو حديث ضعيف كما يقول الإمام ابن كثير فى تفسيره، والقرآن العربى لم ينزل إلا بعد آدم بكثير على النبى العربى صلى الله عليه وسلم بلسان عربى مبين.

والقرآن لا يخبرنا بالتحديد بالوقت أو الزمان الذى تنزل فيه أول هدى على أول نبى، بل إن هناك من الرسل من لم يقصص القرآن قصصهم أصلا، ولا مجال لأن نقرن بين هذه الصور من الهدى، والمعروفة لنا، وبين الفترة التى عاشها الإنسان الأول فى الصورة التى

صورتها لنا الكتب المقدسة وآخرها القرآن. ومن ثم لا نميل إلى اعتبار أنه كانت هناك علاقة كلامية بين الله وبين آدم، إنما الأمر هو أمر تقرير وصفى للحقائق كما وجدت عليه فى هذه الفترة من الزمان سواء بالنسبة لآدم وزوجه، أو صورة حياتهما البدائية فى الجنة ثم خارجها، أو علاقاتهما ببعض أو علاقة إبليس بهما، أو ما جاء عن المعصية والوسوسه والغواية والهبوط والكلمات والتوبة وأخيرا بالنسبة للأمر والنهى لآدم وزوجه.

إن آدم كان يمثل حقيقة النوع الجديد والفريد المعتبر أرقى الكائنات الحية على الأرض. والنصوص القرآنية فى آدم تعبر عن الحقائق الفريدة والمتميزة لهذا الإنسان العاقل، تلك الحقائق التى تميز بها النوع بأكمله واستعلى بها عن سائر الكائنات الحية وهى الحقائق المتمثلة فى العقل وقدراته والروح وقدراتها والقدرة على الكلام والرمز للأشياء بالمسميات والتعلم وإدراك العلاقات والتمييز بين المتناقضات ـ كالخير والشر ـ وإتيان الأفعال الإرادية الحرة بوعى وإدراك يمكن أن يتخذا صورة شاملة كونية. . إلى آخر الصفات المميزة للإنسان العاقل.

ويؤيد هذا الذى نقول به أن النصوص القرآنية لم تنسب فى أى مرة من المرات، أى تعبير لفظى أو منطوق كلامى لغوى بين آدم وزوجه، ابتداء من سكنى الجنة حتى آخر حلقات القصة. ويمكننا أن نستنتج من ذلك بدائية وسيلة التفاهم التى كان آدم يستعملها وتستعملها زوجه، وهى بطبيعة الحال بعيدة كل البعد عن المستوى الحالى الذى نعرفه لوسائل التفاهم اللغوية فى المجتمعات المتقدمة، فاللغات لم تنشأ فى ذلك الزمان الأول للوجود البشرى فى الأرض، ولم تنقل لنا الآثار والحفريات إلا وسائل بدائية للتعبير، ابتدأت منذ زمن بعيد وأخذت تتطور بالتدرج مع التطور الثقافى للإنسان. ولم ينسب القرآن التعبير أو المنطوق اللفظى إلا وهو يتكلم عن ولدى آدم، وفى ذلك أيضا كانت واضحة بدائية الوسائل المستعملة والمتصلة بالقرابين والتهديد بالقتل والنفس الطيبة الكارهة للشر، ثم التعلم من الطير كيفية مواراة جثة المقتول من بنى آدم ثم الحالة النفسية للقاتل، وهى الندم.

وواقعة تعلم الأسماء وإنباء آدم للملائكة بها، ليس فيها ما يدل قطعيا على أن آدم كلم الملائكة كلاما معينا باللفظ المحدد، ونحن نميل إلى اعتبار هذه الواقعة تقريرا للفارق الأساسى بين الملائكة وبين البشر فيما يتعلق بمعرفة الأسماء كلها أى القدرة على التمييز بين الأشياء بالمسميات الرمزية ـ والتى تطورت فيما بعد إلى اللغات ـ أو القدرة على تحديد الأشياء بمسميات معينة لها، وهى مقدرة تتصل بكل شىء فى الوجود كلها، وهو المقصود بالأسماء كلها، كل تلك الملكات تتصل بالعقل والقدرة على التفكير المجرد والاحتكاك المفيد بالبيئة واستخدامها فى صالح الإنسان.

وقد أوتى الإنسان الأول ـ آدم ـ هذه القدرات المتصلة أساسا بالعقل النابع من النفخة

الروحية الربانية بصورة لم تؤتها الملائكة ذات الطبيعة الروحية الصرفة ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة: ٣٢]. أما الإنسان فيتعلم من البيئة المادية والطاقية الخارجية بالتجربة واكتساب الخبرات.. إلخ. ولما شاهدت الملائكة تصرف الكائن البشرى على غير ما كانوا يتوقعون، نتيجة الميزة العقلية الجديدة، أدركوا حقيقة التميز العقلى ذاته وسر السجود التكريمى أو الطاعى.

إن هذه الصورة كلها تقرير وصفى لطبائع المخلوقات التى جبلت عليها والظاهرة فى طبيعة تركيبها الخلقى وما يحويه من إمكانات وقدرات تتفاوت من مخلوق إلى مخلوق آخر من نوع آخر، وليس المقصود هو العلاقة الكلامية المباشرة أو غير المباشرة التى قد يوحى بها النص أو النصوص فى ظاهرها وهى من قبيل ما أشار إليه النص القرآنى من علاقة كلامية بين الله وبين السموات والأرض فى: ﴿ ... فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١]

لقد تعلم آدم كيف يرمز إلى الأشياء أو المخلوقات فى الكون كله (الأسماء كله) بمسميات لها.. تعلم كيف يكون فكرة متكاملة عن العلاقات والأسباب للكائنات فى البيئة الأرضية والبيئة الكونية عن طريق إدراكه.. تعلم كيف يتصور هذه العلاقات ـ مجردة وللاستفادة منها ـ ويفهم وظائفها وقوانينها وسلوكياتها، وكيف يستغلها لصالحه (وهو معنى التسخير)... تعلم ذلك كله بمعنى أن الله سبحانه وتعالى منحه القدرة العقلية على إدراك ذلك كله من خلال تميزه بالنفخة الروحية الربانية التى من أهم خصائصها القدرة على البيان: ﴿ خلق الإنسان * علمه البيان ﴾ [الرحمن: ٣ـ٤].

وبذلك أيضا نفهم قول الله تعالى: ﴿ الرحمن * علم القرآن ﴾ [الرحمن: ١ـ٢] فالمقصود ـ والله أعلم ـ أن الرحمن قد علم الإنسان مبدأ القراءة ـ على اعتبار القرآن مصدرا لقراءة[1] آيات الله فى الكون كله الذى يدخل فى إطار وسعة الاسم الرحمن. وأن الله سبحانه وتعالى آتى الإنسان البيان أو علمه البيان بعد أن خلقه ليكتشف ويعلم ويدرك ويفهم الحقائق المخلوقة فى الأرض وفى الكون عن طريق القرآن أى القراءة للآيات المكتوبة سواء فى مادة الكون وطاقاته أو فى الكلمات العديدة الموحى بها إلى النبى الخاتم؛ وكلاهما آيات فى كتاب، وتكون المحصلة النهائية هى أن الله سبحانه وتعالى علم الإنسان البيان بأسلوب القراءة والكتاب وهما وسيلتا المعرفة: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ – ٥]

ولما كان آدم عليه السلام هو المخلوق الذى خلقه الله باليدين، يد الملك أو المادة، ويد

---

(١) يقال قرأ قراءة أو قرأ قرآنا.

الملكوت أو الطاقة(الروح) : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ فى إطار قوله تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ و﴿ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [1] فإنه ـ أى آدم ـ بذلك يكون قد أوتى تميزا لم تؤته الملائكة التى لا تدرك الحقائق فى البيئة الأرضية والبيئة الكونية إلا من خلال عنصر الملكوت أى الطاقة (النورية الرحية) فقط دون عنصر الملك المادى (الطينى الأرضى) .
ومن ثم فإن رؤيتها أكثر محدودية من رؤية آدم، كما أن قدراتها على إدراك العلاقات فى البيئتين الأرضية والكونية لا ترقى إلى قدرات آدم، ولذلك فلما عرض الله سبحانه وتعالى الأسماء كلها على الملائكة لم تستطع أن تدركها لأن طبيعتها الخلقية تحول دون ذلك . ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢] .

وربما كانت الملائكة لا يمكنها أن تتصور أو تدرك الحكمة من وجود الإنسان واستخلافه فى الأرض، وربما كان ذلك راجعا إلى رؤيتها للأحداث الدموية فى الأرض التى سكنها الجن قبل الإنسان .

ولذلك قالت الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠] . ولكن الله سبحانه وتعالى كان يعلم ما لا تعلمه الملائكة عن هذا الإنسان المستخلف فى الأرض، وعن ذريته التى كان سيوجد منها الأنبياء والرسل وورثتهم من العلماء، وبالذات النبى الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم . وربما كان الملائكة فى حديثها النفسى لا تتصور كيف يمكن أن يخلق الله سبحانه وتعالى كائنا يمكنه أن يعصى الله، بينما هى مجبورة على طاعة الله طاعة مطلقة ودائمة : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٣] .

وظهر فى الوجود لأول مرة فى تاريخ الكون، هذا الكائن الإنسانى الفريد المتميز بخصائص وقدرات العقل ووظائفه البيانية النابعة من سر النفخة الروحية الربانية، وشهدت فيه الملائكة الأسماء كلها التى كانت هى تعلمت بعضا منها فقط، أى أنها تعلمت من آدم الأسماء كلها وهو المقصود ـ والله أعلم ـ من إنباء آدم للملائكة بالأسماء . ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ [البقرة: ٣٣] .

وربما كان ظهور الإنسان الكامل محمد صلى الله عليه وسلم من ذرية آدم عليه السلام هو الغيب الذى علمه الله فى أحداث الأرض والسموات ولم تعلمه الملائكة : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى غيب الأحداث الكائنة والتى ستكون فى السموات والأرض أى فى الكون، فمحمد صلى الله عليه وسلم هو أول مراد لله منذ غيب البداية للسموات، وهو آخر الأنبياء قبل غيب النهاية للأرض.

---

(١) مع العلم بأن قول الله تعالى ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ يعنى بقوة من آد يئيد أيدا .

الفصل السادس

الإنســـان والقـــرآن

القرآن العظيم :

ليس القرآن كتابا للنظريات العلمية المفصلة، فهو كتاب هداية وبيان وتوجيه، وهو دعوة وحجة يحتوى على حقائق كاملة شاملة، تحكم علاقة الإنسان بالإله تبارك وتعالى، وعلاقته بالكون أو الطبيعة، وعلاقته بأخيه الإنسان (الفرد، الأسرة، الدولة، الأمة، التجمعات الدولية للشعوب والأمم . . إلخ). إنه منهاج يقيم حياة الإنسان فى الأرض وفق أسسه فى العقيدة وفى العبادة وفى الأخلاق وفى المعاملات الفردية والاجتماعية والدولية. إنه اعتقاد عن علم، وشريعة للعمل. وهو يدعو الإنسان ـ الخليفة فى الأرض ـ ليبنى صرحا من المعرفة دائم الترقى يستند على العقل، المرتبط بالحس أو الزائد على الحس، والإيمان، ولذلك فهو حجة ودعوة، ترتبط به وفيه الدنيا بالآخرة. . . الدنيا عنده هى دار العمل والكد والابتلاء، والآخرة عنده هى دار الجزاء والثواب أو العقاب . . . والحياة فى الدنيا إلى فناء، والحياة فى الآخرة إلى خلود وبقاء. والإنسان الذى يبحث دائما عن الحق سيجده كاملا متكاملا فى القرآن، وهو كتاب، كما أنه سيفسر حقائق القرآن من خلال الكون أو الطبيعة وظواهرهما حتى يدرك تطابق الحقائق فى الكتابين القرآنى والكونى فليؤمن بمصدرهما الواحد وهو الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا يكون النتاج الفكرى للإنسان، تابعا بالضرورة للحق الكامل المكتمل فى القرآن العظيم، وهو جامع للكلمات التامات بحيث يكون هذا النتاج الفكرى بكل مناحيه، عاملا مفسرا للحقائق القرآنية وليس حاكما عليها، لأن النتاج الفكرى دائم التغيير، حتى ولو كان فى زيادة وترق، والمجهول يبدو أكثر اتساعا كلما ازداد الفكر الإنسانى فى علومه. ولعل هذا

هو المعنى الذى قصد إليه القرآن فى تقريره: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]، لأن اتساع مناحى العلم تجلب معها اتساعا أيضا فى المجال غير المعلوم الذى يدخل فى دائرة ما يسميه القرآن «الغيب».

ولهذا السبب سيظل الذكر المنزل محفوظا من أن تشوبه شائبة قصور أو اختلاف، لأن الحق واحد فى الكلمة الصادرة عنه، المخلوقة والمكتوبة على السواء، والقرآن بالحق ومن الحق نزل، وبذلك تزداد عظمته بالنسبة للرؤية الإنسانية بازدياد النتاج الفكرى للإنسان فى مجالاته المختلفة التى يلجها لأنها تلقى أضواءً على تطابق الحق فى مظهريه الخلقى والقرآنى ـ وكلاهما كما قلنا كتاب ـ كما يلقى القرآن ذاته أضواءً على هذا التطابق فى مظهريه، وهذا سر عظمته، لأنه الكلمة الأخيرة، بينما النتاج الفكرى الإنسانى لا يعرف الكلمة الأخيرة.

والمعرفة الإنسانية فى مستواها الحالى، ليست وليدة لحظتها وإنما هى نتاج حلقات متصلة من التطور المستمر تكون كلها، بوصل أجزائها، سلسلة كاملة من المعرفة حدودها الأخيرة، وليست الآخرة، هى حلقة الجيل الذى نعاصره. فالحركة قانون من القوانين التى تحكم الطبيعة وتحكم الإنسان فى فكره وسلوكه. ولما كان التغيير المستمر هو من سمات الإنسان الأساسية فإنه ينتج عن ذلك بالضرورة تعدد واختلاف وتغير فى النظريات العملية التى يضعها الإنسان والتى يمكن أن تختلف مع ما قرره القرآن من حقائق.

ومن هنا ندرك كيف يتحقق الأمن والأمان والسلام، عندما يسلك الإنسان سبيل المعرفة العقلية وتطبيقاتها التكنولوجية فى إطار أخلاقيات الدين وقيمه وتوجيهاته. فإن هذا السلوك يحقق ميزتين:

الأولى: ضمان ارتباط الإنسان بالقيم الأخلاقية عند تطبيقه للقوانين التشريعية المحددة وللأفكار والمبادئ والقواعد العامة التى توجه الإنسان فى حياتيه الفردية والاجتماعية.

الثانية: ضمان أمن وسلام الإنسان فى مستقبله فى حياته الفردية وصلاته الاجتماعية فى الأرض لأن أسس هذه الحياة والصلات ستكون انعكاسا للأصول النظرية العامة لتوجيهات القرآن فى ظل إيمان وتدين تتصل بهما مثل وقيم وأخلاقيات، بعيدا عن تأثيرات الأهواء والنظريات الجامدة والمصالح الضيقة الضارة.

إن القرآن يقيم ويوجه حضارة الإنسان على أساس الربط بين الابتكار والتقدم وترقى ونمو واتساع الفكر الإنسانى، وبين توجهات المثل والقيم والأخلاقيات النابعة من الدين والإيمان بما يمكن من قيام مجتمع هو خير المجتمعات فى الأرض تعيش فيه أمة هى خير أمة أخرجت للناس. ولذلك كان من الضرورى أن يوجه الدين للإنسان فى الأرض فى وجوده الاجتماعى والمتخذ شكل علاقات بسائر مجتمعات البشر فضلا عن البيئة المحيطة. فذلك وحده هو الذى

يحقق سلامة المسيرة المعرفية والعلمية وسلامة البناء الاجتماعى العاكس لهذه المسيرة ومستواها فى الجيل المعين، ويخطو بالفكر الإنسانى خطوات كبيرة نحو اكتشاف حقائق الطبيعة واستغلالها الاستغلال الأمثل لصالح الإنسانية جمعاء. وبغير هذا فإن السلوك الإنسانى فى الأرض نتيجة تقدمه العلمى سوف لا يخضع لأسس الدين والإيمان ومثلهما وقيمهما وأخلاقياتهما وإنما سيخضع لما يضعه البشر للبشر من قيم مادية نتيجة عوامل مادية بحتة.

لقد اعتبرنا القرآن العربى ـ النظم والمعنى ـ الذى أوحى به إلى الفرد المصطفى من النوع الإنسانى، هو صورة الحقيقة المطلقة، المنزلة إلى الإنسان ليدركها فى صورة نسبية من خلال هذا الشكل للكتاب، أو الشكل الكونى المخلوق (مادة ـ طاقة) باعتباره أيضا كتابا، وقلنا إن الآيات فى الكون وفى القرآن متطابقة بالضرورة لأن مصدرهما واحد. وسنضرب مثالا واحدا فقط ـ كرمز ـ لهذا التطابق الذى يدل على «وحدة الحقيقة» ونختار له «الذرة».

من المعروف أن كل مادة على سطح الأرض تتكون من عنصر أو أكثر من العناصر متحدة بعضها مع بعض، وتعتبر الذرة أصغر جزء يمكن أن يوجد لعنصر مادة. ويعتبر الإغريق أول من اهتدوا إلى التركيب الذرى للمادة الكونية (حوالى ٤٥٠ قبل الميلاد) ولكنهم اعتبروا الذرة جسيمات لا تتجزأ، وظلت الذرة وحدة لا تتجزأ حتى أواخر القرن التاسع عشر عندما بدئ باستكشاف مكوناتها حتى عام ١٩٣٢ مؤذنا باستكشاف صورتها المعروفة لنا الآن، ومنذ ذلك الوقت فقط، تقررت الحقيقة المخالفة للرأى الذى ذهب إليه مفكرو الإغريق فيما يتعلق بالذرة وهى حقيقة انقسام أو تجزئة أو انشطار الذرة (البروتون والنيوترون مكونات النواة، والإلكترون).

ماذا يخبرنا القرآن؟ إنه يستعمل «الذرة» كوحدة قياس فى الصغر ووحدة قياس فى الوزن مقررا:

١ ـ رمز الصغر المطلق فى الكون هو الذرة، [1] والتقرير هنا يتحدث عن الوزن الذرى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [يونس: ٦١].

٢ ـ هذا الرمز، عام أو شامل أو مشترك أو مطلق فى القياس فى الكون كله ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٢٢].

٣ ـ الوزن الذرى هو المقياس الرمزى للإحاطة بسلوك الإنسان كله والإحاطة بهذا السلوك: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

---

(١) استعملنا لفظ الذرة هنا بمفهوم العصر الحالى.

٤ ـ الذرة وإن كانت رمزا للصغر بالنسبة للكون إلا أن الحقيقة في شأنها أنها تتجزأ إلى جزئيات أصغر من وحدتها الكلية، كما أنها تتكتل أو تلتحم إلى أجزاء أكبر من وحدتها الكلية الأصلية. وهنا الحديث عن الحجم الذرى: ﴿ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ ﴾ [يونس: ٦١].

والقرآن قرر هذه الحقائق عن الذرة منذ أوحى به إلى الإنسان المصطفى حوالى عام ٦١٠ من ميلاد السيد المسيح، وهو يسبق قليلا التاريخ الذى اكتشف فيه العقل هذه الحقيقة فى مادة الكون فى عام ١٨٩٥ من الميلاد.

إن العقل الإنسانى يمكنه أن يصل إلى مجموعات من الحقائق النسبية من خلال الأسلوب الكتابى الكونى بالقدر نفسه الذى يمكنه أن يصل معه إلى مجموعات من الحقائق النسبية من خلال الأسلوب الكتابى العربى القرآنى، وعندما يصل العقل إلى حقيقة يتطابق فيها التقرير الكتابى مع التقرير الكونى فإنه سيكون قد تقدم خطوة فى طريق الإيمان بالقرآن، ويبقى عليه أن يرتقى فى معارفه ليرى بصورة أكبر، تطابق الحقائق فى الكتاب والكون حتى يصل إلى درجة إدراك التطابق الكلى بينهما، وهنا يكون الإيمان قد بلغ الذروة وسيظل الإنسان يسعى لبلوغ هذا المستوى، ما دام حيا، لأنه تواق دائما إلى المعرفة، والاستزادة من المعرفة، ويقدر اتساع المعرفة الإنسانية يزداد الإيمان ويزداد العلم بصفات الإله المعبود فى الأديان.

والرأى عندى أن تطور المعارف وترقيها واتساعها فى الطبيعيات بالذات سوف يؤدى إلى وصول الإنسان إلى إدراك «الوحدة» الباطنة فى الكون كله، وحدة للطاقات الأساسية التى توجد فى الكون والتى تدل على وحدة الإله ذاته باعتبار أنه ﴿ نور السموات والأرض ﴾ ﴿ الأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ ونحن نعلم، مثلا أن ألبرت أينشتاين بنظريته فى المجال الموحد جعل الذرة وقوانينها. والكون ونظامه يتبعان قوانين طبيعية واحدة هى التى تتحكم فى الاثنين وتظهر فكرة «التوحيد» فى الكون.

وينبغى ـ فى هذا المجال ـ أن نلقى ضوءا على ماهية القرآن أو الكتاب، حتى لا يلتبس المفهوم القرآنى فى الحقيقة بالمفهوم التقليدى الدارج[١].

الكتاب فى اللغة مصدر من مصادر كتب بالقلم وهو أيضا يطلق على اسم المكتوب، وقد غلب استعماله فى عرف أهل الشرع على كتاب الله تعالى الموجود فى المصاحف.

والقرآن مصدر لقرأ كالقراءة وسمى به المقروء وهو كتاب الله تعالى. وهناك قول آخر بأنه مصدر لقرأ بمعنى جمع ويسمى به القرآن لأنه جمع السور كلها أو لأنه جمع ثمرات الكتب

---

(١) محاضرات الأستاذ الشيخ محمد فرج السنهورى لقسم الشريعة الإسلامية بالدراسات العليا بحقوق القاهرة.

السماوية السابقة أو لأنه جمع القصص والأوامر والنواهى والوعد والوعيد والآيات والسور. وهناك أقوال أخرى فى القرآن.

والقرآن، فى المفهوم الدارج يطلق على المجموع المعين من كلام الله تعالى المتلو من عباده. أما فى مفهوم رجال أصول الفقه الإسلامى فهو «كلام الله تعالى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المتعبد بتلاوته والمنقول إلينا فى المصاحف نقلا متواترا».

وكلام الله تعالى صفة قديمة من صفاته التى ليست من جنس الأصوات والحروف، ولها تعلق قديم أزلى هو الكلام النفسى الغيبى وتعلق تنجيزى كونى هو إظهار الكلام الغيبى فى سور لفظية منزلة إلى الكون وعالم المادة. وهذا النظم والمعنى هما اللذان يريدهما الأصوليون. يقول الأستاذ الشيخ فرج السنهورى [1]:

«أجمع المسلمون على أن لله كلاما ثم اختلفوا فى معناه:

١ ـ الأشعرية قالت إن الكلام صفة لذات الله تعالى وهى قديمة وزائدة على ذاته، ولها تعلق أزلى هو الكلام النفسى، وتعلق تنجيزى هو ما أنزل على الرسل ومنه القرآن، والكلام بالمعانى الثلاثة قديم.

٢ ـ المعتزلة قالت إن كلام الله صفة لفعل خلقه الله، فكلامه سبحانه لموسى عليه السلام هو ما خلقه وأحدثه فى الشجرة من الكلمات والأصوات.

٣ ـ طائفة من أهل السنة من بينهم الإمام أحمد بن حنبل قالت إن كلام الله هو علمه القديم لاغيره.

٤ ـ ابن حزم ذهب إلى الرأى السابق نفسه، وقال إن القرآن وكلام الله لفظان مختلفان معناهما واحد، والقرآن كلام الله نزل به الروح الأمين على قلبه، والقرآن وكلام الله يعبر بهما حقيقة لا مجازا عن الصوت الملفوظ المسموع ـ فالله تعالى يقول: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦]. ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ [البقرة: ٧٥]. ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ [المزمل: ٢٠] ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ [الجن: ١، ٢]. فصح أن الصوت الملفوظ به المسموع هو القرآن حقيقة وهو كلام الله، ويعبر بهما حقيقة على ما يفهم من هذه الأحداث فإذا بينا معنى الزكاة والصلاة والصوم والحج قلنا فى كل هذا كلام الله وهو القرآن، ويعبر بهما عما هو مكتوب فى المصحف قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨] ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة: ٢، ٣] ﴿ بَلْ هُوَ

---

(١) المصدر السابق.

آيات بَيّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩] ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ [يونس: ١٩] ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الأنعام: ١١٥] ولا يفهم من هذا إلا أنه إنما عنى به سابق علمه بما ينفذه. والقرآن وكلام الله غير مخلوقين، والمخلوق هو ما نلفظ به وما نسمعه. انتهى.

وعامة العلماء وجمهورهم يقولون بأن القرآن العظيم هو المعنى والنظم العربى الذى لا يصح فيه تبديل ولا تغيير ولا تأخير. فأى معنى من معانى القرآن يؤدى بغير أسلوبه ونظمه أو بلغة أخرى غير عربية لا يسمى قرآنا ولا يثبت له شىء من أحكام القرآن». انتهى.

العلم وتجديد المفاهيم الدينية:

لقد ذكرنا فيما سبق من فصول هذا الكتاب أن المعرفة تعتبر سلسلة متصلة الحلقات. فكل عصر يستفيد من علوم العصر الذى سبقه، حتى ولو أدت الاكتشافات العلمية إلى تغيير فى أسس المعارف السابقة. ونحن ـ مثلا ـ فى عصرنا هذا لسنا فى نهاية حلقات سلسلة المعرفة الإنسانية، بل ستظل العلوم ترتقى وتتسع حتى إنى أتصور مجتمع القرن الواحد والعشرين وهو يرتفع بمستوى العلوم، وخاصة تطبيقاتها التكنولوجية إلى درجات تفوق بكثير تلك التى نفخر بها الآن.

كما ذكرنا فيما سبق من فصول هذا الكتاب أن التفسير الدينى لآيات القرآن فى الكونيات والإنسانيات وكل ما يتصل بهما أو ينبنى عليهما يحتاج إلى معرفة المفسرين بأحدث النتاج العلمى فى المجالات المماثلة، وبذلك يمكن إثراء البحوث والدراسات القرآنية العلمية من أجل الاستفادة من العلوم النظرية ـ وتوسعها وتشعبها المستمرين ـ فى تطبيقاتها الواقعية فى المجتمع. وهذه كانت سمة البحوث والدراسات القرآنية العلمية فى الماضى، سواء فى الشريعة (الفقه بأصوله وفروعه ومدارسه) أو فى سائر مجالات العلوم.

والإسلام لا يعرف، بل لا يتصور، وجود تعارض بين الدين والعلم على غرار ما عرفته الكنيسة، وخاصة فى العصور الوسطى. لقد مرت الكتب المقدسة السابقة على الكتاب القرآنى بمواقف شاهد فيها معاصرو هذه الكتب، احتدام الصراع بين محتكرى التفسير المقدس للكتب المنزلة، وبالذات التوراة والإنجيل، وبين العلماء الذين طلعوا على عالم الفكر باكتشافات جديدة وآراء كانت أيضا جديدة كل الجدة على المفاهيم التقليدية التى وضعها رجال الكنيسة فيما يتعلق بالإنسان ومصيره وبالتصورات الكونية والقوانين الطبيعية ودور الإنسان فى الأرض وما يتصل بذلك من مسائل العقيدة والموقف من الكهنوت الكنسى.. إلخ. وانتهى الأمر ـ كما هو معروف ـ بأن تداعى صرح المفاهيم القديمة التى أقامها رجال

الدين المسيحى، عن الإنسان ودوره فى الأرض ومركزه فى الكون وعن حرية نشاطه الفكرى فى إطار التقدم العلمى المستمر . . إلخ، تداعى هذا الصرح أمام ضغوط الاكتشافات العلمية المتطورة والمتلاحقة، مما اضطر رجال الكنيسة إلى إعادة النظر فى كثير من مفاهيم الكتب المقدسة على ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة، بحيث يقوم الآن الصرح التفسيرى على أساس الاكتشافات الصحيحة للعلماء المتخصصين ووفق تطور واتساع الاحتياجات الإنسانية فى واقع حياة الناس بما فى ذلك نظمهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

لقد أدت ظروف السيطرة الكنسية الجامدة على مقررات الدين إلى هذه المأساة التى تعارض فيها الدين مع العلم. أما الإسلام فإن المشكلة غير قائمة أصلا، حيث لا تعارض بين الدين وبين العلم بل على العكس، حيث الدين يقوم على العلم المقترن بالإيمان فى ظل توجهات القرآن الجامع للحق والحقيقة، كما قلنا والذى أشاد بدور العلماء فى المجتمع الإنسانى ككل، والمجتمع الإسلامى بالذات، وجاء العديد من نصوصه يوضح تميز العلماء عن سائر الناس بما يعرفون عن الحقائق التى تؤدى فى النهاية إلى الإيمان القوى بالإله سبحانه وتعالى وتوحيده وتقديره حق قدره.

والقرآن يقرر أن المجهود الإنسانى لابد أن يستمر بغير ملل من أجل الاستزادة من المعرفة لأن العلم الإنسانى لا يعرف مرحلة «النهاية»، وهذه بدهية يوضحها القرآن فى تقريره: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦] والعلماء أنفسهم يعترفون بهذه الحقيقة، وقد أوضحها ـ على سبيل المثال ـ جيمس كونانت عندما اعتبر العلم متحركا لا ساكنا، ديناميكيا لا إستاتيكيا، وأن الحقيقة التى تخرج من التجربة العلمية، إن لم تؤد إلى تجربة أخرى، فهى حقيقة ميتة.

كما أوضحها المرحوم الأستاذ/ عبد الرازق نوفل عندما اعتبر أن بعض الناس:

« يعتقد أن الإنسان قد وصل بعلمه إلى درجة النهاية أو إلى درجة تكاد تكون قريبة من النهاية لا سيما وأنه لم يقهر الفضاء فحسب، بل تمكن من الوقوف على كل ما كان يعد أمرا مجهولا . . أسرار معظم الأمراض وعلاجها . . وأمكن له أيضا أن يتابع تطورات خلق الجنين فى الرحم . . وأدخل العلم فى حياته بحيث توافرت له كل أسباب السعادة . . والحقيقة أن العلماء يعترفون أنهم ما زالوا فى بداية الطريق العلمى وأنهم كلما توغلوا فيه تيقنوا أنهم يبتعدون عن النهاية، إذ يتضح لهم من الأسرار والمعميات ما يجعلهم يتأكدون من أنه لا سبيل إلى بلوغ نهاية المعرفة[1].

---

(١) هكذا أقوالهم منذ الاكتشافات الأولى فى الفلك والطبيعة حتى آخر هذه الاكتشافات فى العصر الحديث.

وقد صل العلماء إلى حقيقة فى البحث العلمى، وهى أن العلم هو تقدم مطرد ومستمر، بل إن وسائل العلم كذلك دائما تتغير بحيث لا تقف عند صورة واحدة. وبذلك فلن تبلغ نهاية تقف عندها، وإلا لم يصبح علما.

وقد تأسست هيئات وأقيمت مؤسسات للبحث فى ماهية العلم وأسبابه ووصلت إلى هذه الحقائق التى كلها تلتقى حول حقيقة واحدة وهى أنه أبدا لا ينتهى العلم. وكل علم إنما يوصل الإنسان إلى علم أكبر، وكل عالم لابد أن يخلفه عالم أكثر علما.. ولقد أوردت هذه الجهات العلمية الأمثال لمشكلات لن يصل إلى حلها الإنسان مهما أوتى من العلم وضربت لذلك مثلا بمشكلة المرض، إذ بالرغم من النجاح الكبير الذى حققه الإنسان فى ميدانى الطب والعلاج، فما زالت هناك الأمراض الكثيرة التى لم يصل إلى علاجها بعد، وليست هذه الأمراض مقصورة على الأمراض الخطيرة بل إن منها الأمراض البسيطة كالبرد مثلا والتى لم يعرف بعد علاجها. وتقرر هذه الجهات أنه لو توصل الإنسان إلى علاج ما لم يصل بعد إلى علاجه من أمراض، فإن خريطة المرض لابد أن تتسع لتشمل أمراضا أكثر، يستعصى على الإنسان علاجها وذلك حتى تستمر مشكلة المرض قائمة بعيدا عن تغلب الإنسان عليها بعلمه.

كما أوردت مثلا طبيعة الحياة ذاتها، فالخلية الحية وهى أساس الحياة، أمكن للإنسان أن يعرف الكثير عنها، ولكن هل عرف الإنسان سر الحياة الكامن فى هذه الخلية؟ وكيف تنقسم إلى أجزاء متساوية؟ وكيف أن كل جزء من هذه الأجزاء يعمل عملا يخالف الجزء الآخر ويغايره بالرغم من وحدة التركيب والشكل ووحدة الأساس فى الخلق؟

لقد وصل العلماء إلى معرفة تركيب البروتوبلازم الحى، ونظريا يمكن عن طريق تجميع العناصر المكونة للبروتوبلازم تكوينه عمليا، وحاول العلماء مرة ومرات بل ملايين المرات، وبمختلف الوسائل، وتحت عديد من الظروف الطبيعية والكيمياوية والحيوية والكهربية، فكانت النيجة أن قال أحدهم: لو أعطيتنى حجم الكرة الأرضية من المواد الأولية للبروتوبلازم وقوى تعادل القوة الطبيعية الموجودة فى الأرض لأمكننى تكوين البروتوبلازم الحى بعد مليون سنة.. وبديهى أن هذا اعتراف بالعجز المطلق.. وستبقى أسرار الحياة كما هى.. بل إنها لفى تزايد مستمر. فقد أعلنت الجهات العلمية أخيرا أنها وجدت أجساما مجهولة فى الخلية لم تعرف ماهيتها.. إلا أن العلماء قد أعلنوا فى بيانهم أن هذه المواد تعتبر مواد حافظة للحياة فى الخلية.. ولا يعرف كيف وجدت ولا كيف تكونت ولا كيف تعمل.

وتحمل إلينا مشكلة طبيعة الحياة والبحث فيها وما وجد فى الخلية من مواد جديدة، مشكلة أخرى هى مشكلة العناصر، إذ ما زالت هناك عناصر جديدة لم تكتشف بعد.. وبعد اكتشاف هذه العناصر سيعاد ترتيب العناصر المكونة لظروف الحياة من حولنا ترتيبا جديدا وينهار الأساس الذى قامت عليه علوم الكيمياء والطبيعة وغيرها.

ومن أهم المشكلات التى تعترض علم الإنسان، مشكلة طبيعة العالم والكون الذى نعيش فيه. . فلن يعرف الإنسان مثلا عمر الأرض التى يعيش عليها. وبالرغم من الاكتشافات العلمية الحديثة واستخدام الآلات والأجهزة فى نواحى القياس كافة، وإمكان تحديد أعمار الصخور والأشجار، فإن الاختلاف بين آراء العلماء فى عمر الأرض يبلغ ملايين السنين. . الأمر الذى يشير إلى بعد كل هذه التكهنات عن الحقيقة.

ولا يقتصر جهل الإنسان فى مشكلة العالم والكون على عمر الأرض، بل إن جهله ليشمل كافة ميادين الكون كافة، فعدد النجوم وأعمارها، وقدر هذا الكون وما فيه، كل هذه مشكلات لن يصل العلم إلى الحقيقة فيها؛ إذ كلما تقدم فى ميادين أبحاثها، تأكد أنه إنما يبتعد عن الحقيقة لأسباب كثيرة وعوامل شتى، وأهمها وأولها أن الكون بما فيه يفوق قدرة الإنسان على التفكير، ومن ثم على علمه وعلى إدراكه، وكل ما يصل إليه الإنسان فيه إنما هو على وجه التقريب، وهو بذلك يعتبر قد نجح، إذ لا يمكن أن يصل إلى التحديد.

وتقرر هذه الجهات العلمية أن مشكلة العقل والانفعالات من أهم مشكلات الإنسان، ولو أنه لم يعرف بعد حقيقتها، وكل ما وصل إليه إنما هو مجرد افتراضات يرجو أن يكون فيها بداية الطريق لحلها. إلا أن تزايد أعباء الحياة وتقدم الزمن يزيدان من تشابك علاقاتها، وهذه المشكلة من ألصق المشكلات بعالمنا الذى نعيش فيه لأنها ترتبط بالفرد وبعائلته ومجتمعه وعالمه. فالإصابات بالأمراض العقلية والانفعالات النفسية تؤدى إلى ارتكاب الكثير من الجرائم، بل إن العقل والانفعالات هى الأساس فى تصرفات الإنسان ولها أهميتها القصوى فى إدارة وتشغيل وتوجيه كل ما يقوم به من أعمال وأفعال.

ومن المشكلات التى حيرت العلماء هجرة الطيور. . تلك الهجرة التى تقطع فيها الطيور الرقيقة الضعيفة آلاف الأميال عبر البحار والمحيطات دون توقف أو راحة. وبعد أن تقضى موسما كاملا فى الأماكن التى هاجرت إليها، تعود مهاجرة مرة أخرى إلى حيث كانت . . بلا دليل أو هداية إلا بسر لم يعرفه الإنسان بعد. . ومن عجيب أن هذه الطيور عندما تعود إلى بيئتها تبنى عشها فى نفس المكان الذى كانت فيه أولا بل وفى نفس الشجرة بالرغم من المسافات الشاسعة التى قطعتها، والمدة الطويلة التى تغيبتها.

وكذلك من المشكلات التى مازال العلم يجد فى البحث عنها وقد لا يصل إلى الحقيقة بشأنها، ما أمكن معرفته من وجود إحساس للنبات على الرغم من عدم وجود أى أجهزة يمكن أن تكون بديلة عن الجهاز العصبى عند الكائن الحى الذى يتميز بالإحساس. فقد تأكد العلماء أن النبات يستمع للموسيقى ويطرب لها وينمو ويزدهر بتوالى الاستماع إليها، وأنه يضطرب ويقلق ويحزن إذا ما أصابته ظروف مؤلمة وسيئة يعود بعد زوالها إلى حالته الطبيعية، وأمكن قياس هذا التغير الذى يعتبر تغيرا عصبيا بالرغم من عدم وجود أعصاب للنبات.

ومشكلات كثيرة وعديدة كلها تؤكد الحقيقة القاطعة الصريحة الواضحة التى يعترف بها العلم والعلماء، وهى أن علم الإنسان يقصر كثيرا عن غاية العلم ويقل كثيرا عما يلوح من علم موجود، وأن كل ما يصل إليه الإنسان من علم كأنما هو دفعات محددة وكميات معينة لا تظهر إلا بميعاد وقدر. والقرآن الكريم قد قرر هذه الحقيقة عندما تقول الملائكة إنها لا تعلم إلا ما أرادها الله أن تعلمه، فعلمها منه، وإنه سبحانه وتعالى وحده هو العليم الحكيم وذلك بالنص الشريف: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] وإن الإنسان لا يمكنه أن يحيط بشيء من العلم إلا بما شاء الله وبالقدر الذى أراده، بالنص الشريف: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وإنه دائما وأبدا هناك الكثير من العلم الذى لا يمكن أن يصل إليه الإنسان.. وكلما تقدم الإنسان بمكتشفاته وأجهزته وجد أنه مازال بعيدا وبعيدا جدا عن حقائق العلم.. بل وكأنه مازال فى البداية وفى الوقت الذى يعتقد أى إنسان أنه قد وصل إلى نهاية العلم يكون قد ضل الطريق فابتعد عن طريق العلم.. وصدق الله العظيم الذى يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥] »[(١)] انتهى.

* * *

لقد بدأ العلم منذ آدم العاقل، وظل يتطور ويرتقى فى مستواه إلى المستوى المعاصر. وتدل الآثار والحفريات، أن الرسوم فى كهوف ما قبل التاريخ لا تصور النباتات والحيوانات وأعمال الإنسان بصدق وأمانة فحسب، بل تصور كذلك الظواهر الطبيعية مثل النجوم التى راقبها الإنسان البدائى. وهذه الآثار التى ترجع إلى قرون عديدة بعد ظهور الإنسان على الأرض، تدل على أن الإنسان بدأ فى مراقبة وتسجيل بعض الظواهر الطبيعية فى تاريخ مبكر جدا. ويرى (سارتون) أن العلم: « بدأ حينما عمد الناس إلى حل العديد من معضلات الحياة. صحيح أن هذه المحاولات الأولى لم تكن إلا وسائل لتحقيق أغراض وقتية، ولكنها كانت كافية لبدء العلم، وعلى توالى الأيام خضعت هذه الوسائل لعمليات الموازنة والتعميم والتبرير والتبسيط والترابط والتكامل، وهكذا أخذت مادة العلم تنشأ فى بطء».

أما معضلات الحياة الأساسية، فهى تتمثل فى اتقاء الجو وتقلباته من برودة وحرارة وأمطار.. واتقاء الجوع واتقاء العطش واتقاء العرى، وهى - إلى جانب احتياجات غريزة الجنس - الحاجات الأساسية للإنسان البدائى الأول آدم، كما نعرف من الجنة التى سكنها وأوصافها. ولذا نقول إن آدم العاقل كان الحلقة الأولى فى سلسلة العلم الممتدة الحلقات والتى يمثل آدم القرن العشرين حلقتها الأخيرة وليست الآخرة.

---

(١) عبد الرازق نوفل فى كتابه: (من الآيات العلمية فى القرآن).

وقد كانت الحاجات الأساسية لآدم ـ الإنسان العاقل الأول ـ وهو فى جنته فى الأرض، هى المأكل والملبس والمسكن والمشرب إلى جانب ضرورات الجنس، وقد عبر القرآن عن هذه الحاجات فى تقريره : ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾ أما احتياجات الجنس المتأصلة فى الإنسان الطبيعى والتى يحتاج إلى إشباعها، فترويها لنا قصة الأكل من الشجرة والتى تعبر بالأسلوب المنزه الربانى عن الاتصال الجنسى الأول بين الإنسان الذكر والإنسان الأنثى الأولين.

وبديهى أن عملية المأكل والملبس فى ذلك الوقت كانت محفوفة بالمخاطر، كما نعرف من التاريخ وحديثه عن طبيعة الحيوانات فى تلك العصور القديمة، ومن هنا كانت معضلات الحياة بالنسبة للإنسان وإشباع حاجاته الضرورية، وقد كان لا يزال فى صورة حياة بدائية مثل لها القرآن بحادثة قابيل وهابيل، ولدى آدم، اللذين اقتتلا ـ على الأرجح ـ من أجل الإناث.

ويحدثنا التاريخ ـ كما يبين المرحوم الأستاذ عبد الرازق نوفل ـ عن طريق الحفريات وما يكتشف من آثار وبقايا :

« أن العصور الأولى التى عاش فيها الإنسان الأول كانت فيها الأرض تعج بالحيوانات تزحم البر والبحر، ولم تكن تلك الحيوانات تشبه التى نراها الآن، بل هى أضخم مما قد يتخيله الإنسان، فما يروى فى الأساطير عن أصناف من الحيوانات تبلغ أطوالها حوالى المائة قدم، وترتفع إلى عشرات الأقدام، وتدب على الأرض، إذ تمشى بقوة تثير الخوف فى الكائنات، وقد أطلق العلماء على بعضها أسماء علمية وضمنوها أوصافا نتيجة لمشاهداتهم لبقاياها وآثارها. فمما جاء فى كتاب (العالم الذى نعيش فيه) لجرترود هارثمان : (أطلق العلماء على أحد هذه الحيوانات اسم المثلث المقرون أو الترايسرابتوس وكان حيوانا سمجا غبيا ضخما هائل الجثة شبيها بعض الشبه بفرس البحر، يزن فمه أقل من رطل ويزن باقى جسمه أربعين طنا، وكان فكاه ينتهيان بمنقار قرنى عظيم الحجم، وعلى وجهه ثلاثة قرون ضخمة، قرن فوق كل عين من عينيه وقرن فوق أنفه، وكان له فى مؤخرة رأسه لوحة عظيمة ضخمة كأنهاخوذة رجل المطافئ، ولذلك كان أبعد ما يكون عن أن يمسه غيره بأذى. وحيوان البرنستورس الذى تكاد الأرض تميد تحت أقدامه، وكان طوله يتراوح بين أربعين قدما وستين ويتراوح ارتفاعه بين عشرة أقدام وأربعة عشر قدما، ويبلغ حجمه عشرة أمثال الفيل العادى، وتبلغ زنته خمسة وعشرين طنا، وكان حيوانا غبيا بطىء الحركة وله عنق وذيل طويلان).
وغير ذلك من الحيوانات التى تسمى بالمدرعة إذ إنها ذات دروع وقشور قرنية، لبعضها قرون فى الجبهة ولبعضها صف طويل من القشور القرنية المثبتة فوق الظهر، ولها على ذيلها الطويل زوجان أو أكثر من الأشواك الطويلة تستخدمها فى قتال أعدائها. أما الطيور فإنها تختلف عما نعرفه حاليا، فقد كانت ذات أحجام خيالية ولأجنحتها أظافر طويلة ولأجسامها قشور صلبة، ولقد كانت أعدادها بكثرة هائلة.

ولقد عاش الإنسان الأول برغم وجود هذه الحيوانات الكاسرة وقد ملأت الأرض. . . وهذه الطيور الجارحة وقد سيطرت على الجو. . فلابد أنه احتمى منها منذ أول ساعات وجوده على الأرض. . بأن لجأ إلى الكهوف والمغارات. . وبديهى أن الإنسان الأول قد وجد حوله كل أصناف الغذاء التى يحتاج إليها جسمه، من خضر وحبوب وبقول إلى فاكهة ولأنه عاش ونما فقد أكل منها، أكل ما يفيده وترك ما قد يصيبه، فإن الدورة الزراعية والحلقة النباتية تضمان بينهما بعض النباتات الضارة بالإنسان، ويقينا تم ذلك أول مرة بطريقة ما، ثم تعلم الإنسان بعد ذلك كيف يأكل وماذا يأكل. وكان ذلك أيضا فى الساعات الأولى إن لم يكن فى اللحظات الأولى للإنسان. .

وحرص الإنسان على أن يطمئن بوجود ما يكفيه من هذه النباتات التى وجد أنها ذات طعم سائغ ومذاق جميل. فراقب أصنافها مراقبة دقيقة وتعلم عن طريق ذلك الزراعة إذ شاهد أن ما بقى من حبوب فى أعوادها عندما تساقط على الأرض نبت مرة بكميات مضاعفة.

ونزلت جذوة نار من السماء. . ربما صعق البرق شجرة، أو احتك غصنان جافان بفعل ريح شديدة، وربما بسبب غير ذلك، كانت نتيجته أن اشتعلت بعض الأعشاب الجافة والشجيرات. . فوجد الإنسان الأول أنها بعثت فيه دفئا. . ولما خبت قليلا اقترب منها يمتحنها فوجد أنها غيرت شكل الطيور والحيوانات بل ورائحتها وطعمها إلى الأحسن والأيسر. . فتعلم أن يطهى طعامه، كما شاهد عمليا أنها إذا أصابت أعوادا جافة أو حشائش وأخشابا عادت إليها قوتها وزاد اشتعالها فتعلم كيف يحفظ جذوة النار، وكيف يغذيها، ثم كيف يوقدها ويستعملها فى أغراضه الشتى». انتهى.

الحيدة والتحيز فى العلم :

هناك أمر مهم نركز عليه ونكرره دائما، وهو أن القرآن لا يعتبر كتابا للنظريات العلمية، الأمر الذى يجعله بالضرورة - من حيث تفسير آياته - غير تابع للنتاج العلمى فى المستوى الذى يبلغه فى جيل من الأجيال أو عصر من العصور. بمعنى أنه ليس من وظيفة القرآن أن يحاول العلماء به، شد حقائقه إلى تفسيراتهم التى قد يعتورها التحيز أو القصور أو الافتراض أو عدم الدقة أو عدم اليقين. . إلخ وليس من وظيفة القرآن أيضا أن يكون تابعا لدرجة نمو المعرفة الإنسانية فى عصر بعينه من العصور، ولا للإطار الذى تتشكل فيه من النواحى التنظيمية الاجتماعية وما يتصل بها من شئون الإنسان فى المجتمع المنظم، أى الدولة.

وقد تنشأ نتيجة عدم أخذ هذه الحقيقة فى الاعتبار بعض الإساءات إلى المفاهيم القرآنية

ذاتها لا من حيث الحقيقة التى تدل عليها الآيات بذاتها، ولكن من حيث التفسير أو المفهوم الإنسانى للآيات ـ خصوصا الكونية والإنسانية ـ الأمر الذى يؤدى إلى انحراف هذه المفاهيم الإنسانية عن الحقيقة التى تدل عليها الآيات فى ذاتها. ومنشأ هذا الانحراف يكمن فى إعمال الفكر الإنسانى فى دراسة القرآن، بغير أسلوب التفكير العلمى الموجه بواسطة القرآن ذاته، وليس فى هذا التعبير أى مساس بالأسلوب العلمى فى التفكير كمنهاج للوصول إلى الحقيقة. وأى شبهة يقيمها معترض على قولنا (الأسلوب العلمى الموجه بواسطة القرآن) فإنما يقيمها من حيث تحيزه المسبق إما إلى مفاهيم معينة أو نظريات معينة وإما إلى معاداة مسبقة للقرآن ذاته ككتاب هداية وتوجيه. فالعالم وهو يعمل فى معمله باحثا ومكتشفا ومجربا وملاحظا ومستنتجا.. إنما يعمل على أساس مسبق بالإيمان بالطبيعة التى يتعمق فى مادتها، يعمل على أساس اكتشاف الحقائق الجزئية من ضمن الحقائق الكلية التى يؤمن بأن الكون يحتويها كلها.

وهذا ما يحدث تماما بالنسبة للقرآن. فالعالم وهو يعالج مادة القرآن باحثا ودارسا ومفسرا وملاحظا وفاهما.. فإنما يعالجها على أساس الإيمان المسبق بالقرآن الذى يتعمق فى مادته، عاملا على اكتشاف الحقائق الجزئية من ضمن الحقائق الكلية التى يؤمن بأن القرآن يحتويها كلها.

وإدراكا لهذا التحيز ـ كظاهرة ـ اعتبر جيمس ب. كونانت [1]: «أن من فواجع هذا الزمان، أن انقسام الأرض إلى معسكرين جعل النظرة التى ينظر بها الاتحاد السوفييتى والدائرون فى فلكه إلى الأنشطة العلمية والأنشطة الفكرية عامة، نظرة يقيدها التحزب ويوجهها التمذهب. وليس فى نظرتهم هذه إنكار لخطورة العلم، بل على العكس فإن الكرملين يخص العلم بالعناية الفائقة، فمثلا فى موسكو، دعت الأكاديمية العلمية الروسية إلى احتفالاتها بعض العلماء الغربيين دعوة خاصة، وذهبوا، وعادوا وهم يحمدون أكبر الحمد ما أسبغه ستالين على العلماء من تكريم. وقد يفهم القارئ من هذا أن رؤساء الاتحاد السوفييتى بذلوا هذه العناية للعلم والعلماء لتقديرهم لخطر العلم وخطر التكنولوجيا ولا شيء غير هذا. أما تقدير خطر العلم فلا جدال فيه، وأما أنه الحافز الأول والأهم لهذه العناية فأمر يخطئ من يعتقده، خطأ كبيرا.

نشر الاتحاد السوفييتى نشرة أسماها «تاريخ الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى» تحدث فيها مؤلفوها عن الدور الكبير الذى لعبه فى تاريخ الحزب كتاب لينين الذى كتبه فى المادية وسماه (Materialism - Empero - Criticism) ونشره عام ١٩٠٩. وذهب المؤلفون الرسميون لهذه النشرة التى هى تاريخ الحزب البلشفى، يقولون إنه كتاب يصون ذخيرة نظرية كبيرة من

---

(١) فى كتابه: (Science and common sense).

عبث جمهرة غير متجانسة من الناقدين والمرتدين الجاحدين. وقالوا فى هذه النشرة إن مستقبل الحزب الشيوعى كله قد تعرض للخطر منذ أربعين عاما أو تزيد، بسبب مبادئ باطلة تتصل بصدق المبادئ العلمية ومعانيها بالنسبة لعلم الفيزياء.

أفبعد هذا يعجب المرء من حزب سياسى قام على فكرة واحدة جامدة ويفسر التاريخ مثل هذا التفسير المادى البحت، أن يظل يعتبر النظريات العلمية وتفسيرها هما مهمة بعض الموظفين الحكوميين وأنهم فى هذا أكفاء وأهل ثقة؟

إن هذا التاريخ الذى أشرت إليه ينص صراحة على أنه ما من حزب ثورى يستطيع أن يقبل مبدأ الوحدة المؤسسة على تباين الآراء ـ كما فى الديمقراطيات الغربية التى تأتى الوحدة فيها بعد اختلاف الأحزاب فيما تراه من آراء ـ وإنما تقبل فقط الوحدة المؤسسة على فرض الرأى الواحد على الناس يأتى من أعلى ولا يسمح بأى اختلاف.

لقد بنى الحزب الشيوعى السوفييتى من أول الأمر على تجانس جامد لا مرونة فيه، يعادى ويمنع كل من لا يفقه «علم تنشئة المجتمع» على الصورة التى صورتها له النظرية الماركسية اللينينية، والنظريات العلمية التى لا تستقيم مع المادية الجدلية هى عندهم هرطقة لا شك فيها. ويعتنق علماؤهم ـ الذين كانوا أول الأمر على رأى مخالف ـ رأيا متمشيا مع آراء الحزب ويعلنون فى الناس خطأ ما سبق أن قالوا به. وهذه ظاهرة قد يصعب على أهل الغرب فهمها ولكن ربما يسهل الأمر عليهم لفهمها أن ينظروا إلى ظاهرة أخرى مثلها حدثت فى التاريخ كثيرا؛ رجال ذوو ولاء للكنيسة، يرون رأيا، ثم هم تحت تأثير الكنيسة يعودون فينكرونه ويجحدونه.

إن النتائج التى تخرج مثلا فى الحقل البيولوجى قد تتصل بالكليات الكبرى للوراثة بحيث يكون لها أثر فى النظريات السياسية والاجتماعية. ولكن السياسيين فى الديمقراطيات الغربية لا يهتمون بهذه العلاقة، بينما يلقى الأمر فى الاتحاد السوفييتى اهتماما بالغا من الحزب الذى يخطط رجاله سياسة الحزب فى الميدان العلمى.

ولكن أليست الحالة فى كل نظم الحكم التى يعتمد بناؤها على الأمر ينزل من أعلى والطاعة تأتى من أسفل، أن يقوم فيها رجال ـ بكل ما فيهم من ضعف إنسانى ـ فيعلنوا فى الناس من عام لعام أى المبادئ هو الصادق وأيها هو الكاذب؟ وتتدخل السياسة والاعتبارات الشخصية البحتة فتؤثر فيما يصوبون وفيما يخطئون.

إن معتنقى المادية الجدلية فى كل أنحاء الأرض يضعون العلوم الفيزيائية موضع التقدير العالى ويتحدثون فى ثقة عن المنهج العلمى، ولكن عندما يؤخذ نص خاص من نصوص هذا المذهب الفلسفى فيحول إلى مبدأ رسمى من مبادئ الحزب، فإنه عندئذ لا يسمح لأى رأى مخالف أن يقوم إلى جانبه. وبذلك لا يمكن أن يكون للعلم استقلال ولا للفكر حرية.

وليس معنى ذلك أن البحث العلمى لا يشجع، على العكس إنه يشجع بقوة، فى مساحات واسعة كما تشجع التكنولوجيا، وإنما الذى أتساءل عنه هو الحرية العلمية الحقيقية، هل يبقى منها شىء فى مجتمع يجب على كل ما ينشأ فيه من آراء فلسفية أن ينسجم مع ما يتخذه الحزب من مبادئ؟ إن هذا التساؤل ينشأ تلقائيا إذا أمعنا النظر فى تاريخ الحزب الشيوعى.

فى مقال عنوانه (لينين والمسائل الفلسفية التى بالفيزياء الحديثة) نشر فى صحيفة برافدا، كتب س. أ. فافيلوف ـ رئيس أكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى ـ يقول: «إن الفيزياء السوفييتية، كالعلم السوفييتى دخلا فى حياة الدولة منذ زمن بعيد، ووجها كل قواها إلى خدمة بلدنا لاستيفاء كل الحاجات اللازمة لبناء مجتمع شيوعى». والفيزياء الشيوعية تبنى علمها على ما اعتنقه العالم من المادية الجدلية التى رفعت من شأنها مؤلفات لينين وستالين.

ولعل مما يزيد فى توضيح الموقف اليوم عند السوفييت ما جاء فى مقال نشرته المجلة الأسبوعية الإنجليزية (Nature) (الطبيعة) لعضو فى معهد علم الوراثة التابع لأكاديمية العلوم بموسكو ردا على كلمة كتبها جوليان هكسلى يقول فيها: «إن أمة فى العلم عظيمة قد أنكرت صفة العلم الكلية وصفته الدولية». فقال العالم الروسى فى رده: «إن هذه دعوى باطلة. . والعلم السوفييتى لم يقبل هذه الآراء الرجعية يوما حتى يجحدها. وإننا أعلنا مرارا ولا نزال نعلن أن العلم هو علم حزبى، علم طبقى، وكذلك شأن العلم السوفييتى. إن الطبقات المتوسطة ومن يصوغون لها مذاهبها من بيولوجيين وغير بيولوجيين كانوا دائما فى خوف من أن يقرروا صبغة العلم الحزبية، وكل هذا الكلام الفارغ عن كلية العلم ودولية العلم، لا يستخدمه جوليان هكسلى إلا لخدمة أهدافه».

إن الواحد منا عندما يقرأ كلاما كهذا ويعلم أنه جاء من عالم روسى لايكاد يصدق أنه يقرأ شيئا مما تم تأليفه فوق هذه الأرض. إن العلم كما وصفته وكما عرفته ليس هو العلم الذى يكون تابعا لأفكار حزب، إن كل ما ارتآه العلماء جميعا ولم يكد يشذ منهم فيه أحد فى أمر العلم، قد جحده وسخر منه القابعون وراء الستار الحديدى، ولذلك فقد انقطعت الصلات بين علماء ما أمام الستار الحديدى وعلماء ما وراءه. وكل تعاون يأتى به القدر بينهما، كما أن كل تبادل للمعلومات سيكون من قبيل الحادث السعيد غير المنتظر.

وباختصار فإن كل العلم الذى عليه أن ينسجم مع أوامر تصدرها اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعى، لابد أن ننظر إليه باعتباره ظاهرة اجتماعية جديدة. وليست المقالات العلمية بموسكو هى وحدها التى تفرض عليها رقابة باعتبارها قد تتضمن أسرارا حربية، ولكن الكتاب أنفسهم واقعون تحت ضغط اجتماعى كبير. وإذا كانت الأحوال تجرى هكذا، أفيكون

علينا أن نكفر بالرأى الذى يقول بأن تقدم العلم يعتبر عملا دوليا من شأن كل الأمم؟ لا ، أبدا .

إن الذى ينبغى عمله هو ترك أمر هؤلاء العلماء فيما وراء الستار الحديدى باعتبارهم فئة خاصة غير فئات سائر العلماء . إنهم يخالفون سائر العلماء فيما يعتقدونه من أن العلم لا تقف به حدود أمة أو حدود دولة ، ولكن ما دامت طوائف العلماء فى الأمم الحرة قد فقدت ـ إلى حين ـ ولاء علماء ما وراء الستار الحديدى ، فإن على هذه الطوائف أن تزيد من حرية العلم وترفع عنه السرية وتكسبه تلك الصفة الدولية التى يجب أن يتحلى بها دائما ، حتى ولو أدى الأمر إلى أن النتائج العلمية تسير من الأمم الحرة إلى الأمم القابعة وراء الستار الحديدى ، بينما لا تسير نتائج مثلها فى عكس هذا الاتجاه .

إن من الحكمة ـ مع ذلك ـ أن نبقى على التقليد الخاص بإباحة العلم ليجرى بين الأمم فى أى طريق شاء . لهذا يجب علينا تشجيع العلم وتشجيع البحث وحرية النقاش وحرية النشر ، ولا نبالى بالذى قد تصنعه أى أمة أخرى ولا بالذى قد يأتى به الزمان من شدة» . انتهى [1] .

كتب جيمس كونانت هذا عن الوضع فى الخمسينيات ولم يكن يتوقع الكاتب ـ على حد تقديرنا ـ الأحداث التى توالت على الاتحاد السوفييتى فى التسعينيات والتى أدت به إلى التفكك والاقتصار على روسيا وانهيار النظام الشيوعى وزوال الحزب الواحد الشيوعى المسيطر على مقدرات البلاد وصاحب الامتيازات العليا . .

إن النظام الاشتراكى السوفييتى الملحد الذى طالما ضحى بحريات الإنسان وحقوقه من أجل تحقيق الشيوعية وتطبيق النظام الماركسى اللينينى قد انهار فى النهاية لعدم استجابته للطبيعة الإنسانية التى جبلت على الحرية فى شتى مظاهرها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعلمية والثقافية والدينية وقد سقنا ما سبق عن العلم فيما كان يعرف بالستار الحديدى كنموذج من نماذج التحيز الأيديولوجى من جانب العلماء فى واحدة من أكبر وأعظم دول العالم آنذاك . ولا نشك لحظة فى أن العلم فى الحضارة الغربية الحالية المادية موظف هو الآخر لخدمة مفاهيم هذه الحضارة المادية وقيمها وأهدافها .

الكون طريق المعرفة :

وإذا كان القرآن لا يعتبر كتابا للنظريات العلمية ـ بالمعنى الذى سبق أن ذكرناه ـ فإنه لا يعيبه فى شىء أن تفسر بعض آياته تفسيرا علميا فى عصر من العصور بحسب المستوى المعرفى الذى بلغه الإنسان العالم فى هذا العصر بذاته . . فليس يعنى ذلك أبدا أن هذا التفسير العلمى

---

(١) جيمس ب. كونانت فى كتابه : (Science and common sense) .

هو القدر المحيط بالمعنى النهائى المقصود من الآيات ذاتها، إنما هو المعنى المستخلص من الآيات مضافا إلى مستوى المعرفة الإنسانية وقت التفسير، أو إلى مفهوم المفسر القائم بالتفسير وبمقدار ومستوى علمه.. وكما أن المعرفة والمفاهيم العلمية تتطور فكذلك تتطور التفسيرات والمفاهيم العلمية لآيات القرآن.

وفى الوقت الذى يتقرر فيه أن القرآن ليس تابعا، من حيث تفسير آياته، للمستوى العلمى الذى بلغه الإنسان فى عصر بعينه من العصور، يتقرر أيضا أن ذلك المستوى نفسه فى العصر المعين من العصور هو الذى يحدد درجة مفاهيمنا وعمقها بالنسبة لحقائق القرآن. وكنتيجة مترتبة على ذلك يتضح دور النبى محمد صلى الله عليه وسلم المتمثل فى توجيه الإنسان نحو أعماق المعرفة فى القرآن وبالكون حتى يظل الدور الإنسانى العلمى مستمرا فترة وجود الإنسان ذاته حيا عاقلا، ولهذا السبب كان محمد البشر الرسول أميا، لا يقرأ ولا يكتب، وليس لأى سبب آخر. لقد كان من الضرورى أن يكون محمد أميا، لا لتكون هذه معجزة فى حد ذاتها فقط، ولكن حتى يمكن أن يتحقق محمد فى مقام عبوديته فى المعراج بمستوى المعرفة المحيط بالكون والشاهد على وحدانية الله سبحانه وتعالى. والمعلم فى هذه الحالة هو الله والمتعلم هو عبدالله والمعلوم هو مادة الكون ومادة القرآن الدالتان على وحدانية الله.

أما بالنسبة للإنسان فإن إدراك الحقائق يتم على مراحل وعبر فترات زمنية ممتدة، ويتطور بذلك علم الإنسان بنفسه وبالطبيعة وبالإله من خلال الكون وكل مكوناته المخلوقة التى يعبر عنها القرآن بلفظ (القلم) وهو السبب المخلوق المظهرى الذى تنتج عنه المعرفة الإنسانية، والذى لولاه لكان الإنسان جاهلا، أو غير عالم.

ويربط القرآن بين (القلم) وبين (المظاهر المخلوقة) فى سياقه التالى الدال على أبدية القدرة الإلهية فى الخلق والإيجاد المستمرين فى كل لحظة: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧]، والآية بليغة أدق ما تكون البلاغة فى الربط بين حقائق الكون بما هى عليه فى ذاتها، وبين هذه الحقائق كما هى عليه بالإضافة إلى المعرفة الإنسانية. والقرآن يشير هنا إلى القراءة، والكتابة، والكلمات، وهى جميعا مكونات علم الإنسان بما لم يعلم، باعتبارها أسباب المعرفة بالنسبة للإنسان.

وهناك سياق قرآنى آخر على النحو التالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩]. فهنا الإشارة إلى المعرفة الإنسانية من خلال الواسطة الإنسانية العقلية المتاحة للإنسان فى الأرض، بالأسلوب الذى يدركه الإنسان بالقياس إلى حدود عقله المدرك، وهى الكتابة، والأقلام، والمداد. وهناك سياق قرآنى آخر، هو أول ما أوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ

الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ - ٥] . فهنا أيضا يتم مخاطبة الإنسان بوسيلة ميسرة لإدراكه بحسب استعداداته الطبيعية، القراءة، والقلم، والخلق كله، وكلها وسائل العلم الإنسانى الذى يسبقه الجهل. وأخيرا يشير القرآن إلى الرموز اللغوية أو الرقمية التى يسطرها الإنسان ويعبر بها عن مستوى علمه بالحقيقة التامة المكتملة فى الكون. ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ .

إن الذى يتضح من هذه الآيات كلها، هو ربط المعرفة الإنسانية بالكون المخلوق ومكوناته، وإقامة الربط الثابت بين القرآن وبين الكون وبين المعرفة الإنسانية.

فالأقلام مرتبطة بالشجر . .

والمداد مرتبط بالبحر . .

وكلمات الله مرتبطة بمخلوقاته كلها . .

والقراءة مرتبطة بالخلق كلها بصفة عامة، وبالخلق الإنسانى بصفة خاصة ثم بالعلم الإنسانى مطلقا مستمدا من القرآن والكون . .

هناك ارتباطِ بين المعرفة الإنسانية وبين الكون، والقرآن يظهر هذا الارتباط بالأسلوب العربى البليغ الذى ييسر الأمر بالنسبة للإدراك الإنسانى فى صورة مقربة إلى ذلك الإدراك وفى إطار من إمكاناته وحدوده. فإذا كانت الأقلام، وكان المداد وكانت القراءة والكتابة، هى أواسط العلم الإنسانى الذى يخرج الإنسان من الجهل إلى العلم، وهى أساس خلافته فى الأرض وتكريمه فيها، فإن هذه الأواسط ليست مقصودة فى ذاتها كأشياء مادية ـ وإلا ما كان لهذه الآيات معنى قبل اكتشاف الإنسان لها أو إدراكه لها ـ وإنما هى مقصودة من حيث ارتباطها بالمخلوقات الكونية كلها ومن حيث كونها استعمالات تشبيهية للمخلوقات ذاتها التى تعتبر أيضا وجه القرآن المكتوب، وهما يمثلان الحقيقة تمثيلا متساويا.

ومن هذا المعنى تنبع حقيقة تسخير طاقة ومادة الكون ليستخدمها الإنسان لصالحه. فالتسخير الذى تخضع له طاقة ومادة الكون فى مواجهة الإنسان هو جوهر العلاقة بين الإنسان العاقل وبين الطبيعة، والتسخير هو الوصف القرآنى لاستخدامات الإنسان لكل مظاهر الطبيعة المادية والطاقية بقدراته العلمية. فالتسخير يعنى أن تكون مادة الكون وطاقاته تابعة للإنسان العاقل، وهو يعنى سيطرة الإنسان على كل ما هو مسخر له، يكتشف آثاره أو خواصه أو طبيعته . . إلخ، ويستغله بأكبر قدر ممكن من الكفاية فى سبيل تحسين حياته أثناء استقراره المؤقت فى الأرض.

وبرتراند راسيل قد اعتبر : «العلم ـ كما يفهم من مدلول الكلمة ـ عبارة عن معرفة أساسية

تعتبر بالاتفاق معرفة من نوع خاص، ذلك النوع، على وجه التحديد الذى يبحث وراء القوانين العامة المتصلة بعدد من الحقائق المعينة، ومع ذلك فصورة العلم كمعرفة تتراجع تدريجيا وتحل محلها صورة العلم باعتباره القدرة على معالجة الطبيعة بكفاية». انتهى.

وكلما تطور العلم الإنسانى، كلما استطاع الإنسان أن يطور من الوسائل أو الآلات التى يستغل بها الطبيعة المحيطة به.

وحيث إن الطبيعة المحيطة بالإنسان مسخرة له، فإنه يتبقى على الإنسان أن يطور معلوماته حتى يتوصل إلى السيطرة بكفاية على جميع مظاهر الحقائق الطبيعية فى الكون المحيط ويستغلها فى صالحه، دون أن يسىء هذا الاستغلال تجنبا لأى أضرار قد تصيبه هو نفسه. وكلما ازداد علم الإنسان بالطبيعة، استطاع أن يعدد أوجه استغلالها لصالحه، وأن يدرك قوانينها وكيفية تصرفاتها، وتزداد بالتالى معرفته للقدرة الإلهية الهائلة غير المحدودة الكامنة وراءها.. وعندما يدرك عظمة هذا الإله فيقدره حق قدره.

وكما أن الطبيعة تقيم التوازن والتناسق عن طريق قوانينها الربانية، فكذلك الإنسان يمكنه أن يقيم التوازن والتناسق فى حياته عن طريق تطبيق القوانين الربانية على سلوكه الاجتماعى، فتتحقق بذلك الوحدة القانونية الدالة على الوحدة الإلهية التى هى المصدر الواحد لكل القوانين، وتتوحد بذلك العبادة البشرية والطبيعية - فى الإطار الصحيح الذى يمثله «التوحيد» ويتحقق بذلك الترابط بين الغيب والشهود، بين الخالق والمخلوق.

* * *

المعرفة الإنسانية التى تنتج عن الاتصال بالمخلوقات لا يمكن أن تصل إلى درجة الإحاطة الشاملة لهذه المخلوقات ذاتها لأنها - أى المخلوقات - من الكثرة والتعقيد والبعد والغموض، مما يجعلها فى مستوى أعلى من أن يحيط بها الإنسان. فإذا أراد الإنسان أن يحصى، عن طريق الكتابة بالأقلام والمداد الذى تكتب به، حقائق كل الأشياء المخلوقة لما أمكنه ذلك، لأن المداد الذى يكتب به والأقلام التى يستعملها ستنتهيان قبل أن يحيط بالمخلوقات كلها التى هى (كلمات الله) التى سطرها بقدرته فى الوجود بأسره. فالوجود، أى الكون بمكوناته، هو السجل المكتوب أو هو الكتاب المخلوق، وكل ذرة من ذراته تعتبر كلمة من كلماته، وهذه الكلمات متناهية بالقياس إلى الذات الإلهية ولكنها غير متناهية بالقياس إلى الإنسان. ولذلك عبر القرآن فيما يتعلق بمحاولة إدراك الإنسان لها بلفظ: ﴿ قَبْلَ أَن تَنفَدَ ﴾ أى لن يدركها الإنسان كلها، ويحيط بها كلها، فقبل ذلك سوف تنفد إمكانات الإنسان وهو فى المحاولة المستمرة لتوسيع مدى إدراكه بالكون الذى يعيش فيه، وسوف لا تمكنه هذه الإمكانات المحدودة من الإحاطة العلمية الشاملة الكاملة للكون، بل لا نكون متجاوزين للحقيقة إذا قلنا إنه كلما اتسعت معارف الإنسان بالطبيعة، بدا المجهول أمام الإنسان أكبر مما كان يظن.

والمقابلة بين البحر والمداد، وكذلك بين أخشاب الأشجار والأقلام، ذات دلالتين:

الأولى: ربط المعرفة بالمخلوقات كلها.

الثانية: إفهام الإنسان ـ بصورة ميسرة بحسب إدراكه ـ استحالة إحاطته بالكون بكل مكوناته.

فلو أن الإنسان استعمل جميع أخشاب الأرض فى صنع الأقلام وكذلك جميع بحارها كمداد يكتب به المعارف التى يتوصل إليها، لنفدت كل هذه الأقلام، ولجف كل هذا المداد قبل أن يكتب قصة المعرفة كاملة لأن الكون سوف يظل دائما أمام الإنسان يحول بينه وبين الانتهاء منها. ليس ذلك فقط، بل رغم تكرار العملية نفسها، وبحسب التعبير القرآنى: ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ وكذلك ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧].

ومن هنا، أى من حقيقة القصور الإنسانى فى الإدراك المحيط الشامل لحقائق المخلوقات كلها كانت الأمية ضرورة من ضرورات المستوى الواجب توافره فى محمد وعلاقته بمضمون النص القرآنى. فالأمية تعنى عدم القراءة والكتابة بمستواهما البشرى، وهما كما قلنا محدودان فيما يؤديان إليه من معرفة بحقائق الكون، ولذلك فالقراءة والكتابة بالنسبة لمحمد البشر الرسول، مصدرهما إلهى قرآنى وكونى، وليسا من قبيل القراءة والكتاب المعروفتين والقاصرتين عن الإحاطة بالحقيقة، فالقراءة بالنسبة للنبى، متصلة بالمخلوقات كلها فى الكون، والكتابة بالنسبة إليه هى كلمات الله، سواء فى شكلها العربى المنثور أو شكلها الطاقى المخلوق فى الكون المشهود والغيبى على السواء. ولذلك كان أول توجيه للنبى هو: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥].

لقد صدر الأمر الأول إلى النبى رابطا القراءة العربية بالقراءة الكونية: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾. فالقراءة العربية ليست إلا قرآنا ميسرا للذكر الإنسانى، والذكر الإنسانى لايكون مكتملا أو مفهوما إلا من خلال الكتاب الكونى، والاثنان حق واحد فى صورتين تعكسهما مرآة الإدراك الإنسانى بقمته المحمدية المعرفية كما تحققت فى المعراج بالشهود العينى المحقق للعلم اليقين.

محمد البشر الرسول إذن، أمى بالنسبة للقراءة والكتابة فى مستواهما الإنسانى المحدود، وهو قارئ بتعليم مباشر من الذات الإلهية عن طريق الوحى، للقرآن العربى المفسر للكتاب الكونى. [1] ومن هنا تتضح أهمية الأمية ـ بالقياس إلى التعارف الإنسانى ـ المحمدية

---

(١) فيما يتعلق بحقائق الطبيعة والقوانين والسنن التى تحكم مجتمعها.

باعتبارها (ضرورة) تعكس (المعرفة بالخالق فى أرقى صورها الممكنة بالنسبة للخلق) فى المستوى الذى تكون فيه الذات الإلهية هى (المعلم).

ومن هنا أيضا، تتضح (القيمة القرآنية) فيما يتعلق بالمعرفة الإنسانية إطلاقا، بما يجعل القرآن الإطار الذى يوجه الإنسان فى سلوكه العقلى المعرفى فى الحياة، كما يكون اتباع القرآن من الخطوات التى تقرب الإنسان إلى معرفة الحقيقة وتفسيرها فى الكون المحيط به، باعتبار ذلك صعودا فى درجات السلم المعرفى من جانب الإنسان الذى تعلم البيان ويسعى للمعرفة بوحى من استعداده الطبيعى الخلقى. ويظل على الإنسان أن يفسر آيات القرآن العربى المكتوب فى نفسه وفى الآفاق حتى يتبين له أن الحق هو مصدر الخلق، وأن القرآن العربى لا ريب فيه.

وسواء بحث الإنسان بفكره فى القرآن العربى أو الوجود الكونى، فإنه إنما يبحث فى (الكتاب) ويقرأ (كلمات الله) لينتهى إلى إثبات الذات الإلهية الواحدة. ولكن الحقيقة تعمل فى نظام، أو تنعكس فى نظام، وانعكاسها فى نظام هو الذى يحقق وحدتها جميعا، الكونية والإنسانية والقرآنية. فهى فى صورتها الكونية تخضع لنظام، وفى صورتها القرآنية تخضع لنظام، وهى لابد أن تخضع أيضا لنظام فى صورتها الإنسانية حتى تكتمل الوحدة الخلقية الدالة على الوحدة الحقيقة الذاتية، فى كل من الحقيقة والنظام.

والنظام الكونى ـ سواء الذرى الصغير أو النجمى الكبير ـ موضوع للمادة تتحرك خلاله دون حرية اختيار، بينما الكتاب القرآنى موضوع للبشر ليحقق لهم باختيارهم السلام والتناسق مع الطبيعة البشرية فى الوضع الأمثل المتاح.

والكون نظام مقروء تطبقه المادة والطاقة وتسبح له مع كل حركة من حركاتها، بالضبط كما أن الكتاب المنزل على محمد البشر الرسول هو نظام شامل مقروء، يطبقه الإنسان ويسبح به فى كل حركة من حركاته. والتسبيح واحد بالنسبة للمادة أو الطاقة الصرف وبالنسبة للمادة والعقل مقترنين (أى الإنسان) ويثبت القرآن هذه الوحدة، فى قوله: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ وهذا تسبيح المادة. وفى قوله: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ [الأعلى: ١ - ٥].

وهذا تسبيح الإنسان، والتسبيح عبادة، والعبادة فى القرآن رمز للوحدة الكونية الإنسانية القرآنية، والهدف منها ذكر الذات الإلهية ذكرا مستمرا ينعكس أثره على السلوك

الإنسانى الفردى والسلوك الاجتماعى، والعقل هو أساس هذه الأحوال كلها، ولذلك يخاطبه القرآن، ويخاطب هو القرآن، ويخاطبه الكون بمكوناته، كما يخاطب هو هذا الكون.

والذات الإلهية تكرم الإنسان بسبب عقله المدرك المتصل بالروح ذات المصدر الربانى فتقدم إليه الحقيقة فى القرآن، وتحثه ـ من خلال القرآن نفسه ـ على إدراك مفاهيمها بحواسه فى الكون الذى يعيش فيه، ولكنها لا تجبره على الخضوع للقرآن، لأن فى ذلك مساسا بقيمة الإنسان العقلية التى هى أساس التكريم، والله سبحانه وتعالى يترك الإنسان حرا، بعد أن بيّن له الحقائق، ليختار بلا إكراه الخضوع للقرآن أو عدم الخضوع: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وبهذا أيضا كان التوجيه للنبى صلى الله عليه وسلم: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٩٩].

والحساب الإلهى الأخروى للإنسان على إيمانه بالله أو عدمه لابد أن يكون قد سبقه ظهور الحق كاملا واضحا فى القرآن متطابقا مع الحق فى الطبيعة وفى نفس الإنسان، ظهورا تتطابق معه الآيات الكونية من حيث تفسير الحقيقة ودلالتها فى النهاية على الذات الإلهية، ورغم هذا الظهور فإن الإنسان العاقل، حر، إن شاء آمن وإن شاء لم يؤمن، وإن العقل الذى هو أساس التكريم وأساس الحرية، هو أيضا مناط الحساب ثم الثواب أو العقاب. ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا** ﴾ [الكهف: ٢٩].

لقد اكتملت كل مقومات وعناصر الدين، باكتمال الكتاب المنزل على محمد البشر الرسول، وتطابق هذا الكتاب فيما يقرره، مع الحقائق الكونية، ومع حاجات الإنسان. ومع ذلك فالإنسان حر فى اختيار العقيدة التى يريدها وحر فى اختيار الإله الذى يعبده، وهو حر فى اختيار النظام الذى يتبع فى سلوكه الاجتماعى: ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ** ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]. وبالإيمان الحر تكون ترجمة الدين ـ بعد الوصول إلى الحق فيه عن طريق العلم ـ فى صورة اجتماعية تحكم الإنسان وعلاقته بأخيه الإنسان وبكل مقومات البيئة التى يحيا فيها، وتنبنى على قيم وأخلاقيات وتوجيهات القرآن باعتباره الحق فى الصورة الكتابية الآخرة.

القرآن والنبى الخاتم :

القرآن يمثل الحقيقة فى ذاتها فى كل وجه من وجوه هدايته الإعجازية، فى العقيدة وفى العبادة وفى المعاملة وفى العلاقات الاجتماعية والتشريعات المتصلة بها، وفى تحرير العقل وفى النواحى العلمية وفى التربية والسلوك وفى أسس قوة المجتمعات البشرية وفى الحجة المعجزة بالهداية والبيان، وهو يحيط فى دعوته بالعالمين، لا تحده حدود مما اصطنعها الإنسان. وكذلك الفرد المصطفى من الله، يحيط فى التبليغ القرآنى بالوسعة القرآنية ذاتها.

والمعجزة القرآنية فى حقيقتها هى معجزة معرفية، هى معجزة المثالية فى قمتها فى كل ميدان من الميادين التى أهلت البشرية لولوجها. والإنسان العاقل هو الإنسان الذى خصه القرآن بالذكر منذ نشأته الأولى من الماء والتراب فى صورته الآدمية، لكن الفرق بين الإنسان العاقل الأول، آدم، وبين الإنسان الكامل، الآخر فى الظهور من بين المصطفين، محمد، هو الفرق بين إيجاد المخلوق الإنسانى الأولى الذى يملك القدرة على الاتصال بحقائق الكون وطاقاته فى أول الطريق نحو معرفة الإله المعبود الواحد، وبين الإنسان الكامل الخاتم فى الاصطفاء والمراد أزلا أن يتصل فعلا بالشهود، بحقائق الكون وطاقاته فى نهاية الطريق المؤدى إلى معرفة الإله الواحد المعبود، فيما تحقق لمحمد صلى الله عليه وسلم فى المعراج.

وإذا كان آدم يمثل البداية المتواضعة للمعرفة والعلم، فإن محمدا يمثل النهاية العظمى فى المعرفة بالإله عن شهود تجاوز طاقات الكون كلها، وخاصة الطاقة الكهربية المغناطيسية (١) وصولا إلى النهايات المتاحة للمعرفة الإنسانية التى ظل الإنسان يترقى فى السبيل المؤدى إليها عبر تاريخه الممتد فى الأرض وحتى عصرنا الحالى وما يليه حتى قيام الساعة.

لقد شهد محمد حقائق القرآن التوحيدية عند منتهى الطاقات الكونية ومنتهى إمكانات العلم الإنسانى مهما ترقى واتسع . . واطلع وهو بالأفق الأعلى على منتهى الإحاطة الطاقية النورية فى الكون الفيزيقى من حيث سموه بروحه ووعيه الروحى إلى ما فوق الوعى الكونى محيطا بالماضى والحاضر والمستقبل فى أقصى درجات القرب الممكنة لمخلوق، من الخالق؛ شهد ما لم يشهده أحد غيره، وتحقق بالعلم العيانى اليقينى بما لم يتحقق به غيره.

هذا الشهود اليقينى هو الذى بدأ آدم حلقاته الأولى، ومن بعده تتابعت الحلقات طوال فترة الوجود الإنسانى فى الأرض حتى هذه اللحظات التى نحياها. لقد انتهى النبى إلى الهدف الذى بدأ أولى خطواته الإنسان العاقل آدم.

---

(١) باعتبار هذه الطاقة هى ـ فى فهمنا ـ الشجرة المباركة الزيتونة اللاشرقية واللاغربية التى وردت فى سورة النور. (راجع كتابنا «الإسراء والمعراج والعلم الحديث»).

كان الإنسان العاقل ـ آدم ـ هو بداية وجود الكائن المتميز بخصائص النفخة الروحية الربانية . . أى الكائن الذى أوتى من الله قدرات تحقيق الاتصال المعرفى الواعى بين الإنسان وبين الإله . . وبدأت بهذا الكائن أولى الخطوات فى هذا الطريق الطويل الذى مرت به الإنسانية منذ آدم وحتى عصرنا الحالى وإلى العصر الذى سيظهر فيه «القرآن العظيم» ، يليه قيام الساعة ، والنبى الخاتم الذى ظهر فى شبه الجزيرة العربية فى الأرض من كون الله الفسيح ، هو الكائن الحى العاقل الذى انتهى به وعنده هذا الطريق الطويل الذى بدأ آدم أولى خطواته فى الأرض كما قلنا ، الطريق الذى استهدف ـ منذ بداية الوجود وتطوره ـ إيجاد ظروف الحياة فى كوكب الأرض ممهدة لظهور الإنسان العاقل ، استهدف ارتباط هذا الإنسان بالقوة العظمى الكامنة وراء الوجود والتى رمزت إليها الأديان بتعبير (الله) من أجل تحقيق الغاية من الوجود كله بما فيه الإنسان ، وهى (العبادة) لله الواحد .

لقد اختار الله عبر تاريخ الإنسان فى الأرض أفرادا من النوع الإنسانى أهّلهم بخصائص عالية جدا من الطاقة الروحية واختارهم لحمل وتلقى وحى أو رسالات الإله وتبليغها للإنسان فى الأرض ، مما نعرفه من تاريخ الرسل والأنبياء . واختار الله من هؤلاء المختارين ، فردا يحمل وحى الرسالة الإلهية الآخرة إلى الإنسانية جمعاء ، يبلغها بالقرآن ـ كلام الله وفحوى هذه الرسالة ـ ويتحقق هو ـ بما أوتيه من طاقه روحية عالية تعلو على طاقة جميع من سبقوه من الرسل ـ بشهود أنوار القوة الغيبية مصدر هذا الكون ، وهى نور هذا الكون (نور السموات الأرض) الله سبحانه وتعالى .

وتحقق هذا الشهود ـ كما ذكرنا ـ فى الخلوة الكبرى فى المعراج بعد الإسراء ، وفيها شهد النبى حقائق التوحيد الكبرى بعد تجاوز كل الطاقات الكونية الفيزيقية وأعلاها الطاقة الكهربية المغناطيسية ، وتجردت روحه العاقلة الواعية عن كل قيود أبعاد الكون الحاجبة للروح الإنسانى والعقل الإنسانى عن الاتصال بالحقيقة العظمى المطلقة ، حقيقة الألوهية ، متجاوزا بذلك أبعاد المكان وأبعاد الزمان كما نعرفها فى العالم الفيزيقى واقترب من الله سبحانه وتعالى وكلمه الله بالسلام والتحية ورد هو السلام وأشرك فيه عباد الله الصالحين ، وشهد فى هذا المقام العالى من القرب عند سدرة المنتهى ، حقيقة أن (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

وتحققت بذلك الغاية أو القصد أو الهدف من خلق الوجود ذاته منذ لحظات الخلق الأول ـ والتى يفسرها العلماء فى إطار نظرية الدوى الكبير ـ وتطوره فى السكك اللبنية والمجرات والمجموعات الشمسية إلى مجموعتنا التى أعد كوكبها الأرض لاستقبال الحياة واستمرارها حتى ظهور الإنسان العاقل ثم المصطفين من النوع الإنسانى العاقل ثم فى النهاية ، المصطفى الخاتم من هؤلاء المصطفين ، الإنسان الكامل ، محمد صلى الله عليه وسلم .

وبهذا الإنسان الكامل تحققت الغاية من وجود الكائنات العاقلة، واكتمل الدين، وكملت صور الهدى الإلهى للإنسان، فليس بعده نبى، وإلى حين قيام ساعة حساب الناس.

إن طاقتى الإنسان العقلية والروحية تشدانه إلى المعرفة . . وهو تواق بطبعه إلى المعرفة فى الطريق الطويل المؤدى إلى الله فى النهاية. وكل رصيد الإنسان ـ عبر العصور المختلفة ـ من المعرفة وتطبيقاتها هو جزء من المعرفة العظمى الكلية التى يتصف بها الله والمحيطة بكل ما هو مخلوق أو هو حادث أو هو كائن أو هو فى شأن. ومعرفة الإنسان هى معرفة يحاول بها إيجاد تفسير للكون ولطاقاته ولقوانينه، وللإنسان ولطاقاته ولقوانينه التى تحكم وتنظم وجوديه العضوى والروحى ككائن، ووجوديه الفردى والاجتماعى فى شكل التنظيمات الدولية أو الأممية. وتاريخ الإنسان المدنى والحضارى هو فى الحقيقة تاريخ المعرفة وترقيها وتقدمها وتطبيقاتها المتنوعة، متصلة كلها بمحاولات التفسيرين العلمى والفلسفى للكون وقواه وما وراءه من قوة عظمى.

ولما كان الإنسان متميزا بحرية الاختيار والعقل والإرادة والقدرة. . . إلخ فإنه صار بذلك مالكا لقدرات توجيه نتائج معرفته ونتائج تطبيقات هذه المعارف (التكنولوجيا) نحو الخير أو نحو الشر، أى نحو سعادة الإنسان وسلامه فى حاضره ومستقبله، أو نحو تعاسة الإنسان وتدميره مستقبله **﴿وهديناه النجدين﴾** [**البلد** : ١٠].

وسيظل الإنسان يعمل فى نطاق هذه الحرية وهذه الحركة المستمرة فى اكتساب المعرفة حتى العصر الذى يجد فيه التطابق التام بين مكتشفاته المعرفية وبين تقريرات القرآن الموحى به إلى النبى الخاتم، وهو العصر الذى ستظهر فيه عظمة هذا القرآن، أو (القرآن العظيم) بعد السبع المثانى من القرون، أى القرن الخامس عشر من هجرة خاتم المرسلين، والله أعلم.

إن المعجزة القرآنية تكمن فى توجيه الإنسان لاستعمال قدراته العقلية أو الروحية فى طريق المعرفة من أجل توحيد الله، والمعجزة المحمدية تكمن فى شهود هذه الأحَديَّة فى الآيات الكونية الكبرى فى المعراج. والحق كله يكمن فى القرآن كله بالضبط كما يكمن فى الكون كله المنظور وغير المنظور. والإنسان يكتشف على مر العصور الحقائق فى الكون وفى القرآن، ويفسر القوانين التى يأتيان بها، وهو قد يصل إلى الحقيقة من الحقائق فى كليهما، أو إلى عدد من الحقائق صغيرا كان أو كبيرا، ولكنه لن يحيط بكل الحقائق فيهما لأن عمره يقصر دون ذلك ولأن المجهول يبدو أكبر كلما ازدادت المعارف الإنسانية ذاتها.

إن الحق الذى قد يثبت بالعلم التجريبى أو الرياضى هو انعكاس للحق الثابت بالأسلوب النظرى فى القرآن، متى اتحدت النتائج. ووحدة الحق هذه تنبع من كون مصدر الحق واحد سواء بالنسبة للطبيعة أو القرآن، وهو الله سبحانه وتعالى.

ولعل من مظاهر هذه الوحدة ما يصبو إليه علماء العصر من تحقيق نظرية التوحيد للقوى (Grand Unified Theory) الأربعة التى يتكون منها البنيان الكونى كله[1]، فى قوة واحدة مخلوقة ستعكس القوة الواحدة الخالقة، قوة الإله الواحد المعبود فى الأديان بلا شريك. ونحن نعلم أن ألبرت أينشتاين كان يعمل على الوصول إلى نظرية التوحيد للقوى هذه، ولكنه مات قبل أن يستكمل بحوثه المتصلة بها.

تطور العلوم :

إن القرآن يقرن دائما العلم بالإيمان ويوضح أن العلم ليس إلها يعبد، وليس عملا معجزا أو شيئا خارقا للطبيعة وقوانينها.. إنه وجود مقترن بالوجود الإنسانى العاقل ومتوقف عليه، فهو نتاج الوجود الإنسانى العاقل وحصيلة النشاط العقلى للكائن البشرى المتطور الفكر عبر فترات حياته الممتدة من جيل إلى جيل..

وقد بدأ الإنسان يمارس العلم بإعمال عقله منذ بداية وجوده فى الأرض فى الصورة العاقلة، صورة آدم، ومنذ تلك اللحظة والنتاج الفكرى الإنسانى يتطور باستمرار - على وجه العموم - حتى وصل إلى المستوى الذى هو عليه الآن وتطبيقاته فى الفنون الصناعية المختلفة، أى فى التكنولوجيا. ويمكن أن نعتبر فترة العلم الحديث هى الفترة التى تبتدئ من منتصف القرن التاسع عشر لميلاد السيد المسيح، والتى زادت زيادة هائلة فى القرن العشرين، وهى نفسها فترة التكنولوجيا المرتبطة بالعلم المتطور والتى أرسيت دعائمها لأول مرة فى القرن العشرين من ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

إن المستوى العلمى المعاصر - وتطبيقاته فى الفنون الصناعية، أى التكنولوجيا - هائل وضخم ومخيف، ولكنه يخضع لقانون التطور والترقى الدائم ويسير وفق منهاجه. فهو ليس معجزة وليدة لحظتها، وليس خلقا طفريا فجائيا، إنه نتيجة التطور المستمر للفكر الإنسانى من أقدم العصور حتى وقتنا الحالى، وسيظل يتطور حتى يفوق المستوى الحالى بكثير حتى نبدو - فى مستوانا - ضئيلى المعرفة بالنسبة لعلماء المستقبل واكتشافاتهم ونظرياتهم العلمية.

وحتى المنهج (العلمى) ذاته، كان وليد التطور الطويل وليس من إبداع العلماء فى العصر الحديث، فقد عرف قبلهم وكان ضمن الاعتبار الكبير للعلماء الذين آمنوا بالقرآن واهتدوا بمنهاجه فى التعلم والمعرفة، وهو ما فصلناه فى غير هذا المكان. يقول جيمس ب. كونانت[2]:

---

(١) وهى الجاذبية والكهرومغناطيسية والقوى النووية الشديدة والقوى النووية الضعيفة.

(٢) Science & Common Sense (ترجمة الدكتور أحمد زكى).

« إنه ليس من شك فى أن الدقة والحيدة (وهما المقصودان بالمنهج العلمى) فى تحليل الحقائق شرطان ضروريان فى كل بحث علمى، ولكن الذى أقوله هو أن هذا المزاج العقلى لم يبتدعه هؤلاء القوم الذين شغلوا أنفسهم أول شاغلين ببحوث العلم الحديث، وهم فوق ذلك لم ينتبهوا من أول الأمر إلى خطورته. والذى يراجع التاريخ، ولو فى شيء من السرعة، أعنى تاريخ علوم الطبيعة وهى فى فجرها الأول، سيجد نقاشا عنيفا يتدفق كالسيل من أقلام العلماء أكثر مما يجد من نقاش متزن، رائده العقل والمنطق، يسيل فى هوادة من هذه الأقلام.

وإذا صح ما استنتجته من قراءتى تاريخ العلم فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، فإنى أرى أن فكرة الحيدة واطراح الميول الذاتية عند أبواب المعامل العلمية، إنما نشأت بالتدرج، ورأى ضرورتها الجيل من بعد الجيل للذى وجد من سخافات جيل سبقه ومن أهوائه، وعرف أن هذه الأهواء تقف حجر عثرة فى سبيل تقدم العلم، فتعلم الدقة وتعلم الحيدة..

فمن إذن هؤلاء الرجال الذين سبقوا الأوائل من رجال العلم الذين وضعوا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر للعلم الحديث قواعده الأولى من دقة فى البحث وحيدة؟ من إذن هؤلاء الأولون الذين كانوا آباء لمن خلفوا من بعدهم، بالفكر لا بالدم، من أبناء من أمثال كوبير نيكوس وجاليليو وفيساليوس؟

إنهم ليسوا ذلك النفر الذى عالج التجربة على انفراد وفى اغتباط، ولا أولائك الذين تفننوا فى ابتداع الآلات فزادوا بها رويدا رويدا محصول الإنسان من المعارف التجريبية فى القرون المتوسطة. إن هؤلاء ورثوا حقا من جاء بعدهم الكثير من الحقائق، والكثير من الوسائل التى يتوسل بها الإنسان إلى بلوغ غايات عملية نافعة. ولكن ليسوا هم الرجال الذين ورثوا الناس روح البحث العلمى ولا مزاجه.

إنه للبحث عن هذه الروح وعن هذا المزاج، وللكشف عن المنابع التى تفجرت منها الغيرة الجديدة التى دفعت بالبحوث العقلية إلى أن تكون منظمة متسقة مرتبة، يجب أن نتجه إلى عقول بعض الناس قليلة، شربت حتى ارتوت من سقراط ومن تعاليمه، وإلى طلاب للمعرفة سابقين كشفوا عن ثقافة الإغريق والرومان أول كاشفين، وكان كشفا بدائيا كالحفر عن بعض ما خلف القدماء من آثار.

ففى الحقبة الأولى من عصر النهضة قام حب الحقيقة والبحث عنها يدفع الناس للكشف عنها متحمسين متجردين، وكانوا أكثر اهتماما بالإنسان وما صنع، منهم بالطبيعة الجامدة وما حوت. وفى أثناء هذه القرون الوسطى زاد اهتمام الناس بكل محاولة استخدم أصحابها فيها

عقلهم نقادا فى غير هوى، نقادا فى غير خوف، وواصل هذه الشعلة، وقام يرعاها حتى لا تنطفئ كتاب واصلوا الكتابة فى شئون الإنسان ومسائله.

وفى الأيام الأولى لذات العصر، عصر النهضة، كان الباحثون عن الإنسان، وفى مسائل الإنسان، والكاشفون فى سبيلهم هذه عما كشفوا من علوم الإغريق والرومان، كانوا أقرب المثل إلى ما نصف اليوم من معنى الحيدة يتخذها البحاث مذهبا ومزاجا، ولم يكونوا فى زمانهم يهتمون ببحوث ما نسميه اليوم بالعلوم الطبيعية، ولم يكن يهتم بها حتى الرجل المثقف فيهم. وبقيت هذه الحال إلى أن جاء البحث العلمى الحديث يستهوى عقول الرجال، ثم هو يخضعها إخضاعا. فالبحوث العلمية كما نفهمها اليوم، كانت تضيع بينهم كما تضيع الحصاة فى ماء البحر، إلا أن تتصل اتصالا وثيقا بالذى خالوا عند ذلك من علوم الكون.

وقد نتساءل: كيف أخذ البحث العلمى الحديث يستهوى عقول الرجال؟ ثم كيف أخذ يخضعها إخضاعا؟ وهو تساؤل من أصعب تساؤلات التاريخ إجابة، وهو ليس له جوابا بسيطا. ، فكل عرض للذى جرى من الأحداث فى فجر العلم الحديث لن يسلم من الخطأ بسبب ما قد يؤكد جانبا دون جانب من العوامل الكثيرة التى كانت تعمل معا لتشكيل عصرنا هذا الحديث. ولقد كتب واحد من مؤرخى الثقافة بالعصور الوسطى يقول: إن (الإنسانيين) لم يكن لهم نصيب أصلا فى تكوين العلم الحديث، حتى إن مناشطهم كانت على الأرجح شرا عليه لا خيرا له. ومع هذا فلو قال لنا آخر إن كشف (الإنسانيين) لآثار القدماء، وما كتب القدماء، وللروح التى كانت فيهم، هو وحده السبب الذى به نشأ العلم الحديث، لقلنا إنه قول ذو غلو شديد». انتهى.

الفصل السابع

الإنسان ويوم الحساب

اليـــــوم الآخـــــر :

فكرة اليوم الآخر فكرة أساسية فى كل الأديان السماوية ، وهى قاعدة أساسية من قواعد الاعتقاد الإيمانى فى الدين الإسلامى الخاتم المكتمل فى القرآن، خاتم الكتب السماوية . وقد قرر القرآن منذ نزل قبل حوالى أربعمائة وألف سنة من هجرة خاتم المرسلين، أن ساعة حساب الناس قد اقتربت . . وأن الإنسان غافل عن حقيقة اقتراب الساعة التى يحاسب فيها الناس على أعمالهم ومعتقداتهم . . وأن الإنسان معرض عن التفكير فى أمر الساعة ذاتها نتيجة تأثيرات العوامل الدنيوية المؤثرة على الإنسان فى حياته الشخصية الفردية ، وفى حياته الأسرية ، وفى حياته الاجتماعية ، وفى علاقة المجتمعات على مستوى الشعوب - بعضها ببعض ، وعلاقة الدول - على مستوى السلطات ، بعضها ببعض : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ١] .

ويبدو أن دور الشيطان الذى يمثل فكرة الشر فى الكون ، وبصفة خاصة بالنسبة للإنسان فى الأرض ، قد بلغ حدا من الاتساع والتشعب - نتيجة اتساع وتشعب الحياة الإنسانية ذاتها - حتى أخذ صورة لم يعرفها الإنسان من قبل إلا فى هذا القرن العشرين الميلادى، وبالذات فى الفترة الأخيرة من هذا القرن التى شهدت عوامل كثيرة متشابكة، كان لها تأثيرها على الإنسان وعلى تدعيم دور الشيطان فى مسئولية الشر بالنسبة لهذا الإنسان فى مستقره الأرضى المؤقت .

ومنذ خلق الله آدم الأول أبا البشر ، كانت فكرة التأقيت ، أو الوجود المؤقت للإنسان فى الأرض، هى الفكرة المتصلة بهذا الوجود الإنسانى . وفكرة التأقيت لوجود الإنسان كخليفة فى الأرض، فكرة تتصل بطبيعة التكوين الخلقى للإنسان ذاته . ذلك أن الإنسان كائن فان،

يدركـه الموت ولا يمكنه أن يتـجاوزه إلى الخلـود الذاتى . حتى الصـفوة من الأنبيـاء والمرسلين الذين اختارهم الله لهداية الإنسان إلى الحقائق الأساسية فى الوجود الكونى وصلته ـ فى المادة والروح ـ بالإله الواحد ، هم أيضا من البشر الذين يخضعون لسنة الموت أو قانون الموت الذى لايفلت من قبضته أى إنسان . وفكرة التأقيت للوجود الإنسانى فى الأرض تعنى أن حياة النوع الإنسانى سوف تنتهى بالنسبة لهذا النوع ككل على الأرض ، سواء بفعل كارثة عامة من صنع الإله أو من صنع الإنسان ، أو نتيجة الصعق الناتج عما يصفه القرآن بأنه النفخ فى الصور ، لتبدأ مرحلة أخرى هى مرحلة الحياة الآخرة . هذه الحياة الآخرة التى تتسم بالخلود ، أى الوجود الدائم ، يسبقها ما يسميه القرآن «الساعة» أى ساعة حساب الناس أو بتعبير مرادف «اليوم الآخر» .

بعد تجربة آدم وزوجه فى «الجنة» ـ وكان إبليس طرفا أساسيا فيها ـ وهبوط الجميع إلى الأرض ، كان مفهوما لهم أن حياتهم فى الأرض حياة مؤقتة ، سواء بالنسبة للذات الآدمية الواحدة التى تنتهى حياتها بالموت ، أو بالنسبة لذرية هذه الذات الآدمية ، أى النوع الإنسانى ككل ، بقيام الساعة : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة :٣٦] .

التجربة الآدمية :

فى الجنة ، حيث سكنت نفس آدم قبل تغلب الغريزة على العقل ، وهو العصيان ، كان آدم وزوجه يملكان القدرة على إشباع حاجاتهما الأساسية من الغذاء بحرية مطلقة : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة : ٣٥] . وكان هناك فعل منهى عنه بالنسبة لهما رمز له القرآن بالشجرة . وكان النهى منصبا على الاقتراب من هذه الشجرة ، بينما كان الأكل مباحا بإطلاق . ثم بدأ إبليس نشاطه تجاه آدم وزوجه : ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠] . والشجرة ـ فى فهمنا ـ هى اللفظ الدال على الاختلاط الجنسى والتكاثر الناتج عنه . فإبليس كان يعلم أن آدم وزوجه ليسا ملكين وليسا خالدين بذاتيهما ، بل هما كائنان إنسانيان يدركهما الموت . وكان إبليس يعلم أن خلود آدم هو خلود النوع من طريق الذرية . والذرية لا تأتى إلا بالتزاوج الذى ينتج عنه الفروع للأصل الأول للشجرة ، شجرة الخلد . ومع الخلود ، ملك لا يبلى ، وهو الملك الناتج عن استعمار الإنسان للأرض وإقامة العمران فيها بالتدريج .

علم الساعة:

الموت لصيق بالإنسان كفرد. وهو ينهى الوجود الإنسانى المؤقت فى صورة من صور الحياة التى نشاهدها وندركها ونحس بها ونشهد آثارها ونعيش تجربتها وواقعها كما نعرفهما. وقيام الساعة ينهى الوجود الإنسانى الكلى كنوع مستقل فى نفس صورة هذه الحياة. وكما أن الموت يدرك الإنسان فى أى مكان وفى أى حال كان عليها، لأن الزمان بعد أساسى من أبعاد عالمنا الطبيعى الذى نعيش فيه ، فإن الساعة تدرك الإنسان كنوع فى كل مكان وفى أى حال كان عليها لوجود نفس البعد الزمانى بالنسبة للنوع الإنسانى ككل. وكذلك لا يدرك الإنسان اللحظة الزمانية المحددة لانتهاء حياته فى هذا الشكل المشاهد المعروف، وهى اللحظة التى تقوم فيها الساعة. ولعل الحكمة فى ذلك الإخفاء لكل من نوعى انتهاء الحياة الإنسانية ، راجعة إلى فكرة الخلافة الإنسانية ذاتها فى الأرض. هذه الفكرة تعنى استعمار الإنسان للأرض وتنمية قدراته المعرفية التى ينتج عنها الكشف والابتكار والإبداع، وهى كلها عوامل تستلزم نوعا من الاستقرار فى الأرض حتى ولو كان مؤقتا، فإنه غير معروف مقدار زمانه على وجه التحديد، كذلك بالنسبة للموت وبالنسبة لهلاك النوع ككل. إن حركة العمران الناتجة عن نشاطى الإنسان الفكرى والجسدى لابد أن تقترن بعامل الاستقرار. ولكن عامل الاستقرار مقترن بعنصر التأقيت، ومن هنا كانت الحكمة فى إخفاء المقدار الزمانى لهذا التأقيت فى الوجود حتى يكتسب صفة الاستقرار اللازم لاستمرار ترقى الحياة الإنسانية فى المعرفة والسلوك المؤديين إلى اكتشاف الجديد وتنمية العمران بالتمدن والتحضر.

الإنسان والكون:

إن الله لم يخلق هذا الكون عبثا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦، ١٧]. فالله سبحانه وتعالى موجود أزلى أبدى، ووجوده أولى بلا ابتداء وآخرى بلا انتهاء، أى أنه لا يفنى ولا يستحدث، كما أنه لا تقاس إليه الأبعاد المنفصلة. وقد اقتضى وجود الله ذاته وجود هذا الكون من منطلق إيجابية التأثيرات والفاعليات المستمرة وغير المحدودة للأسماء الحسنى. يقول أستاذنا الإمام محمد ماضى أبو العزايم رضى الله عنه:

العين قد نظرت للعين فانفجرت ... عين الحياة وروحى للحمى وصلت

فالكون بطاقاته الطليقة والمختزنة (أو جميع الشئون فى الظهور والبطون كما يقول الإمام الجليل الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه) هو إرادة تعبير الذات الإلهى عن نفسه لنفسه بتجليه الذاتى للأسماء الحسنى، وهو التجلى الذى نتج عنه الانفجار الكبير المعروف للعلماء

اليوم كمظهر للأسماء وتأثيراتها أو فاعلياتها أو أفعالها الإيجابية المستمرة بغير حدود بالأمر المعبر عن الإرادة الإلهية الذاتية (كن فيكون) وبلا أبعاد منفصلة (زمان ـ مكان).

ولذلك فالكون مظهر لظهور الأسماء الحسنى التى هى بدورها سبب وأساس وجود هذا الكون كما قلنا. لو لم يكن هذا الكون وجد لكان معنى ذلك تعطيل خصائص الأسماء الحسنى واتسامها بالسلبية، وهو أمر محال على الله سبحانه وتعالى: ﴿**كل يوم هو فى شأن**﴾ ومن ثم نخلص إلى أن هذا الكون ضرورة حتمية من ضرورات وجود الله ذاته المتحلى بأسمائه الحسنى، الكمالى منها والجمالى والجلالى على ما يظهر فى الكون ذاته من جمال وكمال مدهشين وجلال محير مخيف. ولما كان الكون طاقى البنية فى الأصل الأول الذى نتج عن الانفجار الكبير فى بدائيته فإنه يكون مفتقرا إلى كائن عاقل يعقل وجود الكون ومعناه، يكون فى طبيعة خلقه جامعا للأسماء الحسنى كلها وليس جانبا منها. فإذا كان الكون يعكس أسماء جمال وجلال وكمال فإنه لا يعقلها ﴿**فأبين أن يحملنها وأشفقن منها**﴾ كذلك الملائكة والروح تعكس جانبا معينا فقط من الأسماء الحسنى بالضبط كعوالم الجن الطاقية الأصل..

من هنا اقتضى الأمر ظهور كائن عاقل يعكس أو يكون مرآة للأسماء كلها، محققا بذلك مقتضى هذه الأسماء فى فاعلياتها وتأثيراتها الإيجابية المستمرة بلا نهاية، فكان الإنسان: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾ إن الإنسان كائن فريد ومتميز بالنفخة الربانية الروحية: ﴿**ونفخت فيه من روحى**﴾ وهى سر النشاطين الروحى والعقلى فيه. وهو يجمع بين خصائص (النور) وخصائص (النار) وخصائص (الطين) وهو ماء وتراب، وهو الكائن الوحيد المتميز بالنفخة الروحية الربانية وخصائصها التى تتسع لتشمل آفاقا من النور ما زال الإنسان لا يعلم كثيراً من خواصها الطاقية: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾. فالإنسان هو نواة البنية الخلقية الكونية، جامع لخصائص الملك والملكوت، أى الجسد والروح أو النور والطين أو المادة والطاقة. وبذلك استحق مقام الخلافة عن ربه فى الأرض التى هى مستقره المؤقت إلى حين قيام ساعة حساب الناس، ويومها تبدل الأرض غير الأرض والسموات، ويكون البصر حديدا يرى ما لا يراه الإنسان العادى فى العالم الفيزيقى الدنيوى بأبعاده المعروفة لنا، ويبصر غير البصر العادى ويرى ويتعلم علوما جديدة من البيئة الجديدة الروحية ذات الأبعاد المختلفة تماما عن أبعادنا المعروفة فى العالم الفيزيقى، وهو سر تبديل السموات والأرض التى يحياها بعد الموت سواء فى البرزخ أو يوم الحساب.

إن وجود الإنسان متصل بالوجود الكونى كله. ومتصل بكوكب الأرض بصفة خاصة. والجنة التى سكنها آدم ـ كما نميل إليه ـ كانت حالة فى المكان، دون استقرار منذ البداية، بينما كانت الأرض هى المكان الذى يتصل به عنصر التأقيت، وإنما فى «استقرار» يمكن أن تبدأ

وتستمر وتترقى فى إطاره حياة النوع الإنسانى. إنه بصلة الإنسان بالكون وبالأرض على وجه الخصوص، تتضح الغاية من وجود ذلك الكائن الإنسانى ذاته. ولمعرفة الغاية ينبغى أن نعرف حقيقة جوهرية وأساسية هى حقيقة الألوهية التى هى مصدر هذا الوجود الكونى كله بما فيه من مخلوقات، وبخاصة الإنسان، الخليفة فى الأرض. والقرآن يخبرنا أن هناك مخلوقات أخرى تعيش مع الإنسان فى الأرض، ولكنه لا يراها لعدم قدرة الحواس الإنسانية العادية على تجاوز إطارها فى العالم الطبيعى، بينما هى ترى الإنسان: ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧]. يقصد عفاريت الجن الذين يسكنون الأرض كما نسكنها، وتشملهم رسالة النبى الخاتم على النحو الذى بينه القرآن فى سورة الجن.

إذا أخذنا فى الاعتبار هذا المصدر الواجب الوجود لذاته [1] وهو الله، لعلمنا أن وراء هذا الكون، ووراء هذه المجرة التى فيها مجموعتنا الشمسية التى تعتبر الأرض أحد كواكبها - بتابعها القمر - ووراء وجود الحياة على هذه الأرض فقط دون سائر كواكب مجموعتنا الشمسية، ثم وراء ترقى الكائنات فى مراتبها المختلفة من الجماد إلى النبات إلى الحيوان إلى الإنسان، وراء ذلك كله هدف بالغ الأهمية هو من مقتضيات ذلك الوجود الإنسانى ذاته. لماذا؟ لأن الوجود الإنسانى يعنى وجود كائن من نوع فريد فى قدراته العقلية المتصلة بهيكله المسوى. كائن يجمع بين المادة والطاقة، بين الجسد والروح. الجسد المادى، طينى أرضى، أو ترابى مائى. والطاقة روحية عقلية نابعة من سر النفخة الربانية الروحية. الأول هو التسوية الهيكلية، والثانى هو النفخ فى هذا الهيكل المسوى - أى القابل للتلقى - من روح الله سبحانه وتعالى. وبهذا التركيب الثنائى المعجز تحققت الوصلة بين الإنسان والإله. تحققت القدرات والخصائص الإنسانية العقلية والروحية التى فى إمكانها التعرف على خالق الكون كله بما فيه ومن فيه، والمعبر عنه بلفظ الجلالة « الله » فى اللغة العربية ويعبر عنه بألفاظ أخرى فى اللغات الأخرى غير العربية، كلها تدل على نفس الإله المعبود الواجب الوجود لذاته.

من هنا جاءت فكرة العبادة، بمفهومها الواسع الشامل الذى يدخل فى إطاره التفكر والتأمل والشهود والتجربة والسلوك والاعتقاد... إلخ. ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات: ٥٦].

على أن يكون مفهومها أن العبادة مقصود بها نفع الإنسان ذاته فى الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة، لأن الله غنى عن العالمين، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية: ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٧].

---

(١) واجب الوجود لذاته هو الذى لا يحتاج لعلة لوجوده، وإنما وجوده نابع من ذاته، فهو أزلى بلا ابتداء وأبدى بلا انتهاء.

عندما اكتملت التجربة الآدمية ـ آدم وزوجه وإبليس أطرافها ـ وهبط آدم إلى الأرض من الجنة ، كان من الضرورى، من خلال حتمية التطور الوجودى ذاته الذى ينتهى إلى قيام الساعة فى يوم يحاسب فيه كل إنسان على سلوكه فى الأرض تجاه الإله تبارك وتعالى، أن يبين الله حقيقة اليوم الآخر للإنسان فى الأرض على مر العصور من وجوده فيها. هذه الحقيقة ليست نابعة من فراغ، ولكنها نابعة من « فكرة الألوهية» ذاتها كذات واجبة الوجود هى مصدر «الخلق» كله بما فيه الإنسان. ومن أخص خصائص الذات: « أحد» لا شريك له ، لا يتسمى بالألوهية غيره ولا يماثله فى ذاته أحد غيره، وهى الحقيقة التى يقول فيها القرآن ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ويقرر بإزائها أيضا: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

إذن . . الإله . . الأحدية . . اليوم الآخر . . الإنسان . .

ولكن كيف يتصل الخالق بالمخلوق؟

أرادت الذات الإلهية أن تكون هذه الصلة منطقية ومناسبة فى شكلها وجوهرها. إذن : فى الأرض بشر أم ملائكة ؟ لو كان فى الأرض ملائكة لكان المنطقى والمناسب أن يكون شكل الاتصال وجوهره ملائكى الطبيعة ليحصل التجانس والتناسب والاتصال الفكرى المطلوب. ولكن الأرض يسكنها البشر. فكان من المنطقى والمناسب أن يكون شكل الاتصال وجوهره بشرى الطبيعة ليحصل التجانس والتناسب والاتصال الفكر ى المطلوب.

وهكذا تقرر عنصر البشرية فى الاتصال. ولكن هذا العنصر البشرى الذى تقرر بإرادة الله أن يكون هو واسطة الاتصال يحمل عبء التلقى الروحى والتلقين والإبلاغ البشرى. وهذا ممكن لأن طبيعة البشر روحية جسدية. فالتلقى ـ وهو يأتى من سماء الروح ـ يتصل بالعنصر الروحى ـ أو الملكوتى ـ فى البشر. والإبلاغ ـ وهو يذهب إلى أرض الجسد العاقل ـ يتصل بالعنصر الجسدى فى الظاهر ـ أو الملكى ـ فى البشر.

ومن هنا كان الأمر يقتضى نوعية خاصة من البشر تملك من الاستعداد النابع من الإعداد الإلهى عن طريق التكوينين العضوى والروحى معا ـ باعتبارهما متكاملين ـ بما يمكن هذا البشر من التلقى الروحى بالواسطة الروحية ثم إبلاغ ما يتلقاه إلى الناس، وهو فى الصورة البشرية المتكاملة. وأسلوب تلقى كلام الله يكون بإحدى وسائل ثلاث حددها القرآن فى النص التالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١]. والوسيط الروحى لجميع الأنبياء والرسل واحد، سماه القرآن جبريل، وهو أيضا الروح الأمين أو الرسول الكريم، كما أن من أوصافه أنه شديد القوى، ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى، وأنه مطاع فى هذا الملأ وأمين.

وأما الفرد الذى يختاره الله لإبلاغ رسالته فلابد له من إعداد مسبق بحيث تكتمل عنده القدرات اللازمة لتلقى الوحى الإلهى حسب مستوى ذلك الوحى، من الروح الوسيط جبريل، بحيث يعى تمامًا ما يوحى إليه تمهيدًا لإبلاغه للناس. والإعداد الإلهى لمثل هذا الفرد يشمل عادة قدراته الجسدية والعقلية والروحية وهو ما تحقق على أكمل وجه للنبى الخاتم.

ولكن الرسل يتفاوتون فيما بينهم حسب طبيعة رسالاتهم، ويتفاوتون فى القدرات أو الطاقات الروحية: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وهم يحملون رسالات من السماء تتفاضل وتتفاوت فى الدرجة أيضا. وإنه وإن كانت الرسالات السماوية كلها تحمل نفس المعنى الأساسى لحقيقة الدين: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... ﴾ [الشورى: ١٣]. إلا أن تطور حياة الإنسان الفكرية كانت تقتضى تطورا مماثلا فى الرسالات ذاتها. وهى التى سماها القرآن عند التجربة الآدمية الأولى ﴿هدى﴾ قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨]، بحيث تستجيب هذه الرسالات للاحتياجات الفعلية للمجتمعات التى تنزلت فيها وإليها. ولما كانت الرسالة القرآنية هى الرسالة الأخيرة الخاتمة لكل الرسالات، فقد كان من الضرورى أن تراعى هذه الكلمة الأخيرة، إطلاق طاقات العقل والروح [1] لتأخذ مسلكها الطبيعى فى تحصيل المعرفة والاستزادة منها والارتقاء بها، بحيث يمكن للإنسان أن يصل من خلالها إلى رؤية الكون والكائنات رؤية تتطابق فيها الحقيقة الكونية المخلوقة مع الحقيقة الكلامية البيانية الموحى بها من الله تبارك وتعالى إلى الإنسان فى شكل رسالة أو هدى يقيم العلاقة بين كلمات الله المخلوقة فى الكون وبين كلمات الله المقروءة فى بيان، كلاهما كتاب ينطق بالحق ويبرز مفهوم الألوهية فى إطار من المعرفة العلمية. كما يتبلور هذا المفهوم من خلال عامل «النظام» سواء كان نظام الخلق الإنسانى ذاته أو نظام الخلق الكونى بما فيه من مخلوقات يحكمها نظام يقف على قمته الإنسان، ويحكمه هو أيضا نظام ربانى المصدر كسائر النظم التى تحكم الكون وكائناته. وفكرة النظام تنبع من فكرة القوانين أو السنن التى يتصرف وفقها كل كائن والتى يريد القرآن أن يبرزها لنا فى تقريراته التالية:

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]. ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠].

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٣، ٤].

---

(١) إلى جانب تلبية احتياجات الجسد العضوى المشروعة لتقوم الشخصية على التوازن النفسى من خلال رعاية الجسد، ورعاية العقل، ورعاية القدرات الروحية بروح الوسطية.

وهكذا كان عنصر الاختيار مع الختام عنصرا يحسم عملية التفاضل بين الرسل والرسالات. فكان الرسول الخاتم. وكانت الرسالة الخاتمة، المتمثلة فى القرآن العظيم، كلام الله الموحى به لفظا ومعنى والمتحدى به، بواسطة الروح الأمين نزل به على قلب الرسول الخاتم ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين. ومن المنطلق القرآنى يكون حديثنا عن الساعة واقترابها.

يوم القيامة:

يتصل يوم القيامة، أو اليوم الآخر، بالحياة الدنيا اتصالا يدخل فيه العنصر الإنسانى، أى الإنسان ككائن مخلوق. وهو إن كان يتصل أيضا بالجن وغير الجن من الكائنات التى قد تكون مسئولة أمام الله تبارك وتعالى إلا أننا سنقتصر على عنصر الكائن الإنسانى فقط، دون الجن أو غيره من الكائنات، إذا افترضنا وجودها، وذلك فيما يلى من حديثنا:

يوم القيامة هو اليوم الذى يسبق الحياة الآخرة. والحياة الآخرة هى الطور من الحياة الذى يعيشه الإنسان فى استمرارية عبر عنها القرآن بالخلود. ونمط الحياة فيها لا نتطرق إليه لأنه من الغيب الذى لم يخبرنا القرآن بتفاصيله على وجه اليقين ويصعب التكهن بفحواه أو مضمونه، وإن كان القرآن قد ضرب أمثلة للجنة والحياة فيها، وكذلك للنار والعذاب فيها لتقريب الصورة إلى أذهاننا. ونحن نعرف من القرآن أن الخلود خلود ذاتى يومئذ للإنسان الذى لا يذوق الموت فى هذه الحياة الآخرة: ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ ﴾ [الدخان: ٥٦]. والحياة الآخرة حياة تتصل بالإنسان من حيث إنه الذى يعيشها. والإنسان الذى خلقه الله من عناصر طين الأرض، يعود إلى الأرض ميتا ثم يخرجه الله منها حيا مرة أخرى، وهو ما يعرف بعملية البعث. والبعث يكون من القبور أى من المكان والحالة التى يكون فيها وعليها الميت بعد موته. ذلك أن القبر له مفهوم فى الدين هو مفهوم الحياة البرزخية للإنسان. فى هذه الحياة البرزخية يوجد نموذج على نحو ما للحالة التى سوف يكون عليها الإنسان فى الحياة الآخرة بعد الحساب فى يوم القيامة. ذلك أن الإنسان الميت فى البرزخ يكون على قدر من الوعى الذى يصاحبه إحساس، إما بالعذاب والضيق والشقاء، وإما بالنعيم والسّعة والسعادة. الحالة الأولى يقول فيها القرآن: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١]. والحالة الثانية هى الحالة التى ربما وردت فى شأن الشهداء من المؤمنين: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠]. فهو نمط من الحياة البرزخية فيه نعيم وفيه سعة وفيه سعادة. هذا وقد

ورد عن رسول الله ﷺ في الحديث ما معناه أن القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، وذلك بما يحسه الميت فى قبره.

الإنسان والمستقبل الموصول بالله:

إن حجر الزاوية فى هذا الكوكب هو الإنسان، ذلك الكائن الذى يدور عليه أمر الدنيا والآخرة. الكائن الذى حمل الأمانة حين أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها، بمعنى أنه حمل المسئولية النابعة من الإرادة الحرة والقدرة على الاختيار بين الخير والشر بما جمّله الله به من خصائص جسدية وعقلية وروحية هى من نتاج النفخة الروحية الربانية التى جعلته متميزا عن سائر الكائنات فى الوجود. وكذا آتاه الله إمكانات استغلال البيئة الأرضية والمائية والفضائية التى تحيط به من أجل استعمار الأرض واستمرار كفاحه من خلال الفكر المتطور لبناء عمرانه ومدنيته وحضارته فى الأرض. إن الإنسان بهذه الإمكانات ـ التى نعرف الآن فى عصرنا الحاضر أبعادها الفذة المعجزة ـ كان ولا يزال هو الخليفة فى الأرض.

وكما يمكننا أن نفرق فى الكائنات بين الحياة والموت، فإنه يمكننا بإحكام ودقة أكبر أن نفرق فى الكائنات بين الإدراك وعدم الإدراك، ثم بين المستويات المختلفة للإدراك فيما يتعلق بالكائنات التى تتمتع بهذه القدرة أو الصفة. وسنرى من استعراض سلم الكائنات أن الإنسان يتربع على قمة الدرجات بالنسبة لمستوى الإدراك حتى فوق مستوى الملائكة ـ وقد سجدوا لآدم ـ وذلك يرجع لإرادة الله وحده ومشيئته وحدها، وهو الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم. نفخ فيه النفخة الربانية الروحية التى جعلته يتربع كما قلنا على قمة درجات سلم الكائنات من حيث الإدراك فى مستواه العقلى ومستواه الروحى أو الفؤادى. ونعتقد أن الإنسان هو حجر الزاوية فى مجموعتنا الشمسية كلها، على الأقل فى حدود ما يحيطنا الله به علما من خلال نشاطينا الفكرى والروحى. الخير متصل بالإنسان، والشر متصل بالإنسان، والحقيقة الإبليسية متصلة بالإنسان. وحقيقة الساعة متصلة بالإنسان. واليوم الآخر متصل بالإنسان. والثواب فيما نعرف من لذة الجنة متصل بالإنسان. والعذاب فيما نعرف من ألم النار متصل بالإنسان. والخلود فيهما متصل بالإنسان. وهذه كلها أمور تجمعها فكرة الدين لأن الدين يحقق ويقيم قانون الإسلام المتصل بكل مراتب الوجود وكل درجات الكائنات وكل أنواع المخلوقات فى الكون الطبيعى وفيما وراء الطبيعة. وبذلك يتصل الإسلام بالإنسان كما يتصل الدين بالإسلام. وتكون فكرة الدين فكرة وثيقة الصلة من لوازم طبيعة التركيب الكونى ذاته بما فيه الإنسان. لأن الوجود يتطور من طور إلى طور، كما يتطور الإنسان من النطفة فى أطوار متعاقبة حتى يصير ـ خلقا آخر ـ هو ذلك الإنسان الذى يتطور

أيضا مع عوامل ڤيسيولوجيته وبيولوجيته فى اتصال بعنصر الزمن حيث يذوق الحياة ويذوق الموت، وهما حالتان مخلوقتان بواسطة الله سبحانه وتعالى، خالق كل شىء وأحسن الخالقين.

الإنسان منذ هبوط آدم الأول كانت الأرض هى موطن إقامته، استعمره الله فيها وجعلها مستقره المؤقت: ﴿.... ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ [البقرة: ٣٦]. والنظر إلى الوراء لا يفيد الإنسان إلا بمقدار ما يمنحه ذلك من خبرات وعظات ودروس. والنظر إلى الأمام هو الذى يفيد الإنسان. المستقبل هو دائما قبلة الرؤية الإنسانية. ولكن، إلى أى الأبعاد ينظر الإنسان إلى المستقبل؟ إن النظرة المستقبلية المقترنة بواقع الإنسان المعيشى على الأرض واستمرار التخطيط من أجل ترقى مستواه وتدعيم بنيانيه المدنى والحضارى يجب أن تقترن بنظرة تتجاوز هذه الحياة التى يعيشها فى الأرض، إلى الحياة التى يعيشها فى البرزخ ثم الحياة التى يعيشها فى الآخرة، بعد مرحلة القيام والحساب. وليست هذه الرؤية خروجا عن الواقع، بل إن هذا التفكير هو عين التفكير الواقعى، لأن الإنسان ليس خالدا فى معيشته فى الحياة الدنيا، بل هو كائن فان يدركه الموت، ومن ثم يجب أن يتذكر دائما حقيقة الموت هذه، وهى حقيقة واقعة، النظر إليها يعتبر من ثم نظرا واقعيا، تلك الحقيقة التى تجعل من الضرورى على الإنسان أن يربط تخطيطه من أجل البقاء والعمران فى الدنيا، بالتخطيط من أجل البقاء والعمران فى الآخرة؛ لماذا؟ لأن الإنسان يموت.

وفكرة الحياة الآخرة فكرة أساسية من مقومات الإيمان وشروطه. وقلنا إنه قبل أن يستقر الإنسان على نمط معين من الحياة الآخرة، سواء بالعذاب أو النعيم، فإنه يمر بيوم القيامة أو ما يسميه القرآن الساعة أو الحساب، وهو الموقف الذى يعقب البعث من القبور: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]. وربما أمكن للإنسان أن يعرف مستقبله فى الحياة الآخرة بمجرد انتقاله من الحياة الدنيا بالموت إلى الحياة البرزخية. ذلك أن القبر الذى يحتوى روح الإنسان بعد تحلل جسده هو كما قلنا سالفا فيما ورد عن النبى: إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار. ويحدثنا الإمام البخارى فى صحيحه أن النبى ﷺ مر على شهداء بدر فخاطبهم ملقيا عليهم السلام، وأنه ﷺ أجاب الذين كانوا معه عندما سألوه هل يسمع الموتى سلامهم، بأنهم يسمعون، وبأن الأحياء ما هم بأسمع من أولئك الذين ماتوا وأقبروا، ولكنهم لا يستطيعون الإجابة، وهذا بسبب بسيط وهو أن الأرواح لا تتصل بالأجساد فى التعبير وإبلاغ المفهوم الذى تريد إبلاغه، ولكن تتصل بما يشاكلها من أرواح. كما يحدثنا الإمام البخارى فى صحيحه أيضا عن ذلك المكان الذى مر عليه النبى ﷺ وقال عنده: إن الرجل الميت المدفون يعذب فى قبره ووضع على مكان دفنه جذعا من نخلة لعله يخفف عنه العذاب إلى أن ييبس الجذع. ونعلم من صحيحى البخارى ومسلم أيضا أن النبى ﷺ كان يتعوذ من عذاب القبر. والحياة البرزخية هى حياة روحية صرفة، لكن فيها تذوقًا للذة أو النعيم وللألم أو العذاب.

المسألة ليست هزلا بالنسبة للإنسان وعلاقته بالله تبارك وتعالى، بل فيها الجدية كل الجدية: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] . وحتى القرآن الذى حمل - ضمن ما حمل - هذه المعانى هو قول فصل وما هو بالهزل. والإنسان جزء من هذا الكون العظيم: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٦، ١٧] .

حياة الإنسان فى الأرض ذات أهمية خاصة. فالفترة التى يعيشها كل فرد من الإنسانية فى حياته الدنيا تكتسب أهميتها من كونها الأساس الذى سيكون عليه الموقف الفردى لكل إنسان ساعة الحساب يوم القيامة: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. فمن خلال حقيقة تسجيل كل إنسان على نفسه أعماله الدنيوية التى تظهر صورتها التسجيلية أو شريطها التسجيلى يوم القيامة فإن الإنسان يردد ما يقرره القرآن: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

نعود بعد ذلك كله إلى الإنسان الذي أراد الله له أن يحيا حياته الدنيوية، وأن يموت فينتهى طور هذه الحياة الدنيوية، ثم يعيش حياته البرزخية ثم تنتهى هذه الحياة البرزخية بالبعث ليحيا حياته الآخرة المستمرة يومذاك، وهى حياة خالدة وليست مؤقتة كالحياة الدنيوية أو البرزخية. إن هذا الإنسان سيلاقى مصيره شاء ذلك أو لم يشأ. آمن بذلك أو لم يؤمن، استعد لذلك أو لم يستعد. ومن هنا تظهر أو تتضح أهمية التفكر فى يوم القيامة واستمرار تذكر هذا اليوم الذى سيواجه حتما كل إنسان ولد وعاش ومات فى هذه الأرض فى الحياة الدنيا.

هذه كانت مهمة الرسل الكرام بالنسبة للإنسان فى الأرض، وهذه كانت مهمة الرسول الخاتم بالنسبة للناس أجمعين فى الأرض منذ أن بعث هذا الرسول وحتى تنتهى حياة الإنسان على الأرض ويبعث الله من فى القبور. من هذا المنطلق يمكننا أن نفهم حرص الرسل على المرسل إليهم فى أن يتبع الآخرون ما جاء به الأولون وما كانوا يدعون إليه. إن النظر إلى الأمام هو سبيل التقدم الموصول بكلام الله. ذلك أن الاتصال بكلام الله هو اتصال بالله، والاتصال بالله هو «الضمان» للعيش فى نعيم وسعادة فى الحياة الآخرة، فضلا عن الحياة الدنيا. ومن هذا المنطلق يمكننا أن نفهم أبعاد صفات الرحمة والرأفة التى كان يحملها الرسول الخاتم ويوجهها نحو المؤمنين، ونحو البشرية جمعاء: ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ لقد كان هذا الرسول يدعو الناس كافة إلى عبادة الله وحده والإيمان بكتبه ورسله والإيمان بالرسول الخاتم والكتاب الخاتم. وذكر القرآن - على سبيل المثال - ما كان يجيش فى نفس هذا الرسول

الخاتم تجاه البشرية حين تنكر رسالته وتنكر القرآن الذى نزل عليه. وهو يعرف صلوات الله وسلامه عليه المصير الذى ينتظر هذه البشرية يوم القيامة، وكذلك هو يعلم حتمية مواجهة هذا المصير: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]. والرسول جاء شاهدا ومبشرا ونذيرا فهو البشير وهو النذير، البشير بالسعادة والنعيم اللذين سماهما القرآن بالجنة ووصف حالاتها ومستوياتها فى أمثلة أوردها فى نصوصه. . . والنذير بالشقاء والعذاب اللذين سماهما القرآن النار أو الجحيم ووصف حالاتها ومستوياتها فيما أورده من نصوص من خلال آياته.

وسنبدأ بالحديث عن مصير الإنسان النهائى الذى سوف يعيشه فيما نعرف من الحياة الآخرة فيما يعرف «بالجنة والنار». وهما نمطا الحياة التى سوف يحياها كل فرد فى استمرارية متصل أمرها بمشيئة الله تعالى وحده الذى هو وحده ـ يوم القيامة أو يوم الدين ـ ملك ذلك اليوم أو مالك ذلك اليوم: ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وفى قراءة أخرى: ﴿ ملك يوم الدين ﴾.

الجنـــة:

الجنة حالة يعيشها الإنسان فى مكان محدد من كون الله الفسيح، وهى خاصة بأفراد من النوع الإنسانى بلغت نفوسهم فى الحياة الدنيا درجة عالية من السمو الناتج عن الصفاء والأخلاق العالية الموصولة بالله وكتبه، تكون فيه النفس فى المستوى الذى يصفه القرآن بالاطمئنان: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي* وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]. ونذكر فى هذا المجال أيضا ما ثبت فى المأثور عن النبى وصحابته عندما قال الرسول ﷺ للصحابة الجالسين معه إنه يدخل عليهم الآن رجل من أهل الجنة، والذى اتضح بعد الاتصال به عن قرب ـ غالبا من جانب عبدالله بن عمر ـ أنه كان يتميز بخاصية النفس الصافية المطمئنة فى مستواها الذى يتضح من قول ذلك الرجل عن نفسه إنه كان يبيت الليل، وليس فى نفسه شىء أى ضغينة أو سوء لأحد من الناس. ومن هنا ندرك أهمية تركيز الدين على صفاء نفس الإنسان وتحليها بالأخلاق الفاضلة بما يضفى عليها الاطمئنان والطمأنينة والسكون الذي هو الصفة الأساسية لأهل الجنة الأخروية، وهى الصفة التى يبينها القرآن فى تقريره ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧]. ذلك أن الغل أو الضغينة أو الحقد أو الحسد أو الكبر أو النفاق وبصفة عامة إضمار النفس بالشر والسوء هى مداخل ما يسميه القرآن «الشيطان» إلى النفس الإنسانية. فكل نفس لها شيطانها وهو لها قرين: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]. لهذا كما قلنا ركز الدين على النفس الإنسانية

يدعو إلى تزكيتها ويطهرها ليسمو كل إنسان إلى الآفاق العليا لأخلاقيات الدين وقيمه، وقد جمع الرسول ﷺ هذه المعاني جميعا في كلمات معدودة بالغة العمق في دلالتها على هذا المعنى المقصود فيما روى أنه حدث به صلى الله عليه وسلم في قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وكان سلوكه في الحياة الدنيا هو السلوك الأخلاقي في قمته حتى وصفه الله سبحانه وتعالى في القرآن بما نصه: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ ومن هنا كان سر الاقتداء بالرسول ﷺ، فهو سراج للاقتداء ونور للاهتداء فيما كان يدعو إليه ويمثله في واقع حياته في عصره من عقيدة وعبادة وأخلاق وتشريعات للتعامل جمعها القرآن، وكان هو ﷺ على شاكلتها في القرآن في الفكر والسلوك حتى إن السيدة عائشة رضي الله عنها وصفته بأنه «كان خلقه القرآن» ولعل هذه المعاني جميعا هي التي كان يركز عليها أولئك النفر من المؤمنين الذين اهتموا أساسا في المقام الأول بجوهر الدين وروح القرآن، ثم بعد ذلك بشريعته ومنهاجه على طول العصور التي مر بها الإسلام في الأرض، وهم الذين أطلق عليهم تعبير «الصوفية» أو «المتصوفة» وهو التعبير الذي اختار له أستاذنا الإمام محمد ماضي أبو العزائم المعنى الذي يقول: إن الصوفي هو من صفا حاله وصفت نفسه فصافاه الله فسمي «صُوفي»، وهو فعل ماض مبني للمجهول، لقد كان صفاء النفس وتربيتها هما الأساس الذي ركز عليه هؤلاء طريقتهم في التجربة الدينية في الحياة اليومية. ذلك أن الدين واضح كل الوضوح في أن النفس الإنسانية تحوي مداخل الشيطان بما ينزع إليه من أعمال السوء والشر والإضرار بالغير ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣]. والشيطان ذو صلة عميقة بالنفس الإنسانية، والنفس الإنسانية ذات صلة بالمقومات الأساسية للهيكل الإنساني كله بجسده وروحه. والشيطان عن طريق هذا الهيكل الإنساني المتكامل هو المدخل إلى النار، بينما المدخل إلى الجنة يكمن في إبعاد الشيطان عن النفس أو إبعاد النفس عن الشيطان بحيث يرتقي الإنسان في درجات العبودية لله، بحيث لا يكون للشيطان أي سلطان على العبد الموصول بالله وبأخلاق رسول الله: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢]. هذا الطراز من العبودية قوامه فرد أسلم وجهه لله وأخلص ظاهره وباطنه لله، تخلق بأخلاق قرآن الله فأخلصه الله لذاته فكان خالصا ومخلصا. ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]. ونحن نعلم أن النبي ﷺ قد أعانه الله على نفسه حتى أسلم له قرينه. ونكتفي بهذا القدر من الحديث عن الشيطان لأن موضوع حديثنا هو عن الجنة.

الجنة مراتب ومستويات يعيش فيها الإنسان بحسب مرتبته الروحية الأخلاقية، ومستواه الروحي والأخلاقي الذي كان عليه في الدنيا، فقد ذكر القرآن لفظ (جنتان) في تقريره: ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ وذكر أيضا ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ وذلك في سورة الرحمن. وقد

ذكر بالنسبة للجنتين الأوليين أنهما ﴿ ذواتا أفنان ﴾ أى ذواتا أغصان متفرعة، وثمار متنوعة يمتد من خلالها الظل. كما وصف هاتين الجنتين نفسيهما فى سورة الرحمن بأنهما ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾، ﴿ وفيهما من كل فاكهة زوجان ﴾، ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾، ﴿ وفيهما قاصرات الطرف لم يطمثهن إنسٌ قبلهم ولا جان ﴾، وزاد فى وصف هؤلاء النساء اللائى فى هاتين الجنتين بأنهن ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾، والناس يعيشون فى هاتين الجنتين ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ﴾. ثم تحدث القرآن عن الجنتين الأخريين، وهما أقل فى المستوى فى المرتبة من الأوليين: ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ فوصفهما بأنهما ﴿ مدهامتان ﴾ أى شديدتا الخضرة، وأن فيهما عينين نضاختين، و﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ وأن فيهما خيرات حسانا. ثم زاد فى وصف النساء فى هاتين الجنتين بأنهن حور مقصورات فى الخيام لم يطمثهن من قبل إنس ولا جان، وأن أهل هاتين الجنتين متكئون ﴿ على رفرف خضر وعبقرى حسان ﴾ . والمقصود من ذلك كله هو إعطاء صورة يستطيع أن يفهمها الإنسان يميل ويتطلع وينجذب إليها بطبعه الفطرى فى حياة فيها عطاء من الله تبارك وتعالى يعيش فيها الإنسان فى نعيم ولذة دون أن يكدح أو يكد فى العمل أو يتخاصم ويتنازع مع الآخرين الذين يعيشون معه نفس مستوى الحياة الذى يكون فيه العطاء للجميع لا حرمان معه لأحد ولا تفاوت هناك بين أحد وغيره. فالعطاء هناك يزيد عن الاحتياج، والأخذ فيهما مسموح به ومتاح بغير حدود بحسب مستوى الجنة التى يعيش فيها الإنسان من خلال مستواه الذى يؤهله للحياة فى جنة من الجنات.

كذلك استعمل القرآن لفظ «جنات» والصفة العامة لهذه الجنات أنها:

١ ـ تجرى من تحتها الأنهار.

٢ ـ أن فيها نعيما.

٣ ـ أن فيها خلودا للإنسان.

٤ ـ أن للإنسان فيها ما يشاء حسب حاجته وبما يزيد عن هذه الحاجات.

٥ ـ أن فيها من اللباس والزينة ما يعتبره الإنسان أنه نفيس.

٦ ـ أن فيها مساكن طيبة.

٧ ـ أن الحياة فيها حياة كريمة يكرم فيها الإنسان بكل أنواع الخيرات.

٨ ـ اختار القرآن لهذه الجنات اسمين هما: جنات عدن وجنات الفردوس.

٩ ـ أن عرضها كعرض السموات والأرض.

كذلك استعمل القرآن لفظ الجنة فى استعمالات عديدة قصد منها أحيانا أماكن فى الأرض

أثناء الحياة الدنيا كما في سورة البقرة: ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ..... أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥، ٢٦٦] . ونفس المعنى ورد فى الآية ٩١ من سورة الإسراء والآية ٨ من سورة الفرقان والآية ١٧ من سورة القلم والآيات ٣٥، ٣٩، ٤٠ من سورة الكهف. والجنة فى اللغة هى البستان وفيه الشجر الكثير يستر من بداخله عمن بخارجه.

وأول ما استلفت النظر هو ذلك النعيم الحسى الذى وصف به القرآن الجنة ومن يحيا فيها، إلى جانب المستوى النفسى الرفيع الذى يكون عليه أهل الجنة. ثم تحدث القرآن عن أمر بالغ الأهمية بالنسبة للجنة حينما ذكر فى عديد من آياته مبينا ماهية حقيقة الجنة عن طريق ضرب الأمثلة التى يمكن للإنسان في الأرض أن يتفهمها، فذكر على سبيل المثال فى سورة محمد فى الآية ١٥ : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾. والأمثال فى القرآن تضرب للتذكير والتدبر، ونعتقد ـ والله أعلم ـ أن المقصود هو بيان طبيعة النعيم الذى يحيا فيه أهل الجنة، فهو نعيم قوامه بالنسبة للجسد، اللذة الجسدية، وبالنسبة للروح اللذة الروحية والنفسية، والناس حسب مستوياتهم تتفاوت مستويات جناتهم، وقد أوضح القرآن ذلك فى سورة الواقعة، حينما ذكر مراتب ثلاثا للناس، أهل اليمين وأهل الشمال وأهل السبق. فأما السابقون فهم أهل الدرجات العليا فى الجنة، وأما أصحاب اليمين فهم أهل الجنة، وأما أصحاب الشمال فهم أهل النار. ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨ ـ ١١]. هاتان مرتبتان للجنة ولأهل الجنة: المرتبة الأولى هى مرتبة السابقين السابقين، وأولئك هم ﴿ثلة من الأولين* وقليل من الآخرين﴾، والثلة هى الجماعات الكثيرة، والمقصود جماعات الأمم السالفة الذين آمنوا برسالات الأنبياء السابقين على النبى الخاتم، وقليل من الآخرين أى جماعة أقل من الثلة السابقة، وهم الجماعة الذين يدخلون الجنة من أمة محمد ﷺ، وهؤلاء السابقون يعيشون فى نعيم يذوقون فيه اللذة الجسدية واللذة الروحية بحيث تكون اللذة الروحية بالنسبة لهم أسمى وأعلى من اللذة الجسدية، لأنهم فى مقام يكونون فيه مقتربين من الله تبارك وتعالى، ولذة القرب من الله تبارك وتعالى هى لذة روحية يكون فيها الاستمتاع نابعا من رضا الله عن الفرد المقرب فى مقام القرب من الله ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ثم بعد ذلك وصف بعض مظاهر نمط حياتهم الجسدية التى يذوقون فيها النعيم واللذة بعبارات ميسرة يستطيع أن يفهما الإنسان من خلال ما هو مشهود له فى الحياة الدنيا حتى يستطيع الإنسان أن يتمثل ويتصور بعض الشىء من خلال الواقع المحسوس له فى الدنيا بعضا من حالات النعيم التى سيعيشها فى الجنة والتى فيها فى حقيقة الأمر أمور

وحالات من النعيم لم يجربها الإنسان من قبل، وهو المعنى الذى قصد إليه الرسول ﷺ حين قال إن فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، أى على عقل بشر. أما المثل المضروب لهؤلاء المقربين وهم ﴿ثلة من الأولين وقليل من الآخرين﴾ بالنسبة للنعيم فى مستواه الحسي فيقرر بشأنه القرآن فى سورة الواقعة أيضا ما نصه: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة: ١٥ ـ ٢٣]. هذا الصنف من الناس الذى يعيش فى مجتمع الجنة هو على أعلى مستوى من الصفاء النفسى والحسن الأخلاقى يعيش فى نعيم دائم ولذة دائمة للجسد والروح معا فى مستوى من الجنة يصفه القرآن ماينعقون فيها عن قوله ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾. فالمجتمع يومئذ مجتمع يسوده السلام ويحيطه الله بالسلام وهو السلام سبحانه وتعالى، وهو مجتمع يعيش على هذا النمط من الحياة نتيجة أعماله الصالحة فى الحياة الدنيا وتحليه بصفات وأخلاق عالية متميزة فى الحياة الدنيا، واستقام بها ومعها سلوكه فى هذه الحياة. ثم تحدث القرآن فى المرتبة الثانية من أهل الجنة، وهم أصحاب اليمين الذين يصف القرآن النعيم الحسى فيما أورده من آيات فى سورة الواقعة ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة: ٢٨ ـ ٣٧]. هذا النعيم الحسى موصوف للإنسان فى الحياة الدنيا وخاص بأصحاب اليمين الذين يزيد عددهم عن عدد المقربين ﴿ثلة من الأولين* وثلة من الآخرين﴾ ويقول فيهم القرآن فى ختام سورة الواقعة ﴿فأما إن كان من المقربين* فروح وريحان وجنة نعيم* وأما إن كان من أصحاب اليمين* فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ والمقصود بسلام لك هو اطمئنان قلب الرسول ﷺ بما يعيشه أهل اليمين من نعيم فى الجنة حتى ولو كانت مرتبته أقل من مرتبة المقربين: ﴿وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ [الزخرف: ٧٢].

إن الحياة التى يحيا فيها الإنسان المؤمن فى الجنة، والمكانة التى يكون فيها ليستا وليدتى الصدفة. فالصدفة ليس لها محل فى هذا الكون. وليس لها محل بالنسبة لوجود الإنسان فى الأرض أو خلقه الأول ولا بالنسبة لحياته المستمرة مع تعاقب الأحداث فى الأرض عبر الأجيال الإنسانية المختلفة. وإنما للكون غاية، ولوجود الإنسان غاية، ولحياته المستمرة مع تعاقب الأحداث عبر الأجيال الإنسانية المختلفة غاية. هذه الغاية هى التعرف على الإله والالتزام بطاعته فيما يأمر به أو ينهى عنه أو يدعو إليه من خلال كل صور الهدى الآتى بالإنسان فى الأرض بالوحى من الله سبحانه وتعالى.

وهذه الطاعة هى معنى العبادة التى تتخذ صورا وأشكالا عديدة يتفاوت تأثيرها الروحى

والأخلاقى على الإنسان من فرد إلى فرد. والعبادة بأشكالها ومضامينها العديدة تدخل فى إطار ما يسميه القرآن بالعمل الصالح الذى يقترن بالإيمان الكامل. والإيمان الكامل والعمل الصالح هما منهاج فكر وعقيدة نظرا إلى جانب كونهما شريعة حكم وسلوكا وتطبيقا. ومهمة الإنسان فى الأرض هى أن يلتزم بالاثنين معا ومكوناتهما: عقيدة وعبادة وأخلاق ونظام تشريعى كامل دائم التطور.

فالعملية إذن عملية شاقة يقترن بها جهاز شاق تدخل فيه النفس ابتداء، كعامل أساسى لأنها هى الأساس الذى ينبنى عليه البنيان الفردى الذى يتولى بعد ذلك إقامة أسس البنيان الأسرى والاجتماعى والشعوبى، أو العلاقات بين الشعوب وما يعرف الآن بالعلاقات الدولية. ونتيجة هذا العمل الشاق المستمر الذى يقترن بالكد والجهاد والصبر عليهما مع المثابرة بما نعرفه من التجارب الإنسانية القديمة والحديثة، تتوقف النتيجة على مدى تحقيق الغاية أو عدم تحقيقها، وهى كما قلنا المعنى الواسع العريض لعبادة الله. إن الطريق إلى الجنة ليس طريقا معبدا بالورد. . . إنه طريق شاق يميز الله به - من خلال الأحداث المتصلة به - بين الإنسان الذى يستحق بشخصه أن يدخل الجنة وبين ذلك الذى لا يستحق بشخصه أن يدخل الجنة. كل ذلك من خلال أحداث الحياة الدنيا التى تعتبر امتحانا طويلا يحتاج إلى الاستعداد والصبر والمثابرة والمرابطة والجهاد لتكون نتيجته هى النجاح فى الآخرة، وذلك النجاح الذى يتمثل فى دخوله الجنة بمقاماتها المتفاوتة من القرب الروحى من الله تبارك وتعالى ورسوله، وبما فيها من لذة ونعيم إلى جانب اللذة والنعيم الحسيين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وفى سورة آل عمران يقرر القرآن نفس المعنى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. وفى سورة التوبة يقرر القرآن نفس المعنى ويخص بالذكر فى هذا المجال بالذات الجهاد فى سبيل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

ويمكن أن نقول بصفة عامة بالإضافة إلى ما ذكرنا: إن الطريق المؤدى إلى الجنة يرتبط فى الحياة الدنيا بأمور اعتقادية إيمانية، وسلوكية فردية واجتماعية، أهمها:

١ - الإيمان بشروطه الكاملة والعمل الصالح.

٢ - التقــــوى.

٣ - الإنفاق فى السراء والضراء.

٤ ـ كظم الغيظ والعفو عن الناس .

٥ ـ الإحســـــان .

٦ ـ ذكر الله والاستغفار من الذنوب والفواحش أو ظلم النفس مع عدم الإصرار على الفعل .

٧ ـ الهجرة إلى الله (بمعناها النفسى الأخلاقى) .

٨ ـ الإخراج من الديار والإيذاء فى سبيل الله .

٩ ـ الجهاد فى سبيل الله والموت فى سبيل الله .

١٠ ـ طاعة الله والرسول والإيمان بالله والرسول .

١١ ـ الصــــدق .

١٢ ـ الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال .

١٣ ـ الوفاء بعهد الله وعدم نقض الميثاق .

١٤ ـ وصل ما أمر الله به أن يوصل ، وخشية الله ، ومخافة يوم الحساب .

١٥ ـ الصبر ابتغاء مرضاة الله .

١٦ ـ إقامة الصلاة ، والإنفاق فى سبيل الله سرا وعلانية .

١٧ ـ درء السيئة بالحسنة .

١٨ ـ الإخلاص فى الدين وفى العبادة .

١٩ ـ اتباع سبيل الله .

٢٠ ـ عدم حب وعدم موالاة من حاد الله ورسوله ، أى من عادى الله ورسوله ولو كانوا من ذوى قربى .

٢١ ـ التوبة النصوح .

٢٢ ـ قامة الصلاة .

٢٣ ـ إعطاء السائل والمحروم حقهما المعلوم فى المال .

٢٤ ـ التصديق بيوم الدين .

٢٥ ـ الإشفاق من عذاب الله .

٢٦ ـ عدم الزنا .

٢٧ ـ مراعاة الأمانة والعهد مع الله ومع الناس .

٢٨ ـ عدم كتمان الشهادة .

٢٩ ـ المحافظة على الصلاة فى شكلها وجوهرها .

٣٠ ـ الاستغفار .

٣١ ـ عدم الخوض مع الخائضين فى الباطل فى الفكر والحديث .

٣٢ ـ التخلق بأخلاق القرآن والاقتداء بأخلاق الرسول ﷺ .

٣٣ ـ إسلام لوجه لله . وتوحيد الله وهو دين الرسل والأنبياء أجمعين .

٣٤ ـ البر . أى استيفاء شروط البر ، وأن يكون الإنسان من الأبرار . والله سبحانه وتعالى لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

والحياة الدنيا تتصارع فيها الأعمال من خلال تأثير عاملين أساسيين هما الخير والشر . هذان العاملان هما اللذان يحددان مصير الإنسان النهائى الذى هو المصير الحقيقى ، لأنه المصير الذى يعيشه الإنسان فى استمرارية لا تعرف التأقيت أو بعبارة أخرى فى خلود . فالعمل الصالح له جزاؤه الناتج من العدل الإلهى . هذا الجزاء هو الذى عبر عنه القرآن بالجنة : ﴿ تلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ عبر عنه أيضا في الآية ٨٢ من سورة البقرة : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٨٢] . وتعبيره ـ ﴿ أورثتموها ﴾ تعبير دقيق ومعبر ، فهو يقيم الوصل بين الإنسان وبين الإله ويوضح الغاية تمام التوضيح . فالإنسان لا يرث الجنة نتيجة أعماله الصالحة ، وإنما الإله تبارك وتعالى هو الذى يورثه هذه الجنة نتيجة أعماله الصالحة ، وهو معنى يتمشى مع فكرة أن الإله تبارك وتعالى هو الوارث لكل شىء ، كما فى قول القرآن : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الحديد : ١٠] الذى يورثه الله الجنة هو إنسان يكون قد ذاق الموت ثم بعثه الله ثم حاسبه ثم أدخله الجنة ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد : ٦] . وهم عندئذ فى مجتمع كما قلنا سالفا يحيطه السلام بالسلام : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٣٢] . وفى مكان آخر يذكر القرآن أمر ميراث الجنة ويوضح أن الميراث بفضل الله وإرادته ، وذلك حين يقرر فى سورة مريم فى الآية ٦٣ : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ .

إن الجنة الحقيقية هى جنة القرب من الله تبارك وتعالى ، والنظر إلى وجهه الكريم . هذا هو النعيم الحقيقى لأهل اليقين ، واللذة الحقيقية لأهل اليقين . فالجنة فى مضمونها هى اللذة والنعيم ، والنار فى مضمونها هى العذاب والألم . وبهذه المعانى من النعيم واللذة الروحية يدخل أهل اليقين الجنة العاجلة فى الحياة الدنيا موصولين بالله وأسمائه ، بينما جنتهم فى

الآخرة هى أن يستمر هذا القرب من الله تعالى حيث تشهد وجوههم الناضرة الجمال الربانى ، كل منهم على قدره أى على قدر الناظر ، وليس على قدر المنظور . فهؤلاء وجهتهم دائما إلى الله تبارك وتعالى ، وجنتهم هى قربهم من الله تبارك وتعالى ، وهم المتوجهون بالكلية إلى الله ، فوجوههم إليه ناظرة بهذا المعنى ، والنعيم واللذة الحسيان عندهم دون وأدنى من نعيم ولذة الروح التى يحيا فيها الإنسان قريبا من مظاهر أنوار أسماء الجمال الإلهية ، وفى هذا المشهد يقول أستاذنا محمد ماضى أبو العزائم رضى الله عنه :

أنا لا أخــــاف وحــــقــــه من ناره	كــلا ولا أبغى الجنـان لطيــبــهــا
فــالقــرب منه جنتى ونعــيـمـهـا	والبــعــد عنه نـاره ولهــيـبـهــا

النــــــار:

كما قلنا بالنسبة للجنة نقول بالنسبة للنار ، أى كونها حالة فى المكان . والجنة والنار لكل منهما قسم معلوم من البشر : ﴿ **فريق فى الجنة وفريق فى السعير** ﴾ ولعل أهل النار هم الكثرة لأن القرآن يحدثنا عن أهل الجنة من المقربين وأصحاب النعيم أنهم ﴿ **ثلة من الأولين** ﴾ ﴿ **وثلة من الآخرين** ﴾ أو ﴿ **ثلة من الأولين وقليل من الآخرين** ﴾ . وربما كانت القلة المذكورة هنا هى القلة الخاصة بهذه الدرجة أو المكانة من الجنة . وهى درجة أو مكانة عالية لا يدركها إلا من تحلى بصفات المقربين أو أهل اليمين . وبصفة عامة فإن الجنة ـ كما يخبرنا القرآن ـ ﴿ **يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾ . ذلك أن الذين صبروا إنما يوفون أجورهم يوم القيامة بغير حساب . وربما كان هؤلاء من الذين يشملهم الوصف القرآنى الذى يذكر النبيين والصديقين والشهداء وهم رفقاء فى الجنة . أما الدرجات التى تقل عن هذه الدرجات العالية للجنة ، التى ينعم بها ذوو الصفات المعنية ، فإن فيها غالبية الذين يتحلون بالصفات العامة للذين يدخلون الجنة والتى تحدثنا عنها عندما كان موضوع حديثنا هو الجنة . نكتفى هنا بهذا القدر عنها إذ إن حديثنا فى هذا الموضوع هو عن النار .

لأهل النار من البشر صفات نخص منها بالذكر المشركين بالله والكافرين والمنافقين ومرتكبى الكبائر ، وهى صفات تدور على محورين أساسيين يقوم عليهما أمر الإنسان . . .

المحور الأول : العقيدة والفكر .

المحور الثانى : السلوك .

وربما دخل فى المحور الأول الصفات الثلاث الأولى التى ذكرناها سالفا ، وهى الشرك بالله والكفر والنفاق ، وربما دخل فى المحور الثانى الصفة الرابعة التى ذكرناها سالفا ، وهى ارتكاب الكبائر . ومع ذلك يمكننا أن نقول استنادا إلى القرآن ذاته : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨]، من منطلق أن رحمة الله سبقت غضبه وأن مشيئته لا قيود تحدها. وهذا يقودنا إلى قضية التوحيد، وهى قضية تتصل بالألوهية أوثق اتصال فيما تقرره من أن لا إله إلا الله. والأمر هنا لا ينعكس أثره بأى تأثير على الله سبحانه وتعالى سواء بالنفع أو الضر. لأن الله غنى عما سواه وهو لا تنفعه طاعة المطيعين ولا تضره معصية العاصين، كما أنه لا يؤثر فى جناب الله أن يؤمن به من يؤمن أو يكفر ويشرك، به من يكفر أو يشرك فقد شهد الله أنه لا إله إلا هو، كما شهد بذلك الملائكة وشهد بذلك أولو العلم، وهو سبحانه وتعالى قائم بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم. فالأحدية حقيقة ثابتة يعلمها الله ذاته: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو... ﴾ وكل ما سوى الله من مخلوقاته سبحانه وتعالى مفتقر إلى الله، بينما لا يفتقر الله إلى غير ذاته. ومن هنا فإن الأمر ينعكس تأثيره على خلق الله سواء بالنفع أو الضر، ذلك أن كل خلق الله كما قلنا مفتقر إلى الله ولا غنى لأى مخلوق عن خالقه. ومن هنا كانت فكرة الدين التى تقررت بعد الآية التى ذكرناها متممة لتشهد أنه لا إله إلا الله: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ ففكرة الدين هى القاعدة الأساسية التى تحكم وجود المخلوقات كلها فى الكون كله بكل مكوناته التى نعرف والتى لا نعرف، التى نرى والتى لا نرى. والإسلام المقصود هنا هو جوهر التسليم الكامل لمقتضى أمر الله سبحانه وتعالى، كما تنزل فى سور الهدى المختلفة التى أتت إلى الإنسان بواسطة مختارين من النوع هم الأنبياء والمرسلون، قص علينا القرآن من قص وترك بعضا منهم لم يقصص علينا. والإسلام قانون طبيعى تخضع له المادة، وتخضع له الطاقة، ويخضع له الجماد والنبات والحيوان، كما يخضع له الإنسان، وتخضع له الملائكة والجن، ويخضع له كل من أو ما قد يكون موجودا فى الكون من كائنات وموجودات ما زلنا لا نعلم عنها شيئا. والدين فى جوهره واحد حتى مع اختلاف الوسائط المبلغة له من الأنبياء والمرسلين: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]. والإسلام تختلف مظاهره حسب اختلاف أنواع المخلوقات والتى ذكرنا منها أصنافا فيما سبق. والصفة المشتركة فى الإسلام التى تخضع لها المخلوقات والكائنات جميعا هى صفة القانون الذى يسميه القرآن «سنة» التى ينسبها إلى الذى وضعها اهتداء، وهو الله تبارك وتعالى لتكون بحسب التعبير القرآنى «سنة الله» وبحسب التعبير الإنسانى «قانون» يكون عند نسبته إلى الله «قانون الله».

يحدثنا القرآن عن النار فيقرر أن وقودها الناس والحجارة. والوقود طاقة تولد حرارة مصدرها النار. فالطاقة إذن تستوى مع النار ومع الوقود. ولما كان القرآن يقرر هنا المعنى الذى يؤدى إلى أن الناس والوقود متساويان، فإن ذلك والله أعلم يعنى أن هناك خليطا يمتزج

ويتفاعل قوامه الوقود والطاقة والنار والحرارة والناس والحجارة. والفرق بين الناس والحجارة هو الفرق بين الحياة والموت، أو بين الكائن الحى وبين الجماد المادى الذى لا حياة فيه. ويكون المعنى إذن ـ فى فهمنا ـ هو أن هناك حياة فى النار وموتا فى النار. وهما نقيضان ينتج عنهما حالة من الاستمرارية التى يتحقق معها الألم والعذاب، ولا يكون فيها حياة ولا موت دائمان، وإنما حالة مستمرة دائمة من الألم والعذاب، وهى الحالة التى يصفها القرآن فيما يكون عليه الناس فى جهنم: ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ [طه:٧٤]. ذلك أنه إذا مات الإنسان فإن استمرارية الألم والعذاب تنتهى، وإذا كان الإنسان حيا فإن تأثير الحرق الشديد الذى يؤدى إلى الموت عادة يكون غير متصور. ولكن الاثنين ـ الألم والعذاب من جانب والحريق من جانب آخر ـ يستمران فى خلود أبدى متصل بدوام المكان، بذلك تدوم وتستمر الحالة من العذاب فى المكان فى صلة من الإحساس الإنسانى البدنى والنفسى. فالنار تحرق الأبدان وتشوى الوجوه ويصل عذابها إلى الأفئدة: ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ [الهمزة: ٦، ٧]. وهذان أشد وأقصى أنواع العذاب والإيلام بالنسبة للكائن الإنسانى. ونفس الشيء يحدث بالنسبة للمخلوقات الذكية الأخرى التى تخضع للمسئولية والتى ذكر منها القرآن «الجان». ومن هنا نقول إن الفكرة فى النار هى فكرة الإيلام والتعذيب على أساس العقاب. كما أن الفكرة فى الجنة هى فكرة التلذذ والتنعيم على أساس الثواب. والأوصاف التى جاء بها القرآن للاثنين هى للترهيب والترغيب، بينما الأمر فى حقيقته فوق مقدور تصور البشر. وإنما ضربت الأمثال ووضحت الأوصاف والأحوال تيسيرا للذكر الإنسانى، وتقريبا للفهم البشرى حتى يمكن لكل فرد من البشرية أن يدرك حقيقة ما جاء من أجله الرسل مبشرين ومنذرين. والحقيقة أن النعيم فى الآخرة فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، أى عقل بشر، بينما العذاب عذاب أليم وشديد ومخيف. الأول يعكس رضاء الله تعالى، والثانى يعكس غضبه، فى جمال الأسماء الحسنى فى النعيم وجلالها فى العذاب الأليم، وهى الحقيقة التى كان يعلمها النبى ﷺ وقال بشأنها ما روته لنا كتب الحديث عنه فى قوله: «اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك». فهى صفات لها تجليات فى أفعال وتأثيرات مصدرها جميعا الذات الأحدية. والإنسان الناجى هو إنسان مات الشر فى نفسه وقامت قيامته وأبصر ساعته باليقين فى كل ساعة، رؤية منه للجحيم تبدأ من علم اليقين وتنتهى إلى عين اليقين. إنسان حاسب نفسه قبل أن تحاسب وساءلها قبل أن تساءل، يمشى فى الدنيا على الصراط المستقيم فى حياته حتى يدركه الموت، ويبعث مبصرا في الآخرة كما كان مبصرا فى الدنيا، نوره يسعى بين يديه، وبيمينه تتلقاه الملائكة بالبشرى: ﴿ هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ عرف فى الدنيا الطريق إلى باب الله وفى الآخرة تفتح له الجنة الأبواب. وقد

قرن القرآن الإيقان باليوم الآخر بالمتقين، كما فى بداية سورة البقرة، وبالخاشعين كما فى الآية ٤٦ من سورة البقرة، وجعل الإيمان باليوم الآخر من خصائص البرّ كما فى الآية ١٧٧ من سورة البقرة أيضا.

لا تبقى ولا تذر:

الله يخوف الإنسان بالنار. وهو بالتالى يخوف الإنسان بشىء معروف له وملموس لديه، والمشهود والمرئى له والمجرب، فالإنسان يعرف ما يمكن أن تؤتيه من آثار فى جسده درجات الحرارة العليا، ويعرف أن النار تختلف درجات حرارتها باختلاف المصدر الذى تتولد منه هذه الطاقة الحرارية. ويعلم أن الحريق المتولد من النار له آلام رهيبة. ويعلم أن هناك درجات عالية جدا من الحرارة يمكن أن تحرق الإنسان بما لا يبقى ولا يذر. فإذا أخذنا الشمس كمثال للطاقة الحرارية للمقارنة بدرجات الحرارة المعروفة للإنسان على الأرض أمكننا أن ندرك ونفهم ما كان يشير إليه الرسول ﷺ بما معناه: إن ناركم هذه جزء بسيط من نار جهنم. إن درجة الغليان المعروفة للإنسان فى الأرض هى مائة درجة مئوية، والإنسان لا يمكنه أن يتحمل جسده هذه الدرجة من السخونة أو التأثير الحرارى. ولكى ندرك قصد الرسول صلوات الله عليه وسلامه نشير إلى الشمس، وهى أقرب نجم نارى إلى الإنسان يراه الإنسان كل يوم ويعلم عنه بفضل تطور العلوم كثيرا من الخصائص. تبلغ درجة حرارة الشمس على السطح ٥٨٠٠ درجة مئوية. وتوجد نجوم نارية أخرى تزيد حرارتها السطحية على حرارة الشمس، إذ تبلغ ١٠٠٠٠٠ درجة مئوية، أما فى باطن الشمس فإن درجة الحرارة تبلغ ١٥ مليون درجة مئوية. ويعتبر هذا القدر من الحرارة قدرا متوسطا بين النجوم النارية، أى أن هناك درجات حرارة أعلى يمكن أن تصل إلى مئات الملايين من الدرجات المئوية. بهذا القدر من درجات الحرارة العالية ودرجات الإحراق الرهيبة، يمكن أن نفهم تقرير القرآن عن جهنم الذى يقرر أنها: ﴿لا تبقى ولا تذر﴾ [المدثر: ٢٨]. إن أى إنسان يوضع فى نار تبلغ درجة الإحراق الحرارية فيها مثل هذه الدرجات يتلاشى فى زمان لا يمكن قياسه.

الخــــوف:

طبيعة الخلقة الإنسانية يعلمها الله تبارك وتعالى علما كاملا، وهذه بدهية يقول فيها القرآن: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. يعلمها فى فسيولوجيتها الجسدية، ويعلمها فى كل مراتب وعيها وما يتصل بهذا الوعى من عوامل نفسية وصفات تنتج من تفاعل الأجهزة المختلفة التى يتكون منها الإنسان، بما فيها الجهاز العصبى والمخ بصفة

خاصة. وهى التفاعلات التى تكون شخصية الفرد وتنتج عنها صفات عديدة تختلف فى نوعيتها من فرد لآخر، وكذلك فى كمها من فرد لآخر، ومنها ما يتصف به الأفراد جميعا بصفة عامة.

والخوف من الصفات التى يشترك فيها الناس جميعا وإن كانت قد تختلف من حيث الكم والدرجة من فرد لآخر.

ومن هنا، فإن القرآن حين يبرز فى الكثير من آياته جانب الجلال فى أسماء الله الحسنى، وهو الجانب الذى يشمل التخويف من الله سبحانه وتعالى ومن عذاب الله الشديد، والتخويف من أهوال يوم القيامة، ومن أحوال الحساب فى ذلك اليوم، والتخويف من الأحداث التى تقترن بقيام الساعة من الكوارث الكونية، ثم بعد ذلك كله التخويف من عذاب النار وإحراقها - فإنه يواجه بذلك غريزة موجودة فعلا فى الكائن الإنسانى. ولكنه إذ يفعل ذلك فإنه يرتقى بالإنسان الذى يحمل صفة الخوف ليوجه هذه الصفة أو هذه الغريزة نحو مركز واحد فقط هو مركز الألوهية.

فالخوف يجب أن يكون من الإله وحده. ولا ينبغى أن يستغل البشر فيما بينهم هذه الغريزة ليخوف بعضهم بعضا، أو ليهددوا الإنسان فى حريته الفكرية وفى سلوكه المعتدل وفقا لإرادته المستقلة، وهو الأمر الذى يقرر القرآن فى شأنه: ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ... ﴾ وأيضا: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران ١٧٣]. والنتيجة: ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾[آل عمران ١٧٤].

فالدين ليس منبعه غريزة الخوف فى الإنسان - كما تذهب إلى ذلك بعض مدارس علم لنفس - ولكنه يتلاقى مع هذه الغريزة حين يسمو بها عن مستوى التعامل البشرى إلى مستوى التعامل مع الإله سبحانه وتعالى، إذ هو وحده الذى ينبغى أن يخشاه الإنسان ويخافه. أما من دونه من البشر فكلهم عبيد مربوبون متساوون فى الصفة الإنسانية، ومن ثم فلا ينبغى أن يكون تعاملهم ناتجا من الخوف واستغلاله لدى البشر. وكل ما يؤدى إلى التخويف من جانب بشر تجاه بشر آخر فهو ممقوت فى الإسلام - وفى كل الأديان - الذى يريد من أبنائه أن يوجهوا هذه الغريزة التى لا فرار منها، نحو الإله تبارك وتعالى بما ينتج عنه الإخاء الإنسانى الشامل الذى يتعامل البشر فى ظله على أساس المساواة، وعلى أساس تحقق الأمن والأمان للإنسان الفرد والمجتمع ككل.

وعندما يريد الله من البشر أن يخافوه، فإنه إنما يريد ذلك حتى تستقيم حياة البشر على نهج الله بما يحققه ذلك من عوامل إيجابية تنعكس على السلوك الفردى، وسلوك المجتمع

ككل الذى تتجمع فيه عوامل الخشية، وتتركز فى ركيزة واحدة هى الله سبحانه وتعالى، فتتحقق فى النهاية سعادة الفرد وسعادة المجتمع.

وهذا ينطبق على المناهج الربانية التى تنزلت إلى البشر على أيدى الأنبياء والمرسلين والتى مظهرها الأكمل الخاتم هو القرآن. فالقرآن وثيق الصلة بالله تبارك وتعالى لأنه كلامه جل شأنه، ومن هنا فإن الترهيب جانب من الجوانب التى يركز عليها القرآن سواء بتقريره بالنسبة لمقام الله سبحانه وتعالى وعذابه يوم القيامة، أو بالنسبة لتشريعاته التى تنظم الحياتين الفردية والاجتماعية للبشر، الذين يعيشون فى مجتمعات منظمة. وبذلك يلتقى مع الإنسان فى جانب من جوانب تركيبه النفسى، ثم يرتقى بالإنسان الذى يحوى هذا الجانب ليوجه طبيعته هذه ـ طبيعة الخوف ـ نحو مصدر واحد تتعلق به نفوس الناس وخشيتهم.

نحن نعلم أن البشر يسيئون استعمال هذه الغريزة ـ الخوف ـ حين يتعاملون فيما بينهم نتيجة التجبر والطغيان بصورهما العديدة، ومعهما تهدر كرامة الفرد وتجمد قدرته على الإبداع والابتكار. تلك القدرات التى لا تؤتى ثمارها إلا فى مجال من الأمن والأمان والطمأنينة والكرامة والحرية المنضبطة. وهذه الصورة من التخويف هى للإذلال ولكبت الحرية الفردية، بينما تخويف الله ليس للإذلال وكبت الحرية الفردية، وإنما هو لبيان الحقيقة والتحذير منها ومعاونة الإنسان لمواجهتها، فيما ينتهى إليه مصير الإنسان فى الحياة الآخرة، وهى الحياة الحقيقية الخالدة، كما أنه يفعل ذلك أيضا لتوجيه الناس فى الأرض للاستقامة على الخير فى العقيدة والسلوك وفى التعامل فى نطاق من المساواة، والحرية والإخاء والكرامة التى خلق الله الإنسان عليها منذ نشأته الأولى.

فتخويف الله للإنسان تخويف إيجابى التأثير يجد آثاره فى الحياة الأسرية والحياة الاجتماعية وعلى مستوى العلاقات بين الشعوب المختلفة، لأنه تخويف يفرض الرقابة الفردية الذاتية من الفرد على نفسه قبل رقابة الغير: ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ [يس: ١١]. وهو أهم عنصر من عناصر استقامة المجتمع على النفع العام والخير العام. فهو خضوع لله يحوى بين طياته رفعة لقدر الإنسان الذى يتحلل من الخوف من أمثاله الذين يخضعون لله رب العالمين بالضبط كما يخضع هو.

هذا هو الأمر فى التخويف فى القرآن، ويقابل هذا الجانب من الخوف فى الإنسان جانب الرجاء. فالترهيب فى القرآن يقابله ترغيب. ترغيب فى رحمة الله . . . وفى مغفرته . . . وفى كرمه . . . وفى إحسانه . . . وفى تجاوزه عن السيئات . . . وفى نعيمه فيما جاء فى وصف الجنة ونعيمها ولذتها الحياتية الخالدة. . . وهو الجانب الذى يجعل حياة الإنسان متوازنة فى الدنيا: رجاء من جانب وخوف من جانب آخر، كالجناحين للطائر يضبطان توازنه

في حركته وسلوكه: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]. وبهذين الجانبين تستقر حياة الإنسان فى الأرض، وتستقيم فى توازن نفسى وشعورى يجعل الحركة فى الإنسان وسلوكه متوازنين فى إيجابية ينتج عنها الإبداع والابتكار والعمل البناء والإنتاج المثمر . . إلخ.

يلعب الخوف الشديد دورا أساسيا فيما يتعلق بالذاكرة. فعندما يواجه الإنسان حقيقة مخيفة فإن صورة الشىء المخيف، أو صورة هذه الحقيقة المخيفة تسجل فى جزء معين بالمخ هو المسمى(Amygdala) وتظل هناك لا تنمحى أبدا، ويظهر معها فى الذاكرة الواعية ما سبق أن سجله المخ، وظل فى اللاوعى من الأحداث المؤثرة فى حياة الإنسان كلها والتى تختزن هى الأخرى إلى جانب صورة هذا الحدث المخيف أو الحقيقة المخيفة.

وبالنسبة لجهنم، فإن الإنسان بمجرد شهوده لها ينتابه من الخوف ما يسجل فى وعيه فى المخ، وتنشط الذاكرة عند ذلك لتتذكر كل الحوادث والتجارب والأعمال والذكريات والانطباعات النفسية التى مرت بالإنسان فى حياته الدنيوية والتى اختزنها المخ بكل دقائقها الصغيرة والكبيرة، وهذا هو ما يشير إليه القرآن فى تقريره فى سورة الفجر: ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ [الفجر: ٢٣]. ولكن الذى يحدث هو فوات الفرصة للنجاة من عقاب الله الأليم: ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ . ويرجو الإنسان حينئذ لو أنه عمل عملا صالحا فى الدنيا ينجو به من العذاب المخيف المؤلم الذى يواجهه: ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر: ٢٤].

التخويف يتضمن عنصر الألم. والألم عذاب. والعذاب يكون بالإيلام سواء كان الألم نفسيا أو جسديا، ولذلك يفرق القرآن بين العذاب وبين الألم فى نفس الوقت الذى يقرنهما معا (وعذاب أليم). وكلما ازداد تصور الإنسان وضوحا لمضمون الألم والعذاب، كان ذلك رادعا له لكى يستقيم بالفكر والسلوك فى الارتباط بالله وبأحكامه. وفكرة الردع هذه هى الفكرة الأساسية فى العقوبات الجنائية والمدنية فى الإسلام. فمجرد تصور قدر العقوبة وما توقعه على الفرد من إيلام وعذاب يمنع الفرد من الوقوع فى الفعل الذى تترتب عليه العقوبة، كما فى عقوبة الزنا والسرقة والخمر وغير ذلك.

ويخطئ الذين يتصورون أن القرآن شديد القسوة فى عقوبته على هذه الجرائم أو غيرها . . فالعقوبة الشديدة فى مثل هذه الجرائم هى الضمان الأكيد لحماية المجتمع من حدوثها فعلا. فالذى يخاف شدة العقاب المؤلم وما فيه من عذابين جسدى ونفسى، سوف يبتعد بالتأكيد عن الفعل الذى تترتب عليه مثل هذه العقوبة. وهو نوع من الوقاية للمجتمع من الأفعال التى فيها انحراف يهدم البنيان الأخلاقى الذى ينبغى أن يقوم عليه المجمع.

وفوق ذلك، فإن الفرد الذى يدرك أن جزاء الفعل المعين هو العقوبة المعينة الشديدة، يدرك أيضا أن هناك عقوبة أخرى تنتظره فى الحياة الآخرة بعد الموت، وعند البعث وأن المعاقب عندها هو الله، والفرد يومئذ لا يملك أن يغير من أمره شيئا، بينما هو يملك هذا التغيير إلى الأحسن والأفضل فى الحياة الدنيا حيث إن أسماء الله الجمالية تؤكد للإنسان إمكانات استقامته على طريق الله، حتى بعد الانحراف والمعصية، حيث إن الله هو التواب وهو الرءوف وهو الرحيم وهو الودود. . . وبذلك يجتمع كما قلنا الخوف مع الرجاء لتستقيم حياة الفرد، ومعها حياة المجتمع ومعهما حياة الأسرة الدولية كلها فى توازن، قوامه الصلة القائمة بين الفرد وبين الله سبحانه وتعالى.

المـــــوت :

ينبغى أن يكون معلوما أن الموت الذى يعقب الحياة ليس مرادفا للعدم. فالموت عبارة عن انتقال من حالة إلى حالة أخرى. انتقال من حالة الحياة الجسدية المعروفة لنا إلى حالة الحياة الروحية الصرفة غير المعروفة لنا. والذى يدل على ذلك هو أن الحياة مخلوقة، كما أن الموت مخلوق: ﴿هو الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ [الملك : ٢]. والموت عادة ما يعقب الحياة الجسدية الروحية المعروفة لنا، ولذلك فمن الأرجح أن يشمل تعبير الحياة الذى جاء فى التقرير القرآنى السالف كل أنماط الحياة التى يعيشها الإنسان، أى حياته الدنيوية، وحياته البرزخية وحياته الأخروية. كما أن دلالة هذا النص القرآنى قد تعنى الموت الذى يسبق الحياة السابقة عليه.

ولكن الموت الذى يسبق الحياة هنا بالنسبة للإنسان ليس يعنى حالة إنسانية سابقة على حالة الحياة الجسدية الروحية، ولكنه يعنى ـ العدم ـ وهو ما يوحيه النص القرآنى التالى: ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا﴾ وذلك بالنسبة لكل إنسان يكون فى بدايته من النطفة، أى الخلية حاملة الحياة. والنص التالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]. بمعنى قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يك شيئا مذكورا، وذلك بالنسبة للنوع الإنسانى والجنس البشرى ككل الذى تكون فى بدايته من عناصر هذه الأرض المائية الترابية النارية.

والقرآن يستعمل تعبيرين متضادين فى حقيقتيهما، فالموت ضد الحياة ولمعرفة الحياة لا بد من معرفة الموت، والاثنان عبارة عن حالتين يذوقهما الإنسان، ولذلك يقرر القرآن: ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ ﴿وسقاهم ربهم شرابا طهورا﴾ وتعبير سقاهم يتمشى مع التذوق بمعنى أن الذى يذوق نعيم الحياة الآخرة، فكأنما يذوق شرابا طهورا، وهو وصف

لتوضيح حالة النعيم، كما فى الكثير من أوصاف النعيم التى جاء بها القرآن فى الحديث عن الجنة فى الحياة الآخرة. ويقرب هذه الفكرة إلى الأذهان ما يقرره القرآن خاصا بالشهداء، وهم الذين قتلوا فى سبيل الله أثناء الجهاد فى سبيل الله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠]. فهنا تعبير صريح واضح عن أن الموت فى حقيقته حياة. فالشهداء جزاؤهم سريع وفورى يتمثل فى حياتهم فى النعيم والسعادة والطمأنينة والراحة واللذة، وهذه هى الجنة الخاصة بالشهداء، أو مقام الشهداء فى الجنة فى الآخرة.

والموت يتصل فى حقيقة الأمر بالمخ فى الإنسان. والمخ هو العضو أو الجزء الوحيد فى جسد الإنسان الذى لا يمكن بأى حال من الأحوال عندما يتلف أن يزرع الأطباء غيره كالقلب والكبد والرئة وغيره، إذ إنه إذا توقف وصول الدم إلى المخ ثلاث دقائق فإنه يموت فورا، ولا يمكن لأحد أن يجعل المخ يعيش بعد ذلك للفترة التى تستلزمها زراعة غيره، كما أن المخ متصل عن طريق النخاع الشوكى بجميع أجزاء الجسم وحواسه، وعندما يتم فصل المخ عن كل هذه الأجزاء فإنه لا يمكن إعادة توصيلها، ولو افترضنا جدلا أنه تم توصيلها بمعجزة فإنه لا يمكن أن تلحم بعضها مع بعض، فالله سبحانه وتعالى قد خلق المخ بشكل وطريقة لا يمكن بأى حال من الأحوال التوصل إليهما أو اكتشافهما أو إعادة تركيبهما.

ومن هنا، فإن الموت فى الحقيقة ليس هو توقف القلب عن أداء وظيفته وإنما هو موت المخ. بمعنى توقف القشرة المخية وجزء المخ تماما عن العمل توقفا مستديما. والتوقف المستديم عند الأطباء يفترض وجود ثلاثة عوامل:

(١) أن يكون سبب الموت معروفا وواضحا ويمكن تفسيره.

(٢) ألا تكون هناك أى احتمالات للتحسن.

(٣) أن يستمر هذا التوقف بالنسبة للمخ لمدة ١٢ ساعة كاملة.

ويكون رسم المخ هو أساس إعلان موت المخ، وبالتالى إعلان موت الإنسان.

فكرة الموت تقترن أشد الاقتران باليوم الآخر، والحساب، والعقاب، والثواب وبالتالى بحقيقة الساعة. والموت يقترن بالحياة كما تقترن الحياة بالابتلاء، أى الاختبار المقترن بأنماط السلوك الإنسانية المختلفة ودوافعها النفسية والفكرية المختلفة التى تكمن وراءها بما فى ذلك السلوك الظاهر والخفى. فالحياة كواقع معيشى ليست بلا هدف، وإنما تقترن الهدفية بحقيقة الحياة الإنسانية سواء حياة الإنسان كنوع فى الابتداء أو حياة الإنسان كفرد مستقل. وفكرة

الهدفية هذه أو الغائية يوضحها القرآن فى العديد من آياته، ومن أمثلتها: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]. واقتران حقيقة الساعة بحقيقة الحياة، والنشاط الإنسانى بمختلف أنماط السلوك فيه ودوافعها المختلفة يوضحها القرآن فى سورة طه: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

فلا يظن الإنسان أن الموت ينهى وجوده إنهاء كاملا، فالموت بداية لأنماط أخرى من الحياة. تبدأ بالحياة البرزخية فى القبر بعد الموت، ثم الحياة الآخرة بعد البعث. وفى هذه الأنماط المختلفة من الحياة تكون ساعة حساب الناس على مرحلة أو طور حياتهم الدنيوية. وعين الله لا تغفل عن كل ما يفعله أو يدور بفكره، أو توسوس به نفسه، أو يختزنه فى عقله الباطن أو فى اللاوعى مما قد ينساه الإنسان نفسه، ولا ينساه الله سبحانه وتعالى، ويظهر كله بجميع وقائعه وتفاصيله حين يقرأ كل إنسان كتابه الذى سجله عليه مخه فى الحياة الدنيا ليكون هو نفسه المحاسب لنفسه من خلال هذا التسجيل أو السجل: ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ وبذلك، نفهم قليلا كيف أن الله سبحانه تعالى لا يغفل عن أحد ولا يظلم أحدا، وأن كل إنسان يحمل على عاتقه وحده تبعات أعماله بحيث لا تزر وازرة وزر أخرى.

كل إنسان مستقل كفرد يأتى ساعة الحساب مسئولا عن نفسه يحمل سجلا كاملا مطابقا تماما لأصل سجله فى الحياة الدنيا، وهو الأمر الذى توضحه لنا تماما الحقيقة الخاصة باختزان المخ لكل دقائق التجارب التى يمر بها كل فرد ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. وأيضا: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ومن هنا نفهم المقصود من أن كل إنسان يبعث على ما مات عليه لأن الإنسان يتذكر جميع التفاصيل المتصلة بتجربته فى الحياة الأولى التى سجلها الله عليه فى نفسه من نفسه، وعلمها الله وما زال يعلمها وسيظل يعلمها بعلمه القديم الأزلى الأبدى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. وأيضا: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. وأيضا: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. وأيضا: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧].

ومن هنا، فإن الإنسان المؤمن بالله واليوم الآخر يكون رقيبا على نفسه بنفسه يراقب الله سبحانه وتعالى ويخشاه فى الحضور والغيب أى فى الاجتماع والوحدة، وكلما ازداد إيمانه ازدادت مشاهد تجربة الساعة أمام نظره وضوحا وتجسيما، ويصف القرآن مثل هذا الإنسان

بقوله﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ [الشورى: ١٨]. أى من الساعة، ومن الإيمان فى أعلى مراتبه من القوة يكون العلم اليقين الذى يساوى الشهود والنظر ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ [التكاثر: ٣ - ٦]. وعكس الحضور والمراقبة هو الغفلة عن الله واليوم الآخر. هذه الغفلة تدفع الإنسان إلى الإعراض: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]. وهما معا - الغفلة والإعراض - أساس كل بلاء وشر يصيب الإنسان كفرد وكنوع.

البعث :

يتصل أمر الساعة بحقيقة أساسية فى القرآن هى حقيقة البعث، ذلك أنه لا حساب فى الآخرة إلا بعد البعث. كما تتصل حقيقة البعث بحقيقة أخرى هى حقيقة الموت. وبموت الإنسان - كنوع أى فنائه - تتغير طبيعة الطاقة الإدراكية فى الوجود، من الحالة التى كانت عليها وقد حملها الإنسان الحى إلى الحالة الروحية الصرفة التى يتحول إليها الإنسان الميت، وعندما يصير أمر التدبير والتصرف هو بغير حرية أو قدرة من جانب الإنسان، وإنما بحرية وقدرة الله سبحانه وتعالى وحده الذى له صفة القيومية والملكية أو الملك، وبأمره وحده لا شريك له يكون التدبير والتصرف: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. إن الإنسان الذى كان يملك حرية الإرادة والتصرف والقدرة على الحركة الحرة النشطة قد فقد هذه الميزة عندما يقف أمام الملك الديان يوم القيامة فى ساحة الحساب الذى يتبعه الثواب والعقاب أى الجنة والنار. وفى النار لا يملك الإنسان حريته بينما هو يملكها فى الجنة. والفيصل إذن بين امتلاك الإنسان لحريته وإرادته وقدرته على الحركة الحرة النشطة وبين فقدانه لهذه الميزة هو الحساب الذى يعقب قيام الساعة. ومن هنا نفهم كيف أن الذى أعطى الأمانة للإنسان ليحملها، هو نفسه القادر على أن يسلب من ذاته نفس هذه الأمانة.

وربما كان فقدان الإنسان للقدرة على النشاط المبدع الذى يأتى بالجديد المؤثر هو الذى قصد إليه القرآن فى وصفه لحالة الإنسان فى ذلك المشهد الرهيب مشهد الحساب يوم القيامة، حينما يقرر: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه: ١٠٨] وحينما يقرر: ﴿ .... إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨]. وأصحاب النار على وجه الخصوص تخشع أبصارهم من الذل النفسى الذى يعيشونه ويحسونه، وهم لا يملكون القدرة على تغييره: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]. ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٦]. ونسيان الله للإنسان يوم القيامة ليس نسيانا عن صلة بالإدراك الإلهى، وإنما هو نسيان مجازى المقصود منه الإهمال والترك ليواجه الإنسان مصيره المؤلم الذى يحياه فى بؤس

مستمر لا يضع الله له نهاية إلا إذا شاء، ومشيئته هذه هى الذكر الإلهى لهذا الإنسان البائس الذى كان فى عذاب نسيان الله له بالإهمال والترك.

البعث إذن حقيقة يؤكدها القرآن: ﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]. وهى حقيقة يقربهاالأذهان الناس بأمثلة محسوسة لهم حتى يعلموا أن القدرة الإلهية التى أتت بالبعث بعد الموت فى هذه الأمثلة، هى ذاتها القدرة التى تأتى بالبعث بعد الموت للإنسان أيضا: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٣]. وهذه إشارة إلى أن البعث يكون بالجسد والروح معا، وإن كان يمكن أن تختلف الأبعاد التى يحيا فيها الإنسان فى الآخرة عن الأبعاد الأربعة المعروفة للإنسان فى الحياة الدنيا، وبخاصة البعد الزمنى وصلته بالتكوينين الفسيولوجى والبيولوجى للإنسان بما تتحقق معه حقيقة الخلود فى صلة بالمكان.

وتظهر فكرة الحياة والموت فى مثال محسوس متصل بالنبات والشجر بالذات من المملكة النباتية: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٨٠]. فهذا موت بعد حياة، أو تحول من حالة إلى حالة. ويضرب القرآن للإنسان مثلا آخر للحياة بعد الموت: ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥]. وهناك مثل آخر تختلط به الحياة مع الموت فى اتصال بلا انفصال، وهو الذى يقرر فيه القرآن: ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٧]. وهنا يتصل الأمر بحقائق التكوينين الفسيولوجى والبيولوجى للكائنات الحية، كما يتصل بالنظامين الاقتصادى والاجتماعى للإنسان اللذين فيهما أنماط من الحياة، هى الموت بعينه حينما تفتقد من حياة الناس العدالة الاجتماعية. ويقرر القرآن فى أمر البعث أيضا:

١ - ﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾. [الحج: ٧].

٢ - ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ٥١، ٥٢].

٣ - ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨].

٤ - ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق: ٤٤].

٥ - ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ [الزلزلة: ٦].

الحـياة الآخرة :

وللإيمان باليوم الآخر تأثير فى حياة البشر . وليس الأمر متعلقا بالحياة الأخرى فقط ومصير كل فرد فيها، وإنما هو متعلق بالحياة الدنيا وسلوك كل فرد فيها. فالإيمان باليوم الآخر ذو تأثير إيجابى فى حياة كل فرد من الناس، وليس - كما قد يظن البعض - مسألة نظرية غير ذات اتصال بواقع الناس فى الأرض فى الحياة الدنيا. فعلى العكس من ذلك يعتبر الإيمان باليوم الآخر مسألة واقعية ذات اتصال مباشر بواقع الناس فى الأرض فى الحياة الدنيا. فكل سلوك ينبع بدافع من ضمير حى يراقب الله تبارك وتعالى، ويعلم علم اليقيم بالمساءلة يوم القيامة لا بد أن يكون سلوكا بناء ينشد دائما جانب الخيرين الدنيوى والجماعى.

وسلوكيات أى مجتمع هى عبارة عن سلوكيات الأغلبية فيه، وبنية أى مجتمع هى عبارة عن بنية الغالبية من الناس فيه. كما أن الغالبية من أفراد المجتمع لو آمنت باليوم الآخر واستقر فى ضمائر هذه الغالبية من الأفراد العلم اليقينى باليوم الآخر لكانت النتيجة أن كل فرد من الأفراد المكونين لهذه الغالبية فى المجتمع سيراقب بضميره المؤمن بالله سلوكياته، ويتقن أعماله ويقوى انتماءه للمجتمع، ويخلص فى أداء مسئولياته الملقاة على عاتقه أيا كان حجم هذه المسئوليات صغيرا أو كبيرا . . .

وبذلك يصبح كل فرد عاملا بناء فى الهيكل الاجتماعى كله، يرتبط فى ضميره وفى فكره، يومه فى الدنيا بيومه فى الآخرة، وينعكس ذلك على سلوكه ودوافع هذا السلوك، كما ينعكس على نمط نشاطه فى المجتمع ونوعية عمله المنتج فيه. ونحن نحتاج فى مجتمعاتنا المسلمة اليوم لأفراد ترتبط فى فكرهم الدنيا بالآخرة، ويسعون فى الأرض بناء وتعميرا وإنتاجا واكتسابا للمعرفة من منطلق المسئولية التى يحملها كل فرد من خلال إيمان بالمساءلة عن السلوك والنشاط والعمل.

وفكرة الإيمان باليوم الآخر لا تعنى القعود عن العمل فى الدنيا، بل على العكس: إنها صمام الأمن لتوجيهات السلوك نحو النافع للمجتمع وما يعود عليه بالخير. وقد وجهنا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى غرس شجرة للخير العام، والمنفعة العامة ولو كانت الساعة ستقوم بعدها بلحظة. ولعل الحديث أو الحكمة التى تقول بالعمل للدنيا كأن الإنسان يعيش فيها أبدا، والعمل للآخرة كأن الإنسان يموت لغده، فيها تأكيد وتوضيح للمعنى الذى نقوله. إن عنصر الخير المنبثق من الإيمان القوى بيوم القيامة أو اليوم الآخر، بما يشمله هذا العنصر من أخلاقيات وسلوكيات وأنشطة وأعمال مبنية على هذه الأخلاقيات، هو عامل أساسى لمجتمع يريد أن ينهض ليحتل مكانه ضمن المجتمعات المتقدمة السابقة فى مضمار المعرفة والإنتاج وغيرهما من عناصر القوة التى تنبثق منها القدرة على التأثير فى مجريات الأمور فى عالمنا المعاصر.

إن الإيمان باليوم الآخر عامل ديناميكى وليس عاملا إستاتيكيا كما يقال بلغة اليوم . . . والحياة نفسها ديناميكية مستمرة الحركة والتغير والتطور والترقى . . . وإنسان يؤمن بهذا اليوم الآخر إيمانا عن علم يقين هو قوام هذه الحركة وهذا التغير وهذا التطور وهذا الترقى ، موجهة جميعا نحو الخير للفرد والخير للمجتمع والخير للإنسانية جمعاء .

وتعبير الدين الذى استعمله القرآن فى وصف اليوم الآخر ، (يوم الدين) يعنى والله أعلم ، ما يكون كل إنسان فيه من شأن نفسه ، وشأن كل إنسان فى الآخرة هو شأنه فى الدنيا بصفة عامة إلا أن يشاء الله أن يغير من شأن إنسان إلى شأن آخر نتيجة مغفرته ورحمته وعفوه وكرمه : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٢] . ولذلك فالدين قد يعنى ذلة وانكساراً لناس وقد يعني عزة وكرامة لناس : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٦] . الأولون يدينهم الله تبارك وتعالى فهم عبيد أذلاء : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ ﴾ [النساء : ٤٢] . وهم مقرنون فى الأصفاد ترهقهم ذلة . وجوههم يومئذ خاشعة عاملة ناصبة . . . والآخرون يدينهم الله تبارك وتعالى فيجازيهم خيرا وسعادة ، وهم الذين يجدون ما عملوا من خير فى الدنيا حاضرا فى ذلك اليوم ، وجوههم ناعمة لسعيها راضية أو ناضرة إلى ربها ناظرة .

والدين قد يراد منه الجزاء والحساب على أساس العمل فى أيام الدنيا ، فإن القادر الوحيد على التغيير يومئذ هو تبارك وتعالى ، ومن هنا فإن الله هو مالك الملك ذلك اليوم ، يوم الدين أى شئون الناس فى ذلك اليوم الذى يحاسب فيه كل إنسان على أعماله فى الحياة الدنيا . وكما أن الله تبارك وتعالى هو مالك يوم الدين فإنه أيضا ملك يوم الدين لأن الملك ـ بنفس المعنى الذى ذكرنا ـ يومئذ لله الواحد الذى له القهر على الناس ويملك وحده إرادة التصرف بالثواب والعقاب فهو يومئذ القهار فوق عباده : ﴿ الرَّحْمَٰنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ [النبأ : ٣٧] .

إن أنماط السلوك التى اعتاد عليها الناس وجرت عليها شئونهم فى الدنيا تنتهى بانتهاء فترة حياة الناس فى الدنيا . وبذلك فإن أيام الدين فى الدنيا ـ الدين بمعنى العادة أو الشأن وفيما يتعلق بالسلوك اليومى ـ غيرها يوم الدين فى الآخرة . ولا يحسبن إنسان أنه قادر على إرجاع عجلة الزمان إلى الوراء ليعيد الكرة من جديد فى حياة الدنيا فيحسن العمل ، وقد تبين له يوم القيامة الحق فيما جاء به الأنبياء والرسل ، وفيما قررته الكتب السماوية من وقوع الحساب وتذوق الثواب والعقاب : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال ربى ارجعون * لعلى أعمل صالحا . . . ﴾ . والقرآن يصور فكرة الحساب على اعتبار أنها تقوم في الزمان بدون رجعة وتجدد فى الشئون على غير شئون الدنيا وحكم السلوك المعتاد فيها فى حياة الأفراد اليومية فيما يقرره من تعبير : ﴿ . . مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ . . . ﴾ [البقرة : ٢٥٤] . هناك حياتان ، الحياة

الدنيا وهى مؤقتة بزمان محدود لكل إنسان . والحياة الآخرة وهى خالدة يمتد فيها الزمان بلا محدودية . وفكرة اتصال الثواب والعقاب أى الجنة والنار بدوام السموات والأرض : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود : ١٠٧] . ليس المقصود الاستمرارية من حيث استمرار وجود ودوام المكان المعبر عنه بالسموات والأرض ، وهى سموات غير السموات وأرض غير الأرض : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] . تعبير ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ الذى ورد فى الآية ليس يعنى - والله أعلم - التأقيت أيضا ، وإنما هو لبيان تنزيه المشيئة الإلهية والإرادة الإلهية من أن تحدها حدود بحيث لا يكون الخلود قيدا على إرادة الله ومشيته وإنما هو من منطلق إرادته ومشيئته ، وبالتالى يصح ما قيل من أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

والدين لا يغفل الجانب السيكولوجى فى الإنسان من منطلق اهتمام الدين أساسا بنفس الإنسان وتربيتها وتدريبها على السلوك النافع المستقيم . ومن هنا فإن الله يقبل التوبة عن عباده أو من عباده ويعفو عن السيئات : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى : ٢٥] . وأحيانا يبدل الله سيئات التائبين حسنات متى اقترنت توبتهم بالإيمان الصادق والعمل الصالح : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان : ٧٠] .

ذلك أن التوبة هى اتجاه الإنسان بالكلية فى الفكر الباطن يقترن بتركيز كامل وندم على الذنب الذى هو تفريط فى حق الله . وتحدث التوبة بذلك أثرا سيكولوجيا بالغ القوة لدى الإنسان ، أى تحدث أثرا نفسيا قويا على الإنسان بما يغير من حالته الفكرية التى يكون المخ قد أخذ منها فى التجربة فى الخطأ أو الذنب ، ويغير من حالة المخ إلى وضع جديد يسمو بنفس الإنسان وفكره إلى مرتبة أعلى من المرتبة النفسية الفكرية التى كان عليها الإنسان حال أو بعد ارتكاب الخطأ والذنب ، وحتى التوبة الصادقة النصوح والتوبة النصوح هى تلك التى تحدث ذلك الأثر النفسى الذى نتحدث عنه وتخلق فى الإنسان حالة عقلية جديدة تؤثر على النفس فتجعل الفكر وكأنه قد خلا من رواسب الذنب ، فتصبح النفس وقد خلت من تأثيرات الخطأ أو الذنب فيها .

ولعل ذلك الأثر السيكولوجى أو النفسى هو الذى توضحه آية الثلاثة الذين خلفوا فى المدينة ، ويصف القرآن حالتهم الفكرية والنفسية بأدق تعبير فى تقريره : ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٨] . إن الخطأ أو الذنب يحدث بتجربته آثارا نفسية كبيرة قد لا تدرك لوهلتها إلا أنها تترسب فى أعماق العقل الباطن وفى باطن النفس . وإنه بتجربة

التوبة تحدث آثار نفسية كبيرة يغوص فيها التأثير إلى أعماق نفس التائب وأعماق عقله الباطن ليستخرج آثار الخطأ والذنب النفسية لكى تتحول إلى حالة نفسية وعقلية جديدة يعيشها التائب ويكون فيها موصولا بربه فيتسع فكره بقدر الضيق الذى كان عبئا ثقيلا عليه فيخرج بالتوبة النصوح إنسانا آخر منشرح الصدر موصولا برحمة الله وقدرته على المغفرة . . .

وحين يدرك التائب عن يقين حق غفران الله لذنوبه وقبوله لتوبته فإن معنى ذلك أن التوبة قد أحدثت أثرها السيكولوجى أو النفسى المطلوب بحيث تنعكس آثارها النفسية على سلوك هذا الفرد الذى يبدأ حياته ، وكأنه ولد ميلادا جديدا . إنه الأمل والرجاء فى الله سبحانه وتعالى اللذان يسبغهما الله على الإنسان ويمكنه بهما من الاستعلاء بنفسه ونفسيته إلى أعلى مراتب الصفاء بالاستقامة وقوة الصلة بالله والرباط الفكرى النفسى بالله . ولذلك يفتح الله أبوابا كثيرة على الناس ليغيروا ما بأنفسهم بالتوبة التى يقبلها الله ، وهى التوبة النصوح التى وردت شروطها فى السنة النبوية . ومن تلك الأبواب : ما بين الصلاة والصلاة كفارة لما بينهما . . وما بين الجمعة والجمعة كفارة لما بينهما . . . وما بين العمرة والعمرة كفارة لما بينهما . . . والحج وموقف عرفات يكفران الذنوب جميعا ، ويرجع الإنسان بعد موقف عرفات وتمام الحج كيوم ولدته أمه . . .

كل ذلك يشير إلى الآثار السيكولوجية التى تتركها التوبة حين تتغير نفسية الإنسان ويتغير فكره ويلقى عقله الباطن عن كاهله آثار الخطأ أو الذنب النفسية . التغيير السيكولوجى أساسه الصلة بالله والإيمان بالله والإيمان بأنه تواب رحيم يغفر الذنوب جميعا . إن التائب إنسان آخر جديد ، إنسان أفضل لأن سيئاته تبدل حسنات متى انعكست التوبة على سلوكه بالاستقامة والعمل فى مجالات الخير والصلاح .

إن النفس وبواطن العقل أو الفكر هما محل نظر الله ، ولذلك فإن التوبة غير الصادقة لا تحدث أى أثر سيكولوجى أو نفسى ، ومن هنا كان معنى عدم قبول الله لها . فالذين يتوبون خداعا عند اقتراب لحظة موتهم إنما يخدعون أنفسهم فى الحقيقة ، فتوبتهم ليست توبة صادقة ، وهى لا تقبل من الله كما أنها لا تحدث أى أثر نفسى حقيقى فضلا عن أنها لا يمكن أن تنعكس على السلوك لأن الموت ينهى السلوك . وكذلك الذين يموتون وهم كفار أو مشركون أولئك من أكثر الناس عنادا فى الكفر ، وسلوكهم ينبع من هذه النفسية المعاندة الجاحدة . وأكثرهم شرا المنافقون الذين هم فى الدرك الأسفل من النار أى العذاب بالإيلامين النفسى والجسدى معا ، وهو عذاب جهنم .

ومن الناس من يسرف على نفسه حين يخطئ أو يذنب ، ويترك هذا الإسراف آثارا من الندم المستمر والقنوط من رحمة الله واليأس من الحياة الذى ربما كان له أثره السلبى والسيئ

على الشخصية وعلى السلوك. ومن هنا قرر القرآن لمثل هؤلاء الناس: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣]. هذا التقرير يحمل الأمل والسعادة إلى أولئك الذين وصفنا بعض حالهم من الإسراف على أنفسهم وضيقهم بالحياة وضيق الحياة عليهم. إن غفران الله للذنوب جميعا يفتح باب الأمل والسعادة النفسية ويعمل على بناء الشخصية التى اكتوت بالذنب والمعصية إلى درجة الإسراف فى لوم النفس بدرجة مؤذية، وبناؤها بناء تستقيم معه هذه الشخصية وتتوازن فى نفسها، وفى فكرها وفى سلوكها فى الواقع الاجتماعى حتى تصير من جديد عنصرا إيجابيا بناء يساهم فى دفع عجلة الحياة البناءة فى المجتمع الذى ينتسب إليه الإنسان صاحب هذه النفس.

ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن القرآن اهتم اهتماما بالغا بموضوع النفس الإنسانية أى التركيب النفسى للإنسان أو سيكولوجية الإنسان. وكثير من آيات القرآن الكريم تتناول بطريق مباشر أو غير مباشر هذا التركيب النفسى فى الإنسان الذى يتصل على نحو ما بتركيبه الفسيولوجى الذى يعتبر الجهاز العصبى والمخ فيه أساسا حجر الزاوية باعتباره الجهاز الذى يتلقى من مصادر الطاقة ما يجعله مستعدا لتأدية وظيفة العقل التى تستمد قوتها على النشاط من طاقة لا نعرف عنها شيئا أو لا نعرف عنها إلا القليل، تلك التى سماها القرآن «الروح» وهى سر من أسرار النفخة الربانية المتصلة بالهيكل المسوى للإنسان على نحو ما بين لنا القرآن فى تقريره: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩].

وحتى عذاب النار فيه جانب نفسى كما ذكرنا من قبل، ذلك أن النفس كما تعذب فى الدنيا، والصحو أو النوم، فإنها تعذب فى البرزخ وتعذب يوم القيامة: ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ [الهمزة: ٦، ٧]، وهى موصدة على النفس لا تستطيع الأخيرة منها فرارا أو حراكا أو نجاة أعاذنا الله منها. وصفاء جوهر النفس هو أساس الدين وأساس الصلة القوية بالله رب العالمين. وعلى عكس أصحاب النار من ذوى النفوس المملوءة بنوازع الشر والإضرار بالغير، فإن أصحاب الجنة هم الذين يصف القرآن حالتهم النفسية فى قوله: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧]. وسلوكهم يومئذ: ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

التفكر فى أمر الساعة:

والقرآن يريد منا أن نظل على ذكر دائم بأمر الساعة، أو باليوم الآخر. لأن ذلك التذكر له أثر سيكولوجى بالغ الأهمية فى سلوك الإنسان الفردى والاجتماعى، كما أن له أثرا بالغ الأهمية على سلوك المجتمعات والشعوب فى صلتها بعضها ببعض فى الحياة الدنيا. فكل

خير ـ بالمعنى الواسع الشامل للخير ـ يمكن أن يعود على الإنسان أو على الإنسانية إذا كانت فكرة الساعة اليوم الآخر غير غائبة عن الفكر والذهن الإنسانى . وعلى العكس من ذلك ، فكل شر ـ بالمعنى الواسع الشامل للشر ـ يمكن أن يعود على الإنسان وعلى الإنسانية إذا كانت فكرة الساعة واليوم الآخر غائبة عن الفكر والذهن الإنسانى .

ذلك أن فكرة الساعة واليوم الآخر فكرة يتصل بها مستقبل الإنسان فى استمرارية الوجود فى خلود ، ذلك المستقبل الذى يتصل اتصالا وثيقا بحقيقة الحساب وما يعقبه من ثواب وعقاب ، أى نعيم وعذاب . والحساب يعنى المسئولية ، والمسئولية تؤدى بالإنسان إلى مراقبة المالك لذلك اليوم الذى يحاسب فيه كل إنسان ، وهى مراقبة تؤدى بالإنسان إلى أن يكون مستيقظ الضمير يزن أموره فى سلوكه ومعاملته فى الدنيا بميزان بالغ الدقة وسطا بين خوف من الألم والعذاب وبين اطمئنان وأمان بلذة ونعيم . وكلاهما وضحه القرآن بصورة تتجاوب معها طبيعة الإنسان الذى خلق عليها ، وهى طبيعة الخوف من جانب وطبيعة الأمن والطمأنينة من جانب آخر ، وهما عاملان سيكولوجيان من أهم عناصر التركيب النفسى المتصلة بالوعى الإنسانى من خلال عمل المخ ووظيفته العقلية .

ولذلك يقرر القرآن فى سورة طه : ﴿ **إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى** ﴾ فالساعة أمر حق وأمر آت لا ريب فيه ، ويوم تأتى الساعة يأتى معها الحساب على الأعمال التى تمت فى الحياة الدنيا ﴿ **لتجزى كل نفس بما تسعى** ﴾ ، ومن هنا كان الإيمان بها والتذكر الدائم المستمر لها ولمشاهدها ومواقفها أمراً ضروريا لخير الإنسان ذاته ، ذلك الخير الذى يتمثل فى النعيم الدائم فى حياة الإنسان الخالدة التى تكتسب قيمتها العليا من هذا الخلود ـ بعكس القيمة الضئيلة للحياة الأولى التى يصفها القرآن بالدنيا ـ بحيث إن عدم الإيمان بالساعة والحساب ، وبالتالى إهمال أو نسيان هذا الأمر من جانب الإنسان يؤدى إلى وقوع الشر فى الأرض أو يؤدى إلى ما يصفه القرآن بالتردى : ﴿ **فتردى** ﴾ . وهو يعنى الهبوط إلى مستوى يكون فيه التوجيه للإنسان هوائيا بما لا يلتزم بقانون أو هدى ربانى المصدر يضع الضوابط ويقيم الموازين القسط لحياة البشر .

وحين يرتكن الإنسان إلى هواه فإن دوافع كثيرة ومختلفة قد تؤدى به إلى مجانبة الحق والخير والمصلحة والنفع ، ويفقد الإنسان عندئذ صلته بالموجه الأعظم ، وهو الإله الذى تظهر توجيهاته فى رسالته السماوية الموحى بها إلى المختارين من الناس أنبياء ورسلا . ويكون الموجه للإنسان عندئذ هو هواه الذى يخضع له ويكون بذلك معبوده وإلهه : ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ** ﴾ [الجاثية : ٢٣] . بمعنى أنه يكون الخاضع لهواه على جانب كبير من المعرفة والعلم وهو أحد المعانى التى تشملها الآية . وتتفاوت مراتب الخضوع للهوى حتى تصل إلى عدم الإيمان والكفر ـ الجحود ـ بالإله الحق الذى خلق الخلق وخلق الإنسان .

إخفاء أمر الساعة :

والذين يعتقدون أن الساعة غير آتية لا يضرون الله شيئا فى حقيقة الأمر، وإنما يضرون أنفسهم. فالتكذيب بحدوث الساعة لا يغير من حقيقة الأمر شيئا، الحقيقة التى مفادها أن الساعة آتية لا ريب فيها. فالخاسرون هنا هم الذين لا يعملون للساعة حسابها. . . وهم يخسرون شيئا غاليا ونفيسا. . . يخسرون أنفسهم. . . ويخسرون بذلك الدنيا والآخرة. . أما الدنيا، فلأنهم لا يراقبون الله تبارك وتعالى فى تصرفاتهم وأنماط سلوكهم، وبالتالى لا تثقل أو تنعدم الموازين الحق التى تفرضها قيم وأخلاقيات الدين وتأتى أنماط سلوكهم من واقع المصلحة الفردية الأنانية. وهذه قصيرة المدى مهما طال عمر أصحابها. وأما الآخرة فلأنهم، خرجوا من دائرة المؤمنين بالله واليوم الآخر ولم يلتزموا بالتعاليم والأحكام التى يفرضها الدين يحكم بها أنماط عقائد وسلوك الأفراد. .

فالله تبارك وتعالى لا يخسر شيئا، فهو لا تضره المعصية ولا تنفعه الطاعة لأنه غنى عن الخلق وعن العالمين. . وكان الأجدى بالذين لا يؤمنون أن يفكروا فى أمر الرسول الخاتم ورسالته الخاتمة ليتبين لهم الحق فيما جاء به هذا الرسول من كلام الله تعالى المقروء قرآنا والمكتوب كتابا، وهو يوضح حقائق الكون وحقائق الأرض وحقائق تاريخ البشر وحاضرهم ومستقبلهم فى هذه الأرض والأجواء المحيطة بها وتوابع هذه الأرض . . فيتبين لهم بتطابق آيات القرآن وحقائق الوجود والكائنات، أنه الحق فتخبت له قلوبهم أى عقولهم. ولكن. . . الإنسان الذى أعطاه الله حرية الاختيار وكرّمه بسبب هذه القدرة على الاختيار والتصرف الإرادى الحر، هو الذى يجعل حياته فى مستقبله الأخروى الخالد جحيما ونارا وعذابا. . . كما أنه هو الذى يمكنه أن يجعل حياته فى مستقبله الأخروى الخالد جنة ونعيما مقيما. .

والله تبارك وتعالى يعلم أن الإنسانية تنقسم قسمين فى الحياة الآخرة: قسم يعيش فى العذاب الدائم الذى تمثله نار جهنم، وقسم يعيش فى النعيم الدائم الذى تمثله جنات الخلد. وتلك مقتضيات الشر بدوره الإبليسى أو الشيطانى وتلك مقتضيات الخير بدوره العقلى الإيمانى. وعلم الله تبارك وتعالى يحيط بكل شىء حيطة كلية شاملة بما نراه نحن البشر فى حدود قدراتنا العقلية من الماضى والحاضر والمستقبل ، وهو - أى الله سبحانه وتعالى - قد علم منذ الأزل أن البشر منهم من يؤمن ومنهم من يكفر، وذلك انعكاس لفكرتى الخير والطاعة والشر والمعصية تقابلهما الجنة ونعيمها والنار وعذابها.

وقد شرع التوبة لعباده من البشر حتى يعطى الفرصة للنجاة لمن هداه إيمانه بالفكرة والعقل والمنطق السليم، هداه إيمانه إلى سبيل الرشد بعد تجربة سبيل الغى. وفرصة النجاة من العذاب فرصة يعطيها الله لكل عبد من العباد من منطلق الرحمة الإلهية حتى ينجو الفرد التائب من

أهوال الحياة فى عذابى النار النفسى الجسمانى اللذين يصعب تصور مداهما وإن كان يسهل تصور حقيقتهما من خلال التجارب الفردية للآلام النفسية والجسمانية من الضيق والحريق.

ومن هنا كان إصرار الرسول صلى الله عليه وسلم على إتمام إبلاغ رسالته ليهلك من هلك عن بينة وينجو من ينجو عن بينة ، ليعطى الفرصة لكل إنسان أن يفهم حقيقة مراد الله له فى الدنيا من التمسك بأحكام وقيم الدين والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وكانت كل حياة الرسول فى فترة الإبلاغ عبارة عن تبشير وإنذار، كلاهما يعمل من منطلق ودوافع الرحمة والرأفة والشفقة بالناس ليجنب كل فرد يؤمن بالدين نفسه عواقب عدم الإيمان التى لا طاقة لإنسان على تحملها.

والله تبارك وتعالى لا يهمه قدر أنملة أن يعذِّب فرد من الناس كما أنه لا يزيده فى ذاته شيئا أن يتم هذا العذاب لفرد من الناس، وإنما الأمر كما سبق أن قلنا يبدأ من الفرد نفسه وينتهى إلى الفرد نفسه. هو ـ أى الفرد ـ الذى يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله فينجو بهذه النفس من حالة العذاب النارى الذى يحيط بالنفس والجسد معا... وهو – أى الفرد – الذى يخسر نفسه وينتهى بها إلى حالة العذاب النارى الذى يحيط بالنفس والجسد معا..

الإنسان.. الإنسان.. الإنسان.. هو شيطان نفسه وهو ملك نفسه.. هو الذى يخسر نفسه وهو الذى يكسب نفسه.. هو الذى يتألم بالعذاب وهو الذى يتلذذ بالنعيم.. وله حينئذ، هنا فى الدنيا، أن يختار.. وهو يملك حرية الاختيار فى شأن نفسه وفى شأن غيره.. فأى طريق يشير العقل والرشد إلى اتباعه؟ الطريق واضح للعقلاء.. وكلام الله واضح للعقلاء.. وآيات الله جلية للعقلاء.. والحق ظاهر للعقلاء.. والدين يخاطب العقلاء.. ومبادئه تهدى العقلاء.. ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾.

لقد جاء النبى الخاتم منذرا من يوم القيامة. وقد أفاض القرآن فى تأكيد هذا الجانب من جوانب الرسالة بالضبط، كما أفاض فى جانب البشارة. فيقرر القرآن ـ على سبيل المثال ـ فى جمع الرسول للجانبين من جوانب الرسالة:

١ - ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٩].

٢- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥].

٣- ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

٤ - ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ [الحجر: ٨٨، ٨٩].

وكذلك ورد مثل ذلك فى سور الحج والشعراء والقصص والعنكبوت والسجدة وسبأ

وفاطر وص والأحقاف والذاريات والإسراء والفرقان والأحزاب . . إلى آخر السور القرآنية الأخرى التى وضحت جليا صفة الإنذار فى رسالة النبى الخاتم .

ولم يكن الرسول الخاتم بدعا من الرسل فى هذا الجانب الإنذارى، فجميع الأنبياء السابقين كانوا منذرين . فهذا الجانب من جانب الرسالات أساسى فيها حتى تتحقق العدالة الإلهية دون أدنى ظلم يصيب أحدا من الناس، ولذلك يقرر القرآن : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : ١٥] . ويوضح القرآن جانب الإنذار هذا من الرسالات التى سبقت الرسالة الأخيرة فى تقريرات مثل :

﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنعام : ١٣٠] .

﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الزمر : ٧١] .

ومن هنا كانت حقيقة اليوم الآخر وحقيقة الحساب وحقيقة الجزاء بالثواب والعقاب، من الحقائق التى اجتمعت على بيانها وتأكيدها الرسالات كلها وعملت على ترسيخ أبعادها الرسالة الأخيرة التى اتصفت بالاستمرارية والشمول حتى تقوم الساعة التى جاء ينذر وقوعها الأنبياء السابقون وجاء ينذر بين يدى عذابها الأليم النبى الخاتم . والقرآن يشير إلى أمر عظيم جاء النبى ينذر من عواقبه، ذلك الأمر العظيم هو يوم القيامة : ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الشورى : ٧] . ويوضح القرآن جوانب من مشاهد ذلك اليوم فى كثير من تقريراته، ولكنها تؤكد العذاب الشديد الذى يلحق بطوائف من البشر والجن فى ذلك اليوم فيما يوضحه القرآن من أمر النار أو جهنم وما يحيط بها من عذاب جسدى وعذاب نفسى يطول أو يقصر حسب مشيئة الله، وقوامه فى الأساس عمل كل إنسان فى الحياة الدنيا التى هى حياة الاختبار والعمل والكد الذى يمتحن فيه الناس ليلاقوا جزاءهم فى الحياة الآخرة على ماقدموه فى الحياة الدنيا : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ . . . ﴾ [طه : ١٥] .

وجانب الإنذار والبشارة فى مهمة الرسول الإبلاغية ذو صلة وثيقة بعنصر الحرية الذى يتمتع به كل إنسان . وكل إنسان من حقه أن يكون حرا فى الاختيار الفكرى لعقيدته ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ فالذى يبشر وينذر إنما يتخاطب مع إنسان حر عاقل يملك إرادة الاستجابة عن حرية، كما يملك إرادة الإعراض عن حرية . ومهمة الرسول هى التذكير . التذكير عملية متصلة بعقل الإنسان وقدرته على التفكير الحر والتمييز الحر لمضمون الذكر . والقرآن يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم مقررا : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢١، ٢٢] .

ومن هنا كان القرآن مقررا لحرية الإنسان الفكرية حتى فى المسائل المصيرية الخطيرة المتصلة بمستقبل الإنسان فى حياته الآخرة، وحتى فى وضعه كإنسان حر كريم فى حياته الدنيا . قرر

القرآن ذلك فى أوضح عبارة حين ذكر أنه : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] . وهو نفس أسلوب الرسول فى الدعوة ، أسلوب مبنى على الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن . ومن هنا كان دور القرآن ذاته ككتاب هداية ، مهمته هى نفس مهمة الرسول التذكيرية : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : ٤٥] .

وكانت عظمة التذكير المحمدى نابعة من عظمة القرآن ذاته باعتباره كتابا جامعا للحق ، وهاديا إلى الحق ومنزلا من الحق . جاء القرآن شاملا لكل ما يتصل بالإنسان واضعا أحيانا التفاصيل ، وواضعا أحيانا القواعد العامة بحيث يستمر إعجازه فى مواكبة لترقى الفكر الإنسانى المستمر الذى يستطيع أن يجد فى كل عصر ـ مهما بلغ مستواه الفكرى والعلمى ـ مبتغاه وهدايته فى هذا الكتاب .

وكان من الطبيعى إذن والأمر كذلك بالنسبة للتذكير الذى يواجه به الإنسان الحر الكريم ، أن يبين القرآن أمر الساعة وأمر اليوم الآخر وأمر يوم القيامة ، ثم أمر العذاب والنعيم أو العقاب والثواب ـ أى الجزاء ـ فيما بينه من أمر الجنة أو الجنات وأمر النار أو جهنم . وجاء البيان ـ كما سبق أن ذكرنا ـ ميسرا للذكر الإنسانى ، بيانا مقربا إلى عقل الإنسان حتى يستطيع أن يدرك أو يتصور أو يتخيل فكرة ومقدار العذاب وفكرة ومقدار النعيم فى النار والجنة .

والإنسان المبصر يعرف أن النور والظلمات لايستويان ، لأنهما ضدان أو نقيضان . والإنسان غير المبصر لا يستطيع أن يميز بين حقيقة النور وحقيقة الظلمة . والقرآن نور كما نعرف ، وهو فرقان بين النور والظلمات ، ولكن ليس كل إنسان يرى ويبصر يميز فرقان القرآن . ولذلك فإنها لا تعمى الأبصار فى الحقيقة ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . وقد وصف القران ذاته أفرادا من بنى البشر لا يرون الحق فيه بأنهم صم بكم عمى ، أو أنهم كالأنعام بل هم أضل . فالقرآن هدى لأفراد من بنى الإنسان ، بينما أفراد آخرون لا يرون فيه هدى . وربما كانت هذه سنة الحياة المتصلة فى النهاية بمشيئة الله سبحانه وتعالى . فهناك فريق من الناس يدخلون الجنة وفريق من الناس يدخلون النار ، أى هناك منعمون وهناك معذبون ، أو هناك سعداء و أشقياء .

فالقرآن لا ريب فيه . وهو هدى للمتقين ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ٣ -٥] . ولكنه أيضا وبال على غير المؤمنين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ⑥ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٦ ، ٧] . والمسألة متصلة بنوعية كل إنسان فرد على حدة وبتركيبه الفكرى والتأثير البيئى والوراثى عليه .

ولكن الإنسان لا يعذر لأن الله وهبه عقلا يفكر بحرية نابعة من إرادته المستقلة يستطيع بواسطته أن يميز بين الخطأ والصواب وبين الباطل والحق وبين الضار والنافع . ولذلك يقرر القرآن : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنعام : ١٣٠] . فمن أعرض عن الذكر فى الحياة الدنيا واختار غير طريق الدين الحق فإن القرآن يقرر فى شأنه : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾ [النساء : ١١٥] . كما يقرر فى شأنه أيضا : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] . أما الذى استجاب للذكر فى الحياة الدنيا ، واختار طريق الحق فإن القرآن يقرر فى شأنه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف : ١٠٧ ، ١٠٨] .

والناس يوم القيامة أصناف ثلاثة كما أوضحت لنا سورة الواقعة :

١ـ السابقون المقربون . وهم ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ [١٣ ، ١٤] .

٢ـ أصحاب اليمين . وهم ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ [٣٩ ، ٤٠] .

٣ـ أصحاب الشمال . وهم بقية الناس من غير أولئك وهؤلاء . .

وقد فصلت سورة الواقعة مقام كل صنف من هؤلاء الأصناف الثلاثة من البشر يوم القيامة فذكرت : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة : ٨٨ – ٩٦] .

الفصل الثامن

الإنسان والمستقبل

منذ هبط الإنسان ـ آدم ـ من الجنة إلى الأرض [1]، وهو يكابد فى مستقره المؤقت من أجل تحسين مستوى حياته فى البيئة المحيطة به . وتطور الإنسان فى مستوى حياته فى الأرض مترقيا من حال إلى حال عبر الزمان الممتد لتاريخ وجوده على هذه الأرض وحتى تاريخنا المعاصر فى هذا القرن الخامس عشر من هجرة خاتم المرسلين، والقرن العشرين من ميلاد المسيح عليه السلام .

وقد شهد القرن العشرون تطورا ملحوظا بالنسبة لمعارف الإنسان وعلمه، بدءا من الذرة ومرورا بالآلات الإلكترونية والإنسان الآلى إلى الكمبيوتر والسوبر كمبيوتر إلى غزو الفضاء واستكشاف الكواكب والنجوم المحيطة بكوكب الأرض . وكان للعلوم الطبيعية النصيب الأكبر فى اهتمامات العلماء فى هذا القرن، بينما تأخرت العلوم الإنسانية عن زميلتها الطبيعية فى اكتشاف أغوار الإنسان بتركيبه المثنوى الجسدى والروحى . ولكن نهايات القرن العشرين شهدت تطورا ملحوظا فى بعض العلوم المتصلة بالإنسان، وخاصة تركيبه الوراثى، كالكيمياء العضوية والوراثة وعلم الأحياء، حتى بات الإنسان على مشارف «تغيير خلق الله » بالتحكم فى عوامل الوراثة وتحسين الصفات الوراثية فى المواليد الجديدة، الأمر الذى يثير تحديات كبيرة أمام مفاهيم الدين وقيمه وأخلاقياته .

هذا وقد طغت المادة والتفكير المادى على عصرنا طغيانا جعل العلماء الماديين ينكرون كل

---

(١) لا يقتصر الهبوط على المعنى الشائع من النزول من السماء إلى الأرض، بل هو يعنى أيضا النزول من أعلى إلى أسفل سواء فى المكان (فى الأرض) أو فى الحالة (فى الإنسان)، كما قد يعنى الدخول والإقامة والاستيطان كما فى قوله تعالى: ﴿ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ﴾ [البقرة : ٦١].

ما يمت إلى الروح لدى الإنسان بصلة، باعتبار الروح نفخة ربانية نورية فى هذا الإنسان الذى خلقه الله وكرمه وفضله على كثير من خلقه، بل اصطفاه خليفة له فى الأرض بعد أن هيأه الله بالتسوية الفسيولوجية ليكون أهلا لتحمل أمانة «العقل» وأداء الدور العبادى المطلوب منه. الدور الذى يصل الأرض بالسماء والمادة بالطاقة، والجسد بالروح، والوجود بخالقه.

ورحلة الإنسان فى الأرض منذ نشأته الطينية الأولى هى هذه الرحلة التى تبدأ من الطين وترتقى إلى العقل أو الروح إلى نور الملأ الأعلى ونور الخالق العظيم الذى هو نور السموات والأرض. الإنسان إذن هو ما يجب أن يكونه، وليس الإنسان هو ما كانه كما يقول ماكس أوتو[1].

إن سر عظمة هذا الإنسان تكمن فيما صار إليه بقدراته العقلية والروحية، وفيما يمكن أن يكونه بهذه القدرات فى الارتباط بقيم الأديان الأخلاقية والتشريعية. والمشكلة الأساسية التى تواجه الإنسان فى مستقبله فى القرن الواحد والعشرين هى مشكلة «المسئولية الأخلاقية» التى يتعين أن يرتبط بها ويتحملها العلماء ورجال السياسة والاقتصاد والعسكريون وكل من له صلة باتخاذ القرارات المصيرية فى حياة الإنسان فى حاضره ومستقبله.

ولعل الإنسانية جمعاء تتطلع اليوم إلى ذلك القدر الكبير من التعاليم الأخلاقية والقيم الروحية للأديان، تنشد فيها أمل الخروج من هوة التفكير والسلوك الماديين فى عالمنا المعاصر، ولعل التوازن الذى بنى عليه الدين الخاتم فى محتواه القرآنى المتمم لرسالات الإسلام السابقة عليه والتى حملتها التوراة والإنجيل، أقول لعل هذا التوازن الذى يقيمه القرآن بين الدنيا والآخرة، بين المادة والطاقة، بين الجسد والروح، بين الجسم والعقل، هو الغاية المنشودة للإنسان فى مستقبل حياته الاجتماعية على الأرض، ولعل بناء الإنسان كما شيده القرآن هو المخرج من النظرة الحيوانية أو المادية الصرفة المعاصرة التى ينظر بها إلى الإنسان، ولعل قيم القرآن الأخلاقية ونظمه التشريعية هى الدواء لكل الأمراض النفسية ومشكلات الظلمين الاجتماعى والاقتصادى التى يعانى منها الإنسان فى غالبية دول العالم بما فيها الدولتان العظميان.

إن الدول العظمى قد أدركت حجم ومقدار قوتها التدميرية الهائلة والمخيفة والتى يمكنها أن تحيل هذا الكوكب الأرضى الذى نسكنه إلى حصيد كأن لم يغن بالأمس شيئا، ومن هنا راحت بوادر الوفاق العالمى تفرض نفسها على مسرح الأحداث والعلاقات الدولية، يحركها ويدعو إليها العقلاء من القادة الذين أدركوا أن الإنسان يحيا بالحرية والكرامة والأخلاق وقيم

---

(١) فى كتابه: العلم والحياة الأخلاقية (Science And The Moral Life).

الأديان، وليس بالسلع الاستهلاكية أو وسائل الإنتاج وحدها . . وأنه جسد وروح، وحدة تشمل نفسا تحتاج إلى العناية والرعاية وفق طبيعتها المثنوية التى جبلت على التدين واحترام الدين واستنشاق روحه من أجل عيش حياة حرة كريمة آمنة مطمئنة، فى إطار مبادئ تقوم على الإخاء الإنسانى والمحبة الأخوية والتسامح والتعاون والتعارف.

ولعل المسلمين اليوم يستطيعون بما لديهم من قرآن، أن يقدموا إلى الإنسانية فى حاضرها ومستقبلها نماذج من هذا البنيان الشامخ الذى يقيمه القرآن للإنسان، لنقول للناس أجمعين فى كل أنحاء الدنيا ما قاله مفكرنا العظيم الراحل المرحوم عباس محمود العقاد[1] : «إنسان القرآن هو إنسان القرن العشرين، ولعل مكانه فى هذا القرن أوفق وأوثق من أمكنته فى كثير من القرون الماضية لأن القرون الماضية لم تلجئ الإنسان إلى البحث عن مكانه فى الوجود كله، وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة التى يعيش فيها من ذلك النوع، وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمى إليها، كما ألجأه إلى ذلك كله هذا القرن العشرون. . وإن المنصف بين النصائح لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة فى الإنسان والإنسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التى يستوحونها من كتابهم، وإن القرن العشرين سينتهى بما استحدث من مبادئ ومذاهب وأيديولوجيات ولا ينتهى ماتعلمه أهل القرآن من القرآن. . .

الإنسان فى عقيدة القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله، يدين بعقله فيما رأى وسمع، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب فلا تدركه الأبصار والأسماع. والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد، أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا، وصدق النية فيما أحسنه واتقاه. .

ولقد ذكر الإنسان فى القرآن بغاية الحمد وغاية الذم فى الآيات المتعددة والآية الواحدة، فلا يعنى ذلك أنه يحمد ويذم فى آن واحد، وإنما معناه أنه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما، فهو أهل للخير والشر لأنه أهل للتكاليف. .

الإنسان مسئول عن عمله ـ فردا وجماعة ـ لا يؤخذ واحد بوزر واحد ولا أمة بوزر أمة. أما مناط المسئولية فى القرآن، فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل إليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الدينى أو التشريع فى الموضوع، فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملة : تبليغ وعلم وعمل، فلا تحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوى فى مسائل الغيب ومسائل الإيمان. .

---

(١) فى كتابه : (الإنسان والقرآن).

أما العلم، فإن أول آية تلقاها صاحب الدعوة الإسلامية كانت أمرا بالقراءة وتنويها بعلم الله وعلم الإنسان . . وأول فاتح في خلق الإنسان كان فاتحة العلم الذى تعلمه آدم وامتاز به على سائر المخلوقات . . وأما العمل فهو مشروط في القرآن بالتكليف الذى تسعه طاقة المكلف وبالسعى الذى يسعاه لربه ونفسه . . ورسل البلاغ هم أول المكلفين بالعلم والعمل، أممهم جميعا أمة واحدة هى «الأمة الإنسانية» وإلههم جميعا إله واحد هو «رب العالمين» . .

وفيما ذكر فيه الإنسان من آيات الكتاب وصف له، هو في الذروة من الكمال المقدور له بما استعد له من التكليف، ووصف له وهو في الدرك الأسفل من الحطة التى ينحدر إليها بهذا الاستعداد، وكل هذه الآيات توسع مفصل فيما ورد من نصوص الأمر والنهى، والعظة والتذكير، والثواب والعقاب . . فالإنسان أكرم الخلائق بهذا الاستعداد المتفرد بين خلائق السماء والأرض، من ذى حياة أو غير ذى حياة . ولكنه ينفرد بين الخلائق بمساوئ لا يوصف بها غيره، لأن السيئة والحسنة - على السواء - لا يوصف بهما مخلوق غير مسئول .

فهذا المخلوق المسئول يوصف دون غيره من الخلائق بالكفر والظلم والطغيان والخسران والفجور والكنود، لأنه دون غيره أهل للإيمان والعدل والرجحان والعفاف . . . وقد يذكر بالضدين في الآية الواحدة، ويكون المعنى الموافق لسائر معانى الآيات أن الجمع بين النقيضين في الإنسان ينصرف إلى وصف واحد، هو وصف الاستعداد الذى يجعله أهلا للترقى إلى أحسن تقويم وأهلا للتدهور إلى أسفل سافلين . .

والآيات التى قصر فيها القول على خلق جسد الإنسان، لم تخل مما يوحى إلى المخلوق المسئول أن أطوار خلقه السوى إعداد لما هو أشرف من حياته الحيوانية، وبرهان من براهين التبليغ برسالة الغيب، عسى أن ينظر في الخلق فيرى فيه آثار الخلاق الذى لا تدركه الأبصار والأسماع .

ولا يسأل الإنسان عما يجهل، ولكنه يسأل عما علم وعما وسعه أن يعلم . وما من شىء في عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الإنسان؛ فما وسعه من علم فهو محاسب عليه . .

مكان الإنسان في القرآن الكريم هو أشرف مكان له في ميزان العقيدة وفي ميزان الفكر وفي ميزان الخليقة الذى توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات، فهو الكائن المكلف، وأى شىء أعجب من هذه الخاصية المحكمة ينفرد بها القرآن بين تعريفات الفلسفة وتعريفات الدعوة الدينية . إنها عجيبة لم تأت بها مصادفات التضمين والتخمين لأن الكتاب الذى ميز الإنسان بخاصية التكليف هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب «العقل» بكل ملكة من ملكاته وبكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون، قبل أن يصبح العقل درسا يتقاضاه الدارسون كنها وعملا، وأثرا في داخله وفيما خرج عنه، وفيما يصدر منه ويئول إليه .

العقل وازع «يعقل» صاحبه عما يأباه له التكليف . . العقل فهم وفكر يتقلبان فى وجوه الأشياء وفى بواطن الأمور . . العقل رشد يميز بين الهداية والضلال . . . العقل روية وتدبر . . العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار . . والعقل ذكرى تأخذ من الماضى للحاضر ، وتجمع العبرة مما كان لما يكون ، وتحفل وتعى وتبدئ وتعيد . . والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل أمر بمعروف ، وكل نهى عن محظور . . أفلا يعقلون . . . أفلا يتفكرون . . أفلا يبصرون . . أفلا يتدبرون . . أليس منكم رجل رشيد . . أفلا تتذكرون . .

إن قيام النبوة على إقناع العقل المسئول بآيات الكون قد اختتم سلطان الأحبار والقادة ، كما اختتم سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق العادات . فلا يعذر الإسلام إنسانا يعطل عقله ليطيع السادة المستكبرين أو ليطيع الأحبار المتسلطين بسلطانى المال والدين .

والإنسان روح وجسد وهما ملاك الذات الإنسانية ، تتم بهما الحياة ولا تنكر أحدهما فى سبيل الآخر ، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد حقا ليوفى حقوق الروح ، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقا ليفى حقوق الجسد ، ولا يحمد منه الإسراف فى مرضاة هذا أو مرضاة ذاك . . وليس السعى فى سبيل الدنيا ضلالا عن سبيل الآخرة ، وليس فى القرآن فصام بين روح وجسد ، أو انشقاق بين عقل ومادة ، أو انقطاع بين سماء وأرض ، أو شتات فى العقيدة يوزع «الذات الإنسانية» بين ظاهر وباطن وغيب وشهادة ، بل هى العقيدة على هداية واحدة تحسن بالروح كما تحسن بالجسد فى غير إسراف ولا جور عن السبيل . .

وقد ذكرت النفس فى القرآن بجميع قواها التى يدرسها اليوم علماء النفس المتخصصون لهذه الدراسات فى موضوعاتها الحديثة . والإنسان يعلو على نفسه بعقله ، ويعلو على عقله بروحه ، فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية ، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله ، وحق العقل أن يدرك ما وسعه من جانبها المحدود ، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق إلا بإيمان وإلهام . .

وقد وضع القرآن الإنسان ـ علما ودينا ـ فى موضعه الصحيح حين جعل تقسيمه الصحيح أنه « ابن ذكر وأنثى » ، وأنه ينتمى بشعوبه وقبائله إلى الأسرة البشرية التى لا تفاضل بين الأخوة فيها بغير العمل الصالح ، وبغير التقوى . وقد نسميهم باصطلاح الأسماء « أمما » كثيرة كلما تباعدت بينهم المواطن وتحيزت بهم الحدود وتشعبت بينهم العقائد واللغات ، ولكنهم قبل هذا الاختلاف أمة واحدة لها إله واحد هو رب العالمين . .

إن القرآن يضع الإنسان فى موضعه الذى يتطلبه فى القرن العشرين ، فلا تسعده عقيدة أخرى أصح وأصلح له من عقيدة القرآن ، لأن عصر العلاقات العالمية لا يتطلب «مواطنا» أصح وأصلح من الإنسان الذى يؤمن بالأسرة الإنسانية ، ويستنكر أباطيل العصبية ومفاخر

العنصرية ليعترف بفضل واحد متفق عليه فى كل أرض وبين كل عشيرة آدمية، وهو فضل الإحسان فى العمل واجتناب الإساءة.

وليس لهذا العصر حق على بنيه أصح وأصلح من حق الشعور بالمسئولية والنهوض بأمانة التكليف والاحتكام إلى العقل فى كل ما يسعه العقل، ثم اطمئنان الضمير إلى الخير فيما خفى عليه من شئون الغيب المجهول، ولابد فى كل عصر قديم أو حديث، من غيب مجهول.

إن القرآن يعطى القرن العشرين إنسانه الذى ليس من إنسان أصلح منه وأصح لزمانه، فإذا آمن الإنسان بالله وبالنبوة فليس أصح ولا أصلح لعصر الوحدة الإنسانية من الإيمان بهذا الإله الواحد وتعاليمه التى تسلمه لعقله وضميره، وتسأله عن إصلاح نفسه وإصلاح دنياه بما يدعوه إليه قوام الروح والجسد وطيب الحياة فى الدنيا والآخرة»[1]. انتهى.

إن الإنسان فى الدول المتقدمة اليوم، فى الغرب بالذات، وفى الشرق منذ البيريسترويكا والجلاسنوست، قد وصل إلى آفاق كثير من المبادئ القرآنية فى التطبيق العملى بالنسبة لمجتمعاته هو، من تقدير لقيمة العمل وإتقان العمل والاهتمام بجودة الإنتاج ووفرته.. وصل إلى تطبيق العديد من القيم والمبادئ القرآنية فيما يتصل بالحرية والمساواة والخضوع بالتساوى أمام القانون ومراعاة كرامة الإنسان واحترام الفكر واحترام آدمية الإنسان والتعامل بالصدق والأمانة والانضبط والنظام والنظافة والعناية بالبيئة وبالحيوان والتكافل الاجتماعى.. إلخ كما لم تعرفه أو تطبقه الدول المسلمة ذاتها وهى صاحبة القرآن العظيم.

ولعل الغرب قد سبقنا إلى تطبيق كثير من تعاليم القرآن من حيث لا يدرى أن هذا الكتاب يدعو إليها ويؤكدها ويناصرها.. مما يزيد من مسئولياتنا نحن المسلمين، أمام أنفسنا، أفرادا وشعوبا ودولا وأمة، وأمام العالم ثانيا وأمام الله من قبل ومن بعد.

إننا مسئولون أن نفهم جوهر هذا القرآن وقيم هذا القرآن وأخلاقيات هذا القرآن وتشريعات هذا القرآن وتوجيهات هذا القرآن.. لننهض بحاضرنا المتخلف نحو آفاق المستقبل المتقدم المزدهر الذى ننشده لأمتنا الإسلامية وشعوبنا المسلمة، ترقيا من دور النمو، وخروجا من واقع التأخر، وتطويرا لواقعنا الاقتصادى، وإكمالا للحرية المنضبطة فى واقعنا السياسى، عن طريق تجديد تفكيرنا الدينى ذاته وتطوير مفاهيمنا الدينية التى بناها السابقون صالحة لعصورهم ولم نستكمل نحن مسيرة تنميتها وتوسيعها وإثرائها من خلال واقعنا ومشكلاته عن طريق الفكر المجدد والفهم المتجدد والاجتهاد المثمر المواكب لمشكلات العصر واحتياجاتنا الحاضرة والمستقبلة، بعيدا عن التمسك بالقشور وإعطاء أهمية للموضوعات غير

---

(١) كتب المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد هذه الكلمات فى منتصف القرن العشرين تقريبا.

المهمة أو الملحة ، لا تفيد فى ترقى أمتنا ووحدتها وتكاملها وزيادة كفايتها المعرفية والعلمية والتكنولوجية بما ينعكس على قدراتنا على الإنتاج وإجادته وتجويده لمواجهة المشكلات المتراكمة والمتزايدة ، يتقدمها زيادة عدد مواليدنا بدرجة كبيرة تبدد آثار كل إنتاج جديد أو مرتفع .

ولعلنا فى ذلك الذى ننشده من نهضة يجب أن نكون أول المتمسكين بالمنهاج العلمى فى التفكير ، مقدرين للعلم والعلماء مطورين لنهج التربية والتعليم بما يفيد مجتمعنا فى ظل توجيهات ديننا الذى يوجهنا فى الدنيا كما يوجهنا للآخرة ، ويدفعنا للعمل فى الدنيا كما يدفعنا إلى الاستعداد للآخرة ، ديننا الذى يجيب حاجاتنا الجسدية المشروعة كما يلبى نداء أرواحنا وعقولنا المتطلعة إلى نور القرآن بقيمه وأخلاقياته ، والذى يعطينا هويتنا الحقيقية ، وذاتنا الحقيقية .

إن الإنسان فى عالمنا المعاصر قد أدرك تماما أهمية التكتلات الدولية والتجمعات الدولية والتكامل الاقتصادى والسياسى والعسكرى ، وقد بدأنا نحن ، قريبا فقط ، ندرك أهمية ذلك بميلاد العديد من التكتلات والتجمعات فى إطار تجمعنا الأوسع - التجمع العربى - ونمارس دورا بناء من خلال تجمعنا الأكبر - التجمع الإسلامى - عن طريق منظمة المؤتمر الإسلامى - والذى نرجو وندعو له ليطور نفسه ويؤدى دوره المؤثر ، السياسى والاقتصادى والثقافى والعلمى والتكنولوجى والعسكرى والعقائدى والتحريرى . . بدرجة أكثر فاعلية وأكثر قوة وأكثر تأثيرا مما هو عليه الآن .

إن هذا التجمع الإسلامى يمكن أن يؤدى لنا وللإنسانية دورا نحن وهى فى أشد الحاجة إليه فى إطار كثير من الاحتياجات الضرورية . إن هذا التجمع يستطيع أن يعلى من شأن الإنسان المسلم وكرامته ومستوى معيشته بالتعاون والتكامل فى إطار المفهوم الإسلامى للجسد الواحد للأمة الإسلامية والأخوة الإنسانية العامة التى يشترك فيها كل الناس بالأصل المشترك لآدم وحواء دون أن يعتدى إنسان على إنسان أو دولة على أخرى أو أمة على أمة .

إن علينا أن نستفيد بالسبق الذى حققه الإنسان الغربى والإنسان الشرقى على السواء ، نأخذ المفيد من تجاربهما ونترك الضار من هذه التجارب ، ثم نضيف إلى الرصيدين العلمى والتكنولوجى الحاليين رصيدا من القيم الأخلاقية والتعاليم الدينية نهدى به كل إنسان ضال فى متاهات المادية أو أباطيل الحيوانية أو تسلط الأهواء والغرائز . كما نضيف - بقدر الاستطاعة - رصيدا من الابتكارين العلمى والتكنولجى ذاتيهما من خلال طاقات وقدرات علمائنا ومفكرينا ، لنساعد على خلق جو الوفاق والسلام الدوليين ، وعلى تحقيق القوة التى تؤدى إلى سيادة السلام العادل والشامل فى منطقتنا التى ما زلنا - وسنزال - نواجه فيها ذلك

التحدى الصهيونى الضخم الذى يحتاج لإعداد متقن لقوانا السياسية والاقتصادية والعسكرية والعلمية والتكنولوجية ، وخاصة قوتنا المعنوية والأخلاقية .

إن القرآن يدعو الناس والشعوب إلى التعارف ويرفع شأن الناس من نظرة الحيوانية والمادية الصرفة إلى آفاق العقل والروح الموصولين بخالق الناس، وهو يقيم علاقات الأفراد والشعوب على أساس القيم الأخلاقية وخشية الله، مرتبطة بتشريعات العدالة الاجتماعية والاقتصادية والشورى السياسية، والمراقبة الفردية الذاتية للسلوك الإنسانى وأهدافه .

إن أزمة العالم المسلم المعاصر هى أزمة أخلاقية بالدرجة الأولى تضافرت فى إحداثها عوامل سياسية واقتصادية أساسا ومن ثم فإنه يتعين علينا أن نحسن من أوضاعنا الاقتصادية والاجتماعية فى الوقت نفسه الذى نعمل فيه لتقويم أخلاقياتنا وأنماط سلوكياتنا بالتربية والتعليم وتجديد المفاهيم الدينية غير المواكبة للعصر .

ونظرتنا إلى المستقبل تقترن بالضرورة بدراستنا للتاريخ واستيعاب دروسه لعلاج الحاضر والتخطيط للمستقبل(١)، والعناية بعلم المستقبل وذلك من زاويتين :

الأولى : تاريخ الإنسان الأول وتجربته التى هبط معها من الجنة إلى الأرض، بكل عناصرها ودلالاتها ودروسها .

الثانية : التاريخ الحضارى للإنسان عبر العصور المختلفة وحتى يومنا .

وغنى عن القول أن القرآن اهتم اهتماما كبيرا بالناحيتين . . الأولى فى آياته المتكررة لقصة آدم التى ساقها لأخذ العظة ومعرفة خصائص تركيب هذا الإنسان فى الخلق والمتميز بالعقل والحرية والإرادة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام، ودراسة التجربة الآدمية من جميع وجوهها ودلالاتها بعد معرفة عناصرها المتصلة بالتركيب العضوى للإنسان وقدراته العقلية وحاجاته الضرورية والأساسية فى الحياة. والثانية بسرد أحسن القصص عن تاريخ الأمم السابقة وما شادته من مدنيات وحضارات شامخة ـ مركزا على الحضارة الفرعونية بالذات التى قدمت للإنسانية معارف وعلوما ما زالت تحيرنا بالنسبة لمستواها فى عصرها .

يخبرنا القرآن بأن التاريخ الإنسانى فى الأرض يرتبط بعدة أمور مهمة وجوهرية فى حياة الإنسان ذاته، وهى :

١ ـ وحدة الذات الإلهية باعتبارها مصدر الوجود كله وحوادثه التى ترجع فى أصلها الأول إلى أنواع من الطاقة منها المعروف لنا ومنها غير المعروف .

---

(١) (Futurology) .

٢ ـ وجود «الغاية» وراء تحقق هذه الحوادث فى تطورها من غير العاقل إلى العاقل استكمالا وإكمالا لدور «العبادة» للإله الواحد.

٣ ـ إيجاد المخلوقات العاقلة فى الكون، واختيار الإنسان من بينها جميعا، ليكون الكائن الحى العاقل المدرك لخصائص الألوهية فى مظاهرها الطاقية الأسمائية الكونية بما يحقق «الغاية» وهى العبادة، عن طريق نمو وترقى المعارف المستمرين.

٤ ـ تحقق الصلة بين ذات الإله وبين الإنسان عن طريق الأنبياء المصطفين والمميزين بقدراتهم العقلية والروحية العالية، يحملون صور الهدى الإلهى إلى الإنسان.

٥ ـ ترابط الهدى الإلهى كله المنزل إلى الإنسان فى إطار معنى واحد وصفة واحدة هما «الإسلام»، رغم امتداد الحوادث الملابسة لصور هذا الهدى وملابسات نزوله لفترات محددة فى الزمان وتحديدات معينة فى المكان.

٦ ـ وجود تصور قرآنى شامل يربط بين الإنسان والكون والإله من أجل خير وسعادة الإنسان فى إطار نظرة شاملة تقوم على الإخاء والمحبة والعدل والمساواة والتعاون فى إطار مفهوم «الجسد الواحد».

٧ ـ الأمانة التامة والصحة الكاملة فى رواية الأحداث التاريخية هما اللتان يرويهما القرآن باعتباره الصورة الخاتمة لأشكال الهدى الإلهى الإسلامى للإنسان: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

وليس السرد القرآنى للأحداث والوقائع التاريخية من قبيل الأساطير التى تروى للتسلية: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥]. ولكنها رصيد من التجارب الإنسانية فى السلوك الفردى والسلوك الاجتماعى المرتبط بالدوافع العضوية والنفسية والمشاعر والاعتقادات والمصالح.. إلخ، للإنسان الذى يحدد ويقيم مصالحه فى العلاقة بالمحيطين الاجتماعى والدولى السائدين.

لقد أراد الله سبحانه وتعالى للإنسان أن يكون متميزا بعقله على الوجود الكونى الصرف، المادى أو الطاقى، وكان مناط هذا التميز هو النفخة الروحية الربانية التى جعلت الإنسان، الطينى الأصل، خلقا آخر غير الخلق الطينى البحت الذى ينتسب لمادة الأرض. بنفخة التكريم هذه كان التكليف الإلهى للإنسان مصحوبا بحرية الاختيار المتصلة بالعقل، يميز به الإنسان بين الخير والشر وبين الحق والباطل وبين الظلمات والنور: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ فقد أعطى

الإنسان وسائط شهود الآيات ووسائط التعبير عما يراه أو يتعلمه بالحواس: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ⑧ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ⑨ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ٨ - ١٠] . ومن هذه المنحة الإلهية كان العلم الإنسانى مستندا أولا إلى العقل، يكتشف ويستخدم هذا العلم ويرتقى بمستواه على مر العصور.

التاريخ يبحث أساسا فى الإنسان لأنه أساس المدنية والحضارة، والإنسان عبر التاريخ هو فى الحقيقة «الحكمة» أو «الغاية» من الوجود ذاته فى عملية السعى الدائب للوصول إلى الحقيقة المطلقة. الطريق الإنسانى الطويل فى الأرض ديناميكى لا إستاتيكى، أى متحرك وليس ثابتا. والطريق هو السلوك الإنسانى عبر الأجيال، الحوادث المتصلة بالإنسان عبر القرون، هو عبارة عن علاقة «العقل» «بالمعقولات». وتاريخ الإنسان العاقل يبتدئ منذ آدم العاقل المذكور فى الكتب السماوية، التوراة والإنجيل والقرآن، وهو عبارة عن قدرة العقل الإنسانى العالى على المعرفة من خلال العلاقة بين العقل - الناتج من النفخة الروحية الربانية - وبين الكون كله، فى سعى الإنسان المتواصل لاستزادة معرفته بنفسه وبالبيئة المحيطة به وبالكون المحيط وما وراءه من إله خالق قادر.

إن دراسة التاريخ تعتبر دراسة واقعية تفيد الإنسان من حيث حياته الاجتماعية الواقعية فى حاضره ومستقبله، تقويما للحاضر وتخطيطا للمستقبل، ودراسة فلسفة التاريخ هى دراسة نظرية علاقتها بالواقع هى دراسة تفسير وتكييف وتقويم ومعرفة الغاية والقصد فى إطار «الحكمة»، وكلها تمثل «المعنى» الذى ينبغى أن يضبط الإنسان نفسه فى إطاره عندما يقوم باستخدام تطبيقات العلوم التكنولوجية، المعنى الذى تمثله قيم الدين وعلى رأسها الإيمان والعمل الصالح، أى الخير النافع للناس.

إن بداية الوجود الإنسانى هى بداية الوجود العاقل القادر على إيجاد تصور شامل يربط بين الإله والكون والإنسان، وبداية العقل هى بداية الدين، وبداية الدين هى أعلى خطوات الإنسان فى إيجاد وبلورة هذا التصور ذاته. إن الدين - كل الدين - بقيمه الروحية الأخلاقية، وتشريعاته العادلة، هو أمل الإنسان المعاصر فى تحطيم أغلاله المادية والحيوانية التى يقيده بها الماديون فى الغرب والشرق على السواء . . «لقد بنيت قواعد الأخلاق النظرية فى المدنية العصرية على بقايا الأخلاق المسيحية، بيد أن أحدا لا يطيعها. فقد نبذ الإنسان العصرى كل نظام شهواته، ومع ذلك فليس فى الآداب البيولوجية والصناعية أية قيمة عملية لأنها أداة مصطنعة ولا تدخل فى اعتبارها إلا ناحية واحدة من نواحى الإنسان. إنها تتجاهل بعض وجوه نشاطنا الأكثر أهمية ولا تزود الإنسان بسلاح على درجة كافية من القوة ليحميه من رذائله الفطرية . .

يجب على الإنسان أن يفرض على نفسه قاعدة داخلية حتى يستطيع أن يحتفظ بتوازنيه العضوى والعقلى.

إن الدولة قادرة على فرض القانون على الشعب بالقوة، ولكنها لا تستطيع أن تفرض عليه الأخلاق، فيجب أن يدرك كل فرد ضرورة فعل الخير وتجنب فعل الشر، وأن يرغم نفسه على اتباع هذا المنهاج ببذل جهد إرادى..

إن الأشخاص الذين يحافظون على سلام ذواتهم الباطنية وسط ضوضاء المدنية الحديثة، محصنون ضد الاضطرابات العصبية والعضوية.. »[1] أليكسى كاريل.

لقد أشرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب إلى الصيحة التى أطلقها فى الخمسينيات وزير خارجية أقوى وأعظم دولة فى العالم، يبين فيها الضروة الملحة فى أن يتمسك العالم بقيم الدين الروحية وتعاليمه الأخلاقية أملا فى إنقاذ البشرية من المصير الرهيب الذى يتهددها بالفناء من فوق هذا الكوكب لو أن أصحاب القيادة والقرار (فى المسئولين) ساقهم القصد أو الخطأ أو سوء التقدير أو ظن المصلحة إلى الضغط على بضعة من الأزرار تحيل الأرض إلى بؤرة من الإشعاعات الذرية والمواد الكيماوية الفتاكة التى قد تفنى النوع الإنسانى تماما من فوقها.

وقد تنبه إلى هذه الأزمة المادية التى يعانى منها العالم المعاصر، المفكر المسلم الكبير محمد إقبال ـ رحمه الله ـ الذى أعرب عن ضرورة إيجاد تفسير أو تأويل روحى للكون. وقد قلنا فى كتابنا «الإسراء والمعراج والعلم الحديث» إن العلم يرتقى من المادى إلى الطاقى إلى الروحى.. ولعل هذا الاتجاه العلمى الكبير الذى يعكف عليه العلماء فى الغرب والشرق فى مجال القدرات الروحية للإنسان، أو قدرات العقل الزائد عن الحواس (Extra Sensory Perception) أن يكون عاملا من العوامل التى تؤكد ضرورة الإيمان بالطبيعة الثنائية للإنسان، الجسد والروح أو الجسد والعقل، باعتبار أن الاثنين من صنع الإله الواحد الخالق، وباعتبار أن الطاقة العقلية أو الروحية لدى الإنسان هى أمله فى حياة أفضل فى مستقبله؛ فيتطلع فى إطار حياته الروحية التى تستمد من تعاليم الدين وقيمه، إلى آفاق المسئولية الأخلاقية الواجب توافرها من أجل سعادته ذاتها.

إن على الإنسان أن يدرك جيدا قيمة التوازن فى شخصيته ليؤسس فكره وسلوكه على أساس دواعى الجسم والعقل (الروح) أو الدنيا والدين معا: «يجب أن يغير من البيئة المادية الصرفة المحيطة به لكى تتناسب مع طبيعته هذه التى هى فى الحقيقة «الإنسان». أى أنه يجب ـ

---

(١) فى كتابه القيم: (الإنسان ذلك المجهول) تعريب شفيق أسعد فريد.

كما يقول أليكسى كاريل «أن يكون الإنسان مقياسا لكل شيء. لكن الواقع هو عكس ذلك، فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه، فإنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة علمية بطبيعته ذاتها. . ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية. . فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقومنا ولا بالنسبة لهيئاتنا . . إننا قوم تعساء، لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا. .

إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى، على وجه الدقة، الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها، ولكنها لا تدرك ذلك، إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها. وحقيقة الأمر أن مدنيتنا، مثل المدنيات التى سبقتها، أوجدت أحوالا معينة من الحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة، وذلك لأسباب لا تزال غامضة. .

إن القلق والهموم التى يعانى منها سكان المدن العصرية تتوالدان عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية. . إننا ضحايا تأخر علوم الحياة عن علوم الجماد، والعلاج الوحيد الجائز لهذا الشر المستطير هو معرفة أكثر عمقا بأنفسنا. . فمثل هذه المعرفة ستمكننا أن نفهم ما هى العمليات الميكانيكية التى تؤثر بها الحياة العصرية على وجداننا وجسمنا. وهكذا سوف نعلم كيف نكيف أنفسنا بالنسبة للظروف المحيطة بنا، وكيف نغيرها إذا لم يعد هناك مفر من إحداث ثورة فيها. . ولئن استطاع هذا العلم أن يلقى الضوء على طبيعتنا الحقة وإمكاناتنا والطريقة التى تمكننا من تحقيق هذه الإمكانات، فإنه سيمدنا بالإيضاح الصحيح لما يطرأ علينا من ضعف فسيولوجى، كذلك لأمراضنا الأدبية والعقلية. .

إننا لا نملك وسيلة أخرى لمعرفة القواعد التى لا تلين لوجوه نشاطينا العضوى والروحى، وتمييز ما هو محرم مما هو شرعى، وإدراك أننا لسنا أحرارا لنعدل فى بيئاتنا وفى أنفسنا تبعا لأهوائنا. . وما دامت الأحوال الطبيعية للحياة قد حطمتها المدنية العصرية، فقد أصبح علم الإنسان أكثر ضرورة». انتهى.

إن تقدم العلوم فى المستقبل فى الدراسات الروحية يمكن أن يلقى أضواء جديدة على تفسيرنا للطبيعة الكونية والقيمة التى يمثلها الإنسان بعد أن سقط فى القرن العشرين كثير من الثوابت العلمية التى كانت سائدة فى القرن الماضى ـ التاسع عشر ـ لتحل محلها فى القرن العشرين ثم الواحد والعشرين، متغيرات كان لها تأثير على فكرة الكثير من العلماء وأدت بهم إلى الاتجاه فى طريق الروحية والعلوم الروحية والمعرفة بالقدرات الروحية للإنسان ووجود الكائنات اللامادية والقدرات والطاقات اللامادية فيما يدخل مما هو معروف من علوم ما وراء الطبيعة.

إن الإنسان ـ كما قلنا فى غير هذا الموضع ـ هو ما يجب أن يكونه ، وليس ما كانه . إن ذلك وحده هو الذى يدفع الإنسان إلى السمو والارتقاء نحو قيم الدين الأخلاقية يقيم على أساسها حياته المتوازنة فى مجتمعاته المستقبلية التى ستجد أيضا فى تشريعات الدين ملاذها من سوء التوزيع للثروات والموارد واستغلال الإنسان للإنسان .

* * *

إن مستقبل الإنسان غير واضح . ماذا بعد انشطار الذرة والتحامها؟ ماذا بعد القنابل الذرية والهيدروجينية والنيوترونية؟ ماذا بعد الغواصات النووية والصواريخ العابرة للقارات؟ ماذا بعد غزوة الفضاء؟ ماذا بعد الإنسان الآلى والكمبيوتر والسوبر كمبيوتر؟ ماذا بعد الأقمار الصناعية فى استخدامات السلم والحرب على السواء؟ ماذا بعد برامج الفضاء والليزر ومركبات الفضاء التى يقودها الإنسان؟ ماذا بعد محطات الفضاء التى يديرها الإنسان؟ ماذا بعد أن شق الإنسان أرض القمر؟ ماذا بعد سيطرة شبح الإبادة الكاملة للإنسان من فوق وجه الأرض؟ ماذا بعد التغلب على قصور الأعضاء المعوقة فى الإنسان؟ ماذا بعد زراعة الأعضاء الصناعية فى جسم الإنسان؟ ماذا بعد محاولات إطالة عمر الإنسان وقهر الموت؟ ماذا بعد التحكم فى الصفات الوراثية وتغيير خلق الله؟ ماذا بعد تلوث البيئة بالنفايات الذرية؟ ماذا بعد فجوات الأوزون المحيط بالأرض؟ ماذا بعد المحاولات الدءوبة للبيولوجيين فى كشف أسرار المخ البشرى؟ ماذا بعد تخزين نطفة الإنسان المخصبة والتلقيح بها فى حياة أو بعد وفاة صاحبها؟ وغير ذلك . .

وعلى الجانب الآخر :

ماذا فى مشكلات الإنسان المتخلف عن ركب السبقين العلمى والتكنولوجى؟ ماذا فى الموت بسبب الجوع وسوء التغذية؟ ماذا فى الأمراض الفتاكة التى يستعصى على الإنسان حتى الآن علاجها؟ ماذا فى الأغذية الملوثة بالإشعاعات والطفيليات؟ ماذا فى مشكلات البطالة والتضخم وسوء التوزيع؟ ماذا فى نقص الإنتاج لدى البعض ووفرته لدى البعض الآخر ونتيجتهما هى الاستغلال وفقدان الاستقلال؟ ماذا فى مشكلة الفقر؟ ماذا فى مشكلة تلوث البيئة؟ ماذا فى مشكلة التزايد المطرد فى عدد السكان ونقص الموارد؟ ماذا فى التفرقة العنصرية؟ ماذا فى سباق التسلح الرهيب؟ ماذا فى سيطرة المادة على تفكير واهتمامات وسلوكيات الإنسان؟ ماذا فى مواقف الدول الرافضة للسلام وإعطاء الحق لأصحابه؟ ماذا فى انتشار المقدرة النووية تملكها دولة بعد أخرى؟ ماذا فى العلاقة بين الشمال والجنوب ، وبين الجنوب والجنوب؟ ماذا فى احتكار التوجيهات الاقتصادية والمالية العالمية لدى مجموعة السبعة؟ ماذا فى النظم غير الديمقراطية التى ما زالت تقاوم اتجاهات التغيير والإصلاح؟ ماذا

عن تدهور قيم الديانات وأخلاقياتها لدى الإنسان؟ ماذا عن الأمراض النفسية والعصبية نتيجة عدم التوازن فى الشخصية الإنسانية وخاصة فى المجتمعات المتقدمة صناعيا؟ ماذا عن مشكلة المخدرات؟ ماذا عن انحراف الشباب بفعل تأثيرات الجنس ومواد الفتك بعقل الإنسان وأعصابه؟ ماذا بعد نضوب احتياطيات البترول؟ ماذا بعد الابتكارات الرهيبة فى وسائل تعذيب الإنسان للإنسان؟ ماذا عن ضياع حقوق الإنسان ؟ وأخيرا، هل سيدوم جو الوفاق العالمى السائد وتتغير التوازنات الدولية لصالح السلام وحرية وكرامة وحقوق الإنسان؟ وغير ذلك . .

كلها أسئلة مطروحة، ولكنها سوف تساهم بالإجابة عنها فى توضيح الصورة المستقبلية للإنسان فى ضوء ما يكون لها من حلول واستخدامات وعلاجات، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها بقيام ساعة حساب الناس، ويظل التساؤل الأكبر الذى يحتاج إلى إجابة . . أين نقف نحن كمسلمين، من كل هذا الذى سوف يساهم بدرجة أو بأخرى، فى تحديد صورة حياة الإنسان المستقبلية؟

لا مناص من أن نبدأ من الإنسان الفرد. لقد ربى القرآن الإنسان أعلى تربية أخلاقية ممكنة، تستند إلى عقيدة إيمانية راسخة وتدعم بعبادة روحية جسدية هدفها استمرار طهارة النفس الإنسانية، لينطلق الإنسان بالعقيدة والعبادة فى معترك السلوك والمعاملة فى الحياة، تضبطهما تشريعات تعالج ـ وتقبل أن تعالج ـ كل أمور الإنسان ومجالات نشاطه، تتسع وتتشعب فى إطار حركة علمية نشطة ترعاها الدولة إلى جانب رعايتها للإيمان. ونحن نعلم أن درجة التدين تتفاوت من إنسان لآخر، وأن سماحة الدين تتسع لتشمل وتظلل كل إنسان. وقد علمنا النبى محمد صلى الله عليه وسلم مراتب الدين الأربع : الإسلام والإيمان والإحسان واليقين، ليقتبس كل إنسان منها على قدر استعداده.

بناء الإنسان هو دورنا الأساسى للمستقبل. الإنسان المؤمن المتسلح بالعلم والأخلاق هو قوام نهضتنا، وقد يكون من المفيد فى هذا المجال إعادة صياغة قواعد التربية والتعليم لتكون مؤسسة ومنسجمة مع عقيدة دينية ذات تصور كلى شامل للوجود وللإله وللإنسان ودوره باعتباره خليفة فى هذه الأرض ينشد المعرفة من خلال وحدة الحقيقة الكلية، وبالتالى يندمج عنده النظامان التعليميان العام والإسلامى ليكونا وحدة تعليمية كلية وشاملة، عقيدة مؤسسة على ثقافة إسلامية توضع مناهجها من خلال هذا التصور الأشمل المتصل بالإنسان المسلم ودوره البناء فى الحياة.

يمتزج هذا التصور بالتاريخ الإسلامى فى صدر الدعوة وتاريخ الحضارة الإسلامية المزدهرة ممزوجين بمتطلبات عصرنا وما نسعى لأن نكونه فى المستقبل يجب أن نحدد هدفنا بوضوح، وأن نستفيد من دروس تاريخنا الإسلامى بقدر ما يرشدنا ويمدنا بالطاقة لبلوغ هدفنا المستقبلى من خلال تغيير الفرد تغييرا سيكولوجيا تبدأ به أولى خطوات التغيير لواقعنا المتخلف.

ينبغى أن ندرك أعماق معنى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] ، بما يعنيه من التغيير السيكولوجى الواجب إجراؤه لدى الفرد من أجل إجراء تغيير مماثل فى الواقع الخارجى الذى يعيشه الفرد.

إن أى تغيير للواقع الاجتماعى يجب أن يسبقه ـ وبالتالى يؤدى إلى تحققه ـ تغيير سيكولوجى فى الفرد ذاته بمعنى تغيير مماثل فى الواقع الخارجى الذى يعيشه الفرد ذاته بمعنى تغيير فى الحالة العقلية ترتقى به هذه الحالة لتكون أكثر اقترابا من «القيم الأخلاقية» التى يقررها الدين وفى قمتها «العدالة الاجتماعية» و«التكافل والسلام الاجتماعى» و«كلية الجسد الواحد» و«الرعوية المسئولة» و«الأخوة الدينية» . . إلخ، فى مقابل الحرية الفردية والنشاط الخاص المرتبط بها. هكذا تغيير نظرى وتطبيقى، أو فكرى وسلوكى، يشمل الإنسان والبيئة معا[1] .

ونتصور أن يكون لمؤسساتنا الدينية والتعليمية والتربوية دور رئيسى تقوم به من خلال تطوير المناهج الدينية والتربوية والتعليمية لتلبى احتياجاتنا المادية والروحية معا . . فسنحتاج ـ مثلا ـ إلى دعاة من نوع مثقف ثقافة إسلامية واسعة تتجاوز الرجوع بنا فى مواعظها إلى مجرد العيش بنا فى التاريخ، فى الماضى، إلى أساليب ووسائل وطرق استفادتنا من هذا الماضى المشرق لبناء الحاضر وتشكيل المستقبل وكيفية الاستفادة من التراث فى عملية إعادة البناء . . وسنحتاج ـ مثلا ـ إلى إحياء رسالة المسجد ودوره المؤثر فى المجتمع الحديث واحتياجاته، مع الاستفادة من حكمة الاجتماع الأسبوعى لأداء الجمعة وغيرها، من التعارف والتعاون وتوطيد الصلاة الاجتماعية والتكافل وحل المشكلات . . إلخ.

وسنحتاج ـ مثلا ـ إلى استغلال منسك الحج أحسن استغلال باعتباره مؤتمرا سنويا للقادة والشعوب فى الأمة الإسلامية يبحث شئونها ومشكلاتها وقضاياها الملحة فى جو من الصفاءين النفسى والعقلى اللذين يتحققان بالحج ويتوافران فى وقته . . وسنحتاج ـ مثلا ـ إلى تخطيط شامل ينهى الازدواجية القائمة بين علوم الدين وعلوم الدنيا وهدف كل منهما المستقل عن الآخر، دون إخلال بمبدأ التخصص المعرفى اللازم، فى عالم تتحكم فيه التكنولوجيا وتحكمه القوة ويحركه الكمبيوتر وتوجيه الحسابات والأرقام، وتسيطر على مقدراته الآلة وتتكدس فيه المعلومات وتختزن فيه الطاقة ويصغر بسرعة الاتصالات، ومع ذلك يقف الإنسان على قمته يعوزه العنصر الأخلاقى لتوجيه كل ما لديه من العناصر المادية نحو خير الإنسان.

إننا نستطيع أن نجد فى «الدين» نظاما يصوغه الإنسان صياغة تستجيب وتتوافق مع احتياجاته المادية والروحية على السواء، ومتى توافر المناخ اللازم لاستغلال قدرات الإنسان

---

(١) تراجع هنا نظرية الحتمية البيولوجية التى يبرر بها أنصار اليمين الجديد فى الولايات المتحدة وأوروبا أوجه عدم المساواة فى المجتمعات الإنسانية (راجع كتاب «علم الأحياء والأيديولوجيا والطبيعة البشرية») تأليف ستيفن روز ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمى.

فى أمتنا الإسلامية الاستغلال الأمثل، أمكننا الاستفادة من قدرات وميزات العمل المبدع والخلاق لدى هذا الإنسان، والتى ينبنى عليها احترام النفس وتقدير الكرامة والاعتزاز بالشخصية والتمسك بالحقوق والالتزام بأداء الواجبات.

يجب أن نطبق مبدأ «الراعى المسئول» الذى أرسى قواعده النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم، بما يعنيه من تطبيق أحدث أساليب الإدارة المتصلة بعلم الإدارة، وعناصره الأساسية: (القيادة - المسئولية - الرقابة - المحاسبة) من القمة إلى القواعد وفى كل شئون الفرد والأسرة والدولة والأمة.

يجب أن نفكر ونعمل بروح الجماعة، وأن نطبق مبدأ «الجسد الواحد» للمؤمنين الذى أرسى قواعده النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم، وأن نعى جيدا أننا أفرادا ودولا، ننتمى لأمة إسلامية واحدة ترفع راية الإيمان والتوحيد، وتفكر وتعمل فى إطار خير الإنسانية جمعاء، وتتعلم العلم وتستخدمه لصالح الإنسان وخير الإنسان.

إن أسس نهضتنا هى معرفتنا واحترامنا لذاتنا وتقدمنا إلى هذه الذات.. هى ارتباطنا بجذورنا الدينية بما توفره لنا من دافع معنوى يحقق قوة الانتماء للوطن وللأمة ككل.. هى الأخذ بالعلم والإيمان والعمل المتقن والتربية الأخلاقية ضمن شعور معنوى بالأخوة.. هى فى انفتاح شعوبنا الثقافى والسياحى والإعلامى فيما بين أوطاننا لتحقيق مزيد من الالتحام.. هى فى تجاوز خلافاتنا الضيقة، المذهبية والفرقية والطائفية، عن طريق الاتصال والحوار.. هى فى التعايش السلمى بين هذه المذاهب والفرق والطوائف ضمن بوتقة الحضارة الأوسع والأعم.. هى في تنشيط دور مؤسساتنا الإسلامية لإجابة احتياجاتنا الملحة والمهمة.. هى فى اعتمادنا على أنفسنا كأمة واستغلال طاقاتنا وإمكاناتنا ومواردنا الذاتية من أجل تقدمنا.. هى فى بناء قوتنا كأمة، قوتنا المادية - التقليدية وغير التقليدية - وقوتنا المعنوية، حتى لا يضيع منا حق لنا مشروع.. هى فى التخطيط المتكامل لتجاوز مرحلة التخلف الاقتصادى والسياسى والعلمى والتكنولوجى لدولنا النامية.. هى فى امتلاكنا وإنتاجنا للصاروخ والقمر الصناعى والإلكترونيات والليزر.. هى فى الاستفادة من الاستخدامات السلمية لمصادر الطاقة المختلفة والعقول الإليكترونية.. هى فى انطلاقة ضرورية، علمية وتكنولوجية، بقدرات وإمكانات علماء أمتنا فى الداخل والخارج.. وهى أخيرا - وليس آخرا - فى تأكيد التزامنا الإرادى الجاد بتوجه إسلامى موضوعى يستمد من أخلاقيات القرآن لبناء الإنسان، ومن عبادات القرآن لحماية الإنسان، ومن تشريعات القرآن لرعاية الإنسان، ومن مبادئ القرآن لخير الإنسان، ومن توجيهات القرآن لتقدم الإنسان.

لابد أن نرتقى ونرتفع لمستوى تعاليم وقيم وأخلاقيات هذا الدين، نقدم الجديد ونتقدم من جديد.

خـــاتمـــة

النظرة إلى الإنسان :

لقد خلق الله آدم من سلالة من طين أو من حمأ مسنون، ثم سواه ونفخ فيه من روحه ولذلك فهو يجمع طبائع الطين والنور. وقصة آدم فى الحقيقة هى لبيان هذه الطبائع فى الإنسان، الذى يمثل خلقا آخر مستقلا يتميز عن كل الكائنات بخصائص فريدة لا يشاركه فيها أحد من الخلق وهى الخصائص الناتجة من النفخة الربانية الروحية التى جعلت من الإنسان «آدم» مخلوقا فريدا فى نوعه ينتمى إلى العالم النورانى المتصل بالروح فى آدم، النفخةالربانية التى يتميز بها بعد تسويته فى الخلق الجسدى البيولوجى إلى المستوى الذى أصبح فيه أهلا وقادرا على تحمل الأمانة، العقل النابع من المخ والذى يضىء ولو لم تمسسه نار، يضىء من مصدر طاقى نورانى ربانى بحيث أصبح محلا للطين والنور كليهما يتفاعل حسب خصائص فى هذا الكائن الفريد والمتميز فى نوعه، ذا خصائص نفسية ووجدانية وإحساسية تنبع كما قلنا من تميزه بنفخة ربنا سبحانه وتعالى الروحية : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر : ٢٩] يتميز ويتمايز عن سائر المخلوقات بخصائصه النفسية الإنسانية، وقدرات تفكيره وخياله ومنطقه وإحساساته ومشاعره واهتماماته والقيم والمثل والمعنويات الكامنة فى حدود وظائفه البيولوجية، وخاصة قدرته على استعمال اللغات والبيان والقراءة والكتابة وتسمية كل الأشياء بمسمياتها : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ [البقرة : ٣١].

ومن هنا يخطىء من يتناولون الإنسان بعيدا عن ثنائية الجسد والروح أو المادة والطاقة لأن الإنسان كائن فريد ومتميز فى خصائصه العقلية والنفسية وخصائصه الروحية.

أى أن آدم يبدأ عملية النظر إلى الأعلى والأسمى، إلى النورى والطاقى، إلى مصدر النور والطاقة، إلى الإله المعبود فى كل الأديان الواحد الأحد لا شريك له لأن الزمن الذى يمر ويمضى لا يرجع إلى الوجود مرة أخرى، فالنظرة إلى الخلف أو إلى الوراء خطأ، وربط

الإنسان بماضيه الجسدى غير ذى فائدة لأنه مقارنة بنمطين مختلفين من المخلوقات أو أنماط مختلفة من المخلوقات فآدم ليس ما كان وإنما ما يمكن أن يكونه . .

آدم بداية ربط الأرض بالسماء .

بداية تمازج وتفاعل المادى والطاقى . .

بداية حركة وعمل القدرة العقلية ، وهى الأمانة التى حملها الإنسان ولم يحملها الكون غير العاقل . .

بداية وجود التأثير الروحى على سلوك وأخلاقيات الإنسان . .

بداية العمل الوظيفى للروح وقدراتها . .

بداية معرفة الإله المعبود فى الأديان والتقرب إليه والاقتراب منه . .

ولذلك ظهر الدين بآدم وتطورت مفاهيم الدين من الصور البدائية الأولى إلى صور الإسلام الذى جاءت به الديانات السماوية حتى نزل خاتمها الإسلامى القرآنى فى شكل كتاب هو كلام الإله يقيم الوصلة بين العبد والرب بين المخلوق والخالق ليتحقق الهدف الكلى من الخلق كله ، وهو عبادة الإله الواحد : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] بالكيفية التى يرضاها هذا الإله عن طريق المعرفة التى هى أسمى طاقات الإنسان وسر تطوره الحضارى ، وبالحب وبالأخلاق الفاضلة التى هى مقياس سير الإنسان على الصراط المستقيم الذى يحقق خير الإنسان فى الدنيا والآخرة .

والدنيا طور والآخرة طور آخر ، فهى استمرار عملية الترقى من الجسدى (قبل الإنسان) إلى الجسدى الروحى (آدم) إلى الروحى (البرزخ) إلى الروحى الجسدى (الآخرة) .

لقد حاول الأولون من واضعى نظريات التطور البيولوجى ربط الإنسان بالحيوان وامتدت هذه النظرة البيولوجية المادية إلى سائر نواحى العلوم المتصلة بالإنسان مثل النفسية والاقتصادية وغيرها . . ولقد أخطأ الأولون فى ذلك خطأ فادحا ، ولكنه دافع (الكفر) بالإله الواحد المعبود فى الأديان الذى وهب الإنسان سرا نورانيا طاقيا روحيا جعل الإنسان مخلوقا ثنائى التركيب ينفصل عن الحيوان انفصالا تاما ، ويتكون فى خصائصه النفسية والروحية والعقلية من ملكات وقدرات وطبائع ينفرد بها ويختلف بها فى النوع عن كل المخلوقات التى سبقته .

ومن هنا فإن المسار الصحيح للعلوم كلها هو ذلك الذى يعترف بهذه الثنائية التركيبية للإنسان بحيث يتعامل مع الإنسان فى شتى العلوم على أساس هذه الثنائية .

ما زالت الصراعات محتدة بين الكافرين والمؤمنين حول هذه القضية وغيرها من القضايا المتفرعة منها: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ١-٦]. إن التعامل مع جانب واحد فقط من جوانب التركيب الإنسانى يعتبر خطأ فادحا سواء كان هذا الجانب هو الجسدى أو الروحى، لأن الإنسان ليس جسدا فقط (طينا) وليس روحا فقط (نورا)، بل هو كائن كما قلنا يجمع بين الجسدية والروحية.. ولابد من التفاعل معه فى إطار هذه الثنائية وفى حدودها الوسطية التى تقيم الوزن بالقسط بين طبائع الجسد وطبائع الروح دون أن يخسر الميزان لصالح الجسد أو يطغى لصالح الروح، وإنما الوسطية هى المطلوب: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٩]

طغيان الجسد على الروح إخلال بالوسطية وليس فى صالح صحة الإنسان، وطغيان الروح على الجسد إخلال بالوسطية وليس فى صالح صحه الإنسان.. ولذلك جاء الإسلام القرآنى ليحقق الوسطية فى توازن بين الروح والجسد يستطيع الإنسان بمقتضاه أن يحقق أسمى خير لنفسه فى حياتيه الفردية والاجتماعية: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، لبى احتياجات الجسد المشروعة كما لبى طاقات الروح وهذبها وسما بها إلى القدر الذى تكون هى فيه قائدة الحركة والسلوك والتفكير الإنسانى.

وتوضح لنا قصة آدم الفرق بين الجنس المباح الذى تنظمه الشرائع بالزواج، وغير المباح[1]، فالأول يولد نوعا من الراحة والسمو النفسى ويعين الإنسان على تكامل الأخلاق فيه ويساعده على ممارسة نشاطه الروحى المتوازن عن طريق الضوابط الموضوعة للإنسان ليعيش فى الأرض فى حياة اجتماعية تنبنى على الأسرة وحماية نظامها والمجتمع وحماية نظامه فى وسطية تقيم التوازن بين مقتضيات الجسد ومقتضيات الروح، والجنس المشروع نابع من قدر معين من العقيدة الدينية وهى الحالة التى يصفها القرآن فى الأمر والنهى الربانيين إلى آدم بالنسبة لتلبية حاجاته البيولوجية حيث كان الأكل أو الغذاء مباحا له بينما كان الجنس محرما عليه.. هذه الصورة التى يجليها القرآن تعنى قدرا من الدين لدى آدم الأول، وهو علاقة خاصة بين الإنسان وربه.

وهنا نأتى للجنس غير المباح وهو الذى اقترفه آدم حين أكل من الشجرة - بحسب التعبير القرآنى الراقى - وقد وصف لنا القرآن حالات نفسية عديدة انتابت آدم بعد اجتماعه بزوجته مثل الخجل والندم والاعتراف بالمعصية، أى مخالفة أمر الله بالقدر المحدود من الدين الذى

(١) يلاحظ أن عصيان آدم لربه بالتذوق من الشجرة - وهو اجتماعه بزوجه فى فهمنا - لا يصح أن يوصف بأنه جريمة زنا، لأن هذه الجريمة نظمتها الشرائع السماوية التى نزلت من بعد آدم وليست فى عهد آدم.

كان يتحلى به آدم إلى جانب الإحساس بالغواية، وأوضح لنا القرآن نتائج العمل الجنسى غير المباح وهو الخروج من الجنة أو الهبوط إلى الأرض، وهما خروج وهبوط مكانيان كما أنهما خروج وهبوط نفسيان وقت المعصية حتى التوبة. بمعنى الخروج من حالة إلى حالة أخرى أقل مستوى وهما الحالتان اللتان تمثلهما الجنة والأرض.

ومن هنا كان الهبوط هو سمة العمل الجنسى غير المباح، بينما كان السمو والارتقاء هما سمة العمل الجنسى المباح وهو الذى نظمته وبينت حدوده الأديان التى تنزلت إلى الإنسان بعد هبوطه إلى الأرض فيما يقول فيه القرآن: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨]. وقد جاءت الأديان السماوية كلها تحرم الزنا، وهو العمل الجنسى غير المشروع، وتبيح الزواج وهو العمل الجنسى المشروع حيث يهبط الإنسان بالأول ويسمو ويرتقى بالثانى.

وربما كان قارون البليونير اليهودى مثالا للإنسان المادى الذى يكرس حياته وأهدافها لاقتناء وجمع المال بما يؤتيه ذلك من تأثر القيم والسلوكيات بالمادة إلى درجة إنكار الألوهية وطغيان المال. وليس غريبا أن يكون مثل هذا الإنسان يهوديا فقد عرف عن اليهود حبهم للمال، بل تقديسهم له وعبادتهم له حتى أصبح طغيان وسيطرة المال سمة من سمات مجتمعاتهم عبر العصور وحتى عصرنا الحالى. وقد كان منظِّر الشيوعية الاقتصادية والفلسفة المادية الكافرة يهوديا هو كارل ماركس، كما كان فرويد يهوديا وهو الذى أضفى الطابع المادى والحيوانى على الإنسان، وليس غريبا إذن أن يحدثنا القرآن عن ردة الله لليهود فى عصر من العصور إلى مستوى القردة الخاسئة لما اعتدوا فى السبت على حدود الله.

وربما كان خير مثال للإنسان الروحى المسيح عيسى بن مريم، فقد ولد لأم هى مريم التى أحصنت فرجها دون جماع من ذكر من بشر وإنما كانت ولادته نتيجة هبة من ملك تمثل لمريم بشرا سويا، فكان الحمل والولادة بهذه الكيفية أمرا مقضيا. فعيسى جاء من نفخة من ملك مرسل من الله، ولذلك كان فى حياته مغلبا الجانب الروحى على خصائص الجسد البيولوجية وكان مؤيدا بروح القدس، وهو ما يمكن معه تفسير قدراته الروحية العالية وطاقاته النورانية التى أتت بالمعجزات المعروفة عنه إلى أن توفاه الله ورفعه إليه.

ولما كان الجنس المشروع يزيد من فعالية الروح وقدرات العقل وتوازن النفس، فإن الإنسان الوسط الملبى لحاجات الجسد والروح معا هو الإنسان الأقدر على التميز الروحى وبلوغ أعلى المستويات الروحية، فى الوقت نفسه الذى يؤدى فيه دوره الإيجابى فى المجتمع الذى يعيش فيه ابتداء من الأسرة إلى أوسع صور الاجتماع الإنسانى فى صرح المجتمع الأخلاقى الذى توجهه عقائد وتصورات وقيم وأخلاقيات الدين وتنظمه الشريعة الإلهية فى إطار المصلحة

المتناسقة للفرد والجماعة التى تتكون منها خير أمه أخرجت للناس بسبب أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر وإيمانها القوى بالله.

ومسألة بدء خلق آدم لا تهمنا، وحتى القرآن لا يعتبر هذه المسألة معضلة، فهو يقرر ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]. وذكر لنا القرآن أن آدم خلق من ماء وتراب أو من سلالة من طين أو من صلصال أو من حمأ مسنون، ثم جعل نسله نطفة فى قرار مكين ثم ترقت هذه النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام المكسوة لحما ثم إلى مستوى «الخلق الآخر» فتبارك الله أحسن الخالقين.

وهذا القدر يكفينا حين نتناول الإنسان أو آدم بالذات. أما المهم، فهو تناول الإنسان من خلال ما قرره القرآن من أنه حامل النفخة الربانية الروحية، مخلوق ثنائى التركيب أعلن منذ بداية وجوده الصلة القائمة بين الإنسان العبد والإله المعبود.

وقد أوجز «على شريعتى» العلاقة بين الإنسان والدين فى عبارات بالغة الدقة والدلالة إذ يقول[1]: «إن الدين طريق أو صراط يؤدى بسلالة الطين إلى سبيل الله جل ثناؤه، ويمثل الإنسان من حمأة الرذيلة الآسنة، والجهل، ومن الحياة السفلى للسلالة الطينية، ومن تقمص شخصية الشيطان إلى حالة من السمو والحركة ونفاذ البصيرة، وإلى حياة الروح والشخصية النورانية. فإذا أفلح الدين فى الوصول بك إلى هذا الحال فهو الدين الحق، وإذا لم يفلح فإما أنك اخترت طريقًا خاطئًا وإما أنك تستخدم الطريق المستقيم استخداما خاطئا».

فى إطار هذه النظرة الدينية المؤمنة ينبغى التعامل مع الإنسان بواسطة جميع العلوم المتصلة بحياتيه الفردية والاجتماعية وحياته الجسدية والعقلية والنفسية والروحية باعتباره جسدا وروحا أو مادة وطاقة أو طينا ونورا. وعلى هذا الأساس، يكون السعى لإيجاد التفسيرات المتطورة للآيات القرآنية التى تتناول الجانب العلمى والجانب النفسى فى الإنسانيات وما يتصل بها من علوم، وخصوصا علمى النفس والاجتماع اللذين يتفقان ونظرة القرآن إلى الإنسان المكرم الثنائى التركيب وغير ذلك من العلوم التى تتناول الإنسان وشئونه فى المجتمعات المختلفة فى ثقافاتها ودرجات تقدمها المدنى والحضارى وفى عقائدها ومدى تمسكها بقيمها ومثلها الدينية.

* * *

وتجدر الإشارة إلى أن الأمم المتحدة تقدمت ببرنامج جديد فى مؤتمر السكان والتنمية الذى عقد بالقاهرة فى سبتمبر عام ١٩٩٤، يحتوى على اتجاهات مدمرة للأسرة ككيان اجتماعى

---

(١) فى كتابه: On The Sociology Of Islam: Lectures By Ali Shriati (1979).

يرسخ قواعده الإسلام كما ترسخ قواعده المسيحية واليهودية . والغريب أن بعض الموضوعات التى احتواها البرنامج تتعارض تماما مع القيم والمثل الدينية التى ترعى الإنسان ـ الفرد وفى الأسرة ـ وتحيط كيانه وسلوكه الاجتماعى بالفضائل والأخلاق .

وهذه الموضوعات التى احتواها البرنامج تتصل بإباحة السلوك الجنسى الشاذ، وإطلاق الحرية للمرأة لتخرج عن أداء وظيفتها الاجتماعية الأسرية إلى نواحى العمل الميدانية التى تؤثر على أدائها لرسالتها فى الحياة وهى تربية النشء وإحاطتهم بالعاطفة وتوجيههم لتحقيق رسالة الخير والنفع العام تحوطها مبادئ الأخلاق الفاضلة التى دعت إليها وتحض عليها جميع الأديان السماوية . ولا غرابة والأمر كذلك أن قاد رجال الدين المسلمون والمسيحيون على السواء حملة قوية لدحض ورفض ما دعت إليه وثيقة الأمم المتحدة . واستطاعت وفود الدول الإسلامية المشاركة أن تدخل العديد من التعديلات فى هذا الشأن لتتمشى الصيغة النهائية للوثيقة مع سيادة الدول وشرائعها وقيمها الدينية والأخلاقية [1] .

إن المادية الغربية والمادية الشرقية على السواء قد فشلتا فشلا ذريعا فى رعاية الإنسان وفى إحاطته بسياج من الأخلاق والفضيلة يحافظ على صحتيه البدنية والنفسية معا ولا يوجد غير (الدين) حافظا لهاتين الصحتين البدنية والنفسية للإنسان، ولا حياة هادئة ومتوازنة ومستقرة للإنسان بغير اعتباره خليفة الله فى الأرض يؤدى بها رسالة البناء والتعمير المدنى والحضارى فى إطار توجيهات القيم والمثل التى وضعها خالق الإنسان العليم بطبائع الإنسان وبتكوينه الفطرى واحتياجاته المشروعة لتلبية رغباته المتصلة بدواعى جسديته ودواعى عقله ودواعى روحه المرتبطة بتعاليم السماء، يسير فى إطارها جميعا الإنسان فى توافق مع الطبيعة النفسية والطبيعة الكونية وتوافق مع البيئتين المادية والحيوانية محققا التوازن الجسدى والتوازن النفسى المطلوبين لحياته، حياة كلها سلام وطمأنينة وأمن وأمان .

وقد فطن إلى هذا الخطر الذى يواجه الإنسان فى حاضره ومستقبله المرحوم الأستاذ سيد قطب الذى كتب منذ سنوات طويلة مضت يوضح ويحذر مما تدعونا إليه اليوم الأمم المتحدة تحت توجيه من الدول التى تقود الحضارة المادية فى عالمنا المعاصر ولا تخلو مجتمعاتها من مشكلات كثيرة ومعقده تحيط بالإنسان الذى يعيش فى ظلها . فى كتابه (الإسلام ومشكلات الحضارة) . يقول المرحوم الأستاذ سيد قطب :

« الحياة الإنسانية ـ كما هى سائرة اليوم وكما هى صائرة وفق جميع التقديرات الظاهرة ـ لا يمكن أن تستمر فى طريقها هذا، ولابد لها من تغيير أساسى فى القاعدة التى تقوم عليها .

(١) أودعت مصر بيانا لدى المؤتمر يؤكد أن تنفيذ التوصيات فى مصر سيتم فى إطار سيادة الدولة وقيمها ومثلها وأخلاقياتها وفقا للشريعة الإسلامية ومبادئها .

تغيير يعصمها من تدمير «الإنسان» ذاته، بتدمير خصائصه الأساسية. فالحياة الإنسانية ـ بداهة ـ لا تستطيع أن تبقى إذا ما دمرت خصائص «الإنسان».

وخط الحياة الحالى يمضى يومًا بعد يوم فى تدمير خصائص الإنسان، وتحويله إلى آلة من ناحية، وإلى حيوان من ناحية أخرى. . وإذا كان هذا الخط لم يصل إلى نهايته بعد، وإذا كانت آثار هذه النهاية لم تتضح اتضاحًا كاملاً. . فالذى ظهر منها حتى اليوم، وفى الأمم التى وصلت إلى قمة الحضارة المادية، يشى بتناقص الخصائص الإنسانية وضمورها وتراجعها، بقدر ما يشى بنمو الخصائص الآلية والحيوانية وتضخمها وبروزها.

. . وهكذا يكفى. .

يكفى لتقرير أن خط الحياة يمضى يومًا بعد يوم فى تدمير خصائص الإنسان، ولتقرير أن الحياة الإنسانية لا يمكن ـ إذن ـ أن تمضى مع هذا الخط إلى نهايته. . ما لم يكن مقرراً تدميرها نهائيا. . والأمل فى رحمة الله يمنع من توقع هذا المصير البائس، ويوجه توقعاتنا إلى ناحية أخرى: ناحية تجنب الإنسانية ـ بفطرتها وطبيعتها، وبعوامل الحدس والحذر والاحتياط الكامنة فى كيانها ـ لهذا المصير البائس، بالتحول عن طريق الخطر فى الوقت المناسب، واختيار خط آخر وطريق آخر، والتغلب على هذه الأزمة التى يجد «الإنسان» فيها نفسه على حافة الهاوية، وهو مندفع إليها بعنف، وهو فى الوقت ذاته لا يملك الخيار، لأن عوامل كثيرة تكاد تفقده قوة الاختيار!

وفى كل مرة كانت الحياة «الإنسانية» والخصائص «الإنسانية» مهددة تهديداً مدمراً ماحقًا، وقع التحول ـ بطريقة خفية، كثيراً ما كانت مجهولة الأسباب فى حينها ـ وتجنبت البشرية ذلك الدمار «الإنسانى». أما فى هذه المرة فالتهديد أشد من كل ما عرفته البشرية من قبل من كل أنواع التهديدات». انتهى.

والحق أنه على دعاة الحضارة المادية المعاصرة ـ فى الغرب وفى الشرق على السواء ـ أن ينتبهوا قبل فوات الأوان إلى جوهر المشكلات التى تتصل بحياة الإنسان فى مجتمعاتهم، وهم لن يجدوا إلا فى(الدين) كل الدين . . الإسلام والمسيحية واليهودية وغيرها حلولا لهذه المشكلات التى فجرها التقدم المادى والتقدم التكنولوجى الهائلان اللذان أهملا الجانب الروحى فى الإنسان أى أهملا نصف الطبيعة الإنسانية بحيث تعامل مع الإنسان باعتباره آلة أو حيوانا وليس باعتباره الخليفة المكرم الذى يقود تعمير الأرض فى صلة بجوهر الأديان وأخلاقياتها وقيمها ومثلها التى تحافظ على الكيان الإنسانى ذاته وترعاه لأداء دوره البناء فى الأرض. والإسلام بالذات، كما يقول بحق الدكتور عبد الحميد أبو سليمان [1]:

---

(١) فى كتابه «أزمة العقل المسلم» وهو حاليا (١٩٩٥) مدير الجامعة الإسلامية العالمية فى ماليزيا.

« يصون كيان مؤسسة الأسرة ، ويقرر مبدأ العدل ، والتكافل ، والمسئولية الفردية والمسئولية الاجتماعية ، وحرية العقيدة والفكر والضمير ، ويقر مبدأ الشورى ، ومبدأ وحدة الإنسان ، أصلاً ومصلحة ومصيراً ، والإسلام يحض على العلم ، ويدعو إلى المعرفة ، ويأمر بالإصلاح والإعمار والبناء ، وتلبية الحاجات وتيسير المتطلبات ، وهذه الرؤية الإسلامية القويمة التى تتطلع إليها الإنسانية ، تتصدى لأدواء العصر ومخاطر حضارته المادية الضالة المحرومة من ترشيد الهداية الربانية .

ولم يعد سرا على أحد إفلاس الحضارة المادية المعاصرة ، وتدهور بناء مجتمعاتها ، وانهيار بناء الأسرة فيها ، وما يعانيه أبناؤها من مختلف ألوان القلق النفسى والإفلاس الروحى .

فالإنسانية اليوم فى ظل قدرة الحضارة المادية ، تتمزق مجتمعاتها المتقدمة وتنهار ، وينقسم عالمها إلى شمال وجنوب ، وأبيض وأسود ، وغنى وفقير ، وجائع ومتخم ، ومستعمر ومستعمَر ، وسادة وعبيد ، يتسابقون جميعهم إلى الدمار ووسائل الدمار ، ولم يبق للإنسانية من معانى السلام إلاّ ردع الخوف والرعب من دمار شامل ماحق لعالم القوميات والطبقات والمعسكرات المتواجهة الحاقدة المتصارعة .

إن الإنسانية والشعوب القادرة علميا وماديا هى فى هذا العصر أشد ما تكون حاجة إلى الإسلام لأنه يحوى المفاهيم التى تجيب عن جوانب الضعف فى كيانها القائم ، والمتفاقمة على مدى المستقبل» . انتهى .

بقيت مسألة مهمة . .

مسألة تتصل بالإنسان فى مستقبله . .

التغييرات الصناعية التى سيدخلها الإنسان على الإنسان . . أو بتعبير القرآن : التغييرات التى سيحدثها الإنسان فى خلق الله . .

إن القرآن يخبرنا أن الإنسان سيمكنه أن يتوصل إلى إحداث تغيرات فى خلق الله أى فى الإنسان ذاته وفى الحيوان وفى النبات وفى الطير وفى الحشرات وفى الجماد وفى البيئة ، إلى سائر ما يشمله بقية «خلق الله » الذى ذكره القرآن فى قوله على لسان إبليس : ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ . ومن هنا فليس غريبا علينا أو مفاجئا لنا أن يطالعنا واحد من أكبر علماء الرياضيات والفيزياء وهو Steven Hawkings بقوله إن العلماء سيستطيعون فى المستقبل غير البعيد أن يحدثوا تغييرات فى صناعة الإنسان . . وستكون هذه التغييرات صناعية حقا أى من فعل الإنسان ، وليست طبيعية أى ليست من فعل الله سبحانه وتعالى . فقد يتوصل العلماء

إلى إطالة عمر الإنسان فى الحياة الدنيا . . أو تطوير قدرات ذكائه . . أو التغلب على التشوهات والعوائق الخلقيه فيه . . أو تحسين صورته الخلقية . . إلى غير ذلك من التغييرات التى يمكن أن تحدث عن طريق التحكم فى جينات الوراثة ومكوناتها [١] ولكن سيظل الموت هو مصير الإنسان حتى لوو عمر ألف سنة ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٩٦].

ولن يستطيع الإنسان أبدا أن يقهر الموت . . كما لن يستطيع الإنسان أبدا خلق الحياة . . أو خلق إنسان . . أو خلق وتطوير الخلية الحية . . فإن ذلك سيظل من صنع الله وحده الذى لا يمكن أن يستوى على عرشه سواه لا شريك له فى ملكه ومن هنا سيظل الإنسان إنسانا وليس إلها .

إنسان وليس إلها :

هل الإنسان حلقة شاذة فى سلسلة الخلق كله؟ هل خلق الإنسان ووجد مصادفة؟ هل يعتبر الإنسان إله نفسه ؟ هل يعتبر الإنسان رب الطبيعة؟

الإجابة عن كل هذه الأمور هى بالنفى . الإنسان ليس حلقة شاذة فى سلسلة الخلق كله . . ونعلم ذلك من التعمق فى دراسة مستويات المخلوقات وترقيها فى الخصائص إلى الدرجة التى نجد الإنسان فيها متميزا فى خصائصه الإدراكية تميزا فريدا لا يشاركه فيه غيره من المخلوقات . وذلك سر من أسرار النفخة الربانية الروحية بعد التسوية الهيكلية .

والدين هو الذى يبين لنا ذلك بما لايعتريه شك ، والإنسان هو الذى ينشط بفكره ليستجلى حقائق الدين العلمية مبتغيا بذلك طريق سعادته فى الدنيا ونعيمه فى الآخرة فيما يعرف بالجنة .

والإنسان لم يوجد مصادفة على الأرض . . ونعلم ذلك من التعمق فى دراسة الظروف المناخية لكوكبنا الذى يعد أحد كواكب مجموعتنا الشمسية ، وكيفية توافر الظروف الملائمة

---

(١) فى التقدير أن مشروع Human Genome Project الذى بدأ فى الولايات المتحدة منذ عام ١٩٨٨ سوف يستطيع من خلال البحوث والدراسات التى تستخدم فيها أجهزة الكمبيوتر لتحليل وتخزين المعلومات التى تتصل بالجينات ومكوناتها Nucleotides سوف يستطيع هذا البرنامج خلال القرن الواحد والعشرين من التوصل إلى خريطة جينية كاملة للإنسان يمكن معها وقاية الإنسان من الأمراض الفتاكة التى لا يعرف لها علاج حاليا كما يمكن إجراء تغييرات صناعية على الإنسان وقدراته .

(يحتوى جسم الإنسان العادى على حوالى مائة ألف جين وراثى Gene وحوالى ثلاثة بلايين نوية Nucleotide والاثنان تحتويهما الكروموزومات التى يوجد منها فى الجسم ثلاثة وعشرون زوجا) .

لحياة هذا الإنسان واستمرارها عبر الامتداد الزمانى للتركيب الطبيعى لكوكبنا وعلاقته بأم المجموعة، وهى الشمس ذات المصدر الطاقى الذى يمكن من وجود حياة على هذا الكوكب أو لا ، ثم حياة تناسب الظروف الفسيولوجية لهذا الإنسان ثانيا، وذلك من دلائل القدرة الإلهية فى خلق الإنسان باليدين، يد الملك ويد المكلوت، أى بخصائصه الجسدية والعقلية والروحية النابعة من سر النفخة الربانية الروحية، التى تحتوى عنصر الهدفية والغائية والتى تؤكد القانون الذى يسير وفقه الإنسان فى فسيولوجية تكوينه الجسدى والعقلى والروحى، وتنتفى مع القانون الهادف، فكرة الصدفة أو العشوائية.

والدين هو الذى يبين لنا هذا بما لا يعتريه شك . . والإنسان هو الذى ينشط بفكرة ليستجلى حقائق الدين العلمية متبينا بذلك طريق سعادته فى الدنيا ونعيمه فى الآخرة فيما يعرف بالجنة.

والإنسان يظن أحيانا ـ عن خطأ ـ أنه إله نفسه. والخطأ هنا يولده الجهل بحقائق كثيرة تتصل بثنائية التركيب الإنسانى ذاته ـ جسد وعقل أو روح ـ التى يجد الإنسان معها قدراته على الوعى والإدراك سواء بالعقل أو الروح فى اتصال بطاقات منها المعلوم ومنها ما لا نعلم عنها شيئا كالتى سماها القرآن «روحا» ووصفها بأنها نفخة ربانية روحية يستمد منها الإنسان قدراته الإدراكية المتميزة، وهى من خلق الإله سبحانه وتعالى، خالق كل شىء.

ويمكننا أن نفهم ذلك من التعمق فى دراسات فسيولوجية الهيكل الإنسانى وتشريحه مع التركيز على الجهاز العصبى ـ المخ بصفة خاصة ـ وكيفية عمله وتركيبه، والعوامل والطاقات التى يستمد منها نشاطه الفعال وقدراته المؤثرة والموجهة، التى تؤكد ثنائية التركيب الإنسانى وتؤكد وجود طاقات مازلنا لا نعلم عنها شيئا كما ذكرنا من قبل.

لقد وهب الإله الإنسان خصائص وقدرا أهمها العقل الذى منه تنبع الإرادة الحرة والقدرة على الاختيار وإمكانات النشاط الفكرى الذى يبنى وينمى ويطور ويحسن وينشئ ويتفكر ويكتشف وينظم ويخطط فى إطار من الدوافع العديدة، وبخاصة إشباع حاجات الإنسان الأساسية.

والدين هو الذى يبين لنا ذلك بما لا يعتريه شك . . والإنسان هو الذى ينشط بفكره ليستجلى حقائق الدين العلمية متبينا بذلك طريق سعادته فى الدنيا ونعيمه فى الآخرة فيما يعرف بالجنة.

والإنسان ـ أخيرا ـ لا يعتبر رب الطبيعة، إنما هو يستخدمها ويذللها ويستفيد مما تحتويه من مواد وعناصر وطاقات لإشباع احتياجاته الأساسية، وإجابة دوافعه الفكرية والسلوكية. وربما استطاع الإنسان أن يتغلب أحيانا على شدة العوامل الطبيعية، أو ربما أمكنه ـ بعلمه ـ أن يجتاز

بعض عقباتها وصعابها . . إلخ ولكنه يتعرض فى الوقت نفسه لكثير من آثار الطبيعة التى لا يمكن مقاومتها من مختلف أنواع الكوارث الطبيعية من صواعق أو إشعاعات أو زوابع ريحية أو انفجارات بركانية أو فيضانات مائية أو زلازل أرضية . . إلخ، وذلك كله فى إطار مناخ طبيعى مهيأ أساسا لاستمرار حياة الإنسان على الأرض. ولكن الإنسان يعلم جيدا أنه بالإمكان أن تؤدى كارثة طبيعية ما إلى تفجير أو تدمير أو حرق هذا الكوكب الذى يعيش فيه بحيث يزول تماما من الوجود، ويزول بالتالى من الوجود ذلك الإنسان نفسه، وأى خلل فى وضع الكرة الأرضية بالنسبة للشمس يمكن أن يطيح بالأرض ومن عليها كلية.

ولكن ذلك لم يحدث لأن هناك نظاما أو قانونا أو سُنّة، بها تسلم كل الكائنات لقدرة فريدة وقوة فريدة يتماسك بهما النظام ذاته، والإنسان فى النهاية يستغل الظروف المحيطة به فى ظل الإمكانات المتاحة له، ولكنه لا يستطيع أن يغير من النظام أو القانون أو السنة، كأن يغير من حركة دوران الأرض حول الشمس لتكون بالاتجاه العسكى . . أو من حالة دوران الأرض حول نفسها لتكون فى الاتجاه العسكى . . وهو المعنى الذى حاج به إبراهيم النمروذ حين قال إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها يا نمروذ من المغرب . . وكانت النتيجة هى العجز التام لمن كان يظن نفسه إلها فى الأرض، وربا للناس فيها.

ونعلم ذلك من التعمق فى دراسة ظروف مجموعتنا الشمسية ثم المجموعات الأخرى فى مجرتنا ثم المجرات الأخرى . .

إن الدين هو الذى يبين لنا حقيقة التسخير الطبيعى للإنسان بالقدر المتاح الممكن أن يستغله الإنسان لصالحه . . والإنسان هو الذى ينشط بفكره ليسجلى حقائق الدين العلمية متبينا بذلك طريق سعادته فى الدنيا ونعيمه فى الآخرة فيما تعرف بالجنة.

إن سعادة الإنسان لن تتحقق إلا إذا واجه مصيره بحكمة وتعقل. عليه أن يدرك أن حقيقة اليوم الآخر حقيقة لا ريب فيها. وأن الساعة قائمة لا ريب فيها. وأن الثواب والعقاب طوران من الأطوار العديدة للوجود كله الذى يعتبر الإنسان حلقة من حلقاته.

وإنه وإن كان العقل فى عصرنا الحالى هو سيد هذا الكوكب الذى نعمره، وسلطان النفاذ من أقطاره، فإن افتقار العمل العقلى والتطبيقات العلمية إلى توجيهات القيم والمثل الدينية هو الذى يهدر الدماء البشرية باستمرار، ويقف بالإنسانية على حافة خراب مدنيتها وحضارتها خرابا تاما. كما أنه إن كان التقدم العلمى قد أتى بقدر هائل ومخيف من إمكانات القوة التدميرية التى يملكها الإنسان، فإن خوف هذا الإنسان من إفناء نوعه بنفسه هو الذى يحول

بينه وبين استخدام هذه القوة التدميرية المفزعة، ويجبره على التفاهم من أجل التعايش فى سلام، ولكن تظل المستويات المختلفة للصراع ـ مع ذلك ـ والتنافس قائمة، تحركها صراعات الأفكار والعقائد والنظم والمصالح ودواعى الأمن تدفعها دفعا نظرات من عدم الثقة والشك المتبادل وتسوق إليها طوعا أو كرها مصالح إستراتيجية من مجموع السياسة والاقتصاد والأمن والحرب، تتغير مواقعها وصورها بتطور العلوم المستمر والترقى فى دقة تطبيقاتها التكنولوجية.

ومع ذلك فإن أكثر المجتمعات تقدما وازدهارا لا تنفك تركز جزءا من تخطيطها على الجانب البشرى أو الإنسانى لتهيئ للإنسان فيها راحته فى نفسه، وأمنه واستقراره فى حياته، بعد أن تراكمت على أعصابه ضغوط المدنية المادية ومتطلباتها الحسابية الصرفة، وأدركت هذه المجتمعات فى النهاية أن التقدم والترقى المستمر للحضارات لا يدومان إلا بمراعاة الجانب الإنسانى مراعاة كاملة فى تمييز دقيق بين الإنسان ككائن له خصائص وحاجات بيولوجية ونفسية أو روحية، وبين الآلة الجامدة الخالية من العصب الشعورى.

إن رفاهية الإنسان تستند أولا وأخيرا على فهم الإنسان، فى تركيبه المعجز المتوحد جسدا وروحا، ومن هنا فإن سعادة الفرد فى المجتمع المتقدم صناعيا أو الساعى للتقدم صناعيا ـ دول العالم الثالث ـ أو الذى يكدح ليسبق هذا أو ذاك ـ مجتمع الخدمات ـ إنما تتوقف على مدى النجاح فى إقامة بناء متوازن من متطلبات الإنسان المادية والروحية، توازنا يقوم على أساس تطبيق القيم الدينية على الواقع القائم للناس لتقوم حضارة على أساس إنسانى ربانى يستخدم إمكانات العلم الهائلة وتطبيقاته التكنولوجية المتاحة فى سبيل سعادة الإنسانية جميعا، بعد دراسة الإنسان دراسة شاملة فى تكوينه الثنائى العضوى العقلى.

« إن إعادة الإنسان إلى تناسق ذاتيه الفسيولوجية والعقلية سوف يبدل الدنيا، إذ يجب ألا ننسى أن الدنيا تعدل وجوهها تبعا لأحوال جسمنا، وأنها لا تزيد على كونها استجابة لجهازنا العصبى وأعضائنا الحسية.. ولسوف ينمو جمال الدنيا بالضرورة حينما تقوى وجوه نشاطينا العضوى والسيكولوجى.

يجب أن نحرر الإنسان من الكونيات التى خلقها علماء الطبيعةوالفلك.. تلك الكونيات التى حبس فيها الإنسان منذ عصر النهضة، إذ على الرغم من ضخامتها الكبيرة، فإن عالم المادة أضيق من أن يتسع للإنسان، فهو، كبيئتيه الاقتصادية والاجتماعية، لا يلائمه ونحن لا نستطيع أن نتمسك بأهميته، لأننا نعلم أننا غير موجودين وجودا تاما فى داخله، وأننا نمتد من مكان آخر خارج الحدود الطبيعية.. فالإنسان عبارة عن شىء مادى، وكائن حى، وبؤرة

نشاط عقلى فى آن واحد. ووجوده فى هذا الفراغ الكبير أمر تافه بيد أنه ليس غريبا فى مملكة المادة الجامدة، فإن عقله يفهم الإلكترونيات والنجوم أيضا بمساعدة المستخلصات الرياضية. فقد صنع فى ميزان الجبال العالية والمحيطات والأنهار. . .

إنه منسوب إلى سطح الأرض، مثل الأشجار والنباتات والحيوانات، وهو يشعر بالارتياح حينما يكون فى رفقة زملائه. وهو أكثر ارتباطا بأعمال الفن والآثار وأعاجيب الميكانيكا التى ابتدعتها المدنية الجديدة، وكذلك بمجموعة أصدقائه وأولئك الذين يحبهم. .

ولكنه أيضا ملْكٌ لعالم آخر، عالم وإن كان بداخل نفسه، إلا أنه يمتد فيما وراء الفراغ والزمن. . فإذا لَم تقهر إرادته فلربما يسافر إلى ما وراء الأفلاك غير المحدودة، فلك الجمال الذى يفكر فيه العلماء والفنانون والشعراء وفلك الحب الذى يوحى بالبطولة وإنكار الذات. . فذلك هو عالمنا.

لقد حان اليوم الذى نبدأ فيه العمل لتجديد أنفسنا. . يجب أن ننهض ونمضى، يجب أن نحرر أنفسنا من التكنولوجيا العمياء، ونفهم تعقد طبيعتنا وخصبها. .

لقد حددت علوم الحياة أهدافها للإنسانية ووضعت تحت تصرفها الوسائل المؤدية إلى بلوغها، ولكننا ما زلنا غارقين فى عالم خلقته علوم الجمال من غير أى احترام لقوانين نموها، فى عالم لم يصنع لنا لأنه ولد بسبب غلطة ارتكبها عقلنا وبسبب جهلنا بذاته الحقيقية.

وليس فى استطاعتنا أن نكيف أنفسنا بالنسبة لهذا العالم. . ومن ثم فسنثور عليه. . سنقلب قيمه وسنعيد إنشاءها تبعا لاحتياجاتنا الحقيقية.

إن علم الإنسان يمدنا اليوم بقوة لتنمية إمكانات جسمنا، فنحن نعرف الآليات السرية لنشاطينا الفسيولوجى والعقلى، كذلك نعرف أسباب ضعفنا، ونعرف كيف اعتدينا على القوانين الطبيعية، ونعرف لماذا عوقبنا ولماذا فقدنا طريقنا فى الظلام. . ولكن مهما يكن من أمر فإننا من خلال ضباب الفجر، وعلى الضوء الباهت سنجد طريقا يقودنا إلى الخلاص.

لأول مرة فى تاريخ الإنسانية تستطيع حضارة متداعية أن تميز أسباب انحلالها، ولأول مرة تجد مثل هذه الحضارة قوة العلم الضخمة تحت تصرفها. ترى: هل ستستخدم هذه المعرفة وهذه القوى؟ إنها أملنا الوحيد فى الفرار من المصير المشترك لجميع حضارات الماضى العظمى. . إن مسيرتنا بين أيدينا فيجب أن نسير قدما فى الطريق الجديد» أليكسى كاريل [1].

---

(١) فى كتابه، «الإنسان ذلك المجهول».

إن سعينا الدائب من أجل تحقيق تقدمنا المادى سيقوم أساسا على الإنسان المتحصن بأخلاق وقيم ومثل الدين . . المتسلح بالعلم والمعرفة . . فى بيئة تحترم وتضمن وتطبق حقوق الإنسان وحرياته وتوفر مستوى لائقا لحياة الفرد ملبية لحاجاته الأساسية . . بذلك يمكننا الاستفادة من قدرات الخلق والابتكار، وميزات إتقان العمل فى ظل الانتماء والشعور بالمسئولية لأبنائنا الذين هم أمل المستقبل فى الوصول بنا إلى مستوى اجتماعى يحقق سعادة الإنسان وخير الإنسان.

ملحق الكتاب

١ ـ الإعلان العالمى لحقوق الإنسان
اعتمد ونشر على الملأ بقرار الجمعية العامة ٢١٧ ألف (د ـ ٣)
المؤرخ فى ١٠ من كانون الأول / ديسمبر عام ١٩٤٨

الديباجة

لما كان الإقرار بما لجميع أعضاء الأسرة البشرية من كرامة أصيلة فيهم، ومن حقوق متساوية وثابتة، يشكل أساس الحرية والعدل والسلام فى العالم.

ولما كان تجاهل حقوق الإنسان وازدراؤها قد أفضيا إلى أعمال أثارت بربريتها الضمير الإنسانى، وكان البشر قد نادوا ببزوغ عالم يتمتعون فيه بحرية القول والعقيدة وبالتحرر من الخوف والفاقة، كأسمى ما ترنو إليه نفوسهم.

ولما كان من الأساسى أن تتمتع حقوق الإنسان بحماية النظام القانونى إذا أريد للبشر ألا يضطروا آخر الأمر إلى اللياذ بالتمرد على الطغيان والاضطهاد.

ولما كان من الجوهرى العمل على تنمية علاقات ودية بين الأمم.

ولما كانت شعوب الأمم المتحدة قد أعادت فى الميثاق تأكيد إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية، وبكرامة الإنسان وقدره، وبتساوى الرجال والنساء فى الحقوق، وحزمت أمرها على النهوض بالتقدم الاجتماعى وبتحسين مستويات الحياة فى جو من الحرية أفسح.

ولما كانت الدول الأعضاء قد تعهدت بالعمل، بالتعاون مع الأمم المتحدة، على ضمان تعزيز الاحترام والمراعاة العالميين لحقوق الإنسان وحرياته الأساسية.

ولما كان التقاء الجميع على فهم مشترك لهذه الحقوق والحريات أمرا بالغ الضرورة لتمام الوفاء بهذا التعهد.

فإن الجمعية العامة تنشر على الملأ هذا الإعلان العالمى لحقوق الإنسان بوصفه المثل الأعلى المشترك الذى ينبغى أن تبلغه كافة الشعوب وكافة الأمم، كيما يسعى جميع أفراد المجتمع وهيئاته، واضعين هذا الإعلان نصب أعينهم على الدوام، ومن خلال التعليم والتربية، إلى توطيد احترام هذه الحقوق والحريات، وكيما يكفلوا، بالتدابير المطردة الوطنية والدولية، الاعتراف العالمى بها ومراعاتها الفعلية، فيما بين شعوب الدول الأعضاء ذاتها وفيما بين شعوب الأقاليم الموضوعة تحت ولايتها على السواء.

المادة (١)

يولد جميع الناس أحرارا ومتساوين فى الكرامة والحقوق. وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضا بروح الإخاء.

المادة (٢)

لكل إنسان حق التمتع بجميع الحقوق والحريات المذكورة فى هذا الإعلان، دونما تمييز من أى نوع، ولاسيما التمييز بسبب العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين، أو الرأى سياسيا وغير سياسى، أو الأصل الوطنى أو الاجتماعى، أو الثروة، أو المولد، أو أى وضع آخر.

وفضلا عن ذلك، لا يجوز التمييز على أساس الوضع السياسى أو القانونى أو الدولى للبلد أو الإقليم الذى ينتمى إليه الشخص، سواء أكان مستقلا أم موضوعا تحت الوصاية أم غير متمتع بالحكم الذاتى أم خاضعا لأى قيد آخر على سيادته.

المادة (٣)

لكل فرد حق فى الحياة والحرية وفى الأمان على شخصه.

المادة (٤)

لا يجوز استرقاق أحد أو استعباده، ويحظر الرق والاتجار بالرقيق بجميع صورهما.

المادة (٥)

لا يجوز إخضاع أحد للتعذيب ولا للمعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية أو الحاطّة بالكرامة.

المادة (٦)

لكل إنسان، فى كل مكان، الحق بأن يعترف له بالشخصية القانونية.

المادة (٧)

الناس جميعا سواء أمام القانون، وهم يتساوون فى حق التمتع بحماية القانون دونما تمييز، كما يتساوون فى حق التمتع بالحماية من أى تمييز ينتهك هذا الإعلان ومن أى تحريض على مثل هذا التمييز.

المادة (٨)

لكل شخص حق اللجوء إلى المحاكم الوطنية المختصة لإنصافه الفعلى من أية أعمال تنتهك الحقوق الأساسية التى يمنحها إياه الدستور أو القانون.

المادة (٩)

لا يجوز اعتقال أى إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفا.

المادة (١٠)

لكل إنسان، على قدم المساواة التامة مع الآخرين، الحق فى أن تنظر قضيته محكمة مستقلة ومحايدة، نظرا منصفا وعلنيا، للفصل فى حقوقه والتزاماته وفى أية تهمة جزائية توجه إليه.

المادة (١١)

١ ـ كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئا إلى أن يثبت ارتكابه لها قانونا فى محاكمة علنية تكون قد وفرت له فيها جميع الضمانات اللازمة للدفاع عن نفسه.

٢ ـ لا يدان أى شخص بجريمة بسبب أى عمل أو امتناع عن عمل لم يكن فى حينه يشكل جرما بمقتضى القانون الوطنى أو الدولى، كما لا توقع عليه أية عقوبة أشد من تلك التى كانت سارية فى الوقت الذى ارتكب فيه الفعل الجرمى.

المادة (١٢)

لا يجوز تعريض أحد لتدخل تعسفى فى حياته الخاصة أو فى شئون أسرته أو مسكنه أو مراسلاته، ولا لحملات تمس شرفه وسمعته. ولكل شخص حق فى أن يحميه القانون من مثل ذلك التدخل أو تلك الحملات.

المادة (١٣)

١ ـ لكل فرد حق حرية التنقل وفى اختيار محل إقامته داخل حدود الدولة.

٢ ـ لكل فرد حق فى مغادرة أى بلد، بما فى ذلك بلده، وفى العودة إلى بلده.

المادة (١٤)

١ ـ لكل فرد حق التماس ملجأ فى بلدان أخرى والتمتع به خلاصا من الاضطهاد.

٢ ـ لا يمكن التذرع بهذا الحق إذا كانت هناك ملاحقة ناشئة بالفعل عن جريمة غير سياسية أو عن أعمال تناقض مقاصد الأمم المتحدة ومبادئها.

المادة (١٥)

١ ـ لكل فرد حق التمتع بجنسية ما.

٢ ـ لا يجوز، تعسفا، حرمان أى شخص من جنسيته ولا من حقه فى تغيير جنسيته.

المادة (١٦)

١ ـ للرجل والمرأة، متى أدركا سن البلوغ، حق التزوج وتأسيس أسرة، دون أى قيد بسبب العرق أو الجنسية أو الدين. وهما يتساويان فى الحقوق لدى التزوج وخلال قيام الزواج ولدى انحلاله.

٢ ـ لا يعقد الزواج إلا برضا الطرفين المزمع زواجهما رضاء كاملا لا إكراه فيه.

٣ ـ الأسرة هى الخلية الطبيعية والأساسية فى المجتمع، ولها حق التمتع بحماية المجتمع والدولة.

المادة (١٧)

١ ـ لكل فرد حق فى التملك، بمفرده أو بالاشتراك مع غيره.

٢ ـ لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفا.

المادة (١٨)

لكل شخص حق فى حرية الفكر والوجدان والدين، ويشمل هذا الحق حريته فى تغيير دينه أو معتقده، وحريته فى إظهار دينه أو معتقده بالتعبد وإقامة الشعائر والممارسة والتعليم، بمفرده أو مع جماعة، وأمام الملأ أو على حدة.

المادة (١٩)

لكل شخص حق التمتع بحرية الرأى والتعبير، ويشمل هذا الحق حريته فى اعتناق الآراء دون مضايقة، وفى التماس الأنباء والأفكار وتلقيها ونقلها إلى الآخرين، بأية وسيلة ودونما اعتبار للحدود.

المادة (٢٠)

١ ـ لكل شخص حق فى حرية الاشتراك فى الاجتماعات والجمعيات السلمية .

٢ ـ لا يجوز إرغام أحد على الانتماء إلى جمعية ما .

المادة (٢١)

١ ـ لكل شخص حق المشاركة فى إدارة الشئون العامة لبلده ، إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يختارون فى حرية .

٢ ـ لكل شخص ، بالتساوى مع الآخرين ، حق تقلد الوظائف العامة فى بلده .

٣ ـ إرادة الشعب هى مناط سلطة الحكم ، ويجب أن تتجلى هذه الإرادة من خلال انتخابات نزيهة تجرى دوريا بالاقتراع العام وعلى قدم المساواة بين الناخبين وبالتصويت السرى أو بإجراء مكافئ من حيث ضمان حرية التصويت .

المادة (٢٢)

لكل شخص ، بوصفه عضوا فى المجتمع ، حق فى الضمان الاجتماعى ، ومن حقه أن توفر له ، من خلال المجهود القومى والتعاون الدولى ، وبما يتفق مع هيكل كل دولة ومواردها ، الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى لا غنى عنها لكرامته ولتنامى شخصيته فى حرية .

المادة (٢٣)

١ ـ لكل شخص حق فى العمل ، وفى حرية اختيار عمله ، وفى شروط عمل عادلة ومرضية ، وفى الحماية من البطالة .

٢ ـ لجميع الأفراد ، دون أى تمييز ، الحق فى أجر متساو على العمل المتساوى .

٣ ـ لكل فرد يعمل حق فى مكافأة عادلة ومرضية تكفل له ولأسرته عيشة لائقة بالكرامة البشرية ، وتستكمل ، عند الاقتضاء ، بوسائل أخرى للحماية الاجتماعية .

٤ ـ لكل شخص حق إنشاء النقابات مع آخرين والانضمام إليها من أجل حماية مصالحه .

المادة (٢٤)

لكل شخص حق فى الراحة وأوقات الفراغ ، وخصوصا فى تحديد معقول لساعات العمل وفى إجازات دورية مأجورة .

المادة (٢٥)

١ ـ لكل شخص حق فى مستوى معيشة يكفى لضمان الصحة والرفاهية له ولأسرته، وخاصة على صعيد المأكل والملبس والمسكن والعناية الطبية وصعيد الخدمات الاجتماعية الضرورية، وله الحق فيما يأمن به الغوائل فى حالات البطالة أو المرض أو العجز أو الترمل أو الشيخوخة أو غير ذلك من الظروف الخارجة عن إرادته والتى تفقده أسباب عيشه.

٢ ـ للأمومة والطفولة حق فى رعاية ومساعدة خاصتين. ولجميع الأطفال حق التمتع بذات الحماية الاجتماعية سواء ولدوا فى إطار الزواج أو خارج هذا الإطار.

المادة (٢٦)

١ ـ لكل شخص حق فى التعلم. ويجب أن يوفر التعليم مجانا، على الأقل فى مرحلتيه الابتدائية والأساسية. ويكون التعليم الابتدائى إلزاميا. ويكون التعليم الفنى والمهنى متاحا للعموم. ويكون التعليم العالى متاحا للجميع تبعا لكفاءتهم.

٢ ـ يجب أن يستهدف التعليم التنمية الكاملة لشخصية الإنسان وتعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية. كما يجب أن يعزز التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الأمم وجميع الفئات العنصرية أو الدينية، وأن يؤيد الأنشطة التى تضطلع بها الأمم المتحدة لحفظ السلام.

٣ ـ للآباء، على سبيل الأولوية، حق اختيار نوع التعليم الذى يعطى لأولادهم.

المادة (٢٧)

١ ـ لكل شخص حق المشاركة الحرة فى حياة المجتمع الثقافية، وفى الاستمتاع بالفنون، والإسهام فى التقدم العلمى وفى الفوائد التى تنجم عنه.

٢ ـ لكل شخص حق فى حماية لمصالح المعنوية والمادية المترتبة على أى إنتاج علمى أو أدبى أو فنى من صنعه.

المادة (٢٨)

لكل فرد حق التمتع بنظام اجتماعى ودولى يمكن أن تتحقق فى ظله الحقوق والحريات المنصوص عليها فى هذا الإعلان تحققا تاما.

المادة (٢٩)

١ ـ على كل فرد واجبات إزاء الجماعة، التى فيها وحدها يمكن أن تنمو شخصيته النمو الحر الكامل.

٢ ـ لا يخضع أى فرد، فى ممارسة حقوقه وحرياته، إلا للقيود التى يقررها القانون مستهدفا منها،

حصرا، ضمان الاعتراف الواجب بحقوق وحريات الآخرين واحترامها، والوفاء بالعادل من مقتضيات الفضيلة والنظام العام ورفاه الجميع فى مجتمع ديمقراطى.

٣ ـ لا يجوز فى أى حال أن تمارس هذه الحقوق على نحو يناقض مقاصد الأمم المتحدة ومبادئها.

المادة (٣٠)

ليس فى هذا الإعلان أى نص يجوز تأويله على نحو يفيد انطواءه على تخويل أية دولة أو جماعة، أو أى فرد، أى حق فى القيام بأى نشاط أو بأى فعل يهدف إلى هدم أى من الحقوق والحريات المنصوص عليها فيه.

قائمة مختارة من المراجع

العربية فقط (الأصلية والمترجمة)

القرآن الكريم

التفسير

الكتاب	المؤلف
صفوة التفاسير	محمد على الصابونى
تفسير الطبرى	الإمام الطبرى
تفسير القرآن العظيم	إسماعيل بن كثير
فى ظلال القرآن	سيد قطب
جواهر القرآن	طنطاوى جوهرى
تفسير المنار	محمد رشيد رضا
التفسير الحديث	محمد عزة دروزة

الكتب العربية

الكتاب	المؤلف
المقدمة العظمى	أبو الفيض المنوفى
كتاب الوجود	أبو الفيض المنوفى
المقدمة	ابن خلدون
الروح	ابن قيم الجوزية
موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية	د. أحمد شلبى
الملل والنحل	الشهرستانى
أسس الفلسفة الحديثة	د. توفيق الطويل
الحضارة الإسلامية	جلال مظهر
تسخير العلم الحديث لخدمة العقيدة	رافع محمد رافع
بين السماء والأرض	سليمان مظهر

القرآن وقضايا الإنسان	د. عائشة عبد الرحمن
اللـــــــه	عباس محمود العقاد
التفكير فريضة إسلامية	عباس محمود العقاد
حقائق الإسلام وأباطيل خصومه	عباس محمود العقاد
الإنسان فى القرآن	عباس محمود العقاد
الإسلام والعروبة فى عالم متغير	د. عبد العزيز كامل
الاستقلال الحضارى	د. محمد عمارة
الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى	عبد الرحمن بدوى
من الآيات العلمية فى القرآن	عبد الرازق نوفل
قضية الألوهية بين الفلسفة والدين	عبد الكريم الخطيب
قصص الأنبياء	عبد الوهاب النجار
اعرف روحك	د. على عبد الجليل راضى
حياة محمد الروحية	د. على عبد الجليل راضى
التفكير العلمى	د. فؤاد زكريا
تجديد التفكير الدينى فى الإسلام	محمد إقبال
أصل الإنسان	د. محمد السيد غلاب
القرآن العظيم	محمد الصادق عرجون
الفكر الإسلامى تقويمه وتجديده	د. محمد عبد الحميد
الإسراء والمعراج والعلم الحديث	محمد أمين جبر
المعرفة عند مفكرى المسلمين	د. محمد غلاب
محاضرات دبلوم الشريعة الإسلامية (كلية الحقوق جامعة القاهرة)	محمد فرج السهنورى
دراسات فى النفس الإنسانية	محمد قطب
رسالة التوحيد	محمد عبده
الطهور المدار على قلوب الأبرار	محمد ماضى أبو العزايم
القرآن والطب	د. محمد وصفى
الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه	د. محمود عثمان
القرآن محاولة لفهم عصرى	د. مصطفى محمود

الكتب المترجمة

الإنسان ذلك المجهول / أليكس كاريل	ترجمة : شفيق أسعد فريد
النظرة العلمية / برتراند راسيل	ترجمة : محمد الحلوجى
مواقف حاسمة فى تاريخ العلم/ جورج سارتون	مترجـــم
حرب أم سلام / جون فوستردالاس	مترجـــم
آباء العلم / جيمز ب. كونانت	ترجمة : د. أحمد زكى
العقل وسطوته/ ج. ب. راين	ترجمة : محمد الحلوجى
التربية فى النزعة الإنسانية/ جوزيه ستيا	ترجمة : شفيق أسعد فريد
أصل الأنواع / تشارلز دارون	ترجمة : إسماعيل مظهر
وسائل خاصة / ف. بيتراركا	مترجـــم
العلم يدعو للإيمان / أ. كريس موريسون	ترجمة : محمود صالح الفلكى
العلم والحياة الأخلاقية / ماكس أوتو	مترجـــم
علم الشخصية/ ماير ماكسون	مترجـــم
البيريسترويكا / ميخائيل جورباتشوف	ترجمة : حمدى عبد الجواد
القرآن والإنجيل والتوراة والعلم/ موريس بوكاى	مترجـــم
علم التاريخ / هورنشو	مترجـــم
قصة الحضارة / ويل ديورانت	مترجـــم

مراجع أخرى

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم	محمد فؤاد عبد الباقى
قاموس محيط المحيط	بطرس البستانى
قاموس لسان العرب	ابن منظور

المحتـــويـــات

رقم الإيداع ٣٦١٣/٩٩
الترقيم الدولى X - 0533 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

دار الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص. ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص. ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)